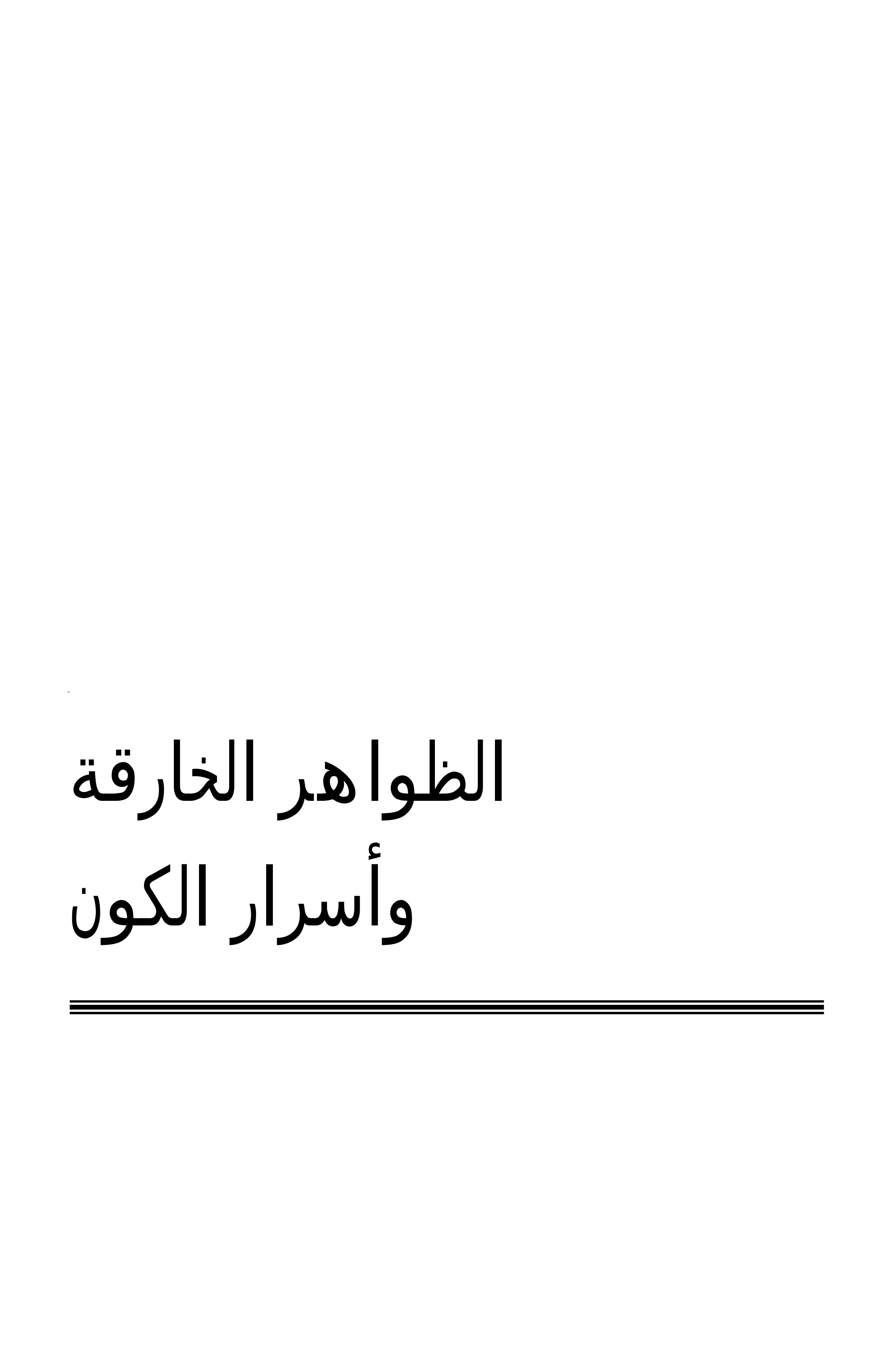


الظواهر الخارقة
وأسرار الكون

الظواهر ا   ارقة
وأسرار الكون

تأليف: ن. ن. نيبومنيشي

أ.ي. نيزوفسكي

/الظواهر الخارقة وأسرار الكون/

ترجمة: لجنة الترجمة في دار رسلان.

تأليف: ن.ن.نيبومنيشي

أ.ي.نيزوفسكي

سنة الطباعة: ٢٠١١.

عدد النسخ:١٠٠٠ نسخة.

الترميز الدولي: (ISBN) 978-9933-439-73-6

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف:٠٠٩٦٣١١ ٥٦٢٧٠٦٠

تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

أسرار الأرض والكون

سرّ الانفجار العظيم

إن منظر السماء الصافية في الليل، الممتلئة بالنجوم يسحر أي إنسان لم تقس روحه تماماً. ينفتح العمق الغامض للأبدية أمام النظرة الإنسانية المفتونة آخذاً بالإنسان إلى أحضان التفكير بالبداية، ليجد نفسه يقول: من أين بدأ كل ذلك...

إذا قادنا الفضول لأن نمسك مرجعاً أو مقالة علمية ما، فإننا سنجد فيها إحدى صيغ نظرية نشوء الكون ـ وهي ما جرت تسميته ((الانفجار الكبير)). ويمكن تلخيص هذه النظرية على النحو التالي: في البداية كانت المادة مضغوطة في ((نقطة)) واحدة، والتي امتلكت حرارة عالية لدرجة غير عادية، وبعد ذلك انفجرت هذه ((النقطة)) بقوة هائلة. وبنتيجة الانفجار تشكلت من غيمة الجزيئات الدقيقة عالية الحرارة التي انتشرت بالتدريج الذرات، والكواكب، والنجوم والمجرات وأخيراً الحياة. وفي هذه الأثناء يتابع الكون تمدده، ولا نعلم كم سيستمر ذلك: فلربما سيصل إلى حدوده يوماً ما.

توجد نظرية أخرى لنشوء الكون. وحسب هذه النظرية: فإن نشوء الكون، والإنسان والحياة وكل ما في الوجود، ما هو إلا فعل إبداعي قام به الإله المكوِّن الذي بيده كل شيء، والذي لا يمكن للعقل البشري بلوغ طبيعته.

يميل الماديّون ((ذوي العقيدة الراسخة)) عادة إلى السخرية من هذه النظرية، إلا أنه ليس بإمكاننا تجاهلها لأن نصف البشرية تصدق بها بشكل أو بآخر.

خلال تفسير نشوء الكون والإنسان من موقع مذهب الميكانيكية، وباعتبار أن الكون بمثابة مُنتج مادي يخضع بتطوره للقوانين الموضوعية للطبيعة، فإن أصحاب المذهب العقلي يرفضون عادة العوامل غير الفيزيائية، وخاصة عندما يجري الحديث عن وجود عقل كلي أو عقل كوني، وذلك لأن هذا ((ليس علمياً)). حيث أن العلمي هو فقط ما يمكن وصفه بمساعدة العلاقات الرياضية.

إن أحد أكبر المشاكل التي تعترض أصحاب نظرية ((الانفجار الكبير)) تكمن في ذات الوقت في عدم القدرة على الوصف الرياضي أو الفيزيائي لأي من السيناريوهات التي يفترضونها لنشوء الكون. فحسب النظريات الأساسية ((للانفجار الكبير)) فإن الحالة الابتدائية للكون كانت نقطة بأبعاد متناهية في الصغر وبكثافة عالية جداً ودرجة حرارة عالية. إلا أن هكذا حالة تخرج من نطاق المنطق الرياضي ولا يمكن وصفها من خلال علاقات رياضية. ولهذا فإننا لا نستطيع قول أي شيء في الواقع حول الحالة الابتدائية للكون ولن تساعدنا الحسابات في ذلك. ولذلك فإن العلماء أطلقوا على هذه الحالة تسمية ((**الظاهرة الشاذة**)).

وحيث أنه لم يتم حتى وقتنا هذا تجاوز هذه العقبة، فإن المؤلفين يغفلون عموماً موضوع ((الظاهرة الشاذة)) في الإصدارات العلمية لغير المختصين، أما في الإصدارات العلمية المتخصصة والتي يحاول مؤلفوها معالجة هذه المعضلة الرياضية، فإنهم يتحدثون عن ((الظاهرة الشاذة)) باعتبارها شيئاً غير مقبول من وجهة النظر العلمية. يشير ستيفن هوكنغ، بروفسور الرياضيات في جامعة كامبردج و ج.ف.ر إيلّيس بروفسور الرياضيات من جامعة كيب تاون في كتابه ((المقياس الطويل لبنية الفضاء والزمن)): تؤكد النتائج التي بلغناها نظرية أن الكون نشأ منذ عدد منته من السنين. إلا أن نقطة بداية نظرية نشوء الكون ــ المسماة ((الظاهرة الشاذة)) ــ تقع خارج حدود قوانين الفيزياء

المعروفة. في هذه الحالة يجب الاعتراف أنه لتعليل ((الظاهرة الشاذة)) التي هي حجر الزاوية في نظرية ((الانفجار الكبير))، يجب السماح بإمكانية استخدام طرق بحث خارجة عن نطاق الفيزياء المعاصرة.

إن ((الظاهرة الشاذة))، مثلها كمثل أي نقطة بداية أخرى ((لبدء الكون))، تتضمن شيئاً يستحيل وصفه من خلال المقولات العلمية وتبقى سؤالاً مفتوحاً. إلا أنه يظهر لدينا السؤال التالي: **من أين ظهرت ((الظاهرة الشاذة)) ذاتها، وكيف تشكلت؟** إذ أن قضية ((الظاهرة الشاذة)) كما هو معلوم، ما هي إلا جزء من قضية أكبر بكثير، وهي قضية منشأ الحالة الابتدائية للكون. وبكلمات أخرى ـ إذا كان الكون الأول مضغوطاً في نقطة، فما الذي أدى بها إلى هذه الحالة؟ وحتى لو أننا أعرضنا عن ((الظاهرة الشاذة)) التي تتسبب بصعوبات نظرية فإن السؤال يبقى في مطلق الأحوال: **كيف تشكل الكون؟**

خلال محاولات لتجاوز هذه الصعوبة يقترح بعض العلماء النظرية المسماة ((الكون النابض)). وبحسب رأيهم، فإن الكون ينضغط إلى حجم النقطة ومن ثم يتمدد إلى حدود معينة مرة تلو الأخرى إلى ما لا نهاية. مثل هذا الكون ليس له بداية ولا نهاية، والموجود هو دورة تمدد ودورة انضغاط. في هذه الأثناء يؤكد أصحاب الفرضية أن الكون كان موجوداً دائماً وبهذا يتجاوزون بشكل كامل السؤال حول ((بداية العالم)).

بيد أنه لم يتقدم أحد حتى هذا الوقت بشرح مقبول لآلية النبض، **لماذا تحدث عملية نبض الكون؟ ما هي أسباب حدوث ذلك؟** يشير الفيزيائي ستيفن واينبرغ في كتابه ((الدقائق الثلاث الأولى))، أنه في كل نبضة يجب أن يزداد مقدار نسبة عدد الفوتونات إلى عدد النكلونات في الكون مما سيؤدي إلى تخامد النبضات الجديدة. يَخلص واينبرغ إلى أن عدد دورات نبض الكون منتهية، وهذا يعني أنها

يجب أن تتوقف في لحظة ما. وبالتالي، فإن ((الكون النابض)) يملك نهاية، وهذا معناه أنه يملك بداية أيضاً.

ومن جديد نعلق في قضية البداية...

وتأتي النظرية النسبية العامة وصاحبها انشتاين ومعها قضايا إضافية. والقضية الرئيسية لهذه النظرية هي أنها لا تنظر للزمن كما نعرفه نحن. فالزمن والفضاء في نظرية انشتاين موحدان في متسلسلة زمنية ـ فضائية رباعية الأبعاد. حيث لا يمكن في هذه المتسلسلة وصف المادة، باعتبارها تشغل مكاناً محدداً في وقت معين. والوصف النسبي للمادة يحدد توضعها الفراغي والزمني باعتبارها كلاً متكاملاً ممتداً من بداية وجود المادة حتى نهايته. وعلى سبيل المثال، كان الإنسان ليظهر باعتباره كلاً متكاملاً خلال مسيرة تطوره الكاملة من الجنين وحتى الجثة. إن مثل هذا التركيب يحمل اسم ((الدودة الزمنية ـ الفضائية)).

ولكن إذا كنا نحن ((دودات زمنية ـ فضائية)) فهذا يعني أننا مجرد شكل تقليدي للمادة. وليس هناك أي اعتبار لكون الإنسان كائناً عاقلاً. وعندما تأتي النظرية النسبية على تعريف الإنسان باعتباره ((دودة))، فإنها لا تأخذ بالحسبان فهمنا الفردي للماضي والحاضر والمستقبل وإنما تُعنى بجملة من الحالات المستقلة التي يوحدها وجود زمني ـ فضائي. في الواقع، نحن نعلم أننا موجودون في هذا اليوم فقط، في الوقت الذي لا وجود للماضي إلا في ذاكرتنا، والمستقبل في مخيلتنا.

وهذا يعني، أن جميع تصورات ((بداية الكون))، التي تعتمد على النظرية النسبية لا تأخذ بالحسبان استيعاب الزمن من قبل وعي الإنسان، علماً أن الوقت نفسه لم يُدرس بعد بشكل كافٍ.

وأثناء تحليله للنظريات البديلة غير الميكانيكية لنشوء الكون يشير جون غريبين في كتاب ((الأرباب البيض)) أنه في السنوات الأخيرة ظهرت ((جملة من انطلاقات الخيال المبدع للمفكرين، الذين لن نسميهم اليوم رسلاً ولا مكاشفين)). إحدى هذه الانطلاقات الإبداعية أصبحت نظرية ((الثقوب البيضاء))، أو الكوازارات، التي ((تبصق)) في تدفق المادة الأولية مجرات كاملة. والفرضية الأخرى التي قامت اللجنة بمناقشتها هي فكرة ما يسمى **الأنفاق الزمنية ـ الفضائية والمسماة** ((**القنوات الكونية**)). وأول من عبر عن هذه الفكرة كان الفيزيائي جون ويلر عام ١٩٦٢م، في كتاب ((علم التحريك الفراغي))، الذي صاغ فيه المؤلف إمكانية وجود رحلات سريعة وغير عادية وفوق فراغية بين المجرات. والتي كانت ستستغرق ملايين السنين لو أننا تحركنا بسرعة الصوت. إن بعض تصورات ((القنوات فوق الفراغية)) تبحث في إمكانية الاستعانة بها للانتقال إلى الماضي أو المستقبل، وكذلك إلى الأكوان والأبعاد الأخرى.

وكما هو واضح، فإن نظرية ((الانفجار الكبير)) تتعرض لهجمات من جميع الجهات، مما يتسبب بعدم رضى مشروع لدى العلماء الذي يقفون في المواقع المقابلة. وفي الوقت نفسه تزداد الاعترافات في المطبوعات العلمية بشكل مباشر أو غير مباشر بوجود قوى خارجة عن الطبيعة وغير خاضعة للعلم. ويتزايد عدد العلماء، ومن بينهم علماء كبار أصحاب نظريات في الفيزياء والرياضيات، المقتنعون بوجود إله أو العقل الأعلى. من بين هؤلاء العلماء نذكر جورج وايلد وويليم ماكري الحائزين على جائزة نوبل.

لا يمكن أن نختلف في أن الحياة، والحياة العاقلة ضمناً ـ هي دائماً عملية منظمة جداً. هذا ما كتبه و.ف.توبيتسين في ((دفاتر)). ويضيف، إن أساس الحياة قائم على نظام، وعلى جملة قوانين تتحرك وفقها المادة. والموت ـ هو على العكس من ذلك، إنه فوضى، وهو يحدث كنتيجة لانهيار المادة. وبدون

تأثير خارجي، ويجب أن يكون تأثيراً عاقلاً وموجهاً، فإنه لا توجد إمكانية لأي نظام، وستبدأ في الحال عملية انهيار المادة، والتي تعني الموت. وبدون فهم ذلك، أي بدون الاعتراف بفكرة الإله فإنه ليس مقدراً للعلم أن يكتشف السبب الأول للكون الذي نشأ من المادة الأولى (الأصل) بنتيجة عمليات منتظمة، أو كما يسميها الفيزيائيون، قوانين أساسية، غير متغيرة يستحيل وجود العالم بدونها.

إلا أنه يصعب على الإنسان المعاصر، وخاصة الذي نشأ على الإلحاد أن يدخل في وعيه مفهوم الإله، وذلك بسبب قصور تطور الحدس والغياب الكامل لمفهوم الإله. إذا، فهو مضطر للتصديق بـ ((**الانفجار الكبير**)).

بماذا تحدّثت ألواح الصّلصال

قبل ستة آلاف عام وجدت على ضفاف الخليج العربي حضارة السومريين، التي خلّفت العديد من الألواح الطينية المكتوبة بالمسمارية. هذه الألواح أوصلت لنا الخرافات والأساطير التاريخية، والشرائع والوثائق الاقتصادية، والرسائل الشخصية. وقد وجد المنقبون مكتبات كاملة من الألواح الطينية بين خرائب نينوى عاصمة الآشوريين، وفي مدينة كبيرة أخرى في بلاد الرافدين مدينة نيبور. ولكن، فضلاً عن هذه الكمية الهائلة من المعلومات، إلا أنه تبقى مجموعة كبيرة من الألغاز في تاريخ الحضارة السومرية أحد هذه الألغاز مرتبط بنصوص الألواح الطينية.

فحسب الألواح التي تمت قراءة نصوصها، امتلك السومريون معلومات تفصيلية عن الكون والنجوم والكواكب وامتلكوا معارف واسعة في علم الفلك، والرياضيات والطب والتعدين والزراعة. ومنذ ستة آلاف عام مضت كانوا يعلمون أن الأرض تدور حول الشمس. وعلماء الفلك السومريون هم من قسّم السماء إلى اثني عشر برجاً. وكانوا يعرفون جميع كواكب المنظومة الشمسية وتاريخ نشوئها. ونحن نعرف على سبيل المثال، أن أورانوس تمَّ اكتشافه بشكل رسمي في عام ١٧٨١م وبلوتو في ١٩٣٠م.

وتتحدث الألواح الطينية أنه منذ أربعة مليارات عام دخل في نظامنا الشمسي كوكب يحجم الأرض قادماً من أعماق الفضاء اسمه ـ نيبيرو، جرم

سماوي ضال بحجم الأرض. وحسب خبراء ناسا ، فإنه وفقاً لحسابات المعطيات في الألواح الطينية ، فإن الجرم السماوي تحرك بسرعة ٦٥ ألف كم/سا تقريباً. في ذلك الوقت دار حول الشمس (ابسو) كل من عطارد (مومو)، الزهرة (لاهامو)، المريخ (لاهمو)، وكوكب تيامات وتابعه القمر، والمشتري (كيشار)، وزحل (أنشار)، أورانوس (أنو)، ونبتون (أيا) وبلوتون (هاها). ودارت جميعها في مدارات قريبة من الشمس وعكس دوران عقارب الساعة. وعندما دخل نيبيرو المجهول ضمن حدود المنظومة الشمسية وقع في مجال جاذبية الشمس، وخرج بسبب ذلك إلى مدار غير مستقر، وراح يدور وفق عقارب الساعة متأثراً بالحقول المغناطيسية للكواكب الأخرى. وبدورها ، وتحت تأثير الحقل المغناطيسي لنيبيرو بدأت على كواكب المجموعة الشمسية القريبة منه هزات قوية. وقد تأثر كوكب تيامات أكثر من الجميع. فقد بدأت عليه عمليات تكتونيكية قسمت الكوكب إلى جزأين. قُذف أحد الأجزاء مع مرافقه القمر إلى مدار آخر وتابع حياته تحت اسم الأرض. أما الجزء الآخر من الكوكب المدمر فتحطم إلى أجزاء صغيرة شكلت حزاماً من الكويكبات بين المشتري والمريخ.

وماذا عن نبيرو؟ لقد انتقل إلى مدار آخر تحت تأثير القوى الناتجة عن الكارثة التي حلت بـ تيامات، انتقل إلى أبعد مدار وأصبح الكوكب العاشر، الكوكب الأبعد في المنظومة الشمسية. وقد درجت تسميته في أدبيات الخيال العلمي (تبرانسبلوتون).

ربما تكون هذه القصة مجرد أسطورة جميلة؟ ولكن في عام ١٧٦٦ صاغ الألماني عالم الفلك والفيزياء والرياضيات يوهان تيتسيوس المبدأ وقام يوهان بودي عالم الفلك الألماني الآخر بتعليل ما سمي بـ ((مبدأ تيتسيوس ـ بودي)). هذا المبدأ يعين القاعدة التي تحدد مسافات الكواكب عن الشمس ضمن

المجموعة الشمسية وهذا المبدأ يقول بضرورة وجود ((الكوكب رقم ٥))، بين المريخ والمشتري، وهو غير موجود فعليا!.

لقد تبين أن مبدأ ((تيتسيوس ـ بودي)) صحيح بنتيجة اكتشافات كوكب أورانوس، نبتون وبلوتو. وفي عام ١٧٧٢م، عندما كشف بودي نتائج حساباته لم تكن هذه الكواكب معروفة بعد لعلماء الفلك. وفي عام ١٧٨١م تم اكتشاف أورانوس، وهذا يعني أن المبدأ صحيح!. وعندها نشأ السؤال عن الكوكب رقم ٥ للمرة الأولى.

ولقد حدثت أول مناقشة لقضية الكوكب رقم ٥ على نطاق واسع في المؤتمر الفلكي في عام ١٧٩٦م. لقد جد البحث عن ((الكوكب ٥)) وفي ليلة رأس السنة الأولى للقرن الثامن عشر اكتشفه عالم الفلك الإيطالي جوزيبي بياتسي. إلا أنه تبين بعد ذلك أن ما تم اكتشافه لم يكن كوكباً بالمعنى ((الطبيعي))، وإنما جرم سماوي من حجوم صغيرة جداً. وتمت تسميته الكوكب الهش ((تسيريرا)). وفي عام ١٨٠٢م تم اكتشاف ((أخت)) الكوكب ـ بال لادا، وبعد عامين يونونا، ثم فيستا بعد ثلاثة أعوام... وهكذا تبين بالتدريج أن ما بين المريخ والمشتري، ما هو إلا مجموعة من الكويكبات الهشة وليس الكوكب رقم ٥ الذي دلت عليه الحسابات. وبعد فترة وجيزة نشأ السؤال: كيف تشكلت هذه ((المجموعة))؟. كان عالم الفلك الألماني هنريخ أولبرس هو من طرح هذا السؤال بعد اكتشافه بال لادا وفيستا. وهو أول من افترض أن ((الكوكب رقم ٥)) انفجر مخلّفاً هذه الكويكبات والغبار الكوني.

لم يكن أحد يعلم بعد بالألواح الطينية للسومريين التي أخبرت عن الكارثة التي حدثت للكوكب تيامات. بالمقابل كانت الأسطورة الإغريقية التي تتحدث عن فايتون ابن الشمس معروفة جداً في أوروبة. أخرج فايتون وبدون إذن عربة والده الذهبية المشدودة إلى حصانين يطلقان النار، وانطلق في أرجاء السماء، ولكنه لم يستطع السيطرة على الأحصنة المجنونة ولم يستطع

توجيه العربة وفق طريق والده، فأحرق كل ما هو حي على الأرض وتحول هو نفسه إلى رماد. هذا الحدث تسبب بكارثة على الأرض.

في بداية السبعينات تم حساب الكتلة المفترضة ((للكوكب رقم ٥)) وزمن تحطمها وتبين أنه منذ ١٦ مليون سنة مضت. **ولكن ما هو سبب دماره؟** هناك قضايا عديدة مبهمة.

ومنذ أيام أولبرس أطلقوا على الكوكب رقم ٥ المفترض تسميته فايتون. ولكن تبين أن السومريين القدامى عرفوا تسمية أخرى له ـ تايمات. وعرف السومريون أيضاً المُذنب بالكارثة التي حصلت مع فايتون ـ تايمات. وهو ليس العربة الذهبية بل جرم سماوي آخر وهو نبيرو، وهو أيضاً ترانس بلوتون المحتمل. ولقد انتهت جميع المحاولات لاكتشافه دون نتيجة. مع أن هناك إشارات قديمة حول وجود حقل جاذبية غريب لا علاقة له بالكواكب الحالية المعروفة في النظام الشمسي. في الثمانينيات، ومع اقترابها من حدود المنظومة الشمسية بدأت أجهزة الفضاء الأمريكية ((بيونير)) و((فوياجر)) وبشكل مفاجئ بالانحراف عن مساراتها المحسوبة. ولقد أظهرت الحسابات أن الانحرافات ناتجة عن وجود حقل جاذبية صادر عن كوكب مجهول الكتلة، يُفترض تواجده خلف مدار بلوتون وعلى مسافة ٥٠ وحدة فلكية. وفي عام ١٩٩٧ أعلن علماء الفلك الأمريكان أنهم اكتشفوا كوكباً صغيراً يقع على أطراف المنظومة الشمسية. ربما يجب تسمية الجرم الفضائي الذي لم يسمى حتى الآن، نيبيرو واعتباره نيبيرو السومري الكوكب العاشر في المنظومة الشمسية.

إن الكوكب الذي اكتشفه علماء الفلك الفيزيائيون من جامعة كامبرج برقم **1996 TL 66** ذو كتلة كافية وطول قطره العرضاني ٤٩٠ كم. يدور الكوكب حول الشمس وفق مدار اهليلجي، مقترباً نحو الشمس لمسافة

صغرى تساوي ٣٥ وحدة فلكية ومبتعداً عن الشمس لمسافة عظمى تساوي ١٣٠ وحدة فلكية.

(الوحدة الفلكية تساوي مسافة الأرض عن الشمس وتشكل ١٥٠ مليون كم).

وهذا أبعد بكثير من مدارات بلوتون ونبتون. وقد اكتشفت عدة أجرام مماثلة في المنطقة المسماة ((حزام كوبر))، الذي يقع على مسافة بعيدة عن ما يسمى غمامة أورت حيث تتولد المذنبات. إن اكتشاف كوكب صغير على حافة المنظومة الشمسية يمكن أن يبشر بمفاجآت جديدة عديدة.

بحثاً عن سكان المرّيخ

((إن غالبية الكواكب هي بدون شك مأهولة، أما غير المأهولة منها فستصبح مأهولة بمرور الزمن)) ـ هذا ما كتبه إيمانويل كانط في كتابه ((التاريخ الطبيعي المشترك)). وهذا لم يكن رأيه وحده، حول أن كواكب المجموعة الشمسية مأهولة، ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر آمنت بذلك غالبية الوسط العلمي.

حتى أن كريستيان هيوغنس، وهو واحد من مؤسسي علم الفلك الحديث والذي عاش في النصف الثاني للقرن السابع عشر، رسم صورة للحياة الرغيدة على عطارد والمريخ والمشتري وزحل، حيث برأيه، تمتد الحقول الخصبة، ((التي تستمد الدفء من حرارة الشمس الطيبة وترتوي بالمطر والندى المبارك)). ووسط هذه الحقول الخصبة تتجول مخلوقات عاقلة (ذكية) ـ ((**ربما ليست تماماً كالبشر ولكنها مخلوقات حية أو كائنات أخرى من نوع ما تتمتع بالذكاء**)).

لم يكن لدى هيوغنس أدنى شك بأن الأمر كما توقعه: ((إذا كنت مخطئاً في ذلك، فإنني لم أعد أعلم متى يمكنني تصديق عقلي، وسيبقى لي الاكتفاء بدور الحكم المسكين خلال التقدير الحقيقي للأشياء)).

لقد حاز المريخ، وهو الكوكب الأقرب إلى الأرض والذي يشبه الأرض كثيراً من الخارج. حاز على اهتمام خاص من هيوغنس. في عام ١٦٥٩ وبينما

كان هيوغنس يراقب المريخ عبر التلسكوب، أثبت أن المريخ، كما الأرض، يتم دورة كاملة حول محوره خلال ٢٤ ساعة. وهو أول من لاحظ الوجود الدائم ((للبقع)) على سطح المريخ. وقد أظهرت المراقبات اللاحقة أن سطح المريخ يملك مجموعة من المناطق العاتمة والمضيئة، والتي راحوا يسمونها ((صحارى)) و((بحار)). تملك المناطق المضيئة لوناً أحمر ـ برتقالياً، أما العاتمة فهي رمادية اللون، أو زرقاء أو خضراء. لقد افترضوا أنها بحار مريخية حقيقية مملوءة بالماء. وعلى أقطاب المريخ يمكن أن نرى بوضوح قبعات جليدية تماثل المنطقة المتجمدة الشمالية والقارة المتجمدة الجنوبية. ومع تطور البصريات صار المريخ يشد اهتمام علماء الفلك أكثر وأكثر.

وقد تبين أن الجليد القطبي للمريخ يتقدم وينحسر بشكل سنوي، أما ((البحار)) فتغيِّر لونها بشكل فصلي. لقد بدت البحار في فصلي الربيع والصيف زرقاء سماوية ـ مائلة للخضرة، بينما بدت بنيَّة في الخريف والشتاء. في عام ١٨٦٠ أُطلقت فرضية جريئة، وهي أن هذه البحار ما هي إلا غابات حقيقية! إلا أن ((الضجة المريخيّة)) الفعلية بدأت بعد أن اكتشف عالم الفلك الايطالي جوفاني سكياباريلي، في عام ١٨٧٧ أن الصحارى المريخيّة مغطّاة بشبكة خطوط منتظمة تمتد لمئات الكيلو مترات. قنوات! (هل هي قنوات؟) أي إنشاءات صنعية (غير طبيعية) أقامتها كائنات عاقلة....

لقد أقنعت مراقبات سكياباريلي بشكل نهائي كثيرين حول أن المريخ معمور بكائنات عاقلة. وكان عالم الفلك الأمريكي بيرسيفال لوفيل واحداً من أشد المدافعين عن هذه الفرضية. فبعد أن أسس في عام ١٨٩٤ مرصداً لدراسة كوكب المريخ كرَّس بقية حياته بالكامل لمراقبة هذا الكوكب. وبعد أن جمع مادة ضخمة بنتيجة الدراسات صاغ لوفيل نظرية الحياة على المريخ. لقد وجّه الانتباه إلى أن مناخ المريخ جاف جداً (باستثناء المناطق القطبية) وأن المصدر الوحيد للماء على الكوكب عملياً هي القبعات القطبية

التي افترض أنها تتكون من الجليد المائي. وأن ((بحار)) المريخ على الأرجح خالية من الماء، لأنه لو وجد فيها ماء لعكس شعاع الشمس، وهذا الشيء لم تتم ملاحظته، وبهذا الشكل، فإنه ((يتم بفعل الظروف الجوية انتقال الماء إلى منطقة أحد القطبين أولاً، ثم يتجمع عند القطب الآخر بعد ذوبان الجليد، وهذه الحركة المشابهة لحركة النواس هي المصدر الوحيد لترطيب الكوكب)). ولكن، وبصرف النظر عن هذه الظروف القاسية فإنه يوجد غطاء نباتي على المريخ حسب رأي لوفيل، ويدل على ذلك التضخم الفصلي السنوي لتباين المناطق العاتمة التي تنتشر كما الأمواج على سطح الكوكب من قطب إلى آخر خلال ستة شهور مريخيّة. وقد كتب لوفيل عن ذلك قائلاً: ((تُظهر الحياة النباتية نفسها بوضوح وبأكبر قدر يمكن توقّعه)).

إلا أن الحياة بدون ماء غير ممكنة ـ من هنا نشأت ضرورة أن يقيم سكان المريخ نظام ري ضخماً جداً. وقد كان من السهل مشاهدة هذا النظام (القنوات) من خلال التلسكوب.

وقد خَلُص لوفيل إلى ما يلي: ((**على أساس نتائج المراقبة نخلص إلى نتيجة:**

١ ـ إن الكوكب مأهول.

٢ ـ حقيقي لشكل ما من الحياة العاقلة في الوقت الحالي)).

وخلال دعايته النشيطة لوجهات نظره، كتب لوفيل في كتبه: ((المريخ))، ((المريخ وقنواته))، ((المريخ كملجأ للحياة)) وغيرها، كتب حول معاناة شعب المريخ الذي يخوض صراعاً من أجل الحياة على الكوكب الجاف والذي يحتضر. وبفضل لوفيل بشكل خاص تحول شكل ((سكان المريخ)) من صفحات المجلات العلمية إلى وعي الجماهير بعد أن أوجد ((ايليتا)) بواسطة

الكسي تولستوي، ((وحرب العوالم)) بواسطة ويلس ومئات الروايات الأخرى والقصص والأفلام الخاصة بموضوع المريخ.

توفي لوفيل في عام ١٩١٦، لكن نظريته داعبت خيال الإنسانية طيلة النصف الأول من القرن العشرين.

بعد ذلك بدأت النظرية اللوفيلية بالذوبان بتأثير وقائع المعطيات الجديدة تماماً كما هي حال القبعات الجليدية للمريخ. لقد بينت دراسات المريخ التي قامت بها المعدات الفضائية من الأنواع ((مارس))، ((مارينير))، ((فيكينغ))، أن:

- الكتل الجليدية القطبية لا تتكون من الماء بل من ثاني أكسيد الكربون المتجمد.
- المناطق الكاشفة (ذات اللون الفاتح) على المريخ ما هي إلا قطاعات من التربة مستوية نسبياً، ومغطاة بطبقة متراصة من الغبار، أما المناطق العاتمة فهي قطاعات مغطاة بعدد كبير من الفوهات البركانية.
- ((القنوات)) ما هي في الواقع إلا سلاسل من فوهات البراكين المتوضعة بشكل عشوائي.
- ترتبط التغيرات الفصلية للون السطح بعواصف الغبار التي تعصف على سطح الكوكب.
- وعموماً، إن المريخ أكثر شبهاً بالقمر منه بالأرض.

وبالطبع لا توجد أية آثار لسكان المريخ. وداعاً، يا إليتا! ولكن... اكتشفت المعدات الفضائية وصورت على سطح الكوكب مجاري عديدة لأنهار جافة. هذه المجاري غير مرئية من الأرض ولا يمكن أن تكون لها أية علاقة ((بالقنوات)) المزعومة. وهذا يعني أن المياه كانت... حتماً كانت! في عام ١٩٧٦ تم التأكد بشكل نهائي من حقيقة وجود أبخرة الماء في الغلاف الجوي للمريخ. وبنفس الوقت تم التحقق من وجود جليد مائي في منطقة القطب

الشمالي للمريخ. واضح أن كميات كبيرة من الماء ما زالت مخزنة حول المناطق القطبية تحت سطح الكوكب على شكل أراضٍ متجمدة.

ولكن حيث يوجد الماء ـ توجد الحياة. **هل هي موجودة؟ أم أنها كانت، ولكن**.... البحث مستمر. ولكن تبقى العبارة التاريخية التي قالتها شخصية معروفة في عام ١٩٥٧ صحيحة بالمطلق: ((**هل هناك حياة على المريخ، أم لا توجد حياة على المريخ ـ يجهل العلم ذلك!**)).

أسرار القمر

القمر ـ هو الجرم السماوي الوحيد في المنظومة الشمسية الذي وطأته قدم الإنسان. إن مرافق أرضنا هذا متمركز دائماً في عدسات التلسكوب، حيث تجري دراسته من الأرض ومن الفضاء، ولكن، باعتراف العلماء، فإن معارفنا حول القمر خلال الأربعين عاماً الماضية لم تزدد كثيراً، ولم ينخفض عدد الألغاز المحيطة بهذا الكوكب، بل على العكس من ذلك، تزايد العدد.

وبانتهاء البرنامج الأمريكي ((أبوللون)) بات الناس يتناسون القمر بهدوء ـ لقد اتجه علم الفضاء نحو مجالات أخرى. في هذه الأثناء راح القمر ذاته يلقي على العلماء ألغازاً غير قابلة للحل. لقد تسبب الحادث الذي جرى للمسبار الآلي ((كليمنتيا)) والذي كان قد أُطلق في كانون الثاني عام ١٩٩٤، وهو نتاج مشترك لوكالة ناسا والبرنامج الحربي الذي انتهى بسلام (المبادرة الدفاعية الإستراتيجية)، والذي كان يعرف أكثر ببرنامج ((حرب النجوم)).

تهدف مهمة المسبار ((كلمنتيا)) إلى اختبار التصاميم التقنية المتقدمة، وعلى الأخص ـ أجهزة القياس ذات الحساسية العالية جداً.

لقد قام المسبار ((كلمنتيا)) بتصوير سطح القمر من ارتفاع ٤٠٠ كم وبعد ذلك تحرك باتجاه الكوكيب السيار /١٦٢٠/ وأثارت الصور المرسلة من قبل المسبار إلى الأرض دهشة في الوسط العلمي: في قاع عدة فوهات بركانية متوضعة في النصف الجنوبي للقمر، يحتمل، تواجد .... مياه متجمدة.

كانت هذه مفاجأة ـ إذ لطالما اعتُبر القمر جرماً ميتاً، وبدا أن ظروف القمر تلغي إمكانية تشكل الجليد، وتكمن القضية في أن الأيام القمرية أطول بـ ٢٨ مرة من أيام الأرض. وخلال هذه الفترة بالكامل يكون سطح القمر مضاءً بالشمس، زد على ذلك أنه لا يوجد غلاف جوي للقمر، ويمكن أن تصل درجة الحرارة على سطحه إلى ١٢٢ درجة مئوية.

فكيف للجليد أن يتشكل في هذه الحالة؟! ولكن الصور الملتقطة من قبل المسبار ((كلمنتيا)) تشير إلى أن الجليد يمكن أن يختزن في تلك الأماكن، التي لا تصلها أشعة الشمس، على سبيل المثال: في قاع بعض الفوهات البركانية العميقة.

يوجد في النصف الجنوبي للقمر. فوهة بركانية ضخمة يبلغ قطرها ٢٥٠٠ كم وعمقها ١٢ كم، أضف إلى ذلك أن قاع هذا الحوض الضخم يحتوي تجاويف بأعماق أقل... وفي هذه التجاويف تم اكتشاف آثار ما يميل العلماء لاعتباره جليداً.

ولكن من أين للماء أن يكون على القمر؟ هناك رأي يقول بأن الماء يمكن أن يكون قد وصل إلى القمر مع النيازك التي سقطت على سطح مرافق الأرض عبر مليارات السنين، وقد تبخر قسم من هذا الجليد منذ زمن بعيد وحفظ القسم الآخر في قاع الفوهات البركانية. ولكن الماء المفترض وجوده على القمر ـ هو واحد من ألغاز هذا الكوكب.

حدد خبراء ناسا خمسة أسرار رئيسية للقمر، والتي سيعمل العلم على حلها في السنوات المقبلة:

كيف أصبح القمر مرافقاً للأرض؟؟؟

أي تاريخ للقمر؟؟؟

متى وكيف ظهرت الفوهات البركانية؟؟؟

أي تاريخ لفضاء القمر؟؟؟

ما هي ألغاز المجموعة الشمسية التي لها علاقة بالقمر؟؟؟

يمكن أن نلاحظ أن هذه الأسرار مرتبطة بشكل أساسي بماضي القمر، وماذا يمكن القول عن مستقبل هذا الكوكب التابع للأرض؟؟؟.

....وكأن الناس والبيوت والأشجار وصخوراً بكاملها قد اقتلعت من مكانها بإعصار قوي ليس له مثيل، وسقطت وانهارت وتناثرت هباءً، دون ترك أثر خلفها، ومع أن الكوكب نفسه بقي سليماً، وخلال بضع لحظات لم يبق عليه أي من الكائنات الحية، التي اعتنت بها الطبيعة لملايين السنين.

أمام هذا الطوفان الشامل لن يستطيع أحد أن يصمد، بصرف النظر عن نوع الوسائط الفنية التي يمكن أن يستخدمها.

في مواجهة هذه الكارثة تزول حتى الأهوال، التي جاء وصفها في أهوال يوم النشور، حيث يقترب سكان الأرض منها يوماً بعد يوم. ويصدر هذا الخطر من... القمر مرافق أرضنا. كان تأثير القمر على الحياة الإنسانية موضوع بحث العلوم التقليدية وغير التقليدية. لقد اعتدنا على اعتبار القمر مرافقاً طبيعياً للأرض، وليس له أي تأثير على أقدارنا.

إنه كوكيب صحراوي صغير، وسطحه مغطى بفوهات بركانية، وهو يدور حول الأرض، متأثراً بقانون الجاذبية، فماذا يمكن أن يهددنا؟

يبعد القمر عن الأرض مسافة ٣٨٤ ألف كيلو متر، ويبلغ قطره ٣٤٧٦ كم، وهو أصغر من قطر الأرض بأربع مرات، ولكن ليست الأرض وحدها من يجذب القمر، إنما القمر أيضاً يجذب الأرض طبقاً لكافة القوانين الفيزيائية، وبالنتيجة فإن القمر يدور حولنا، ونحن ندور حوله وكلا الكوكبين مرتبطان ببعضهما دون انفصال.

وبالرغم من أن وجود القمر يشكل شرطاً ضرورياً لتثبيت الأرض ضمن النظام الشمسي، فإن أجر هذه الخدمة ـ موت حتمي لكل ما هو حي على هذه الأرض، والتي سيقوم بها في يوم ما هذا الكوكب ـ القزم.

أما سلاح القتل فهو... قوة جاذبية القمر الضئيلة جداً.

عندما يسبح القمر فوق رؤوسنا، فإنه يجذب إليه كل شيء يقع في حقل جاذبيته.

وأكثر ما يظهر هذا التأثير من خلال المد والجزر في المحيطات، يجذب القمر إليه كتلة ضخمة من المياه وعندها يحصل الجزر.

وعندما يدور القمر في المدار ويبتعد عن الأرض ((ويطلق)) المحيط من حقل جاذبيته يبدأ المد، وهكذا دواليك.

ولكن الذي يبدو لنا وكأنه حركة طبيعية للمياه هو في الحقيقة حركة الأرض، فعندما يمسك القمر المحيط الهائج ضمن حقله، تستمر الأرض بالدوران حول محورها، ولذلك ليس الماء هو الذي يتحرك نحو اليابسة، ولكن على العكس ـ فاليابسة هي التي تتحرك نحو الماء. ومع كل مرة عندما يجذب القمر إليه محطاتنا، فإن الأرض التي تدور مجبرة على التغلب على قوة احتكاك الجبال المائية المتشكلة على سطحها. ومع كل هكذا إجهاد تفقد الأرض سرعة الدوران حول محورها، ولن تعود أبداً لتكتسب السرعة السابقة.

لقد اكتسبت الأرض نبضة دورانها من حقل جاذبية الفضاء منذ أربع إلى خمس مليارات سنة مضت، عندما تشكل للتو النظام الشمسي من غيوم الغاز والغبار الكوني الدائرة بشكل جنوني.

لقد فقدت الأرض على مر الزمن كثيراً من سرعة دورانها، التي كانت قد اكتسبتها في المرحلة الأولى لتطورها. ولا يتم تعويض ما تفقده الأرض من طاقة.

يشكل تباطؤ دوران الأرض الناتج عن تأثير القمر ٠,٠٠١٦٤ ثانية/يوم، ويجري هذا الكبح منذ عدة مليارات سنة. وبالنسبة لكوكبنا الذي يتباطأ ويتباطأ دورانه حول محوره، فإن هذا الكبح يتزايد خطره على الأرض شيئاً فشيئاً. قبل مئتي مليون عام عندما عاشت الديناصورات على الأرض، كانت السنة الأرضية ٣٨٥ يوماً، فمن المعروف أن زمن دوران الأرض حول الشمس يتغير بشكل أبطأ بكثير، ولهذا السبب كان اليوم أقصر وامتد لـ ٢٣ ساعة فقط. ولهذا السبب فإن السنة امتدت لـ ٤٠٥ أيام، واليوم لـ ٢١ ساعة ونصف منذ ٤٠٠ مليون سنة، عندما كانت النباتات في بداياتها على وجه الأرض، وكلما هرمت الأرض، أصبح يومها أطول، فالأرض المكبوحة من قبل القمر، يتباطأ دورانها باستمرار حول محورها.

الآن ومع كل يوم تقترب ساعة القدر، عندما يضغط مرافق أرضنا على المكبح بشكل نهائي. ولفهم كيف سيبدو ذلك، تذكروا شعوركم عندما يضغط سائق باصٍ مملوء بالركاب ويسير بسرعة كبيرة، فجأة على المكابح ويسقط كل من في الباص في كومة...

تُرى هل سيستطيع شيء ما أو أحد ما الصمود عندما ستُقتلع من أماكنها الجبال والمحيطات بفعل هذا الكبح المفاجئ.

يحتل القمر أحد المواقع المركزية في الأسرار الغيبية... بعض المستبصرين، الذين يتمكنون من زيارة القمر خلال جلسات التنجيم يؤكدون أن هذه المسافة الصغيرة بين القمر والأرض هي التي تسمح لنا برؤية أقاربنا الميتين خلال نومنا. ويؤكدون كذلك أن هذا الكوكب كثيراً ما ((يهاجمنا))

عندما يكون بدراً، حيث يملك القمر خلالها أعظم قوة جاذبية، وأن شبح القمر قادر على قتل أقوى الأجسام. وقد حدث ذلك غير مرة. وفي أغلب الحالات داهم القمر ضحاياه أثناء نومهم، حيث تكون أجهزة الدفاع عن الجسم أضعف ما يمكن. كثيراً ما تتكرر آلام الرأس وأعراض الروبصة عندما يكون القمر بدراً. ولذلك يجب الابتعاد عن التجوال مساءً عندما يكون القمر بدراً وكذلك يجب إغلاق النوافذ بالستائر بإحكام أثناء النوم، للحؤول دون دخول ضوء القمر إلى الغرفة. وينصح كذلك في هذه الليالي بوضع نوع ما من دروع الطاقة قرب السرير، كأس من الماء مثلاً. وحسب تصور غالبية التعاليم الغيبية، فإن القمر سيصبح الكوكب التالي الذي ستزدهر عليه الحياة، ولكن ليست بشكل فيزيائي وإنما بشكل روحاني. وحتى ذلك الحين فإن القمر يتحضر لهذا الدور، إذ يجب عليه أن يركز في نفسه أكبر قدر من الطاقة. وتعتبر الأرض وما يحدث عليها من أعمال حياة وموت أحد المصادر الرئيسية لهذه الطاقة.

وخلال حياة الإنسان يسيطر القمر على تصرفاته وأعماله، إذ يعتبر تحريض القمر دافعاً ((مسبباً)) لكثير من الأحداث على الأرض.

وحتى في الحالات العادية لسنا قادرين دائماً على التحرر من تأثير القمر. فمحرضات القمر قادرة على دفع الإنسان للقيام بأفعال غاية في الدناءة، كأن تدفعه للقيام بجريمة أو سرقة، وبنفس الوقت يمكن لها دفعه لتنفيذ أعمال بطولية والتضحية بنفسه لأجل الآخرين. حتى أن الأعمال العادية تتم في أغلب الأحيان تحت تأثير القمر.

((حسناً ـ قل لي: إذا كان الإنسان يقوم بجميع تصرفاته تحت تأثير القمر فأين إذاً هو؟ أين الذات الإنسانية؟ أين إرادتها الحرة؟))

إنه سؤال مشروع، إذا استطاع الإنسان أن يطور في نفسه قوة روحية كافية وإرادة، وإذا كرس حياته الأرضية بالكامل من أجل الارتقاء الروحي، فإنه سيتمكن بشكل جزئي أو كامل من التحرر من سلطة القمر. وفي هذه الحالة فإنه سيفلت بعد الموت من المحن المزعومة. (سيئة الصيت).

إذا خضعت روح الإنسان طيلة حياته الأرضية للشهوات، وإذا عاش الإنسان سابحاً كالقشة في التيار، فإن....

في لحظة الموت تغادر جسم الإنسان الطاقة المعروفة باسم الروح، هذه الطاقة تنجذب من قبل القمر كمغناطيس كهربائي ضخم.

تحتفظ الأرواح التي تسقط على هذا الكوكب بجزء من المعارف والذاكرة المتراكمة في سنوات الحياة الفيزيائية. وبما أن هذه الأرواح، شئت أم أبيت، كانت تخص سكان الأرض وهي مثقلة بالذنوب الأرضية التي كانوا يميلون إليها خلال حياتهم، فإنهم على القمر مجبرون على الدخول في دورة حياة أطول بكثير من حياتهم الأرضية على الأرض، وتطوير قواهم الروحية. إنها عملية صعبة جداً، ولكن بما أن الروح لم تمارس ذلك خلال الحياة الأرضية، فإن عليها عبور هذا الطريق على القمر، ولكن في ظروف أكثر صعوبة. وتبقى الروح على القمر تعيش حياة رتيبة لا سبيل للخروج منها إلا بالارتقاء الروحي (يسمى خروج الروح من الحياة المادية على الأرض بالموت).

وهذا ما نسميه التطهُّر ـ وهو شكل من الحياة يسبق رحلة الروح في رحاب الكون.

لغز كامبو . دل . سيلو

لقد اعتبر الناس على مر العصور أن للأرض تابعاً هو القمر. وفقط منذ فترة قصيرة ظهرت معلومات حول أن القمر ليس التابع الطبيعي الوحيد لكوكبنا.

وكان ممكناً إيجاد معلومات في الأساطير القديمة حول سقوط جسم فضائي ما. ويرى بعض الباحثين في هذا الحدث تفسيراً لسر أطلنطا الأسطورية.

تقع في شمال الأرجنتين منطقة كامبو ـ دل ـ سيلو ((الحقل السماوي)). وتذكرنا هذه التسمية بالأسطورة الهندية القديمة، التي تتحدث عن أن كرة نارية مجهولة سقطت من السماء في هذا الموقع بالتحديد. ويؤكد المؤرخون القدامى أن الغزاة الأسبان وجدوا في كامبو ـ دل ـ سيلو قطعة حديد هائلة، والتي استخدموها لصنع السيوف والرماح.

وفي عام ١٥٧٦ عثر الأسباني ايرمان ميكسيكا دي ميرافال بين المستنقعات المنخفضة في غران ـ تشاكو، على بعد ٥٠٠ ميل شمال سانت ـ في، عثر على كتلة حديدية ضخمة. بعد ذلك عاد الأسباني الهمام أربع مرات إلى الكتلة الحديدية ليقتطع منها أجزاءً صغيرة لمختلف الاحتياجات. الرحلة الخامسة والأخيرة إلى الكتلة الحديدية نظمها دون روبين دي سيليس في عام ١٧٨٣م. ولقد قدّر وزن الكتلة بخمسة عشر طناً. لم يبق وصف تفصيلي لهذه الكتلة الغريبة،

ولم يرها أحد بعد ذلك، مع أنه كانت هناك محاولات عدة لإيجادها، وما زال حلم إيجاد هذا الشيء الغامض يداعب خيال الباحثين عن المغامرة.

في عام ١٨٠٣ وفي ضواحي كامبو ـ دل ـ سيلو تم صدفة اكتشاف حجر نيزكي يزن حوالي طن. وأكبر قسم منه حوالي ٦٣٥ كغ تم إحضاره إلى بونيس آيريس وبعد ذلك امتلكه الانكليزي السير بودباين ديريش وأهداه إلى المتحف البريطاني.

هذه الكتلة من الحديد الفضائي ترقد حتى الآن على قاعدة أمام مدخل المتحف. وقد تمت سنفرة سطحها بشكل خاص ليكون ممكناً رؤية بنية المعدن مع ما يسمى ((أشكال فيد مانشتين))، والتي تشهد على المنشأ غير الأرضي للجسم. وقد فُقدت الأجزاء المتبقية من الحجر النيزكي.

في الوقت نفسه ما زال السكان يصادفون أحجاراً نيزكية وأشكالاً حديدية غريبة كتلتها من عدة كيلو غرامات حتى عدة أطنان. والأثقل بينها كان يزن ٣٣,٤ طن. لقد تم إيجاده في عام ١٩٨٠ قرب مكان اسمه غونسيدو.

لقد أراد الباحث الأمريكي المختص بالأحجار النيزكية روبرت هاك امتلاك هذه القطعة لإخراجها إلى الولايات المتحدة إلا أن السلطات الأرجنتينية عارضت ذلك. والآن يعتبر هذا الحجر النيزكي الثاني من حيث الحجم بين الأحجار النيزكية المكتشفة على الأرض، وذلك بعد الذي سمي بـ ((الحجر النيزكي هوب)) والذي وصل وزنه حوالي ٦٠ طناً.

إن الكمية الكبيرة للأحجار النيزكية التي تم إيجادها ضمن مساحة صغيرة نسبياً إنما هي بمثابة شاهد على أنه قبل عدة آلاف من السنين هطل على أرضنا ((مطر من الأحجار النيزكية)). ويضاف إلى هذا الشاهد ما تم إيجاده من فوهات بركانية عديدة في منطقة كامبو ـ دل ـ سيلو. إن ((لمنطقة الأحجار النيزكية)) شكلاً إهليلجياً ممتداً على طول ١٧ كم وعرض ٦ كيلومترات.

وتعتبر فوهة البركان لاغونا ـ نيفرا الأكبر بين مثيلاتها: فهي تمتلك قطراً يصل إلى ١١٥ متراً وبعمق أكبر من مترين.

كامبو ـ دل ـ سيلو كانت بأساطيرها ولُقاها محط اهتمام العالم الأمريكي د.كيسيدي من جامعة كولومبيا. في العام ١٩٦١. وبنتيجة أبحاثه اكتشفت كمية كبيرة من المعادن النيزكية صغيرة الحجم وهي ما يسمى **الهيكساديريت** المتشكل عملياً من الحديد الصافي كيميائياً. ولقد تنبّه العالم خلال ذلك إلى عامل غريب: وهو أن الأحجار النيزكية الضخمة عندما تنفجر في الغلاف الجوي فإن شظاياها تسقط على الأرض وتتناثر على شكل قطع ناقص (إهليلج) بقطر حوالي ١٦٠٠ متر. في الوقت الذي يشكل قطر الحقل في كامبو ـ دل ـ سيلو ١٧ كم.

لقد أثارت النتائج الأولية المنشورة لدراسات كسيدي ضجة كبيرة. وحضر إليه مئات المتطوعين للمساعدة. وبنتيجة بحثهم تم اكتشاف قطع الحجارة النيزكية على مسافة وصلت ٧٥ كم عن ((الحقل السماوي)).

والنتيجة النهائية التي وصلت إليها حملة كيسيدي كانت ما يلي: لقد سقط نيزك هائل على الأرض ولكن ليس من مدار قريب إلى الشمس. وقبل السقوط دار هذا الجرم السماوي وفق مدار إهليلجي قريب من الأرض مقترباً منها بشكل تدريجي. أي أنه كان مرافقاً (تابعاً) طبيعياً ثانياً للأرض لفترة طويلة.

وحسب هذه الفرضية فإن ((القمر ـ٢)) اقترب بشكل تدريجي من الأرض تحت تأثير قوة جاذبية الأرض، قبل أن يجتاز ما يسمى ((حدود روشي)) ويتحطم إلى أجزاء. هذه الأجزاء استمرت بالدوران في مسار قرب الأرض وبعد ذلك دخلت في الغلاف الجوي وبدأت تسقط بالتتالي على سطح الأرض. وبجهود كيسيدي تم إيجاد الهيكساديريتات على مسافة آلاف الكيلومترات إلى الغرب من كامبو ـ دل ـ سيلو على أراضي تشيلي.

ولكن متى حصلت هذه الكارثة الفضائية؟؟؟ إن جذع الشجرة المحروق، الذي تم اكتشافه في مكان الكارثة جاء نتيجة لحريق هائل سببه قصف نيزكي وعمره حوالي ٥٨٠٠ عاماً.

قبل ست أو سبع آلاف عام مضت كان يمكن أن نرى في السماء الصافية فوق الأرض قمرين. وبعد ذلك يحتمل أن حدثت تلك الكارثة التي تحدثت عنها أساطير شعوب كثيرة في العالم: ((سقطت النجوم من السماء، وشطّبت قبة السماء باللهب، وهدرت الأرض واهتزت وتشققت بسبب الضربات. لقد تداعى العالم)).

وبنتيجة هذه الكارثة انتقل محور الأرض بمقدار ٣٠ درجة، وحدثت انزياحات تكتونية وربما انغمرت قطاعات ضخمة من اليابسة. **وربما في سهول كامبو ـ دل ـ سيلو يختفي حل سر أطلنطة؟.**

القارات الأم المنشطرة والمغمورة

إذا نظرنا إلى الخريطة فمن السهل ملاحظة التشابه العجيب بين الخطوط الساحلية لإفريقيا وأمريكا الجنوبية، استراليا وإفريقيا، استراليا وشبه الجزيرة الهندية، وكأنها شظايا جسم واحد متكامل سحبتها قوة غريبة وفصلتها المساحات الواسعة للمحيطات...

من المحتمل أن أول من انتبه إلى تماثل خطوط الساحل الغربي لإفريقيا والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية كان الفيلسوف الإنكليزي فرنسيس بيكون. وفي عام ١٦٢٠ أصدر مراقباته في كتابه ((أورغانون الجديد))، دون أن يقدم أي تفسير لذلك. وفي عام ١٦٥٨ أطلق القس الكاثوليكي ف.بلاسي فرضية أن العالم القديم والجديد كانا في فترة ما قارة واحدة. ولكنها انشطرت بعد الطوفان الشامل. وجهة النظر هذه تم تبينها من قبل المجمع العلمي الأوربي. وبعد مئتي عام، وبالتحديد في عام ١٨٥٨ حاول الإيطالي انطونيو سين در بيلليغريني رسم الوضعية الأولى للقارات ورسم خريطة ظهرت فيها إفريقيا وأمريكا كقارة واحدة.

ويعود الفضل في الصياغة النهائية لفكرة ((انشطار القارات)) لعالم النيازك الألماني ألفرد فيغنر. ففي عام ١٩١٥، وبعد خمس سنوات من البحث أصدر عملاً أسماه ((نشوء القارات والمحيطات))، حيث بين فيه أن اليابسة تشكلت يوماً ما من قطعة واحدة سماها فيغنر ((بانغيا ـ من الكلمة الإغريقية "بان" عام و"غيّا" الأرض)) ومحيط واحد فقط (بانتالاس ـ ومعنى تالاس بالإغريقية "البحر"). وبرأي أ.فيغنر فإن بانغيا (الأرض) ومنذ ٢٥٠ ـ ٢٠٠ مليون سنة مضت وتحت تأثير قوة دورانها انشطرت إلى قسمين منفصلين، والتأثير اللاحق لقوى الدوران باعدت بينهما، وبنتيجة ذلك انزلقت هذه الكتل المتشكلة من الغرانيت على طبقات من البازلت الأكثر كثافة وتماسكاً.

((**خيال بدائي**))! هذا كان قرار غالبية علماء العالم حول فرضية فيغنر. ويرى المنتقدون أن انزلاق الكتل القارية لم يثبت علمياً، وأن فيغنر لم يستطع توضيح سبب انزلاق القارات وطبيعة القوى التي قامت بذلك. وأملاً بإيجاد براهين جديدة لفرضيته اتجه فيغنر في عام ١٩٣٠ إلى غرينلاند وتوفي هناك... وبعد ٤٠ عاماً، وضمن مؤتمر هيئة طوكيو الموحدة لجغرافيا المحيطات، كان هناك اعتراف تام من غالبية الجيولوجيين والجيوفيزيائيين العالميين **بفرضية انزلاق القارات.**

وقد أظهرت الدراسات اللاحقة أن فيغنر كان محقاً بشكل مطلق في كل ما قاله. لقد استطاع تحديد تاريخ انقسام بانغيا (الأرض) ـ ٢٢٥ مليون سنة مضت.

في البداية انقسمت بانغيا إلى قارتين ضخمتين لافرازيا (شمالية) وغوندفانا (جنوبية) والتي قسمت المحيط المشترك بانتالاس إلى المحيط الهادي ومحيط تيتس. وإذا كان الأول ما يزال حتى الآن فإن تيتس انتهى حوالي ٦ ـ ٧ ملايين سنة مضت وبقاياه حالياً هي البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود،

وبحر قزوين، وبحر إيجة وبحر أورال. الانشطار التالي للقارات والناتج عن عمليات تكتونية هائلة أدى إلى ظهور القارات والمحيطات الحالية.

ولكن هل كانت هناك قارات أخرى غير القارات الموجودة حالياً؟

"قال الفتى تيا فاكا:

ـ إن أرضنا كانت في السابق بلداً كبيراً، بلداً كبيراً جداً.

وسأله كوكو:

ـ لماذا أصبح البلد صغيراً؟ أجاب تيا فاكا:

ـ لقد أنزل عليه أوفوكي عكازه. لقد أنزل عكازه على منطقة أوهيرو. ارتفعت الأمواج وأصبح البلد صغيراً..."

إن حديث السكان الأصليين لجزيرة باسخي الوارد في كتاب أ.كوندراتوف ((ألغاز المحيط العظيم))، يعتبره البعض تأكيداً غير مباشر لحقيقة وجود قارة السلام (المسالمين) التي انغمرت قبل ملايين السنين في مكان المحيط الهادئ حالياً. حيث يمكن اكتشاف بقاياها في أمريكا، أستراليا، نيوزيلاندا وفي القارة المتجمدة الجنوبية.

ولكن ما سبب احتفاظ ذاكرة سكان جزر بولينيزيا حتى الآن بأساطير حول الأرض المغمورة بالماء؟ لماذا توجد أساطير حول قارتين افتراضيتين ـ أطلنطا وأركتيدا؟ من الممكن أن عملية موت القارات القديمة انتهت منذ وقت قريب نسبياً واحتفظت بها الذاكرة التاريخية للبشرية...

"لاحظ القائد أن أرضه تغوص في البحر ببطء. جمع خدمه من الرجال والنساء، والأطفال والشيوخ وصعد بهم إلى سفينتين كبيرتين. وعندما بلغوا الأفق رأى القائد أن الأرض بالكامل، إلا جزءاً صغيراً منها كان يدعى ماوري، انغمرت تحت الماء".

يوجد كثير من هذه الروايات وقد سُجلت في جزيرة باسخي وخارجها. علماً أنه غير مرة تردد رأي يقول إن غالبية أبنية جزيرة باسخي هي بقايا حضارة وجدت في زمن ما على قارة السلام (باتسيفيد). الأكاديمي الجيولوجي السوفيتي ف.أ.بروتشيف كتب في العام ١٩٥٦: "يمكن التأكيد أن البشرية بلغت مستوى عالياً من التطور الثقافي في الحزام الدافئ حول خط الاستواء. في الوقت الذي كانت فيه كلتا المنطقتين القريبتين من القطبين مغمورة بالثلج والجليد، وأنه بنيت فيها معابد رائعة للآلهة؛ وأهرامات بمثابة قبور للقياصرة وفي جزيرة باسخي بنيت تماثيل صخرية للحماية من أعداء محتملين. وهنا يبرز سؤال يستدعي الانتباه: **ألم يحدث ذلك نتيجة لموت ثقافات أخرى ومنشآتها بسبب كارثة ما؟** نحتاج هنا لتذكر أن الفترة الجليدية التي شكلت كتلاً هائلة من الثلج والجليد في المناطق المحيطة بالقطبين، والتي ضعفت بالتدريج تحت تأثير الشمس وهذا لم يكن ليمر دون أن يتسبب ببعض الكوارث.

في عام ١٩٩٧ اكتشف الجيولوجيون الأمريكان آثاراً جديدة لقارة السلام. وقد لوحظ منذ زمن أن بعض المقاطع الجيولوجية للآلاسكا وكليفورنيا، والجبال الصخرية لا تتطابق من حيث تركيبها البنيوي مع القارة الأمريكية.

مثل هذه الأشكال غير النمطية يمكن إيجادها كذلك في استراليا، انتراكيتدا وبقية القارات المجاورة للمحيط الهادي.

إن هذه الاختلافات (الشذوذات) الجيولوجية مرتبطة بانقسام القارة الجنوبية غوندوانا، والتي كانت تضم إفريقيا وأمريكا الجنوبية واستراليا وانتراكيتدا وكذلك هندوستان ومدغشقر. جزء آخر من هذه القارة الأم كان اسمه باتسيفيدا، الذي تحطم إلى أجزاء صغيرة. أجزاء من باتسيفيدا "انجرفت" باتجاه القارات الأخرى. وقد أظهرت الدراسات الجيولوجية أنه منذ حوالي مئة مليون عام اتصلت أجزاء كبيرة من باتسيفيدا مع الشاطئ الغربي

من أمريكا الجنوبية والشمالية، في منطقتي الآلاسكا وكاليفورنيا والبيرو. أجزاء أخرى من باتسيفيدا غرقت وجزء منها اتصل باستراليا وانتراكيتدا ونيوزيلاندا.

يرى الجيولوجيون أن باتسيفيدا كانت الجزء الأول الذي "انفصل" عن غوندوانا القديمة، وأن انشطارها جاء نتيجة لعمليات جيولوجية نشيطة حدثت على الكرة الأرضية في منطقة المحيط الهادي حالياً منذ ١٠٠ ـ ١٥٠ مليون سنة مضت.

إن الدراسات حول موت باتسيفيدا تسلط الضوء على قضايا تطور و"انزلاق" القارات، وكذلك على آلية تشكل المحيطات.

نشوء الحياة

هل جاء مصادفة أم أنه فكرة عاقلة؟

لقد تم اكتشاف سر نشوء الحياة على الأرض!.

رفرف هذا الشعار طويلاً على رايات العلم. واعتُبر نشوء الحياة على الأرض بديهياً. وقد قام دارسو هذه القضية برسم وسط بيوكيميائي سحري، والذي ضمنوه نموذجاً بسيطاً بيّن أنه قبل حوالي ٤ ملايين سنة مضت، وبنتيجة عمليات كيميائية طبيعية تولدت الخلايا الحية الأولى من مادة غير حية. وحسب السيناريوهات التي وضعها الأكاديمي السوفيتي أ.ي.أوبارين والانكليزي ج. ب. س. هولدين، فإن هذه الخلايا تشكلت في المحيط الأول على الأرض والذي كان بمثابة مَرَق كيميائي حقيقي. في ذلك الوقت، كان الغلاف الجوي للأرض خالياً عملياً من الأكسجين، وتشكل من غاز الميتان والنشادر والهيدروجين وغاز ثاني أكسيد الكربون.

ومع مرور الزمن بينت الدراسات على الفضاء الكوني أنه بمثابة مرق كيميائي حقيقي وليست هناك حاجة لأي محيط افتراضي: فلقد احتوى الفضاء كل العناصر الضرورية لنشوء الحياة قبل زمن طويل من تشكل الأرض، وذلك من غمامة الغبار الكوني التي كانت تدور حول الشمس. في عام ١٩٨٤ حصلت مجموعة علماء هولنديين، من خلال تجربة نفذوها في كويوسنات هاليومي تؤمن

برودة فضائية وخلاء، على جزيئات عضوية معقدة (مجموعة حموض كربونية، وحمض النشادر والبولة وغيرها...) وهذا يعني أن مثل هذه التراكيب يمكن أن تتشكل بدون أي محيط.

إلا أن القضية ليست حتى في المكان الذي ظهرت فيه أول خلية حية، وإنما في سبب حدوث ذلك، لقد جرت العادة على اعتبار أن نشوء الحياة ما هو إلا نتيجة لتقاطع من نوع خاص بين ظروف عشوائية تماماً، حدثت بسببها عمليات بيولوجية أدت إلى تشكل خلية حية من مادة غير حية...

لنر إذن، هل هذا ممكن. لقد برهن يوتسن وكريك الحائزان على جائزة نوبل، واللذان اكتشفا الشيفرة الوراثية، برهنا أن مضمون هذه الشيفرة يمثل تسجيلاً محدداً (مجرداً). لكننا لا نملك حتى الآن أي تصور حول القوانين التي تشكلت وفقها ((أبجدية)) و((كلمات)) الشيفرة الوراثية وكيف تشكلت الأنواع الكيميائية للدسم الممثل بهذه ((التسجيلات)) وبكلمات أبسط، تتمثل القضية التي أمامنا بما يلي: لدينا حموض أمينية بسيطة - أدينين (**A**)، تيمين (**T**)، غوانين (**G**)، وسيوزين (**C**). من هذه "الحروف" (الحموض الأمينية البسيطة) تشكل "كلمات" من حروف ثلاثة، مثل **ATT**، **CGA**، **GAG** وهكذا. كل من هذه "الكلمات" تمثل جزيئاً من الحموض الأمينية المعقدة العشرين التي تشكل جزيء الدسم. سلسلة من عدة مئات أو عدة آلاف من هذه التراكيب ثلاثية الأحرف تمثل "تسجيلاً" يحدد قوانين تشكل جزيء الدسم هذا. وهنا يتبادر سؤال: **هل تتشكل هذه القوانين عشوائياً؟**

بعد سنوات عديدة من البحوث أجاب على هذا السؤال، ربما الشخص الأكثر معرفة بمشاكل الإنسان وهو فرنسيس كريك نفسه. أول من اكتشف الشيفرة الوراثية، وذو السمعة العالمية بين علماء البيولوجيا: ((لا! هذا غير ممكن!)). وكذلك لا يمكن تصور أن الخلية الحية يمكن أن تتولد بشكل ذاتي وعشوائي بنتيجة تفاعلات كيميائية عشوائية.

حسناً، نسلّم بأن الخلية تكونت. **ولكن من أين هذا التنوع في أشكال الحياة، التي نشأت، كما يفترض، من خلية وحيدة؟.**

وهنا جاءت "نظرية التطور" بمثابة العصا السحرية لزمن طويل بيد أنصار النظرية الطبيعية، والتي وضعها (نظرية التطور) تشارلز داروين في القرن التاسع عشر. وحسب هذه النظرية، فإن التنوع الكبير لأنواع النبات والحيوان التي تعمِّر الأرض هي نتيجة لتغيرات فجائية عشوائية كثيرة جداً، تؤدي خلال آلاف السنين إلى ظهور أنواع جديدة من خلال "حلقات انتقالية". بعد ذلك يأتي الاصطفاء الطبيعي. صراع الأنواع يقضي على بعضها أو يبعده عن الواجهة عندما لا يملك القدرة على التلاؤم مع شروط الحياة في هذه "الأرضية" البيولوجية وضمن هذه الظروف المحيطة، ويسمح في الوقت ذاته بتطور سريع لأنواع تبين أنها أكثر قدرة على التلاؤم والحياة.

إن هذا النموذج الذي ناسب قسماً كبيراً من العلماء طيلة مئة عام مضت يتشقق اليوم ولا يتحمل تدفق الاكتشافات الجديدة. فعلم الحفريات، وبعد أعوام كثيرة من دراسة آلاف المستحاثات المتحجرة لم يجد أي مثال عن "الحلقات الانتقالية". ولم تعرف العلوم الحديثة أي كائن يمكن القول عنه بأنه سيتطور في المرحلة التالية إلى كائن آخر. جميع الكائنات المعروفة الحالية والتي وجدت في الحفريات تختلف عن بعضها بشكل واضح. ولو أن التطور حدث وفق داروين، أي بخطأ صغيرة من التغيرات العشوائية، لكان ممكناً الآن أن نمتع نظرنا بأجمل العجائب: مثلاً، ديك رومي بأرجل تحوي أغشية كما أرجل الإوز ـ ما الذي يمكنك فعله، فلربما احتاج إلى ذلك في حالة حدوث طوفان شمل العالم...

ليس سهلاً على أنصار نظرية داروين كذلك لجهة المنافسة بين الأنواع. فمثلاً، بات معروفاً منذ زمن قريب أن الغابة تملك شبكة خاصة للاتصالات،

شبكة انترنت من نوع خاص، والتي يتم عبرها تبادل المعلومات بين النباتات وأحياناً تبادل الطعام.

هذا الاكتشاف يغير بشكل نهائي هيئة الغابة باعتبارها مكاناً لصراع هادئ، حيث تعيش كل حشيشة فيها حياتها الخاصة وتعتدي باستمرار على جيرانها من النباتات محاولة أخذ جزء من رطوبتهم وهوائهم وضوئهم. في واقع الأمر وكما يؤكد الباحثون البريطانيون والكنديون فإن الأشجار "تتواصل" فيما بينها عبر شبكة اتصالات تحت أرضية، تستعيض عن الأكبال الضوئية أو النحاسية بفطر من أشباه الجذور ينمو على خيوط الجذور ويسمى ((ميكوريزا)).

لقد أثبت العلماء أن هذه الميكوريزات تنقل حتى المواد الغذائية، مع العلم أن الأشجار التي تتم فيها عملية التركيب الضوئي بشكل أنشط (الأشجار ذات الأوراق، مثل الحور)، تقدم "ما يزيد عنها" إلى الأشجار التي يتم فيها التركيب الضوئي بشكل أبطأ.

لقد بينت الدراسات أن الغابة ما هي إلا منظومة اقتصادية متعاونة ومتوازنة، وأن صورة عالم الغابة مليئة بالمفاجآت. لقد تبين أنه لكي تنمو الأشجار الفتية بشكل ناجح تتخلى الأشجار المعمرة لها عن بعض مصادر النمو الضرورية عبر ((شبكة الاتصالات)). تؤمن شبكة الـ (ميكوريز) تحت الأرضية توزيعاً مثالياً للمواد الغذائية بين أشجار الغابة، وهذا هام جداً في حالة جدب التربة. ويتم تفسير عامل التعايش بين الأشجار والفطور بوجود "الشبكة". يوجد في "انترنت الغابة" "قراصنتها" ــ وهي نباتات قصيرة لا تستطيع تأمين نفسها من خلال التركيب الضوئي الذاتي وهي مضطرة للتطفل على الأشجار الكبيرة.

وهكذا، وبدلاً من ((الصراع من أجل البقاء))، والذي يمثل لداروين واحداً من قوى التطور، يسود في عالم النباتات التناغم القائم على تشارك الآحاد المستقلة. لا يوجد حتى اليوم أي عامل يؤكد فرضية داروين حول نشوء أنواع جديدة بنتيجة التراكم العددي لتغيرات انتقالية، ويزداد انتشار فرضية أن تشكل الأنواع يتم على شكل قفزات نوعية وكنتيجة لتغير نوعي يحدث في زمن قصير جداً. ولكن هذه النظرية تولد مجموعة كبيرة من الأسئلة الصعبة. فكيف يمكن بواسطتها مثلاً، تفسير عامل تحول الظبي إلى زرافة؟ فهذه ليست عملية إطالة العنق والأطراف الأمامية، وزيادة الكتلة العضلية، وتقوية الجهاز العظمي. إنه إعادة بناء جهاز التوازن لكي لا ينحسر الدم من دماغ الحيوان عندما يرفع رأسه عن الأرض بشكل حاد إلى ارتفاع ستة أمتار تقريباً. كيف يمكن خلال وقت قصير أن يحدث هكذا تحول معقد، إذا اعتبرناه ((عَرَضياً))؟ يمكن الحديث على الأرجح عن تحول موجّه ومبرمج.

وقد استبعد بشكل نهائي دور ((الحدث الأعمى)) في التطور والرقي، الاكتشاف الذي حدث منذ فترة قصيرة، وهو أن الجزء الأساسي من التغير الفجائي للجينات يتم وفق توجه دقيق، وبعض عوامل التغيرات الفجائية العرضية هي في العادة خلل في النظام ولا تحمل في طياتها شيئاً خلاّقاً! وهكذا، بدلاً من ((الحدث الأعمى)) يتقدم إلى واجهة التطور الفكر العاقل.

لا يعود العالم المحيط بنا مفهوماً ـ إنه مفهوم من وجهة نظر علم الطبيعة في القرن التاسع عشر والذي كان أساساً للعلوم الحديثة. وخلال الأعوام المئة الأخيرة تم اكتشاف كمية هائلة من العوامل الجديدة، ولكن تفسير كثير منها وبناء نظريات ما انطلاقاً منها أمر ليس في مقدور العلم حالياً. بكلمات أخرى، كلما علمنا أكثر، نكتشف مدى جهلنا. ومعروف أنه منذ القدم علم الناس أن الحقيقة مخفية عن البشر، وأن بلوغها ممكن فقط بالحدس.

العقل والكون

ليس لدى الباحثين في الظواهر غير الطبيعية أدنى شك في أن الاختفاء المفاجئ المبهم للناس، والسيارات والطائرات والسفن كما هي حال الصحون الطائرة مرتبط بالانتقال من عالمنا إلى عالم آخر موازٍ (أو إلى كون موازٍ). ويرتبط بهذا الانتقال سر عدد كبير من الألغاز غير الطبيعية.

تنحو العلوم الرسمية لتجاهل هذا التفسير لأنه لا يجتمع في النماذج الفيزيائية الموجودة للأرض والكون وجود متوازٍ لعدة عوالم قائمة بحد ذاتها. ولكن دراسات الدماغ البشري قدمت فجأة نتائج مدهشة...

وطيلة مئات السنين اعتبر أن دماغ الإنسان يعمل كوحدة متكاملة، تفقد خصائصها عند حدوث خلل في بنيتها. وتبين لاحقاً أنه إذا كانت هناك حاجة فإن بعض قطاعات الدماغ تأخذ على عاتقها وظائف القطاعات المتضررة. ولكن ذلك لم يتسبب بتغييرات جذرية في وجهات النظر الخاصة في عمل منظومتنا العصبية المركزية. إلا أن الدهشة العامة كانت عندما تم اكتشاف قدرة الإنسان على الحياة حتى في حالة ضمور أو استبعاد الغدة الصنوبرية (الغدة الدرقية)، وتبين أن جزءاً من دماغنا هو ((دماغ في دماغ)) من نوع خاص.

إلا أن الصدمة الحقيقية حدثت عندما تم تجريبياً برهنة أن فصل الاتصال بين النصف الأيمن والأيسر للدماغ لا يؤثر عملياً على القدرات الوظيفية والعقلية

للإنسان، يمكن بهذه الطريقة أن تداوي حتى مرض الصرع في حال وجوده. لم يستطع أحد حتى الآن إيجاد تفسير عاقل لهذه الظاهرة.

أخصائيا فيزيولوجيا الأعصاب روجر ستري ومايكل غاتسانيغا درسا رد فعل أشخاص عانوا من تخريب مقصود للاتصال بين نصفي الدماغ بهدف الاستشفاء من مرض الصرع. هذه الدراسات دفعتهما إلى فكرة دراسة مستقلة لرد فعل كل نصف من الدماغ على استقبال النماذج البصرية. لقد استفادا من حقيقة أن الألياف العصبية التي تنقل الإشارات من العين إلى الدماغ مبنية بحيث تذهب الإشارة من العين اليمنى إلى النصف الأيسر من الدماغ، والإشارة من العين اليسرى إلى النصف الأيمن من الدماغ.

وقد شاهد الناس الذين أجريت معهم التجارب نماذج على الشاشة:

في البداية من الناحية اليسرى ثم من الناحية اليمنى. وفي لحظة ما، وبدلاً من مشهد يحوي خيالاً ظهرت صورة ـ كتابية: ((من أنت؟)). النصف الأيمن استجاب: ((بيتر سامسون)). وعندما عُرضت اللوحة من الناحية اليسرى، أكد القسم الأيمن ذلك. السؤال التالي كان صوتياً: ((من تريد أن تصبح في المستقبل؟)). النصف الأيمن من الدماغ صاغ الإجابة على النحو التالي: ((متسابق في رالي السيارات)). وأما النصف الأيسر فأجاب: ...((مهندس تصميم))!.

كان العلماء في غاية الدهشة. لقد أظهرت الدراسات أن كلاً من نصفي الدماغ هو بدون أدنى شك شخصية مستقلة. لهذه الشخصية (الذات) أحلامها، ذكرياتها، معارفها ومشاعرها. وينتج من ذلك أن النشاط المتكامل للعقل البشري يتكون من ((عالمين)) مستقلين متساويين في الحقوق. أي كما يحدث ربما في الكون...

إن هذا الاكتشاف الذي وصل إليه علماء فيزيولوجيا الأعصاب أكد بشكل عرضي فرضية قديمة عبر عنها بعض الفيزيائيين والرياضيين وعلماء الفلك الذين وضعوا نموذجهم الخاص للكون، أما بالنسبة للباحثين في الظواهر غير الطبيعية فإن الفكرة تعتبر من الأساسيات. باختصار، بات واضحاً أنه يوجد في دماغ الإنسان عالمان متوازيان على الأقل.

أخصائي فيزيولوجيا الأعصاب بول ماكلين يؤكد في مؤلفاته أن دماغ الإنسان يتألف من ثلاث مناطق مستقلة، ((تغلف)) بعضها بعضاً كما لعبة المتروشكا (الروسية)، وكل منها تعيش ((ساعاتها)) الخاصة. تؤدي دورها مجموعة خلايا عصبية متوضعة في عمق الدماغ والذي يسمى ((نواة التقاطع)). وتبدي النبضات الكهربائية في هذا المكان انتظاماً مذهلاً. يقول أخصائي فيزيولوجيا الأعصاب كولين بلاك مور إنها تذكره بدقات الساعة. ولكن كيف تعمل هذه الساعات دون أن تعيق بعضها بعضاً، و((تدق)) وفق ((رتمها)) الخاص؟ إلا أن بلاك مور يعترف بارتباك أنه لا يستطيع قول شيء محدد. ولكن لن يستغرب أحد إذا ثبت يوماً ما أن كلاً من هذه ((الأدمغة)) القائمة بذاتها يدير جسداً مستقلاً... موجوداً في جسمنا بشكل موازٍ! وليس مهماً ما طبيعة هذا الجسد: فيزيائية، أو نفسية أو جسدية أو روحانية. وفي هذه الحالة فإن إمكانية التجول الذاتي في الحلم على سبيل المثال، لأحد هذه الأجسام في عوالم أخرى تصبح واقعاً علمياً...

لغز آخر للدماغ البشري مرتبط بإمكانية الوعي غير المنطقي، وهو ما يسمى بالحدس. ((لقد قال لي حدسي إنني يجب أن أتصرف على هذا النحو، إلا أن شيئاً ما منعني)). عملياً، جرى لكل منا أن سمع هكذا كلمات: لم يستمع المرء مرة أخرى لحدسه، بل وثق بصوت العقل الماكر، ووقع مرة أخرى في الارتباك...

ولكن ما هو الحدس؟ هذا الصوت الداخلي الخفي الذي يتدخل في تصرفاتنا باستمرار. فالصوت يملي عليك: تصرف هكذا، هذا سيكون

أفضل شكل للسلوك. يهمس الصوت: ثق بهذا الإنسان. أو على العكس من ذلك، يحذرك الصوت: كن حذراً!.

لا يملك وعي الحدس أي شيء مشترك مع قوانين المنطق. يعتمد التفكير المنطقي على جمع المعلومات، وتحليل الوقائع، وإيجاد صلة بين الأسباب والعواقب وصياغة النتائج. أما الحدس فيملي جواباً جاهزاً، ويظهر كأنه من ((وجهة غير مع معروفة)).

((الفكرة الأولى ـ هي الأصح)). هذا المبدأ أصبح منذ زمن بعيد واحداً من الحكم الشعبية غير القابلة للجدل، وقد دخل ضمن الأمثال والأقوال المأثورة. إن ((هذه الفكرة الأولى الصحيحة نفسها)) في واقع الأمر ما هي إلا بصيص الحدس، الذي يشير إلى الاتجاه الصحيح. أما ما أحاط به الشعب منذ زمن بعيد بالطرق التجريبية وأصبح يتعامل به فإنه قد بات يتأكد في الآونة الأخيرة من خلال تجارب علمية. ولقد ثبت أن الناس، الذين يمتلكون حدساً متطوراً، لديهم القدرة على إيجاد طريقهم في أعقد الحالات واتخاذ قرارات صحيحة وسريعة. في بعض التجارب، اقتُرح على مجموعات الخاضعين للتجربة تنفيذ مختلف المهام: إجراء عمليات حسابية، ترتيب كلمات، التعامل مع الصور، وقد احتوت كل مهمة على نقص ما في المعلومات وكان على المختَبَرين ((ترميم)) هذا النقص. وقد أظهرت النتائج أن أولئك الذين اعتمدوا الطرق المنطقية فشلوا حتماً. بعض المختَبَرين حاول حل المهمة ((بطريقة التوقع)). وقليلون فقط توصلوا إلى النتيجة بواسطة الحدس.

يربط العلماء التفكير الحدسي بنصف الدماغ الأيمن. وهذا يجب أن يشير إلى أن الأعسر (النصف الأيمن من الدماغ "سيحسد" الناحية اليسرى من الجسم، وبالعكس) يجب أن يملك حدساً أكثر تطوراً. وبالفعل! في الاختبارات العديدة على الحدس أظهر العسران نتائج أفضل من الغالبية ((اليمينية)). ومنذ زمن ليس بعيد كان الشخص الأعسر يعتبر ممن يعانون من تشوه خلقي، وكان

أهلـه يحـاولون تـصحيح هـذا الوضـع بواسـطة الطـب، أمـا الأطفـال ـ العـسران الـصغار ـ فقـد ((ربـوهم)) بجدية علـى العـادات ((اليمينيـة)). لقـد كـان الوالـدان قلقـين مـن أن لـديهم أطفـالاً ((مـشوهين)). وهنـا نـشير إلى أن ليونـاردو دافنـشي العظيم كان أعسر، وهذا لم يُعِقه من رسم ((الجوكندا)).

ونحـن في الحقيقـة نعـيش في حـضارة ((يمينيـة)). وقـد تمـت ملاءمـة جميـع الوسائل المحيطـة بنـا للاسـتخدام باليـد اليمنـى. وعلـى نظـام التربيـة والتعليم أن يطوِّر لدينا النصف الأيسر من الدماغ ـ أي المنطق، والتفكير العقلاني. ((فقط بدون مسلّمات، يرجى الاعتماد على المعطيات)). إنها العبارة الجافـة الـتي تمثـل شعاراً من نوع خاص للحضارة ((اليمينية)).

أما التفكير الحدسي فيتراجع إلى غياهب الوعي....

لماذا حدث الأمر على هذا النحو؟ ألا تحـوي الطبيعـة الإنـسانية بدايـة روحيـة كمـا حـوت بدايـة عقليـة. وطريقـة الإدراك الروحـي الـتي تحـض علـى تطويرهـا جميـع ديانـات العـالم تـسمى طريقـة حدسـية. أمـا الـتفكير المنطقـي فهـو مـادي صـرف وهـو أسـلوب الوجـود في ((هـذا العـالم)). لا أحـد ينفـي الحـاجة لـه. ومـع هـذا فإن ((**مملكتي ليست من هذا العالم...**)). هل تذكرون قائل هذه الكلمات؟

ولذلك، فإن الحدس باعتباره طريقة الإدراك الروحي هو في مرتبـة أعلـى مـن المنطق والتفكير العقلي بكثير. غير أن العمل الطويل لطرد البدايـة الروحيـة مـن حيـاة الإنـسانية أدى إلى أن الـتفكير المنطقـي سـيطر في وعـي المجتمـع وأصـبح الطريقة الرسمية الوحيدة للإدراك. ومنـذ ذلـك الوقـت دخلـت البـشرية في المـأزق، الـذي مـا تـزال تتخـبط فيـه إلى وقتنـا هـذا. إن مـشاكل حـضارة المنطـق مـثيرة للاشمئزاز، والتناقض في الأفكار الناتج عنها كبير لدرجة أن كثيرين يعتـبرون أن المخرج الوحيد من هذا المأزق سيكون ((نهايـة العـالم)) المزعومـة. مـن الـسهل تفسير هذه المخاوف: إن التطوير أحادي الجانب للدماغ (الجانـب الأيمـن) لا يعتـبر

متناغماً وسيؤدي في نهاية الأمر إلى الانحراف في كل شيء ـ في الفكر والروح والقلب وفي السلوك العام والرؤية العامة للكون.

الألفية الثالثة ستصعب دون ريب القضايا التي ينبغي على البشرية حلها مرات عديدة، وستتطلب الاستعانة بقوى جديدة لحلها. ومن الواضح أنه بوجود التفكير المنطقي الذي وصل إلى درجة القدسية لن يمكن حل هذه القضايا. ولحسن الحظ بات الناس في الآونة الأخيرة يعترفون بأن التطور اللاحق للإنسانية غير ممكن بدون التطور التناغمي لجميع الإمكانيات الإبداعية التي يملكها الإنسان. ولتحكموا بأنفسكم: **أليس الإنسان كائناً متناسقاً بشكل مدهش. فهل من الطبيعي أن يعمل في هذا الكائن النشيط جزؤه الأيمن فقط؟**

نذكر هنا بعض ثقافات القرون القديمة والوسطى ونخص السلافية الأولى، كانوا يستخدمون كلتا اليدين ـ كان الناس قادرين على العمل بكلتا اليدين ولعب نصفا الدماغ دوراً هاماً بشكل متكافئ.

لقد قدم العقل والحدس، كلٌّ في مجاله، خدمات متساوية للناس في إدراك هذا العالم المتناهي التعقيد.

نتذكر عدد المرات التي سمعنا فيها دعوات لدراسة واكتشاف وتحقيق الإمكانيات الخفية للإنسان. **ولكن أين تختفي هذه الإمكانيات؟** إنها طبعاً في النصف الأيمن من الدماغ، المسؤول عن الجانب الأيسر للجسم! هنا يقع مصدر الحدس، وكذلك البصيرة، والصفاء وجميع الظواهر التي درجنا على تسميتها ((بالظواهر غير الطبيعية)) في حضارتنا ((اليمينية)).

ولذلك، ومهما كانت المخاوف من نهاية العالم، فإن الإنسانية تملك احتياطات هائلة. تتركز هذه الاحتياطات في منطقة الحدس ـ هذه المنطقة التي ستعود إلى الإدراك الروحي، إلى معرفة الله.....

بحثاً عن أب البشر

(آدم أم القرد)

عندما كانت قبيلة الديناصورات الجبارة ما تزال تحكم الأرض، سعت بين أقدامها حيوانات ضعيفة وصغيرة تغذي أطفالها على الحليب. ولقد أزفت ساعتها سريعاً: فلقد انقرضت الديناصورات بسبب تغير المناخ على الكوكب أو لأسباب أخرى، وتقدمت الحيوانات ((الضعيفة)) ذاتها، التي تتغذى على الحليب، لتحتل الصدارة في التطور والرقي وتعمر الأرض بأنواع مختلفة منها اللاحمة ومنها العاشبة. وعلى حدود المالكين الجدد للكوكب ظهر واحد من أكثر الأنواع ضعفاً ـ صغير الحجم، لا يملك أنياباً حادة ولا مخالب، وليس له حوافر أو جلد سميك، كما أنه لا يستطيع العدو بسرعة وبدون أنياب قوية.

إلى أين سيلجأ الضعيف؟ واضح أنه سيبتعد عن أعين الأقوياء، إلى الهضاب الصحراوية الجبلية، إلى الأماكن الفقيرة بالغذاء، حيث لا وجود للوحوش الكبيرة، وحيث تجبره الظروف المعيشية إلى البحث الدائم، ليصبح من آكلات كل شيء، يقتلع الجذور من الأرض ويأكل الحشرات الصغيرة والقوارض. وهكذا بدأ تشكل وتطور الإنسان البدائي الذي أصبح ((**مادة أولية**)) **لظهور الإنسان العاقل.** لقد أجبرت الظروف المعيشية القاسية الإنسان الأول على تطوير أصابع ـ وتحولت المخالب غير المفيدة إلى أظافر، كما كان

على الإنسان أن يقف على طرفيه الخلفيين ليرى فريسته. وطلباً للنجاة في هذا الصراع المستمر توحد الإنسان الأول ضمن مجموعات، ما لبث أن تعلم ضمنها أساليب التواصل ليتفاهم مع أخيه الإنسان. ولهذا الهدف كان لا بد من تطوير المخ لدرجة معينة...

وهكذا، فإن النوع الضعيف، الذي بدا وكأنه محكوم بالانقراض، استطاع أن ينجو ويواجه بقية العالم الحيواني بنظام معيشته الخاص والفعال جداً. ونتيجة للتغيرات المستمرة لمناخ الأرض وتغير ظروف معيشة بعض مجموعات البشر البدائيين فلقد راحت تظهر أنواع جديدة منها: الإنسان العملاق، ((مفصليات)) دارت، الإنسان القرد الذي عاش في استراليا، والإنسان القرد الذي عاش في كينيا (حيث تختلف عن بعضها بعرض الفكين لدى كل منها)..

لقد تباينت هذه الأنواع عن بعضها أحياناً كما الذئب والبقرة. ولكن وبنتيجة الاصطفاء الطبيعي بقي نوع واحد فقط ـ الإنسان العاقل. (لا توجد لدينا معلومات موثوقة بعد عن وجود موازٍ للأنواع الأخرى، كالنياندرتالي مثلاً).

ولكن من أين أتى هذا الجنس البشري؟ إن الفرضية الأسهل (وهو ما يفترض بالفعل) هي أن الإنسان العاقل جاء نتيجة لترقّي أحد أنواع الإنسان البدائي. ولكن يصعب برهان هذه الفرضية. فلقد غابت من بقايا الإنسان البدائي الحلقة الفصل التي كان يجب أن يوحد وجودها الإنسان العاقل المعاصر وأسلافه القدامى جداً.

لقد غدا البحث عن ((الحلقة المفقودة)) من زمن طويل حجر عثرة أمام علماء الحفريات. وتكرر وكالات الأنباء العالمية مرة في العام المفاجأة تلو

الأخرى: وأخيراً وجدوها! ولكن بعد بعض الوقت تحل خيبة الأمل: لا، ليس ما كان متوقعاً...

بعض اليائسين يلجأ إلى التزوير، كما حدث في حالة ما جرت تسميته ((إنسان بيلت داون)) مثلاً، وهذا لا يأتي إلا بالضرر للعلم. لقد بُذلت على أعمال البحث عن ((الحلقة المفقودة)) جهود جبارة دون فائدة، ولا عجب أن نسمع أصوات المرتابين تعلو يوماً بعد يوم: إنه لا وجود في الطبيعة ((لحلقة مفقودة)) من أي نوع، وإن سر نشوء الإنسان يكمن في مستوى آخر تماماً...

((إن دراسة الاختلافات في بنية الخريطة الوراثية (الشيفرة الوراثية) للبشر الذين يعيشون في مختلف البلدان سمحت بالاستنتاج بأن البشرية انحدرت من سلف مشترك واحد وهو أنثى. وسلالة الإنسان المعاصر تنحدر من الأم الأولى التي عاشت قبل حوالي ٣٥٠ ألف عام مضت)).

لقد أثار هذا الخبر الذي نشرته مجلة ((Science News ـ أخبار العلوم)) عام ١٩٨٣ صدمة حقيقية: **لقد تم إيجاد حواء التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس وبقي إيجاد آدم؟** ليس هناك مجال لحدوث خطأ: لقد قام علماء الوراثة من جامعة باركلي بدراسة مجموعة كبيرة من عينات الشيفرة الوراثية من الصبغيات.

لقد ضم كل جزيء من هذه الشيفرة الوراثية ٣٥ جيناً تنقل للمولود عن طريق الأم، بدون تأثير المادة الجينية للأب. وحدوث تغيرات في هكذا شيفرة وراثية ممكن بتأثير فجائي فقط.

وبالنتيجة تأكدت الفرضية التي انتهت وفقها القفزة النهائية للتطور والتي تمت منذ ٣٥٠ ألف عام تقريباً، حيث تسرعت بعدها عملية تحول الإنسان إلى وضعه الحالي لعدة مرات. إن الحدث الفصل الذي أدى إلى ذلك يمكن أن يكون ظهور أنثى الإنسان البدائي المتغيرة والمصابة بخلل في دورة التكاثر

وإنتاج المواليد. أنثى قادرة على الحمل طيلة العام وليس مرة أو اثنتين في السنة كما في عالم الحيوان، وتملك القدرة على إنتاج خلايا - بيوض بشكل شهري في جسدها.

أليست جيناتها هي التي نحملها في صبغياتنا حتى الآن.

وهاكم السبب الذي أدى إلى التغيير، يمكننا حتى الآن أن نخمن فقط ونذكر جملة أسباب منها: الإله، تدخل القادمين من الفضاء، الإشعاعات....

ولكن ذلك لم يحدث مصادفة! حتى أن فريدريك انجلز المادي البحت، وأحد مؤسسي الماركسية أكد أن ((الطبيعة صنعت الإنسان لكي تعرف نفسها)) - أي أن انجلز اعترف أن خلق الإنسان ليس مصادفة وإنما هو عمل هادف. **ولكن ذلك يعني أن الطبيعة ذكية؟**

يُقال إن عدد الفرضيات حول منشأ الإنسان يساوي عدد الناس على الأرض. وأولئك الذين يؤمنون بالله مقتنعون أن الله قد خلق الإنسان على صورته وآخرون يعتبرون أن الإنسان أصله من القرود. وبالنتيجة كل طرف يملك الحق في تصور أسلافه بالشكل الذي يناسبه.

الألغاز المستخرجة من الأعماق

في الحادي عشر من تموز عام ١٨٩١ م ذكرت جريدة أمريكية محلية هي موريسو نفيل تايمز خبراً كان مضمونه على النحو التالي:

((في صباح الثلاثاء أظهرت الآنسة اس.أو. كالب للجمهور لقيا رائعة. فعندما حطمت قطعة فحم لتضعها في الموقد اكتشفت فيها سلسلة ذهبية صغيرة بطول ٢٥ سم تعود لحرفي قديم وقد أتقن صنعها. لقد تحطمت قطعة الفحم في الوسط تقريباً، وبما أن السلسلة توضعت فيها على شكل دائرة وقد وقعت نهاياتها بجانب بعضيهما فإنه بنتيجة ذلك الكسر تحرر وسط السلسلة وبقيت نهاياتها في الفحم. صُنعت السلسلة من الذهب من عيار ٨ قيراط وكانت تزن ١٩٢ غراماً)).

إن إيجاد قطعة ذهبية هو حدث هام بالطبع. غير أن السلسلة الذهبية التي تم إيجادها في قطعة فحم حجري تمثل مفاجأة. نتساءل لماذا؟ المفاجأة هي في أن الفحم الحجري تشكل على الأرض منذ حوالي ٣٠٠ مليون سنة مضت! أي في زمن لم يشهد وجود الإنسان العاقل على الكوكب بل ولا حتى الإنسان الشبيه بالقرد وحسب ما تشير إليه جميع المعطيات العلمية.

من إذاً صنع هذه السلسلة؟

وليس هذه السلسلة فحسب. فلقد أورد مؤلفا كتاب ((علم الآثار المحرم)) وهما ميشيل كريمو وريتشارد تومسون حقائق تجبرنا على تبني نظرة جديدة لتاريخ الإنسانية أو على الأقل على التفكُّر...

في عام ١٩٢٨ وعلى عمق حوالي ١٠٠ متر اكتشف عمال منجم فحم في هيفرين في ولاية أوكلاهوما ، خلال فرز الفحم المتفجر عدة مكعبات بيتونية.

لقد كانت مكعبات منتظمة طول حرفها ٣٠ سم. وكانت الوجوه الستة للمكعبات مصقولة بشكل ناعم. كما كشفت التفجيرات التي تلت ذلك عن مقاطع من جدار تم بناؤه من كتل مثيلة مكعبة الشكل. لقد كان عمر طبقات الفحم التي وجد فيها الجدار اللغز أكثر من ٢٨٠ مليون سنة.

جدران مماثلة ولكن مصنوعة من الطين فقط تم كشفها في عام ١٨٦٨ من قبل عمال منجم فحم في هاموند ويل في ولاية أوهايو الأمريكية. وعلى سطح الجدار أمكن، وبوضوح، رؤية عدة أسطر بالكتابة الهيروغليفية.

إن المقالع ومناجم الفحم هي الأماكن التي غالباً ما يتم فيها إيجاد مواد غامضة. وغالباً ما يزيد العمق الذي تكتشف فيه هذه اللُّقى عن ١٠٠ متر، أما عمر الطبقات التي يعثر فيها على هذه المواد فيصل إلى ٦٠٠ مليون سنة! إن هذه اللُّقى من وجهة نظر المبادئ العلمية المعاصرة، غير مفهومة، أما الشواهد فتتزايد يوماً بعد يوم.

في عام ١٨٤٤ عثر في مقلع نينهودي (اسكتلندا) على مسمار معدني مستقر في حجر رملي. كان عمر الحجر الرملي حوالي ٤٠٠ مليون سنة. لقد تدلت نهاية المسمار من الصخرة وقد أكلها الصدأ ، أما رأس المسمار فقد كان على عمق ٢,٥ سم في الصخرة. وكان طول المسمار ٢٣ سم.

في الخامس من حزيران عام ١٨٥٢ ظهرت في مجلة ((العلوم الأمريكية)) مقالة بعنوان ((آثار الزمن الغابر)) التي جاء فيها أنه خلال أعمال التفجير في

مقلع قرب جبل ميتينغ ـ هاوس في دورتشيستر وبعد أحد التفجيرات كشف عن مزهرية معدنية بين الصخور وقد تسبب الانفجار بكسرها إلى نصفين. ولدى تجميع الجزأين حصلوا على آنية على شكل جرس ارتفاعه ١٢ سم بجدران سماكتها ٣مم. لون معدن الآنية يذكر بالتوتياء أو سبيكة ما تدخل فيها الفضة بنسبة كبيرة. على إحدى الجهات رسمت زهرات أو ما يشبه باقة الزهور، أما القسم السفلي فكان مسوراً بضفيرة. لقد رصعت باقة الزهور والضفيرة بالفضة الخالصة. ولقد وجدت هذه الآنية المدهشة في حجر رملي متصلب على عمق ٤,٥ متر عن السطح. وقعت الآنية في أملاك السيد جون كيتيل. وقد أعلن الدكتور د.ف.ك سميث الباحث في شؤون الشرق والرحالة الذي عرف مئات المواد المدهشة واللوازم البيتية أنه لم ير في حياته مثيلاً لهذه الآنية.

في عام ١٨٧١ **في لاون ريج، ولاية ايلينوس**، عثر في عينة حفارة على قطعة معدنية تشبه النقود. وجدت على عمق ٣٥ متراً. أما عمر الطبقات فكان ٢٠٠ ـ ٤٠٠ ألف عام. وفي تلك الفترة وعدا عن ((النقود))، عثر العمال خلال التنقيب في منطقة وايت سايد على عمق ٣٦,٦ متر على ((حلقة أو دولاب نحاسي كبير يماثل ما يستخدم حتى الآن في مجموعة صواري السفن وكذلك شيء يشبه الخطّاف)).

في عام ١٨٨٩ م **وفي مدينة نامبي في ولاية ايداهو الأمريكية** وخلال الحفر عثر تحت طبقات الصخور الرسوبية والبازلت والصلصال وضمن الرمال الوعسة (سريعة الانهيار) وعلى عمق ٩١,٥ م على تمثال صغير لامرأة، تم صنعه بإتقان من الصلصال. ارتفاع التمثال حوالي ٣,٨ سم.

في ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٤٨ ذكر رجل **من بلدة سالفور ـ سبرينغ في ولاية اركنساس** اسمه فرانك كينفود ما يلي:

((في عام ١٩١٢ عندما كنت أعمل في توماس في ولاية أوكلاهوما عثرت على قطعة فحم كبيرة. وكانت كبيرة لدرجة يصعب استخدامها في هذه الحالة. لذلك حطمتها بالفأس. تدلى من القطعة قدح حديدي وبقيت على الفحم صورة القدح. لقد شاهد ذلك أيضاً العامل جيل ستال. وقد علمت أن الفحم ورد من منجم ويلبورتون في ولاية أوكلاهوما.

كان منجم ويلبورتون هو المكان الذي لطالما عثر فيه العمال على لُقى أثرية. إن عمر الفحم الحجري هنا يشكل ٣١٢ مليون سنة. ويشير عمال المنجم أنه وجد ذات مرة في قطعة فحم ((سبيكة كاملة من الفضة ذات شكل منتظم وقد وجدت عليها آثار برشمة)).

كثر الحديث عن اللّقى... فمن صنع هذه المواد الغريبة (الغامضة) يا ترى؟ إنها لا تشبه ((القادمين من الفضاء))، فهي أدوات بخسة الثمن: مسامير، أقداح، نقود، سلاسل، تماثيل من الصلصال، وهذا يعني أن الصنّاع من سكان الأرض.

والسؤال **أيُّ الحضارات تركت لنا هذه الآثار؟**

آثار... لقد تبين أن أناساً غامضين عاشوا قبل مئات ملايين السنين تركوا لنا آثارهم بالمعنى الحرفي للكلمة. ففي عام ١٩٨٣ اكتشف العضو ـ المراسل في أكاديمية تركمنستان ك.أمانيازوف سلسلة واضحة لآثار قدم إنسان مقاسه ٤٣ على سفح الهضبة الجبلية كوغينتانغ. وعمر هذه الآثار يقارب ١٥٠ مليون عام، أي في العصر الجوراسي **حيث انتشرت الديناصورات**. في عام ١٩٣٨ وجدت آثار مشابهة في منطقة روكستيل في ولاية كينتوكي. وآثار مشابهة تم إيجادها في مجرى نهر بيليكسي الجاف في ولاية تكساس، في بنسلفانيا، وتانزانيا... عمر هذه الآثار من ١٥٠ حتى ٣٠٠ مليون سنة.

وقد أُثبت أن الآثار تخص إنساناً يسير بشكل مستقيم، حيث أن باطن قدمه يماثل باطن قدم الإنسان المعاصر وليس الإنسان البدائي المنحدر من القرود.

لقد تبين أن هذا الإنسان الذي سار بشكل مستقيم لم يسر حافياً فقط بل انتعل حذاءً. ففي تشرين الأول من عام ١٩٢٢ ظهرت في ((نيويورك ساندي أميريكان)) مقالة ((سر "نعل الحذاء" المتحجر))، التي كتبها الدكتور و.ه. بالو. وقد ذكر فيها أن عالم الجيولوجيا المشهور جون ريد اكتشف أثر نعل حذاء متحجر على سفح جبل. ولقد بقي إطار ثلثي النعل فقط. ولقد كان بالإمكان تمييز الخيط الواصل بين نعل الحذاء وجلده. ثم كانت درزة أخرى، وفي الوسط حيث كان ضغط القدم أعظمياً وجد عمق يمكن نسبه إلى عظم مقدمة القدم الذي سحجه وتسبب باهترائه.

أحضر جون ريد هذا النموذج إلى نيويورك حيث وافق الأخصائيون على تأريخ الأثر الغامض بـ ٢١٣ ـ ٢٤٨ مليون سنة. وطبيعي أن جرت محاولات لإعلان ((**نعل الحذاء**)) "**أعجوبة الطبيعة**" بمثابة ((تزوير مدهش)). إلا أن منتجي الأحذية وصفوا هذا الأثر بمثابة بصمة لنعل حذاء ذو سير يدوي الصنع، أما التصوير الميكروي (الدقيق) فقد كشف أدق تفاصيل لف وفتل الخيوط وبرهن غياب إمكانية تزوير الأثر. ولقد بين التحليل الكيميائي الذي قام به كيميائيون من معهد روكفيلر أن عمر الأثر أكثر من ٢٠٠ مليون عام.

أثر آخر لقدم اكتشف في الطين الغضاري في ولاية يوتا من قبل جامع المستحاثات ويليم ميستر. وبعد أن كسر قطعة الطين شاهد أثراً متحجراً وبقربه مستحاثة لحيوان مفصلي بحري. إن عمر الطين الذي يحوي الآثار يشكل ٥٠٥ ـ ٥٩٠ مليون عام. وأثر كعب الحذاء مضغوط في الصخر بعمق يزيد عن ٣,٢ مم عن باطن القدم وهو بدون شك أثر للقدم اليمنى حسب التآكل المميِّز للكعب. وقد أعلن العلماء أن هذه اللقيا ((حالة غريبة للتآكل)).

إذاً، كيف كان الناس الذين ساروا على كوكبنا قبل مئات الملايين من السنين في أحذية من صنع يدوي؟ في الثاني من نيسان عام ١٨٩٧ نشرت جريدة ((ديلي نيوز ـ الأخبار اليومية)) من مدينة أوماهو، في ولاية نبراسكا، مقالة تحت تسمية ((الحجر المقتطع في المنجم)) والتي ذكرت فيها: ((عثر أحد عمال منجم ليخيغ للفحم الحجري في ولاية أيوف على قطعة صخرية تدعو للدهشة. لقد كان الحجر رمادياً ـ قاتماً، طوله ٦٠ سم، وعرضه ٣٠ سم وسماكته ١,٢ م وعلى أحد سطوحه القاسية جداً رسمت خطوط شكلت معيناً منتظماً. في مركز كل معين تم رسم وجه لإنسان مسن وقد ظهرت بوضوح الخطوط العميقة على الجبين. وقد بدت هذه الأخاديد بشكل واضح في جميع الصور. لقد كانت جميع الوجوه متشابهة. وقد نظر وجهان إلى اليسار، أما البقية فنظرت إلى اليمين. كيف وصل هذا الحجر إلى عمق ٤٠ متراً تحت طبقة الحجر الرملي، سؤال لم يكن عمال المنجم قادرين على الإجابة عليه. إنهم واثقون أن الأرض التي وجد فيها الحجر لم تتضرر يوماً. لقد تشكل الفحم في منجم ليخيغ منذ ٢٨٠ ـ ٣٤٥ مليون عام مضت)).

لم يترك لنا الناس الغامضون صورهم فحسب. ففي نهاية صيف عام ١٨٦٠ عمل البروفيسور الجيولوجي جوزيبي راغازوني من المعهد الفني الإيطالي في مدينة بريشيا في الرواسب المرجانية قرب قرية كاستيندولو عند سفوح هضبة كالّي دي فنيتو. ((عندما كنت أبحث عن الصدف في الطمي المرجاني وقعت يدي على الجزء العلوي لجمجمة ملتصقة بشكل تام بقطع المرجان الملتصقة بغضار أخضر ـ سماوي، وقد تابعت البحث وأنا في غاية الدهشة، ووجدت عظام القفص الصدري والأطراف والتي كان واضحاً تماماً أنها كانت تخص إنساناً)).

عرض راغازوني العظام على الجيولوجيين. ((لم يثق الجيولوجيون كثيراً بظروف الاكتشاف وقالوا: بما أن العظام لا تخص الإنسان ـ القرد القديم فإنها كانت لشخص دُفن حديثاً في هذه المقبرة. وبعد بعض الوقت عدت إلى نفس

المكان واستطعت إيجاد عدة قطع أخرى من العظام كانت في الوضعية نفسها التي وجدت فيها سابقاتها)). في شهري كانون أول وكانون ثاني من أعوام ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠ اكتشف راغازوني نفسه وبمساعدة كارلو جيرماني في نفس المكان كثيراً من الهياكل العظمية. ((لقد كانت جميع العظام مغطاة بالغضار وبالقطع المرجانية والقواقع حتى أنها تغلغلت عميقاً. كل هذا يبدد أية شكوك بأن هذه عظام أناس تم دفنهم في مقابر وتؤكد واقع أن الأمواج البحرية قد نقلتهم)). وفي ١٦ شباط عام ١٨٨٠ وجد راغازوني وجيرماني هيكلاً عظمياً كاملاً ((مأسوراً في كتلة من الغضار الأخضر ـ السماوي، ومن الناحية التشريحية فقد كان يخص امرأة معاصرة. كان الهيكل العظمي ضمن طبقة غضار سماوية اللون بسماكة تزيد عن المتر وقد حافظ على اكتماله. يحتمل أن الإنسان وقع بشكل مأساوي في الطمي البحري ولم يتم دفنه، لأنه كان سيتم عندها اكتشاف تبقّع الرمل الأصفر من الأعلى والغضار الأحمر ـ الحديدي المسمى "فيرّيت"))

إن عمر الغضار السماوي (اللون) من كاستندولو الذي وجدت ضمن سماكته الرفاة الغامضة يشكل ٣ ـ ٤ مليون سنة...

في عام ١٨٨٣ زار البروفسور جوزيبي سيرجي من جامعة روما السيد راغازوني وشاهد بأم عينه (شخصياً) الرفاة البشرية. لقد حدد أنها تخص أربع شخصيات: رجل بالغ، امرأة بالغة، وولدين. ثم اتجه جوزيبي إلى كاستيندولو: ((لقد ذهبت إلى هناك في الرابع عشر من نيسان برفقة راغازوني. ولقد أظهر الخندق المحفور عام ١٨٨٠ بوضوح التعاقب الجيولوجي للطبقات. وباستثناء الهيكل العظمي للمرأة، فإن غالبية العظام تم إيجادها بين الصدف والمرجان تحت الغضار سماوي اللون، وكما لو أنها قد رُميت على مستوى واحد. وهذا يؤكد أن أصحاب العظام قد غرقوا قرب شاطئ البحر. وعندما تفككت الجثث بعثرت الأمواج العظام على سطح القاع)).

وبعد أن اقتنع بأن الهياكل العظمية من كوستينديللو هي رفاة بشر من النوع المعاصر والذين عاشوا قبل ٣ ـ ٤ مليون سنة أعلن سيرجي: ((إن التوجه لنفي أية اكتشافات يمكن أن تؤكد وجود الإنسان في الماضي السحيق هو كما أرى، شكل من أشكال الفرضيات العلمية)).

كتب أرماندي كفار ديفاتي، مؤلف كتاب ((الأعراق البشرية)): ((لا توجد أسباب جدية للشك في اكتشاف راغازوني، وإذا كان قد تم في رواسب رباعية فإنه لن يتجرأ أحد على مناقشة صحته. لا يمكن لشيء أن يكون ضده باستثناء النظريات السابقة غير المرتبطة بالتجربة (بالخبرة). إلا أن الموقف المسبق تجاه اكتشاف راغازوني باقٍ حتى وقتنا الحاضر.

ربما لم يعلم راغازوني أنه قبل اكتشافه بثلاثين عاماً، **وفي إيطاليا أيضاً** وعلى بعد ٣٠٠ كم عن كوستنديلو اكتشف العمال في عام١٨٥٠ عندما كانوا يحفرون خندقاً في مدينة سافونا، وعلى عمق ثلاثة أمتار، هيكلاً عظمياً يماثل من الناحية التشريحية هيكل الإنسان المعاصر، وذلك ضمن طبقة جيولوجية عمرها ٣ ـ ٤ مليون سنة.

وفي عام ١٨٦٧ أنبأ أرتور يوسِّل بشكل مفصل عن اللّقية في سافونا ضمن المؤتمر الدولي الخاص بعلم السلاسات البشرية قبل التاريخ وعلم الآثار الذي أقيم في باريس. لقد أعلن أن إنسان سافونا ((متزامن مع الطبقة التي وجد فيها)). وفي المؤتمر التالي عام ١٨٧١ تقدم القديس الأب دي غراتياس الذي درس علم الحفريات بمذكرة لها نفس العنوان وأعلن أن اللقية في سافونا ليست دفناً بأي شكل من الأشكال وذكر أن جسم الإنسان الذي وجد في سافونا ((وُجد في وضعية انبطاح وقد شدّت يداه إلى الأمام، ومال رأسه قليلاً إلى الأمام والأسفل. وقد وجد الجذع أعلى من الأرجل كما هي حالة إنسان في الماء. هل بإمكاننا الافتراض بأن الدفن في وقت ما كان يتم بهذه الوضعية؟ أليست هذه وضعية جسد استسلم لرحمة الماء؟ لقد وجد الهيكل العظمي

ضمن منحدر في طبقة غضارية مما يبعث على الشك في إمكانية أن الماء نقل الهيكل العظمي من الناحية المقابلة لهذا الحاجز.

وإذا كان قد تم أي شكل من الدفن فإن الطبقات العليا كانت ستختلط مع الطبقات السفلى. إلا أنه لم تتم ملاحظة ما يشبه ذلك)).

...لأكثر من مئة عام ما تزال فكرة داروين حول تطور الإنسان من القرد تحدد التناول العلمي لقبول أو نفي الوقائع. وكل ما يتضارب معها تتم غربلته بدقة. وبذلك يتم تأكيد المصداقية الشاملة لنظرية داروين بشكل غير مباشر. ولكن، وللأسف، توجد وقائع غير مرغوب بها...

موت العمالقة

إنها غبية، ثقيلة، قليلة الحركة، خرقاء... هذا ما وصف به الديناصورات في القرن الثامن عشر العالم الألماني فريدرك ثيودور فيشر. ومنذ أن تم اكتشاف بقاياها الأولى وُصمت الديناصورات بسمعة سيئة: فهي كائنات ضخمة تزن حوالي مئات الأطنان، ذات دماغ صغير، وغير قادرة على التلاؤم مع تغيرات المناخ، مع أنها عمَّرت كوكبنا طيلة مئة وأربعين مليون عام. وليس عجباً أن يكون قدرها الانقراض حسب قوانين الاصطفاء الذاتي واختفت دون أي أثر.

ترى هل جرت الأمور على هذا النحو؟ علماء الحفريات يتفكرون أكثر وأكثر حول هذه القضية. وهاكم مثلاً، سمعة البطء لدى الديناصورات. بعد أن قاس العالم الانكليزي د.الكسندر من جامعة ليد، الآثار المتحجرة التي تركتها بعض أنواع الديناصورات قرر أن الديناصورات التي كانت تمشي على أربعة أرجل كانت تقطع ما مقداره أربعة كيلومترات في الساعة، أما الديناصورات التي كانت تمشي على الأرجل الخلفية فقد بلغت سرعتها ثلاث عشرة كيلومترات في الساعة. أما عالم الحفريات روبرت بيكر من جامعة بلتيمور فيعتبر أن سرعة انتقال بعض أنواع الديناصورات كان يمكن أن تبلغ حتى خمسين كيلومتراً في الساعة.

لقد أقنعت سرعة تطور الديناصورات كثيراً من علماء الحفريات في أن هذه الحيوانات المصنفة منذ عصور قديمة كزواحف، كانت ذات دم حار، فهي لم تشعر بضرورة التعرض بشكل دوري للشمس للمحافظة على درجة الحرارة اللازمة لجسمها. ولبرهان هذه الفرضية يتقدم علماء جامعة ايل بدليل مفاده أن قدرة الديناصورات على اتخاذ الوضعية الشاقولية بسهولة صفة مميزة للحيوانات ذات الدم الحار. ودليل آخر يتعلق بأسلوب التغذية. لو أن الديناصورات كانت من ذوات الدم البارد التي تتصف باستقلاب غذائي بطيء لكانت حاجتها للطعام محدودة. وفي ذات الوقت بينت دراسة لبقايا الديناصورات في منطقة ألبرت الريفية الكندية أن الديناصورات المتوحشة كانت تتمتع بشهية تُحسد عليها. وتدل على ذلك بشكل خاص بنية أسنانها.

كما أن فيزيولوجيا الديناصورات تؤكد حقيقة أن هذه الحيوانات كانت من ذوات الدم الحار. وعلى سبيل المثال، يحتاج ضخ الدم إلى رأس ديناصور مستلقٍ على رقبة طولها ستة أمتار لوجود دورة دموية أكثر تطوراً بالمقارنة مع الحيوانات ذات الدم البارد.

والدليل الأخير لصالح فرضية أن الديناصورات ذات دم حار هو دراسة عظامها. توجد على سطح عظام الديناصورات تجاويف عديدة تشهد بوجود دورة نقل دموية متطورة في الوقت الذي تكون فيه عظام الزواحف (ذات الدم البارد) ملساء تماماً، فضلاً عن أن الفك السفلي للزواحف يتألف من عدة عظام مستقلة.

إلا أن الاختفاء السرّي للديناصورات في نهاية العصر الطباشيري الأول يبقى أعظم الألغاز. فقبل ٦٥ مليون سنة مضت حدث على الأرض شي يصعب شرحه. وبنتيجة حدث ما رهيب ويبدو مفاجئاً، قضت أنواع كاملة من عالم الحيوان. واختفت الديناصورات والعضاءات الطائرة إلى الأبد. ولقد استمرت فترة الفناء ٢٠٠ عام. تقدم الصخور الترسبية في المحيطات والتي تشكلت في

ذلك الوقت، شواهد موثقة لسرعة تلك الأحداث الدراماتيكية فهي تمثل مقابر كاملة للديناصورات.

لقد تراكمت الفرضيات التي تفسر سبب هذه الكارثة غير العادية بدءاً من الفرضية الصحيحة حتى أكثر الفرضيات خيالية. نذكر منها الحلول المفاجئ للعصر الجليدي، وتبدل الأقطاب المغناطيسية لحقل الأرض، وأسباب مرضية مثل التغير في تشريح الحيوانات أو فيزيولوجيتها.

هناك ثلاث فرضيات ((مناخية)). تفترض **الأولى** أنه في نهاية العصر الطباشيري حصل انخفاض حاد بدرجات الحرارة لدرجة قاتلة بالنسبة للديناصورات سبب عدم امتلاكها لغطاء يعزلها حرارياً كالصوف والريش والشحم أو أية ((وسائط)) أخرى، مما يحفظ الحيوانات والطيور المعاصرة من البرد. وحسب **رواية أخرى** فإن بسبب الكارثة كان التغير الحاد لنظام الأكسجين في الغلاف الجوي. لقد احتاج العمالقة المنقرضون كمية كبيرة من أكسجين الجو والانخفاض المفاجئ لمحتواه في الغلاف الجوي أدى إلى موت الديناصورات بالاختناق.

الفرضية ((المناخية)) **الثالثة** تتحدث عن تضخم الإشعاع الكوني والذي تسبب بموت الحيوانات.

تحاول روايات عديدة تفسير انقراض الديناصورات بنتيجة عوامل بيولوجية خارجية. مثل تبدلات الاحتياجات الغذائية. إن الخلل في النظام الغذائي للديناصورات كان ممكن الحصول بنتيجة التبدل الحاد للغطاء النباتي للأرض.

أما فرضية ((منافسة الثديات)) فتفترض أن الثدييات المتكاثرة التهمت بيوض الديناصورات ومنعتها من التكاثر.

وهناك فرضية مثيرة للاهتمام حول موت الديناصورات بنتيجة انفجار نجم جديد جداً. ويندر واقع رصد هكذا ظاهرة نسبياً. فانفجارات نجوم جديدة جداً تمثل انفجار قوة رهيبة حيث ترتفع شدة إضاءتها لمليارات المرات!

إن ومضات النجوم الجديدة جداً تولد فيوضاً لأشعة غاما ذات استطاعة عالية جداً ومميتة بالنسبة للكائنات الحية. وهكذا، إذا كان قد حدث منذ ٦٥ مليون عام انفجار نجم جديد في مكان ما قرب النظام الشمسي ولم يتمكن الغلاف الجوي من القيام بدوره الوقائي ومرر جزءاً من الإشعاع القاتل إلى سطح الأرض، فإنه بسبب مرض الأشعة. كانت ستموت غالبية الحيوانات التي تعيش على الكوكب وليس الديناصورات فقط.

تقدمت مجموعة من العلماء الأمريكيين بالفرضية التالية: ((أثناء دراسة طبقة الغضار التي تنتمي لعصر الكارثة المشار إليها تم اكتشاف زيادة في محتوى الإيريديوم. إن الإيريديوم قليل جداً على الأرض، ولذلك فإن أي عرق في نوع ذي إيريديوم فائض تمكن مقابلته زمنياً مع عصر ورود هذا المعدن النادر من الفضاء الكوني. إن الكويكبات غنية بهذا العنصر الكيميائي ولذلك فإن لنا الحق في افتراض أن مصدر الإيريديوم في فترة الاختفاء الكارثي للديناصورات كان يمكن أن يكون كويكباً. فضلاً عن أن الأحجار النيزكية التي هي شظايا الكويكبات تحتوي دائماً على الإيريديوم. يمكن أن يكون قد اصطدم بالأرض كويكب بقطر حوالي ١٠ كيلومترات، وبنتيجة الانفجار المرعب ارتفعت في الغلاف الجوي للأرض آلاف الكيلومترات المكعبة من الغبار المتشكل)).

هذه الغيمة حجبت ولعدة سنوات وصول الأشعة الشمسية، وبنتيجة حلول ظلمة كونية توقفت على الأرض عملية التركيب الضوئي. وحل جوع في العالم. ومن الناحية العملية فقد ماتت جميع الفقاريات التي كتلتها أكثر من ٢٠ ـ ٣٠ كيلوغرام بسبب الجوع.

ولكن، ربما لم يكن هناك أي انقراض لحظي؟ تظهر باستمرار شواهد جديدة حول أن عملية انقراض مجموعات كثيرة من الديناصورات لم تحدث بشكل مفاجئ بل استمرت لآلاف السنين. ولا يستبعد أن مجموعات معينة من الديناصورات اختفت في العصور ((التاريخية)) وقد سجلتها الذاكرة البشرية، على غرار التنانين سيئة السمعة. ربما استطاع أحد الديناصورات الحياة حتى أيامنا هذه... في كل الأحوال، ستقدم الديناصورات للعلم أكثر من مفاجأة.

الطوفانُ الشامل

تعتبر الأسطورة التي تتحدث عن الطوفان واحدة من أهم روايات الكتاب المقدس دون نقاش. إن هذه الأسطورة التي تدهش الخيال، كانت دون سواها الموضوع الأزلي لفناني جميع الأزمنة.

من المدهش (الممتع) أن ذكر الطوفان يصادف في الأحاديث الشفوية وملاحم الكثير من شعوب كوكبنا. لقد قرر العلماء وجود خرافات مشابهة في استراليا، الهند، التيبت ولاتفيا وقد وجدت كذلك في أمريكا قبل اكتشاف كولومبوس لها.

إن مضمون هذه الأساطير متشابه جداً. إن الأسبان الذين غزو العالم الجديد في ذلك الوقت، انبهروا بالتطابق المدهش في تفاصيل الروايات التي تتحدث عن الطوفان الشامل لدى مختلف القبائل الهندية.

إن الوصف الذي جاء في الكتاب المقدس للطوفان الشامل، الذي حدث قبل حوالي خمسة آلاف عام ليس الذكر الأول لهذه الفاجعة. تتحدث الخرافات الآشورية القديمة جداً، المدونة على لوحات غضارية، عن جلجامش الذي نجا في قارب مع حيوانات مختلفة ورسى بعد انتهاء اليوم السابع من الطوفان، والرياح القوية والكوارث على جبل نصّر في بلاد ما بين النهرين (بلاد الرافدين). وبالمناسبة يوجد في مضامين الروايات التي تتحدث عن الطوفان تطابق في التفاصيل. فمثلاً، لمعرفة ما إذا كانت الأرض قد ظهرت من تحت الماء. أطلق

نوح غراباً وحمامة مرتين، أما "أوت ـ نابيشيتم" فقد أطلق حمامة وسنونو وكذلك أساليب بناء السفن كانت متشابهة. ما هذا ـ هل هو سرد حر لنفس الحادثة أم قصة حول طوفانات إقليمية مختلفة، أم إنها وقائع من التاريخ حول طوفان شامل حدث بالفعل، والذي تم خلاله وعلى الفور تحذير شعوب مختلفة وبشكل مستقل من الخطر المحدق بهم (أو أنهم توقعوا أو أحسوا به بشكل ذاتي)؟

ووفق حسابات عالم الأعراق البشرية اندري، فإن العالم عرف في عام ١٨٩١ حوالي ثمانين أسطورة مثيلة. ويحتمل أن يكون عددها فاق المئة، مع العلم أن ستاً وثمانين منها لا تمت بصلة لمصادر الكتاب المقدس.

ثلاث عشرة خرافة مختلفة وصلت إلينا من آسيا، أربع من أوروبا، خمس من إفريقيا، تسع من استراليا وأقيانيا، سبع وثلاثون من العالم الجديد، ست عشرة من أمريكا الشمالية، سبع من أمريكا الوسطى، أربع عشرة من أمريكا الجنوبية. لقد لاحظ المؤرخ الألماني ريكارد هينّغ بأن "مدة استمرار الفيضان" لدى مختلف الشعوب تتباين من خمسة أيام حتى ٥٢ سنة لدى الأزتكيين. لقد كان سبب الطوفان في سبع عشرة حالة منها ـ تساقط المطر. وفي بقية الحالات كان تساقط الثلوج وذوبان الجبال الجليدية، والعواصف، والهزات الأرضية. ويعتقد الصينيون مثلاً، إن جميع الفيضانات عموماً تسببها الروح الشريرة "كون ـ كون" في غمرة غضبها تضرب رأسها بأحد الأعمدة التي تحمل قبة السماء، فترسل السموات وابلاً مائياً نحو الأرض.

تنتشر خرافة الطوفان على مستوى العالم. ولكن هل كان شاملاً بالفعل؟

حاول بعض الباحثين إثبات ذلك. تحدث بعضهم عن البحر المنغولي، الذي غطى يوماً ما آسيا الوسطى، والذي يحتمل أنه اختفى فجأة نتيجة لهزة أرضية تسببت بحدوث طوفان من الشرق حتى الغرب. وافترض البعض الآخر أن محور

الأرض انتقل فقط، بنتيجة ذلك انزاحت مياه البحار والمحيطات من نصف الكرة الشمالية نحو نصف الكرة الجنوبية، وأكد فريق ثالث من الباحثين أن الأرض قبل ملايين السنين كانت محاطة بغلاف جوي رطب وغازي على غرار الغلاف الجوي للزهرة. في وقت محدد تكثفت كتل الغيوم وتساقطت على الأرض على شكل أمطار غزيرة ومتواصلة.

لم يتم تأكيد أي من الفرضيات المشابهة حتى الآن. ولكن تقاليد سرد أحداث الطوفان تدل على أن الكارثة حدثت بالفعل في جميع القارات وهي مرتبطة بغمر شامل لليابسة لمدة وجيزة.

تتأكد هذه الحقيقة أوضح ما يمكن في الشرق الأدنى. لقد احتفظت شعوب فلسطين وبلاد الرافدين حتى الآن بذكرى مرعبة حول الطوفان الشامل الرهيب.

إن جميع هذه الوصوفات التي وردت لدى الآشوريين والبابليين والسومريين والفلسطينيين ترتبط بدون شك بذكرى مشتركة حول نفس الحدث. ويعود أقدم وصف ـ وهو الرواية السومرية ـ إلى عام ٢٠٠٠ ق.م ـ تقريباً.

ولكن بعد الطوفان، الموصوف في الكتاب المقدس وفي ملحمة "جلجامش"، كان يجب أن تبقى هناك آثار على الأرض، ولكان من الغرابة عدم بقائها. وقد تم كشفها!.

في عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ أجرى الدكتور سيمون فولي حفريات كبيرة في تلك الأماكن، التي كانت فيها يوماً ما مدينة أور الكلدانية. وكلما حفر عميقاً في الأرض ازداد دهشة مما يرى.

بعد فترة وجيزة وصل إلى طبقة غضارية بسماكة من ٣ ـ ٤ أمتار. إلا أنه سيكون من الأفضل لو عرضنا كلمة الدكتور فولي شخصياً: ((حفرنا أعمق فأعمق، وفجأة تغيرت طبيعة التربة. فبدلاً من طبقات صخرية تضم آثار الثقافة

القديمة عثرنا على طبقة ملساء من الغضار، وكانت متجانسة على كامل امتدادها، ومن دراسة قوام الغضار تبين أنه انتقل مع الماء. لقد افترض العمال بأننا وصلنا إلى القاع الطيني للنهر .... وأمرتهم بمتابعة الحفر. وبعد الحفر لأكثر من ١,٥ م عثروا على غضار نقي. وفجأة وبشكل غير متوقع كذلك ظهرت طبقات جديدة من الصخور وبالتالي، رواسب غضارية ضخمة مثلت حداً ما في الحركة المتواصلة للتاريخ.

بدا من الأعلى تطور بطيء للحضارة السومرية الخاصة، ومن الأسفل لوحظت آثار ثقافة مختلطة.... لم يكن بإمكان أي فيضان طبيعي لنهر نقل هذه الكمية من الغضار. وحده الفيضان الهائل سيتمكن من نقل طبقة غضارية بسماكة ١,٥ متراً إلى هنا، فيضان لم تعرف المنطقة له مثيلاً في الماضي. إن وجود هكذا طبقة غضارية شاهد على أن تطور الثقافة المحلية قد انقطع فجأة ومنذ زمن بعيد جداً. ففي زمن ما وُجدت هنا حضارة متكاملة، ثم اختفت هكذا فجأة دون أثر، ولربما ابتلعها الطوفان: لا مجال للشك على الإطلاق: إن هذا الفيضان هو الطوفان القديم، الذي جاء وصفه في الأسطورة السومرية والذي كان أساساً للأخبار حول مصائب "نوح". إن حجج الدكتور فولي تبدو قطعية بشكل كافٍ ولذلك فهي تشكل انطباعاً قوياً. تقريباً وبنفس الوقت اكتشف ستيفين لينفدون رواسب مماثلة لهذه الترسبات المحمولة. "بمعنى الآثار المادية للطوفان" ـ في منطقة بابل القديمة. بعد ذلك تم إيجاد طبقات مماثلة من الصخور الرسوبية في منطقة أوروك وفارا وتيلوا ونينوى.

لقد كتب المستشرق الفرنسي المعروف "دورم" مايلي: من الواضح تماماً الآن أن الطوفان كما يفترض لينفدون، قد حدث في العام ٣٣٠٠ ق.م. وهذا ما تدل عليه الآثار المكتشفة في أوروكيشي.

بالطبع لا يمكن اعتبار حقيقة تماثل طبقات الصخور المتكشفة في مواقع الحفريات في منطقة بلاد الرافدين تطابقاً نسبياً. فهذا يدل على أن طوفاناً هائلاً حدث بالفعل. وهكذا فإن لقى علماء الآثار والمؤلفات الأدبية تبرهن أن الطوفان الموصوف في النصوص القديمة هو حدث حقيقي تماماً.

إذاً ما الذي سبب الكارثة؟ ومن أين للأرض هذه الكمية من الماء الفائض؟ معلوم أنه لو ذاب كل الجليد الذي على الأرض فإن مستوى ماء المحيط لن يرتفع لعدة كيلومترات.

في جميع الأساطير العالمية التي تحدثت عن الطوفان يوجد تفصيل مشترك وحيد. إذ تؤكد جميع الأساطير أنه في ذلك الوقت لم يكن للقمر وجود... وقد سمي البشر الذين عاشوا في زمن الطوفان "أناس ما قبل القمر" (الإغريق القدامى أطلقوا عليهم تسمية "بارسيلينيتي"، من الكلمة الإغريقية "سيلينا" ومعناها القمر).

ربما يكون حل لغز الطوفان الشامل كامناً في هذه الحقيقة؟ إن المرافق الوحيد للأرض وبفضل كتلته الكبيرة يشكل يومياً فيضانات صغيرة ـ حركات المد على الأرض. إن القمر يجذب النقطة الأقرب إليه من سطح الأرض بقوة أكبر، وهذا "يشكل تحدباً" في المنطقة الواقعة تحت القمر. حيث ترتفع اليابسة إلى أعلى بمقدار نصف متر ويرتفع مستوى المحيط بمقدار المتر، وفي بعض الأماكن يصل ارتفاعه ١٨ متراً (خليج فاندا في ولاية أطلنطا). ومع أننا تعودنا من القديم على هذه الظاهرة التي تبدو مزعجة، إلا أنها فريدة في منظومتنا الشمسية. لا يعرف علماء الفلك مثالاً على وجود هكذا مرافق ثقيل لكوكب خفيف نسبياً كأرضنا ويعتبر العلماء أنه كان أكثر صحة لو سمينا الأرض والقمر كوكباً ثنائياً وليس كوكباً وتابعه (مرافقه). يستحيل، من وجهة نظر علم الفضاء تشكل هكذا منظومة في آن معاً، ومنه

ينـتج أن القمـر لـيس "أخ" الأرض، وإنمـا زوجهـا القـادم مـن أعمـاق الفـضاء السوداء. حتى أنهم يسمون الأرض قبل ظهور القمر بنواة فايتون الميت.

وكما هو معروف، فإن القمر يبتعد عن الأرض. وتصوروا أنه كان هناك وقت كان القمر أكثر قرباً من الأرض. وكلما كان أقرب كانت أمواج المد سترتفع أعلى، وستصبح السرعة الظاهرية لحركة القمر أقل في قبة السماء. إذا صغر مدار القمر بمقدار ١٠ مرات، فإنه سيرتفع كما لو أنه قمر فضاء ثابت فوق نقطة واحدة على الأرض. وسيرتفع المد في أعالي المحيط خلال ذلك لمئات الأمتار.

"تنزل" القمر قليلاً وسيتحرك من جديد بشكل بطيء في قبة السماء، إلا أنـه سـيتحرك الآن مـن الغـرب إلى الـشرق ولـيس العكـس. في هـذه الحالـة ستضرب موجة المد من الغرب وكأنها في قمع هائل على الشاطئ الشرقي لأمريكا وإفريقيا، والبلطيق والبحر الأبيض المتوسط. وستبلغ الموجة ذروتها بعد أن تصطدم في الحواجز على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود خاصة. إن موجة المد التي تمتد لعدة كيلومترات والمتوقفة في مكان واحد ستغمر بسهولة القفقاز وستصل خلال عدة أيام إلى بحر قزوين والأورال (أليس هذا سبب تشكل هذه البحار الداخلية الجافة؟). **هل نحتاج لنذكر أن ذروة أرارات هي أول ما سيظهر من تحت الماء....**

وحسب ارتفاع القمر فإن مدة هكذا طوفان تتغير من شهر حتى سنة. وخلال بضعة سنوات فقط تتم موجة المد الهائل دورة كاملة حول الأرض، لتمر في جميع البلدان. وعموماً، وبشكل حر في كل شيء كما في الأساطير! ويبقى لغز واحد: **كيف حدث أن استطاع القمر الاقتراب بسرعة من الأرض، ثم الابتعاد عنها بنفس السرعة؟ وربما إذا استطعنا أن نفهم لماذا ما يزال القمر "يبتعد" عنا ببطء، عندها سنتمكن من فهم ابتعاده المفاجئ في الماضي؟**

مركب على جبل الأرارات

في **شرق تركيا**، وعلى أطراف الأناضول وقريباً من الحدود مع إيران وأرمينية، يرتفع جبل تغطيه ثلوج أبدية، ارتفاعه عن سطح البحر حوالي ٥١٦٥ متراً، مما لا يسمح باعتباره واحداً من أعلى الجبال في العالم، إلا أنه يعتبر واحداً من أشهر القمم على الأرض. **اسم هذا الجبل - أرارات.**

وفي الصباح الباكر عندما تكون السماء صافية، وقبل أن تغطي السحب قمة هذا الجبل، وكذلك عند الغسق عندما تنجلي الغيوم عنه كاشفة جبلاً يظهر على خلفية سماءٍ ورديةٍ أو بنفسجيةٍ أمام أعين الناظرين يلحظ كثيرون في الأعالي ملامح سفينة نوح، التي جاء ذكرها في القصص الدينية لملكة بابل ودولة السومريين التي ورد فيها اسم أوت ـ نابيشتيم بدلاً من نوح. وفي الأساطير الإسلامية كذلك خُلد نوح وسفينته العملاقة، إلا أنه مرة أخرى دون الإشارة من قريب إلى مكان وجودها في الجبال، التي تسمى هنا الـ جود (القمة) والتي يقصد بها أرارات، وهناك جبلان في منطقة الشرق الأوسط.

يقدم لنا الكتاب المقدس معلومات عن مكان تواجد السفينة ((....توقفت السفينة على جبل أرارات). لقد ذكر الرحالة الذين قاموا على مر مئات السنين برحلات إلى آسيا الوسطى أو العكس غير مرة أنهم رؤوا سفينة قرب الجبل أو لمّحوا بشكل سري عن نواياهم للبحث عن السفينة، حتى أنهم

أكدوا أنهم صنعوا تمائم من حطام السفينة لحمايتهم من العلل والمصائب والسموم والحب من طرف واحد.

ومنذ عام ١٨٠٠ تقريباً تسلقت مجموعات جبل أرارات حاملة معها قوائس ارتفاع، وفي مرحلة متأخرة كاميرات تصوير.

لم تكشف هذه البعثات عن البقايا الأصلية لسفينة نوح العملاقة، لكنهم وجدوا آثاراً لسفينة كبيرة، وفي الكتل الجليدية وقرب قمة الجبل تماماً لاحظوا تشكلات لألواح ضخمة مغطاة بالجليد شبيهة بألواح خشبية أزيحت بأيدي بشرية. وقد تأكد الرأي القائل بأن السفينة انزلقت بشكل تدريجي على سفح الجبل وتحطمت إلى أجزاء كثيرة، والتي تحتمل الآن أنها تجمدت في واحدٍ من الكتل الجليدية التي تغطي أرارات.

إن الأساطير حول السفينة الخشبية الكبيرة والتي بقيت لآلاف السنين ومرت عليها حضارات عدة لا تبدو صحيحة بشكل مطلق لكثيرين. وكما هو معلوم فإن الخشب والحديد والنحاس والآجر وبقية مواد البناء باستثناء الكتل الصخرية الهائلة، جميعها تتخرب مع مرور الزمن، فكيف يمكن والحالة هذه لسفينة البقاء على القمة؟ يبدو أنه يمكننا الإجابة على هذا التساؤل على النحو التالي فقط: لأن هذه السفينة تجمدت ضمن جبل جليدي. إن الطقس على ذروة أرارات في الكتلة الجليدية بين قمتي الجبل بارد جداً، ولكي تسلم السفينة المبنية من ألواح خشب سميكة "فقد تم طلاء هذه الألواح بشكل دقيق من الخارج والداخل" بالقطران كما تخبر الروايات التي وصلتنا من آلاف السنين. في تقارير متسلقي الجبال والطيارين حول مشاهداتهم للجسم الشبيه بالسفينة والذي لاحظوه فوق أرارات يأتي دائماً ذكر أجزاء من سفينة مغطاة بدرع متصل من الجليد، أو آثار ضمن حدود الكتلة الحديدية تذكر بملامح سفينة تماثل بأبعادها سفينة نوح التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس: ((٣٠٠ ذراع طولاً، وخمسون ذراع عرضاً، وثلاثون ذراع ارتفاعاً)).

وهكذا يمكن التأكيد أن سلامة (بقاء) السفينة يرتبط بشكل أساسي بالظروف المناخية. وكل عشرين عاماً تقريباً يتكرر حدوث ارتفاع غير عادي لدرجة الحرارة في منطقة أرارات الجبلية. فضلاً عن ذلك، يحدث كل عام في آب وبداية أيلول ارتفاع للحرارة وفي هذه الفترة تحديداً تظهر أخبار حول اكتشاف آثار سفينة كبيرة على الجبل. وهكذا، عندما تكون السفينة مغطاة بالجليد فإنها لا تتأثر بالعوامل الطبيعية مثلها مثل مجموعة كاملة من نماذج الحيوانات المنقرضة التي يعرفها العلماء: مثل ماموث سيبيريا أو النمور التي تميزت بأسنان شبيهة بالسيف وثدييات أخرى من العصر الحديث والتي تم إيجادها في آلاسكا وكندا الشمالية (شمال كندا). وعندما تم نزعها من الأسر الجليدي كانت ما تزال محتفظة بشكلها لدرجة أنه وجد في بطونها طعام لم يهضم بعد.

وبما أن قطاعات معينة من سطح أرارات تغطى بالثلج والجليد طيلة العام فإن الباحثين عن بقايا السفينة الكبيرة لم يستطيعوا رؤيتها. وإذا كانت هذه السفينة مغطاة دائماً بالثلج والجليد فوق الجبل فلا بد من دراسات خاصة موسّعة. إلا أن القيام بالدراسات أمر في غاية الصعوبة، وذلك لأن قمة الجبل تخفي خطراً على متسلقي الجبال. ويرى سكان القرى المحيطة أن مصدر الخطر يكمن في أن قوى غير طبيعية تحمي أرارات من محاولات الناس الباحثين عن سفينة نوح. هذه ((الحماية)) تظهر على شكل كوارث طبيعية: انهيارات ثلجية، انهيارات صخرية مفاجئة، عواصف قوية جداً قرب قمة الجبل تماماً. إن ظهور الضباب المفاجئ يحرم متسلقي الجبال من إمكانية الاسترشاد، ولذلك غالباً ما يجدون قبورهم بين حقول الثلج والجليد والشقوق العميقة، وفي حفر مغطاة بالثلج. وعلى سفوح أرارات تعيش أفاعٍ سامة كثيرة، وغالباً ما تشاهد قطعان من الذئاب وكلاب برية خطرة جداً ودببة تسكن في المغارات الصغيرة والكبيرة التي غالباً ما يحاول المتسلقون التوقف فيها، فضلاً

عن ظهور جماعات كردية بين الحين والآخر في المنطقة. إضافة إلى ذلك فقد قامت الحكومة التركية بحراسة سفوح الجبل زمناً طويلاً بوحدات من الشرطة.

شواهد تاريخية عديدة تعود لأشخاص زاروا المراكز السكانية والمدن المجاورة للجبل ويزعم هؤلاء أنهم لاحظوا على جبل أرارات شيئاً ما يشبه السفينة. مشاهدات أخرى تعود لرحالة زاروا مع قوافلهم بلاد فارس ومروا عبر هضبة الأناضول. ومع أن كثيراً من المعلومات تعود للأزمنة القديمة والعصور الوسطى فإن في بعضها تفاصيل لم يلاحظها الباحثون المعاصرون إلا في وقت متأخر. ففي عام ٢٧٥ ق.م كتب المؤرخ البابلي: ((السفينة التي في أرمينيا نزلت إلى اليابسة))، وإضافة إلى ذلك ذكر: ((لقد أزالوا القطران عن السفينة وصنعوا منه تمائم)). مثل هذه المعلومات تماماً ذكرها المؤرخ اليهودي يوسف فلاوي والذي كتب أعماله في القرن الأول وبعد احتلال الروم لفلسطين. لقد قدم معلومات مفصلة عن نوح والطوفان الذي شمل العالم، وكتب: ((إن جزءاً من السفينة يمكن كشفه في أيامنا هذه في أرمينيا... فالناس هناك يجمعون القطران ليصنعوا منه تمائم)).

في العصور الوسطى المتأخرة جاء في إحدى الأساطير أنه تم طحن القطران كالبودرة ثم قاموا بحله في سائل ثم شربوه وكان بمثابة عقار للحماية من التسمم.

إن إشارات هؤلاء الكتاب القدماء وغيرهم إلى قطران (زفت) السفينة لا تكتسب أهميتها من كونها تتطابق مع أماكن محددة من كتاب التكوين، بل لأنه تبين أن هذه السفينة الهائلة يمكن الوصول إليها بعد مئات السنين من الطوفان الشامل ولأن هذا يقدم تفسيراً حقيقياً لعدم تلف هذه العوارض والألواح الخشبية التي صنعت منها السفينة تحت الجليد الأبدي في أعلى الجبل.

يشير يوسف فلاوي في كتابه ((تاريخ الحرب اليهودية)) إلى أن: ((الأرمن يسمون هذا المكان "مرسى" حيث بقيت السفينة إلى الأبد ويشيرون إلى أجزائها الباقية حتى أيامنا هذه)).

نيكولاي من دمشق والذي كتب في القرن الأول الميلادي ((أحداث العالم)) سمى الجبل باريس: يوجد في أرمينيا جبل يسمى باريس، والذي نجا على قمته كثير من الهاربين من الطوفان الشامل. وهناك أيضاً على قمة هذا الجبل توقف شخص وصل بسفينة، والتي بقي حطامها وقتاً طويلاً. لقد كان باريس الاسم الآخر لجبل أرارات، والذي سماه الأرمن ماسيس كذلك.

واحد من أشهر الرحالة في الماضي ماركو بولو في الثلث الأخير من القرن الخامس عشر مر بالقرب من أرارت في طريقه إلى الصين. احتوى كتابه ((ترحال ابن فينيسيا ماركو بولو)) خبراً صاعقاً: ((...يجب أن تعلموا أنه في هذا البلد أرمينيا وعلى ذروة جبل عالٍ ترقد سفينة نوح مغطاة بثلج أبدي ولا يستطيع أحد الوصول إلى القمة، فضلاً عن أن الثلج لا يذوب أبداً والهطولات الثلجية تزيد من سماكة الغطاء الثلجي. إلا أن الطبقات السفلية منه تذوب ببطء مشكلة أنهاراً وجداول يتسبب جريانها في الوادي بترطيب الوسط المحيط والذي ينمو عليه غطاء نباتي كثيف يجذب في الصيف قطعاناً مختلفة وكثيرة العدد من الحيوانات العاشبة الضخمة والصغيرة)).

إن هذا الوصف لجبل أرارات حافظ حتى وقتنا هذا على مطابقته للواقع باستثناء تأكيده بعدم مقدرة أي إنسان الصعود إلى الجبل. ومهم جداً في مشاهدته أن الثلج والجليد يذوبان بجوار اليابسة (التراب) وتجري المياه من أسفل الكتلة الجليدية. ونذكر على وجه الخصوص أن الباحثين المعاصرين اكتشفوا في الشقوق ضمن الكتل الجليدية ألواحاً وأعمدة خشبية عالجتها يد الإنسان.

الرحالـة الألمـاني آدم أولبـاري تواجـد بـالقرب مـن أرارات في بدايـة القـرن السادس عشر وذكر في كتابه ((رحلة إلى موسكو وفارس)): ((يعتبر الأرمن والفرس أنه ما يزال على قمة الحبل المذكور حطام السفينة الذي أصبح مع مرور الزمن صلباً وقاسياً كالصخر)).

إن ملاحظـة أوليـاري حـول تحـول الأخـشاب إلى صـخر (تـصخّر) تخـص العـوارض الـتي تم إيجادهـا فـوق حـدود منطقـة الغابـة وتقـع الآن في كنيـسة اتـشميادزين؛ وهـي شـبيهة بـأجزاء مـستقلة مـن الـسفينة والـتي وجـدها الباحـث ومتسلق الجبال الفرنسي فرنان نافارا ورحالة آخرون في وقتنا الحاضر.

راهب الفرانسيسكان أوديريخ الذي أخبر البابا في أفنينيـون عـن رحلاتـه، رأى في عام ١٣١٦ جبل أرارات وكتب بهذا الشأن: ((لقد حدّثنا الناس الذين يعيـشون هنـاك أن أحـداً لم يتـسلق الجبـل لأن ذلـك يمكـن أن لا يعجـب الـرب الأعلى...)). إن الأسطورة القائلة بأن الإله لا يسمح للناس بتسلق أرارات تعيش حتى يومنا هذا. ولم يُكسر هذا الحظر إلا في عام ١٨٢٩ من قبل الفرنسي خ.ف.بارّو الذي قام بأول تسلق إلى قمة الجبل. وقد سُميت الكتلة الجليدية على السفوح الشمالية ـ الغربية باسمه. بعد خمسين عاماً بدأت بشكل فعلي مسابقات لكسب السبق في إيجاد بقايا سفينة نوح. في عام ١٨٥٦ استأجر ((ثلاثة ملحدين أجانب)) دليلين في أرمينيا وانطلقوا بهدف ((دحض وجود سفينة الكتاب المقدس)). وفقط بعد عشرات السنين وقبل موته اعترف أحد الأدلاء أنهم "ولعظيم دهشتهم اكتشفوا السفينة". في البداية حاولوا تدميرها ولكنهم لم يستطيعوا لأنها كانت كبيرة جداً. وعندها أقسموا أن لا يحدثوا أحداً عن لقيتهم وأجبروا مرافقيهم على ذلك أيضاً...

في عام ١٨٧٦ اكتشف اللورد برايس وعلى ارتفاع ١٣ ألف قدم (٤,٣ كم) نموذجاً من عارضة خشبية مصقولة بطول أربعة أقدام (١,٣ متر) وأخذ منها

عينة. وفي عام ١٨٩٢ شاهد كبير الشماسين نوري مع خمسة من مرافقيه ((سفينة خشبية كبيرة)) قرب القمة. والحقيقة أن شهادته بقيت دون إثبات.

في عام ١٩١٦ وخلال الحرب العالمية الأولى أخبر الطيار الروسي ف.روسكوفيتسكي في تقريره أنه رأى من طائرته ((**سفينة كبيرة مستلقية**)) **على سفوح أرارات.**

وبصرف النظر عن ظروف الحرب فقد بدأت البعثة التي جهزتها الحكومة الروسية أعمال البحث. وبالنتيجة، أكد بعض المشاركين المباشرين في البعثة أنهم حققوا الهدف وتم تصويره ودراسته بشكل تفصيلي. ومن المؤكد أنها كانت البعثة الرسمية الأولى والأخيرة إلى السفينة. ولكن، للأسف فإن نتائجها ضاعت في بتروغراد عام ١٩١٧ وأرض أرارات الكبيرة تم احتلالها من قبل القوات التركية..

في صيف عام ١٩٤٩ اتجهت إلى السفينة معاً مجموعتان من الباحثين. الأولى بقوام أربعة أشخاص يرأسهم المتقاعد الدكتور سميث من كارولينا الشمالية وقد شاهدت على القمة "شيئاً" غريباً واحداً. أما الثانية فتشكلت من الفرنسيين وقد أخبرت أنهم ((رأوا سفينة نوح... ولكن ليس على جبل أرارات)). وإنما على جبل جود. وهناك أيضاً ادعى صحفيان تركيان أنهما ربما رأيا سفينة أبعادها ٥٠٠ x ٨٠ x ٥٠ قدماً (١٦٥ x ٢٥ x ١٥ متراً) وفيها عظام حيوانات بحرية. ولكن بعد ثلاثة أعوام لم تكتشف بعثة ديكر أي شيء من ذلك. في عام ١٩٥٥ تسنّى لفرنان نافّارا إيجاد سفينة قديمة بين الجليد، وقد انتزع من تحت الجليد عارضة على شكل Γ ومجموعة من ألواح الحاشية. بعد ١٤ عاماً كرر محاولته بمساعدة المؤسسة الأمريكية ((سيرتش ـ بحث)) وأحضر عدة ألواح إضافية. وقد بينت طريقة تقدير العمر بواسطة الكربون الإشعاعي أن عمر الألواح ١٤٠٠ سنة، وفي بوردو ومدريد كانت النتيجة ٥٠٠٠ عاماً.

وفي إثر نافارّو اتجه إلى أرارات جون ليبي من سان فرنسيسكو، والذي كان قد رأى توضعاً دقيقاً للسفينة في الحلم قبل ذلك بفترة وجيزة.. ولكنه لم يجد شيئاً. ابن السبعين ((ليبي المسكين)) كما أسماه الصحفيون، قام خلال ثلاث سنوات بسبعة تسلقات فاشلة كاد يموت في إحداها على يد دب يرمي الحجارة!.

كان توم كروتسر واحداً من الذين تسلقوا خمس مرات. وعندما كان عائداً يحمل لوحاً ـ غنيمة، قال أمام ممثلي الصحافة: ((نعم، قسماً برأسي، إن هذا اللوح الخشبي هناك يزن ٧٠ ألف طن)). ومن جديد أظهر تحليل الكربون الإشعاعي أن عمر الألواح حتى ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ سنة.

انقطع تاريخ جميع البعثات (الرسمية على الأقل) عام ١٩٧٤. ففي هذا الوقت وضعت الحكومة التركية مخافر لحراسة الحدود على أرارات وأغلقت هذه المنطقة أمام أي زيارة ومن أي نوع.

وعلى التوازي مع البعثات "البرية" وردت معلومات حول السفينة من الطيارين. ففي عام ١٩٤٣ حاول طياران أمريكيان أثناء تحليقهما فوق أرارات رؤية شيء ما يشبه السفينة من على ارتفاع آلاف الأمتار. بعد ذلك، وأثناء طيرانهما وفق نفس المسار أحضرا مصوراً قام بالتقاط صورة ظهرت في جريدة القوى الجوية الأمريكية "ستارز آند سترابس".

في صيف ١٩٥٣ قام أمريكي يعمل في حقل النفط اسمه جورج جيفرسون غرين أثناء طيرانه في حوّامة في تلك المنطقة ومن على ارتفاع ثلاثين متراً بالتقاط ست صور دقيقة جداً لسفينة كبيرة دخل نصفها بين الصخور الجبلية والجليد المنزلق عن الحيد (الحافة) الجبلي.

لم يتسنَّ لغرين بعد ذلك تجهيز بعثة إلى هذا المكان وعندما مات بعد تسع سنوات اختفت جميع الصور الأصلية التي التقطها.

في أواخر الربيع أو في صيف عام ١٩٦٠ لاحظ طياران أمريكيون من السرب ٤٢٨ طيران تكتيكي المنتشر قرب أضنة في تركيا والتي تدخل ضمن قوات الناتو، وجود هيكل شبيه بسفينة على السطح الغربي لأرارات. وعن هذه الطلعة كتب النقيب الأمريكي شفينغ هامر في عام ١٩٨١ ما يلي: ((شاحنة ضخمة أو مركبة مستطيلة الشكل في شق مليء بالماء في أعالي الجبل كانت ملحوظة تماماً)). مع العلم أنه أكد أن هذا الجسم انزلق ببطء على السفح نحو الأسفل وكان يجب أن يستعصي بين الكتل الصخرية.

في عام ١٩٧٤ قامت مؤسسة أمريكية تسمى (**Earth Research Technical Sat**) (**ERTS**) بالتقاط صور من ارتفاع ٤٦٠٠ متر للأطراف الجبلية لأرارات. في الصور التي تم تكبيرها لعدد كبير من المرات ظهر بوضوح الشيء غير العادي المتوضع في أحد شقوق الجبل ((شبيه جداً من حيث الشكل والأبعاد بمركب)). عدا عن ذلك، فلقد تم تصوير هذه المنطقة من ارتفاع ٧٥٠٠ و ٨٠٠٠ م، والصور الحاصلة للتشكُلات الجليدية تتطابق تماماً مع ما ذكره الطياران في السابق والذين تحدثوا عن رؤيتهم لمركب أو شيء غير عادي. غير أنه لا يمكن مطابقة أي جسم تم تحديده من هكذا ارتفاع، وحتى لو تم تضخيمه لأي درجة مع مركب، وكما هو معلوم فإن أكثر من نصفه مخفي تحت الثلج أو يقع في ظل الصخور الجبلية.

في عام ١٩٥٨ قام رجل أعمال أمريكي يعيش في ألمانيا اسمه ت.ماكنيلليس برحلة في الحزام الشمالي - الغربي والشمالي الشرقي لأرارات وتحدث كثيراً مع السكان المحليين كما التقى مع ضباط أتراك قدامى حصلوا على تعليمهم العسكري في ألمانيا، وشبان أتراك عملوا في ألمانيا في السنوات الأخيرة. إن كثيرين منهم مقتنعون أنه يمكن بسهولة إيجاد السفينة: ((اذهب نحو اليسار ثم نحو الأعلى على طول حافة هاوية أور ثم انعطف نحو اليسار مرة أخرى وبعد بعض الوقت ستصل وفق هذا الطريق إلى السفينة)).

لقد بينوا له أن السفينة لا ترى من الحيود السفلى لأن السفينة التي انزلقت لآلاف السنين من قمة الجبل ترتكز الآن بهدوء تحت غطاء جليدي سميك للنهر الجليدي الهائل.

وهكذا نرى أن هناك شواهد كثيرة على وجود السفينة. ولكن لكي تصبح موثوقة يلزم إيجاد السفينة نفسها. ربما الآن، وبسبب الارتفاع العام في درجات الحرارة، ستتجدد البعثات إلى أرارات؟ وحتى ذلك الوقت يبقى لنا أن نأمل أن السفينة القديمة المحفوظة لن تتبدد بانتظار الباحثين.

حادثة في روس ويل

في خريف عام ١٩٩٦ نشرت قيادة القوى الجوية الأمريكية تقريراً طال انتظاره، احتوى على نتائج التحقيق الرسمي بالحادثة التي جرت منذ خمسين عاماً مضت في ضواحي روس ويل في ولاية نيومكسيكو. لقد أصبح مرعى الأغنام المتوضع على بعد ١٢٠ كم عن المدينة والذي جرت فيه الحادثة اليوم موضوعاً مركزياً للأساطير المتعلقة بالأجهزة الطائرة مجهولة الهوية. وقد خيّب التقرير آمال الذين تعطشوا للمفاجآت: فلقد أكدت النتائج التي تضمنها أن الحطام ((غير الأرضي)) الذي تم إيجاده في عام ١٩٤٧ بالقرب من مدينة روس ويل ما هو إلا بقايا منطاد تجسس كانت الولايات المتحدة تستخدمه لمراقبة التجارب النووية السوفيتية.

وبهذا الشكل أغلقت القضية. **ولكن ما الأساس الذي بنيت عليه الأسطورة التي شغلت المجتمع واستخدمت بمثابة ((برهان)) على زيارة مخلوقات غير أرضية لأرضنا؟**

في الأيام الأولى من تموز عام ١٩٤٧، وبينما كان يسوق أغناماً في المرعى اكتشف مزارع في الحقل بقايا جسم طائر غريب، والذي يرى المختصون بدراسة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية بأنه ليس إلا سفينة فضاء لا أرضية تعرضت لحادث.

وخلال الخمسين سنة التالية عاشت القصة التي نشأت حول ((الحادثة في روس ويل)) حياتها الخاصة متزايدة يوماً بعد يوم بتفاصيل وشائعات جديدة بعضها لا يقارب الحقيقة مطلقاً وتحولت تدريجياً إلى أسطورة.....

مرات عدة غيّرت السلطات المدنية والعسكرية الأمريكية الرواية الرسمية لهذه الحادثة الغامضة. والرواية الأولى ذكرت أن الجسم الغامض كان مسباراً للأرصاد الجوية. وبعد ذلك أعلنوا أنه جهاز استطلاع طائر سري كانت مهمته مراقبة تجارب الأسلحة النووية السوفيتية.

لكن التفسيرات الرسمية لم تستطع إرضاء المجتمع. فالمرتابون، الذين لم يصدقوا يوماً بوجود أجسام طائرة مجهولة الهوية لم يرتاحوا لفكرة أن الحكومة والعسكريين يمكن أن يمارسوا هكذا حماقة. أما الذين كانوا يصدقون بفرضية وجود أجسام طائرة مجهولة الهوية، وعددهم كثير جداً، فلقد وجدوا في الوثائق الرسمية كماً هائلاً من الأخطاء والتضاربات والاختصار، وهذا ما قوى اعتقادهم في أن السلطات تخفي الحقيقة حول ما حدث في روس ويل.

ترى ما الذي حدث بالفعل؟؟!!!!!!!

يتفق في الوقت الحاضر جميع المختصين حول الحادثة الغامضة على أنه في نهاية حزيران عام ١٩٤٧ وفي ضواحي روس ويل جرت أحداث غريبة. وفي أحد الصباحات المبكرة عثر المزارع وليم بريزل في مرعى للأغنام على جسم طائر متحطم. وفي مكان الكارثة وجد حطام معدات إصلاح معدنية خفيفة، وأسلاكاً مختلفة الألوان، وأطباقاً من الورق المفضض... لقد وجد الراعي أن الورق المفضض (السيلوفان) لا يقص بسكين المائدة ولا يحترق إذا ما قربت منه عود ثقاب مشتعل.

بعد مرور عدة أيام، وفي ٦ تموز ١٩٤٧، وعملاً بنصيحة الجيران، قام بريزل بجمع بعض الأشياء من مكان الكارثة، وأحضرها إلى رئيس مخفر الشرطة في مدينة روس ويل، وفي اليوم التالي ظهر في مرعى بريزل ضابطان اثنان من الاستطلاع العسكري. وبمساعدة بريزل قاما بجمع كل الأشياء الموجودة في الحقل وأحضروها إلى القاعدة الجوية. أحد هؤلاء الضباط وهو الرائد جيسي أ.مارتشل، الذي خدم في الفوج **509-m** قاذفات، نزل إلى منزله بينما كان متجهاً إلى القاعدة، وأيقظ ولده الذي كان عمره ١١ عاماً وعرض له ((قطع)) ((الصحن الطائر)) المتحطم. هذا ما يتذكره الآن جيسي الصغير، والذي هو الآن طبيب ويعمل في مونتانا ويعتبر واحداً من الشهود القلة لحادثة روس ويل الذين ما زالوا على قيد الحياة. وكلمات والده تعتبر الآن دليلاً رئيسياً لأولئك الذين كانوا مقتنعين بأن السلطة كانت تعرف منذ البداية بأن ما تم إيجاده هو جسم طائر مجهول ليس أرضي المنشأ.

تفحص قائد القاعدة المواد التي تم جمعها في حقل بريزل. وبعد أن تفحصها استدعى مندوب الصحافة لديه وكلفه بأن يخبر الصحافة المحلية بأن القاعدة الجوية حصلت على بقايا حطام ((الصحن الطائر)) الذي حصلت له كارثة في ضواحي روس ويل. هذا الخبر ظهر في الثامن من تموز عام ١٩٤٧ في العمود الأول من جريدة ((روس ويل ديلي ريكورد))، وفي اليوم التالي تماماً قامت الصحيفة ذاتها بنفي المعلومات السابقة. ولقد تبين أن الجنرال روجر م. رايم، الذي يقود الجيش الجوي الثامن أوضح أن ما سمي ((بالصحن الطائر)) لم يكن إلا مسباراً للأرصاد الجوية. ولكن هذه لم تكن نهاية القصة، بل على العكس ـ بدايتها...

لقد كتب حتى اليوم حول ((حادثة روس ويل)) أكثر من نصف دزينة من الكتب وعدد غير محدد من المقالات، وحتى أنه تم تصوير فيلم سينمائي. ولكن الوقائع التي أوردناها سابقاً تنضوي ضمن المعلومات الموثوقة التي ليس

فيهـا لـبس. وسـنورد لاحقـاً الروايـات والفرضـيات والمـزاودات والأسـاطير، وبكلمات أخرى كل ما لا يمكن تصديقه أو نفيه.

ولكي نفهم الأسباب التي جعلت حادثة ((روس ويل)) تحتل مكاناً رائداً في العلم الذي اهتم بالأجسام الطائرة غير محددة الهوية، يجب أن نلفت الانتباه إلى عدة وقائع:

الأهـم مـن بينهـا هـو الاعـتراف الرسمـي وغـير الحـذر لمندوب الـصحافة في القاعدة الجوية الأمريكية في روس ويل، بوجود الأجسام الطـائرة غير محددة الهوية وهـي الحالة الوحيـدة في تـاريخ التعامـل مـع ((الأطبـاق الطـائرة)). علمـاً أن النص الأصلي للمندوب لم يذكر أن البقايا الـتي وجدت ذات منشأ لا أرضـي. أما نفي الجنرال رايم فقد أضاف دسيسة إضافية للقضية: فكمـا هـو معـروف مـن وجهـة نظـر المجتمـع، تـزداد مـصداقية الأحـداث الـتي يتم دحضها بـشكل رسمـي.

جدير بالذكـر، أن الوثائق التي نزعت عنهـا الـسرية في التسعينات تؤكـد أن الجنـرال لم يقـل الحقيقـة ولم يـستطع حتـى قولهـا: فالجـسم الـذي تم اكتـشافه في عزبـة بريـزل لم يكـن مـسباراً للأرصـاد الجويـة. وعلـى الأغلـب كـان الحديث حول جهاز استطلاع سري مسير بدون طيار.

في نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة تم اختيـار المدينـة الريفيـة الـتي نـسيها اللّه روس ويل بمثابة موقع لتعسكـر الفـوج الجـوي **509** قاذفـات مـن القـوات الجويـة الأمريكيـة. لقـد كانـت طـائرات هـذه المجموعـة الجويـة الوحيـدة في العـالم في ذلك الوقت التي تحمل سلاحاً نووياً.

وتحديداً من روس ويل انطلق ((الحصن الطائر)) "إنولا هـي" الـتي أسـقطت أول قنبلة نووية علـى هيروشـيما. أمـا ألامـو ـ غـوردو، فكـان أول انفجـار نـووي تجـريبي، ويقـع علـى بعـد ٢٠٠ كـم فقـط عـن روس ويـل، ولقـد شـوهد اللـهب

الناتج عن اختبار الآزوت الثلاثي بوضوح من هنا. ولكي تطمئن السكان المحليين فلقد أصدرت ((الديلي ريكورد)) في روس ويل في اليوم التالي للانفجار النووي ملاحظة قصيرة ذكرت فيها أنه قرب القاعدة الجوية العسكرية هولدمان في لامو ـ غورده ولسبب ما انفجر مستودع ذخيرة. نذكر أيضاً أنه في عام ١٩٤٧ كانت قد بدأت ((الحرب الباردة))، وإذا كانت السلطات العسكرية قد قررت إعلان شيء ما للجمهور حول ما يحدث في هذه المنطقة المغلقة من ولاية نيومكسيكو، فإنها فعلت ذلك مرغمة.

ولكن ما السبب الذي جعل العقيد بلانشر يخبر مندوب الصحافة لديه حول الأطباق الطائرة أو الأقراص. ربما لم ينتبه لأهمية هذا الحدث ـ فالعالم بدأ للتو في دخول ((**عصر الأطباق الطائرة مجهولة الهوية**)).....

وفي الحقيقة أن ((عصر الأطباق الطائرة)) بدأ بالفعل وقبل أسبوعين من ((حادثة روس)) تماماً. في ٢٤ حزيران عام ١٩٤٧، كان كينيت أرنولد وهو طيار هاوٍ من مدينة ياكيم على الحدود مع كندا وولاية واشنطن وعلى بعد ألف ميل عن روس ويل، (كان هذا الطيار) يحوم بطائرته فوق السلسلة الجبلية ماونت ـ رينير بحثاً عن طائرة تحطمت في الجبال. وفي لحظة ما استرعت انتباهه تسعة أجسام لها شكل الأقراص طارت بسرعة قدّرها الطيار بحوالي ١٧٠٠ ميل (حوالي ٢٧٠٠ كم/سا). لقد طارت بشكل منتظم وكأنها صحون تنزلق في الماء. وحيث أن أرنولد كان إنساناً "مستقيماً" ـ طياراً خبيراً ورجل أعمال محترم، ومساعداً لرئيس المخفر في مدينته فإن إخباريته لم تكن محط سخرية أحد وكانت موضع اهتمام القوات الجوية والصحافة والرأي العام للمجتمع. وقد تناقلت الصحافة العالمية خبر لقائه مع الأجسام الغامضة وقد دخل مصطلح ((الأطباق الطائرة)) منذ ذلك الحين بقوة في اللغة الحديثة.

لا بد أن العقيد بلانشار سمع بهذا الخبر الذي كان ما يزال طازجاً في

ذلك الوقت. وأغلب الظن أن رئاسة تحرير ((روس ويل ديلي ريكورد)) كانوا يعلمون عن ذلك. وربما أصابهم الحسد جراء الشهرة المفاجئة لمدينة ياكيم فحاولوا تحقيق النجاح نفسه، ولكن لم يجدوا سوى الخيبة: فبعد تفنيد الجنرال رايم هدأت المفاجأة حول ((حادثة روس ويل)) قبل أن تصعد. **وهكذا كانت ستبقى مدينة روس ويل منسية ومهجورة لولا أن ((عصر الأطباق الطائرة)) بدأ....**

في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين صار موضوع الأطباق الطائرة يناقش بنشاط في الصحافة. وقد ظهرت بانتظام لقاءات جديدة مع الأطباق الطائرة في صفحات الصحف. وقد اعتمدت المواد عادة على روايات بعض الشهود الذين شاهدوا أطباقاً طائرة في مكان ما ناءٍ يعيشون فيه. ولكن بعض الزيارات، كالتي حدثت فوق واشنطن مثلاً، فقد رآها مئات الناس مرة واحدة. حتى أن هذا الحادث الأخير أجبر القوات الجوية الأمريكية على رفع الجاهزية القتالية. وبالتدريج اكتسب موضوع الأطباق الطائرة شهرة عالمية.

في هذا الوقت، وكأنه تحد لقوات الدفاع الجوية لجميع بلدان العالم، أصبح ((**القادمون من الفضاء**)) أكثر وقاحة سنة بعد سنة. ومنذ النصف الثاني للخمسينيات تزايد ظهور أخبار حول وقائع هبوط مثبتة للأقراص الطائرة، ومن ثم ـ حول اتصالات لأهل الأرض مع ((القادمين)). في البداية، وفي مختلف الشهادات، اختلف الشكل الخارجي وأبعاد القادمين بشكل كبير. وفي أغلب الأحيان كانوا كائنات خضراً طول الواحد منهم متر ونصف، برؤوس كبيرة وعيون ضخمة. بعض الشهود قابلوا بشراً ـ قروداً بقامة قصيرة وبشرة برونزية، ويرتدون لباساً أسود يذكر بالدرع، وبعضهم الآخر تواصل مع شقراوات بعيون زرق وقامات طويلة مثل الشماليات. وبالتدريج

أصبح النوع المسيطر للقادمين في شهادات الشهود أقزام خضر بعيون كبيرة وثلاث أصابع ورأس أصلع.

في هذه الفترة من ((عصر الأطباق الطائرة)) ذاع صيت أحد سكان كليفورنيا الجنوبية المشهور جداً لدى القادمين الفضائيين جورج آدامسكي الذي حظي بعظيم محبتهم لدرجة أنهم كشفوا له خلال إحدى لقاءاته العديدة معهم، عن هدف قدومهم إلى الأرض. وقد تحدث آدامسكي نفسه عن ذلك في كتابيه، ((**بشر خضر**)) **طاروا إلينا من الزهرة** لإنقاذ أرضنا من التجارب المدمرة لانشطار النواة الذرية، ومن صنع السلاح الذري ومن الحرب النووية الممكنة. ومن المحتمل أن يكون وحي الزائرين قد أثر في روح السياسة العالمية، لأنه بعد فترة قصيرة تم حظر التجارب النووية في الغلاف الجوي.

كما أن أسقف ليون أغوبار كتب في ((كتاب يعارض الآراء الكاذبة حول الرعد والبرق)) أنه ذات مرة في بروفانس شاعت خرافة مفادها أن سحرة أرضيين أقاموا اتحاداً مع ((أناس من الغيوم))، وقاموا بعواصف أسقطت بَرَداً وباعوا المحصول المخرّب بنتيجة العاصفة إلى شركائهم: ((لقد رأينا وسمعنا، كيف أن أناساً كثيرين، أغبياء وعميان لدرجة أنهم صدقوا بوجود منطقة ما تسمى ماغونسي، أكدوا أن هذه المنطقة جهزت سفناً تسبح مع الغيوم لأخذ ثمار الأرض التي خربها البرد والعاصفة. حتى أننا رأينا عدداً من هؤلاء الحمقى الذين اعتبروا ذلك حقيقة وأحضروا إلى الاجتماع أربعة أشخاص مكبلين بالسلاسل: ثلاثة رجال وامرأة، والذين أعلنوا أنهم سقطوا من هذه السفن. وبعد أن احتجزوهم مدة أربعة أيام خلف القضبان الحديدية أحضروهم إلى لأحكم عليهم بالموت رجماً بالحجارة)). ويحتمل أن تكون المعلومات حول ((الحمقى سخيفي العقول))، الذين سقطوا من سفن فضائية هي من أوائل الشواهد حول البشر الذين تواجدوا على متن الأطباق الطائرة.

ولكـن إذا اسـتطاع آدامـسكي مـصادفة ((الخـضر)) وتـشرب عبقـريتهم والتنـزه في ((الـصحن))، فـإن حظ متواصلين آخـرين كـان أقل بكـثير: فلقـد كـانوا بمثابـة ((أرانـب تجـارب)) للقـادمين إلى الأرض. فلقـد نفـذ الغربـاء عـن الكـوكـب علـى هـؤلاء تجـارب علميـة، بعـضها كـان قاسـياً، أمـا الأرضـيين المساكين فكـانوا بمثابة مـواد مخبرية لتجـاربهم. ولـيس عجبـاً أن كـثيراً مـن ((أرانـب التجـارب)) هـؤلاء قـد أصيبوا بمس في عقـولهم! والـضحية الأولى لهذه التجـارب أصبح المـواطن البرازيلـي انطونيـو ويليـاش بـواش في عـام ١٩٥٧. وقـد تحدث أنه في إحدى المقابلات سيئة الذكـر مع الزوار تم أخذه إلى متن السفينة الفضائية وأجبروه بـالقوة علـى القيـام بمواقعـة جنسية مـع أنثـى فضائية شـقراء كما يزعم الضحية. بعد ذلك وضحت لـه الـشقراء أن تجربة المواقعـة قـد تمـت بنجاح...

ومنـذ بدايـة الـسبعينيات ظهـر في الطـب النفـسي (طـب الأمـراض العقليـة) منهاج خاص لمداواة هكذا حالات. وقد قام بروفيسور الطب النفسي في جامعـة ولايـة واي أومينـغ ليـو سـبرينكل في الأعـوام ١٩٦٤ ـ ١٩٨٥ بتقـديم المـساعدة الطبيـة لأكثـر مـن ثلاثمئـة مـن ((ضـحايا الـزوار الفـضائيين)). أمـا الطبيـب النفسي جون مـاك مـن جامعـة هـارفـارد فقـد طبـع كتابـاً في عـام ١٩٩٤ أسمـاه ((الاختطاف: لقاءات الناس مع الـزوار الفـضائيين))، والـذي أورد فيـه معطيـات تفيد أنه يعيش في أمريكا حوالي مليون مريض عليهم أعراض ((ضحايا الزوار الفـضائيين)). والأعـراض الأساسـية للمـرض هـي حالـة القلـق، والأرق، والإحـساس المفـاجئ بـالخوف، واضـطرابات معديـة. يقـوم سـبرينكل ومـاك وأطباء نفس آخرون بمعالجـة هـذا المـرض في أغلـب الحـالات عـن طريق التنـويم المغناطيسي.

في الفـترة الـتي نـشرت فيهـا معلومـات حقيقيـة وأخـرى كاذبـة حـول وقـائع اللقـاءات مـع الأجـسام الطـائرة مجهولـة الهويـة وتواصـلها مـع سـكان الأرض،

انقسم العالم مع نهاية الخمسينيات إلى معسكرين يؤيد كل منهما إيديولوجيا تنافي إيديولوجيا المعسكر الآخر ومسلح بكل أنواع الأسلحة، وقد راقب كل من المعسكرين باهتمام شديد ما يحدث في الفضاء. في الولايات المتحدة أسند واجب الدفاع الجوي للبلاد إلى القوى الجوية، والتي كانت قيادتها تميل إلى الاعتقاد أن الأجسام الطائرة مجهولة الهوية والتي سجلتها شاشات الرادارات مصدرها من الأورال (منطقة في روسيا) وليس من كوكب آخر. وفي عام ١٩٤٨ شكلت قيادة القوى الجوية الأمريكية مجموعة عملياتية تحمل اسم ((مشروع الأثر))، والتي كانت مهمتها الحصول على معلومات موثوقة حول ((الأطباق الطائرة)). وقد تمت دراسة ١٢٢ خبراً (إخبارية) حول الأجسام الطائرة مجهولة الهوية استلمتها القوى الجوية خلال عام ١٩٤٧. في ١١٠ حالات ((تم التعرف)) على الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، و ١٢ واقعة بقيت دون توضيح.

هذه الدراسات تمت متابعتها في إطار مشاريع ((غراج)) و((الطائر الأزرق)) - وهذا الأخير عمل من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٩. وقد أُخضعت للتحليل ١٢٦١٨ واقعة مراقبة للأجسام الطائرة مجهولة الهوية. وبعد حذف حالات واضحة لا علاقة لها بالأجسام الطائرة مجهولة الهوية بقيت في القائمة ٧٠١ حالة (حوالي ٥ بالمئة من العدد الأولي) لم يكن بالإمكان خلالها التعرف على الأجسام الطائرة. ونذكر هنا أن ((حادثة روس ويل)) لم تدخل في هذا العدد.

قامت القوى الجوية الأمريكية بالتدريج بطيِّ جميع الدراسات بعد أن اعتبرت العمل عليها لاحقاً غير ضروري وأصدرت تقريراً خاصاً قدمته إلى خبراء مستقلين من جامعة كولورادو. وبعد دراسة تقرير القوى الجوية خلص الخبراء إلى أنه لا يوجد أي دليل على أن الأجسام الطائرة مجهولة الهوية هي سفن فضائية تقودها كائنات عاقلة من كواكب أخرى.

لقد بدا أن الإنهاء الرسمي لدراسة ((قضية الأجسام الطائرة مجهولة الهوية)) يجب أن يضع نهاية للمزاودات بموضوع اللقاءات مع الزوار الفضائيين.

وفي الواقع لا يمكن اعتبار أن ذلك تناقضاً ـ فلقد حدث العكس. فمنذ أن كفّ العسكريون عن الاهتمام بموضوع الأجسام الطائرة مجهولة الهوية استلم الراية منهم المجتمع ممثلاً بالمهتمين بالأطباق المجهولة وهم جمع من المجانين والسخفاء والباحثين المغرضين لكل ما هو غامض ومبهم.

وفي العام الذي توقف فيه العمل بمشروع ((الطائر الأزرق))، طبع إيريخ فون دينيكان كتابه ((عربة الآلهة)). وقبله بثلاث سنوات أصدر جون فوللر كتاباً كان الأكثر مبيعاً أسماه ((مقاطعة الرحلة)) ـ وهو عبارة عن وصف لمغامرات زوج من الأمريكيين تم اختطافهم من قبل طاقم جسم طائر مجهول الهوية في الجبال البيض شمال شرق ولاية هامبشر.

وبدأت تظهر معلومات حول زوار أقاموا تجارب على الناس. وفي روسيا برهن أتباع دينيكان البدائيين بشكل خيالي الأصل اللاأرضي لبابا ـ ياغا وكوشي ـ يبيسمرتني (شخصيات خرافية تملك قوى سحرية في الأدب الشعبي الروسي). وقد مرت عشرة أعوام تقريباً قبل أن يتم من جديد ((فتح)) "حادثة روس ويل" وزجها في دائرة المهتمين بالأجسام الطائرة المجهولة الهوية باعتبارها حالة ((شرعية)) لتواصل البشر مع زوار من عوالم أخرى. ويعود الفضل في هذا "الفتح" إلى الباحث في الأجسام الطائرة الكندي ـ الأمريكي ستنتون فريدمان الذي قام في نهاية السبعينيات من القرن العشرين بدراسة خاصة لقضية روس ويل. وقد طبع استنتاجاته ضمن سلسلة الكتب المفاجئة، أما مشاركته في البرنامج التلفزيوني ((سر لم يُكتشف)) فقد أكسبت ((حادثة روس ويل)) شهرة واسعة.

بعد فريدمان انبرت مجموعة من الباحثين في الأجسام الطائرة مجهولة الهوية لتضيف وتطور روايته لـ ((حادثة روس ويل))، وبعضهم تقدم بروايات منافسة لأحداث عام ١٩٤٧. وبنتيجة ((نشاطاتهم البحثية)) "اكتسبت" أسطورة روس ويل تفاصيل جديدة. واعتمد أساس الأسطورة فرضيتين: في صيف عام

١٩٤٧ وفي ضواحي روس ويل تحطمت سفينة فضاء لا أرضية، وقد مات طاقمها؛ وقد أخفت السلطات العسكرية الحقيقة عن المجتمع وأحاطت جميع المعلومات بالسرية وقامت ((بمؤامرة صمت))، شاركت فيها القيادة العليا للدولة. ولقد أصبح واقع أن روس ويل وضواحيها كانت في أربعينيات القرن العشرين وبعده منطقة إستراتيجية سرية ((اختياراً)) مناسباً ـ وبدأت نغمة السر الحكومي ((تعمل)) لصالح الأسطورة. وبهذا الشكل لم يكن معروفاً من أين ظهر ((بشر يلبسون السواد)).. والذين تبين أن هدفهم ملاحقة أو قتل جميع الشهود غير المرغوب بهم لـ ((حادثة روس ويل)). ويرى فريدمان وزملاؤه أنه تم إغلاق فم الصحافة بشكل غير لائق، حيث أمرت بنشر إعلان مفاده أن الجسم المتحطم كان مسباراً للأرصاد الجوية.

وعندما استطاع الباحثون ((المستقلون)) طباعة أعمالهم تبين أنه في صيف ١٩٤٧ حصلت ثلاث حوادث على الأقل لأجسام طائرة مجهولة الهوية، مع العلم أنه قد عثر في مكان إحدى الحوادث على أربعة قتلى من الطاقم. وحسب معلومات الشهود فإن واحداً من الطاقم كان ما يزال حياً عندما حضر العسكريون إلى المكان وسلبوا الأرض، وهم الشهود ذاتهم الذين تبين أن ذاكرتهم لسبب ما متأثرة جداً بروح العصر الجديدة، ذكروا أنه بعد عدة أيام من الحادثة قام الأطباء في مشفى القاعدة الجوية في روس ويل بتشريح جثث كائنات صغيرة برؤوس كبيرة خالية من الشعر. ((فيلم هواة)) يزعمون فيه تسجيل تشريح الزوار الفضائيين في مشفى القوى الجوية في روس ويل تم أخذه من أرشيف سري ما وعرض على التلفزيون. إلا أنه لم يلق تصديقاً واسعاً من قبل الجمهور لأن رائحة التمثيل فاحت منه بقوة.

وإذا ما رمينا جميع الأساطير والخرافات، **فإنه يبقى لدينا سؤال: ترى ما الذي حدث فعلاً في روس ويل؟**

في عام ١٩٤٤ بدأ الجيوفيزيائي الأمريكي موريس ايفينيغ أعمالاً كرسها لقضايا مرور الأمواج الصوتية في الطبقات العليا للغلاف الجوي، وبعد الحرب اقترح على القوى الجوية الأمريكية نظام مراقبة للتفجيرات النووية خارج الولايات المتحدة.

ولهذا الغرض قام بتصميم منظومة من المعدات الخاصة من أجل بالونات سبر بحثية جوية. وقد احتوت في غرفة الأجهزة على مرسلات متنوعة (عواكس للأمواج الراديوية من الورق المطلي بالألمنيوم)، وهذا على ما يبدو، كان مادة غنية للأحاديث حول "سفينة فضائية". في عام ١٩٤٦ اكتسب هذا المشروع والذي سمّي "مشروع موغول" درجة عالية من السرية وخصصت لأجله أموال بدون حساب. ولاختبار فعالية نظام "موغول"، أجريت في حقل وايت ساندس، في ولاية نيومكسيكو، تفجيرات اختبارية لشحنات قوية بمتفجرات عادية. وبواسطة هذا النظام أجريت كذلك مراقبة لسلسلة الاختبارات النووية الأمريكية في المحيط الهادي. وقد سجلت مرسلات "موغول" التفجير النووي السوفيتي الأول عام ١٩٤٩. إلا أنه في عام ١٩٥٠ تم طي المشروع بسبب صعوبات تقنية: فالتيارات الهوائية القوية في الطبقات العليا للغلاف الجوي كانت تحمل البالونات ــ المسبار خارج حدود استقبال محطات المراقبة الأرضية. وقد كان سقوط أحد هذه البالونات هو بمثابة "حادثة روس ويل"....

وعندما سقط على أرض العزبة مسبار سري للغاية وفريد من منظمة "موغول" فإن الاستطلاع الأمريكي احتاج إلى رواية غير عادية تبعد حتى التلميحات حول وجود جهاز استطلاع سري جديد. وعندها أطلقت الأسطورة حول ((الطبق الطائر)) المتحطم إذ أن الإشاعة حول "الأطباق الطائرة" فوق واشنطن استمرت بإثارة خيال المواطنين. بعد أن مرت هذه الإخبارية في وسائط الإعلام الجماعي وتم جمع الأجزاء والحطام بالكامل قامت الخدمات الخاصة "بحركة معاكسة" وأعلنت أن هذا لم يكن إلا مسباراً للأرصاد

الجوية. وفي ذلك يكمن سر تضارب المقالات في ((روس ويل ديلي ريكورد)).
إلا أن بذرة الكذب أعطت بعد عشرات السنين نتائج غير متوقعة....

وحسب معطيات المجلة الأسبوعية الأمريكية ((تايم))، فإن ٣٤٪ من سكان الولايات المتحدة يصدقون أن زواراً من كواكب أخرى زاروا الأرض، و ٦٥٪ منهم مقتنعون أنه حصلت في روس ويلي كارثة لمركبة فضائية لا أرضية. علماً أن السلطات في المدينة هي التي أيدت الرواية الفضائية "لحادثة روس ويل". إذ أنه لو لم تكن هناك أجسام طائرة مجهولة الهوية لاقتصرت شهرة مدينة روس ويل الصغيرة التي يعيش فيها ٤٨ ألف إنسان على أنها موطن نجمة هوليود السينمائية ديما مور.

بينما تؤمن قصة الزوار الفضائيين للمدينة تدفقاً مستمراً من السياح. وطبعاً دخولاً كبيرة إلى موازنة المدينة.

ويمكن إيجاز نتيجة هذه القصة بكلمات رئيس اللجنة الأمريكية المختصة بالبحوث العلمية للظواهر غير الطبيعية بول كورتس الذي قال: ((يجب أن تموت خرافة روس ويل. كما يجيب: أما السؤال: هل نحن وحيدون في الكون أم لا فسيتم تقرير ذلك على أساس معلومات أفضل في نهاية الأمر من هذه الحيلة في روس ويل)).

السفن السّماوية

ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية

أياً كان تفسير ((حادثة روس ويل)) فإنه تبقى حقيقة واحدة: **منذ نهاية الأربعينيات دخلت البشرية في ((عصر الأجسام الطائرة مجهولة الهوية))**.

لقد شاهد الناس على مدى مئات السنين أجساماً طائرة تدهش الخيال. وفي كثير من المصادر التاريخية القديمة أُثبتت وصوف لظواهر سماوية غريبة. ففي عام ٢١٥ قبل الميلاد مثلاً شوهد شيء ما "يشبه السفن" في السماء فوق روما. ومثل هذه المشاهدات كثيرة، إلا أن الحديث في معظم الحالات كان حول المذنبات والشهب والنيازك وما شابهها من الأجسام السماوية. وجزء صغير فقط حُفظ في أرشيف الوقائع، وكان غير قابل للتفسير بالفعل. مع أنه يجب القول إن وقائع كثيرة مرت عبر تصور الإنسان القديم أو إنسان العصور الوسطى، ولا يمكن عموماً، مطابقتها مع الواقع. إن "السفن السماوية"، والتي قلما أتت على ذكرها كتب التاريخ تُقدّم بالفعل على شكل سفن سماوية، وليس كأجهزة فضائية. ومن الأفضل افتراض أن "السفن السماوية" تمثل جزءاً من الأساطير القديمة حول الظواهر غير العادية التي لوحظت في السماء، والتي من ضمنها غيوم بأشكال غريبة.

لقـد أثبتـت مـشاهدات حـول أجـسام عجيبـة، فـضلاً عـن أنهـا غـير ميكانيكية المنشأ، على امتداد القرن التاسع عشر. فعلى سبيل المثال، في أيلول من عام ١٨١٤ وتشرين الأول عام ١٨١٥ لوحظت في سماء فرنسا غيوم دائرية صغيرة تحركت بعكس اتجاه الريح وهطل منها مطر حجري. وفي عام ١٨٧٢ شاهد البحارة من مركب "ليدي أوزيرا" في المحيط الأطلسي "غيمة لها شكل يدعو للفضول" حيث أنها دائرية، ذات حواف محددة، ولونها رمادي فاتح. أثبت قائد المركب الواقعة في السجل الخاص للمركب، وذكر أن القسم الخلفي للغيمة كان مقسماً إلى أربعة أقسام، وامتد خلفها ذيل معقوف يشبه كثيراً ذيل المذنب.

لقد شوهدت في الأعوام ١٩٠٨ حتى ١٩٣٧ "أجهزة طائرة شفافة" عجيبة في سماء أوربا بالكامل.

لقد أُثبتت كذلك ظهور "أفاعٍ سماوية" غامضة. فلقد ظهرت في ٤ و ٥ أيلول فوق مدينة كراوفوردس ويل في ولاية انديانا، "أفعى" بيضاء مضيئة بطول حوالي ستة أمتار، ولها "زعانف". وفي عام ١٨٧٨ شاهدوا فوق أوكلاهوما "أفعى سماوية" حمراء، وفي الرابع من كانون الثاني عام ١٩٩١ هشّم "جسم أبيض عائم يشبه قنديل البحر" رجل بقرة في اليابان.

لقد كثر الاهتمام بتفاصيل ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية بدءاً من النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين. علماً أنه ـ وهذا هام جداً ـ في المراحل المبكرة من الدراسة، ذكر أن حوالي ٨٠٪ من الإخباريات حول الأجسام الطائرة مجهولة الهوية كان غير موثوق أو كان بالإمكان تفسيره بواسطة الظواهر الطبيعية. فلقد أجرت أركانات الدفاع في السويد في نهاية الأربعينيات دراسة لأكثر من مئة إخبارية حول ظهور أجسام طائرة مجهولة الهوية وخرجت بالنتيجة التالية:

إن حوالي ٢٠٪ من الحالات هي بالفعل تمثل لغزاً.

عامل آخر هام جداً في تاريخ دراسة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية. وهو أن الاختصاصيين العسكريين في بلدان كثيرة ودونما اتفاق بينهم أعلنوا فوراً أن هذه الأجسام الطائرة ما هي إلا أجسام من صنع الإنسان وتخدم أهدافاً عسكرية، ومصدر هذه الأجسام هو مخابر سرية لإمبراطورية ثالثة. لقد قدم ثلثا الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، التي تم رؤيتها في نهاية الأربعينيات فوق البلدان الاسكندنافية من الشرق كما يقول شهود العيان، لقد أتوا من الاتحاد السوفيتي. في السويد اعتبر الناس الأجسام الطائرة سلاحاً سوفيتياً سرياً، تم تصميمه بواسطة العلماء الألمان الأسرى.

علماء ألمان آخرون كانوا في هذا الوقت في أمريكا، بريطانيا، وفرنسا.... غوردون ـ مايكل سكاليون، الأخصائي الأمريكي بجيوفيزياء الأرض، والذي درس الأجسام الطائرة المجهولة لسنوات عديدة، مقتنع تماماً أن أكثر من نصف الأجسام الطائرة التي تم رصدها حتى الآن هي من صنع أهل الأرض.

تأكيد غير مباشر لذلك يكمن في أن ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية شغلت خيال المجتمع في عام ١٩٤٧ وليس في العام ١٨٩٦ ولا العام ١٩٣٤، حيث انقسم العالم بعد الحرب العالمية الثانية إلى قسمين وبدأت "الحرب الباردة"، والتي كادت تصبح "حارة". وفي ذلك الوقت قامت الأطراف بنشاط تقني عسكري متسارع.

ومع بداية الخمسينيات بدأت تتقوى النظرية القائلة بأن الأجسام الطائرة المجهولة الهوية ما هي إلا أجهزة طائرة يستقلها غرباء من خارج الأرض.

ولقد تسبب الاستكشاف النشيط للفضاء الذي بدأ في نهاية ١٩٥٠ بانتشار الأخبار الجديدة حول اللقاءات مع الأجسام الطائرة مجهولة الهوية بالإضافة إلى

ازدهار الخيال الفني ـ العلمي. ولقد سيطرت وجهة النظر القائلة بأن الأجسام الطائرة مجهولة الهوية هي سفن فضائية. وظهر ما يسمى ((المتواصلون)) والذين أكدوا للناس أنهم التقوا وتحدثوا مع مخلوقات من الفضاء. وتزايد ظهور دلائل أكثر إقناعاً حول وجود حقيقي "لصحون طائرة" ـ صور، مقاطع فيديو، بعض لقطات الصور كانت تدعو للريبة بشكل جدي، لأنه تم تزويرها بواسطة أدوات عادية جداً، مثل أغطية عجلات السيارات، والقدور. ولكن بعضاً من الصور صورت أجساماً تسترعي الانتباه بالفعل. وعلى سبيل المثال، في ١١ أيار من عام ١٩٥٠ في ولاية أوريغون الأمريكية قام المصور بول ترنت بتصوير جسم طائر كبير مر قرب بيته. وحسب أقوال ترنت فإنه يشبه "قبة مظلة كبيرة بدون بوابات". وقد كان المصور مقتنعاً أن هذا كان سلاحاً ما سرياً.

اليوم، حيث تسمح تقنية الرسم الحاسوب بالحصول على نتائج رائعة، فإن صور الأجسام الطائرة مجهولة الهوية فقدت قيمتها كدليل. ويصبح كشف التزوير أصعب وأصعب، وحتى أن وجود التقنيات الجديدة كافٍ بحد ذاته ليحرم هكذا صور من قيمتها كدليل. إلا أنه توجد عوامل كثيرة أخرى تؤكد وجود الأجسام الطائرة مجهولة الهوية: كرادارات المراقبة مثلاً، مع أن عددها قد انخفض في الـ ٢٥ سنة الأخيرة كثيراً مما يوفر أساساً لافتراض أن "المشاهدات الرادارية" للأجسام الطائرة في الخمسينيات والستينيات كانت أخطاءً نتجت عن عيوب فنية في رادارات تلك الحقبة.

وأياً كان الحال، لا توجد لدى أحد نية لنفي وجود الأجسام الطائرة، وهذه حقيقة موضوعية، ولا يهم إن صدقتم بوجود الأجسام أم لا.

ولكن ما هي طبيعة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية؟ وهنا تبدأ المزاودات بكل أسف. وليس عبثاً أن العقيد فيليب كورسو، مؤلف كتاب "في اليوم الذي تلا حادثة روس ويل". أجاب على السؤال حول تكذيب الحكومة الأمريكية للقائلين بوجود أجسام فضائية طائرة قائلاً: لا ضرورة لذلك لأن

مهووسين كثر قد قضوا على الإيمان بوجود أجسام طائرة مجهولة الهوية بأحاديثهم السخيفة عنها.

ولدى دراسة القضية يسهل أن نلاحظ أن تقديم ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية مرتبط مباشرة بالعمليات التي تحدث في وعي المجتمع. في جو الهلوسة بالتجسس الذي سببته الحرب الباردة في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين اعتبروا أن الأجسام الطائرة هي "أسلحة سرية". بعد عشر سنوات، وخلال طيران الأحلام الفضائية البشرية تم الإعلان بالإجماع أن الأجسام الطائرة مجهولة الهوية هي سفن القادمين من خارج الأرض. اليوم، وعلى موجة التزايد الشامل للتصوف والتخاطر، فإنه يتم تفسير الأجسام الطائرة مجهولة الهوية باعتبارها ماهيات من "**عوالم موازية**" **أرسلت لنا من الخارج....**

ونذكر هنا تفسيراً آخر للظواهر الشاذة: إن الأجسام الطائرة مجهولة الهوية وما يسمى "شبيه الإنسان"، ما هي إلا تجسيد مادي لأرواح شريرة، وشياطين تظهر في حلّة جديدة أكثر إثارة للإنسان المعاصر. ومعلوم أن تاريخ العصور الوسطى يعج بوقائع ظهور الشياطين!.

ومعلل تماماً الرأي القائل إن ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية ما هي إلا أسلوب دعائي للسخرية من المجتمع، واستبدال العقائد والديانات والقيم الروحية التقليدية للاعتقاد بـ "أشباه البشر الخضر"، والذين من المحتمل أنهم هم "الآلهة الفضائيون"، الذين علموا البشرية "الخير والعقل" من وقت لآخر. وبفضل جهود شخصيات مثل دينيكن تحولت الفرضية حول الزوار الفضائيين إلى عقيدة قادرة ضمن حدود الثقافة الجماعية، على استبدال الخريطة العلمية والدينية لملايين الناس. واليوم يتم بإصرار خاص طرح فكرة "آلهة من الفضاء" على الوعي الاجتماعي الذي أغلبيته ملحدة كما نعلم. وتنشأ مفارقة من نوع خاص: فالناس الذين امتنعوا مرة عن فكرة الإله، يحاولون بلهفة استبداله،

بـاللجوء إلى اخـتلاق "أشـباه بـشر خـضر". **ويبـدو أن الحيـاة بـدون إلـه أمـر مستحيل....**

وفي مطلـق الأحـوال، فإنـه لا يوجـد أي وضـوح في ظـاهرة الأجـسام الطـائرة مجهولة الهوية، ومن المحتمل أنه لن يوجد في المستقبل القريب. والمصيبة هي في أن الدراسات العسكرية للقضية جرت منذ البداية في جو من السرية، مما تسبب في عدم رضى الناشطين في مجال الأجسام الطائرة. لقد اعتمدت هذه السرية على قناعة تخص الأجسام الطائرة مجهولة الهوية يمكن أن تمثل خطراً على الأمن القومي. ونتيجة لذلك، وعندما انتقلت المبادرة في دراسة الظاهرة إلى عناصر "نوادي الصحون الطائرة" المتحمسين والسذّج، تدفق إلى صفحات المطبوعات بحر من الشعوذات، غرق فيها باحثون جديون ومثقفون. ولذلك، لن نبالغ إذا ما قلنا إن دراسة حقيقية لظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية لم تتم بعد، مع أن المحاولات لفهمها من المواقع العلمية لا تتوقف. في منشوراته ضمن مجلة "أمريكا: الاقتصاد، السياسة، الإيديولوجيا". عبر ف. فاسيلييف عن رأي مفاده: إن علماء الفيزياء الفلكية الأمريكيين ربما اقتربوا من فهم جوهر التأثير المتبادل للأجسام الطائرة مع الحقول الفيزيائية للأرض. وليس مستبعداً أن هذه الأجسام تتحرك وفق "سكة" مغناطيسية من نوع خاص، أو "أنفاق" وتخرج أحياناً عنها وخاصة فوق الشذوذات المغناطيسية. (المناطق التي تتجاوز فيها القوة المغناطيسية حدها المألوف).

لا يمكن لذلك ربط ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية بالزوار الفضائيين. وكل الوقائع التي يحتمل أن تحمل إشارة إلى وجود حياة أخرى في الكون إلى جانب الحياة الأرضية يمكن أن يكون لها في الوقت الحاضر تفسير آخر. **ولا توجد أية معلومات متطابقة حول أننا لسنا وحدنا في هذا الكون، مع أنه توجد وقائع غريبة وغير قابلة للتفسير من وجهة نظر العلم الحديث.**

انفجار فوق تونغوسكا

في الصباح الباكر من يوم ٣٠ حزيران عام ١٩٠٨ لوحظت في السماء **فوق سيبيريا الوسطى** ظاهرة غريبة لم تحدث من قبل: فلقد طار بالون أبيض يبهر البصر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بسرعة هائلة وهدير يصم الآذان. ولقد اهتزت الأرض على كامل مسار طيرانه. اهتز الزجاج في البيوت، وتداعى الأثاث، وتطاير الفحم والخشب الساخن من المواقد، وسقطت الأواني عن الرفوف. وقرر كثيرون أنه يوم القيامة.

الجسم الغامض، الذي رأته عشرات الآلاف من الناس، اختفى خلف الأفق، وبعد عدة دقائق سمع فوق غابات التايغا دوي أربعة انفجارات ذات قوة هائلة سمعت ضمن دائرة نصف قطرها ٧٥٠ كيلومتراً. واعتقد الناس الذين وصلهم الدوي في أماكن بعيدة أن هذه الانفجارات إنما هي رمايات مدفعية، وقرروا أن الحرب بدأت من جديد مع اليابان. في الساعة السابعة والربع سجّلت مرسمة الزلازل في مرصد ايركوتسك زلزالاً سطحياً (جوياً) غريباً مركزه في منطقة تونغوسكا التي تبعد ٩٠٠ كيلومتر إلى الشمال من ايركوتسك. وقد سجلت جميع مراسم الزلازل في أوروبا وأمريكا. اهتزازاً للقشرة الأرضية. انتشرت موجة الانفجار بسرعة الصوت، وبعد ساعة وصلت إلى ايركوتسك، وبعد أربع ساعات بلغت بوتسدام من ضواحي برلين، وبعد ثمان ساعات بلغت

واشنطن، وبعد ٣٠ ساعة تم تسجيلها في بوتسدام مرة أخرى بعد أن التفت حول الكرة الأرضية....

في الليالي التي تلت الانفجار ظهرت فوق خطوط العرض الوسطى لأوربا غيوم مضيئة غامضة بوميض فضي قوي لدرجة أن عالم الفلك فولف في مرصد هيدلبرغ لم يستطع حتى تصوير السماء في الليل. بعد بضعة أيام وصلت كتل هائلة من الغبار والجزيئات التي أطلقها الانفجار في الغلاف الجوي إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، وقد ذكر عالم الفلك الأمريكي مندهشاً أن شفافية الغلاف الجوي انخفضت بشكل كبير. ولم يتمكن من فهم سبب هذه الظاهرة.

وبدءاً من الثلاثين من حزيران وحتى ٣ ـ ٤ تموز كانت الليالي في أوربا وفي القسم الأعظم من روسيا مضيئة لدرجة أمكن معها قراءة نص بخط ناعم. لقد استمر غسق الليل حتى بدأ غسق النهار وبقي القسم الشمالي من السماء مضاءً طوال الليل. وقد ذكر ذلك سكان **برست ـ ليتوفسك، وبنزا، وتامبوف، واتكارسك وتساريتس وسلافيانسك، تيراسبل، وكيرتش وسيمفروبل وكذلك برلين ولينيفنربرغ وكوبنهاغن**. وقد لوحظت ظواهر غريبة في المنطقة الممتدة من **نهر ينيسي في روسيا حتى سواحل المحيط الأطلسي** حيث كان الغسق مضيئاً على نحو غير عادي، وقويت إضاءة السماء وكتل من الغيوم الفضية.

وما يدعو للاستغراب أن الانفجار الغامض في التايغا، الذي هزَّ الكوكب، لم يحظ بعناية الوسط العلمي. ولقد نقل السكان المحليون عنه أغرب الإشاعات الخيالية، ونشرت الصحف عدة مقالات كانت بعيدة كل البعد عن أن تحدث مفاجأة، وقد انكفأ الاهتمام بهذا الحدث الغريب بسرعة كافية.

وبعد مرور عدة سنوات خرجت هذه الحادثة إلى النور. ففي عام ١٩٢١ قرأ العالم الجيوفيزيائي السوفييتي ل.أ. كوليك وصفاً لسقوط نيزك وهاج هائل على ورقة سقطت بيده وقد تم نزعها من تقويم جداري لعام ١٩١٠.

بعد ذلك بوقت قصير تسنّى للعالم التجول في تلك المناطق والتحدث مع السكان. لقد اقتنع كوليك أن الناس يتذكرون وبشكل جيد حادث عام ١٩٠٨ الغامض. وحسب أقوال شهود عيان فإن النيزك سقط في مكان ما في أعماق التايغا السحيقة، بعيداً عن الطرق والمراكز المأهولة.

انشغل كوليك الذي اهتم بشكل جدي بهذا اللغز بأعمال البحث عن الجسم السماوي الساقط الذي يحتمل أن يكون نيزكاً. ووسط المعلومات التي قام بإيجادها تقرير رئيس شرطة القضاء (المنطقة)، والذي أخبر فيه كيف أنه في الثلاثين من حزيران لعام ١٩٠٨ "فوق قرية كيجيمسكي، حيث كانت السماء صافية طار نيزك بأبعاد هائلة في قبة السماء من الجنوب نحو الشمال، والذي أطلق خلال تفرغه جملة أصوات تشبه رمايات المدفعية، ومن ثم اختفى". وفي عام ١٩٢٤، قام عالم الجيولوجيا س.ف. ابروتشيف المكلف من قبل لجنة الجيولوجيا بدراسة تونغوسكا، بسؤال السكان المحليين عن الكارثة. ولقد تسنى له معرفة أنه على مسافة عدة أيام سير من قرية فانافار وبنتيجة سقوط النيزك هبطت التايغا على امتداد مئات الكيلومترات. تونغوس تشوتشانتا، الذي كان شاهداً على الحادثة وكان على مسافة ٤٠ ـ ٥٠ كم عن موقع سقوط النيزك قال:

((فجأة، قصف الرعد بقوة كبيرة. لقد كانت المرة الأولى. صارت الأرض تهتز وترتجف، وقد صدمت ريح قوية خيمتنا. وهنا رأيت أعجوبة رهيبة: فلقد هبطت الغابة واشتعلت أوراق الشجر العلوية. أصبح الجو حاراً جداً، لدرجة يمكنك الإحساس بالاشتعال. وفجأة فوق الجبل، حيث هبطت الغابة، ظهرت إضاءة قوية، وكأنما ظهرت شمس ثانية. وفجأة ظهر وميض. وقد أحسست

بـألم في عـيني حتـى أنـني أغلقتهمـا. وإثـر ذلـك سمعـت رعـداً قويـاً. لقـد كانـت الضربة الثانية. بعد ذلك رأينا وميضاً وكأنه في الأعلى ولكـن في مكـان آخـر، ثم سمعنا قصف رعد قوياً، كانـت هـذه الـضربة الثالثـة. بعـد ذلـك صـدمتنا ريـح قوية أسقطتنا أرضاً وضربت الغابـة الهابطـة. راقبنـا الأشـجار المتهاوية والحريق. وفجـأة صـرخ تـشيكارين: "انظـر إلى الأعلـى!" ـ وأشـار بيـده. نظـرت إلى الأعلـى فرأيت لمعاناً وتبعه قصف رعد. لقد كانت الضربة الرابعة. وكانت هنـاك ضـربة أخرى، خامسة، لكنها كانت صغيرة... في مكان ما بعيداً...

في عام ١٩٢٧ نظمت أكاديمية العلوم أول بعثة إلى التايغا برئاسـة كوليـك بغية البحث عن النيزك. وبعد مسيرة عدة أسابيع وصلت البعثة أخيراً إلى منطقة الغابة المتهدمة (الهابطة). لقد كان منظراً مدهشاً...

كتب كوليـك في دفتر يومياتـه: "في الحقيقـة، لا يمكـنني تـصور كامـل هذه اللوحة الهائلة لهذا الانهدام النادر. منطقـة شـديدة التحـدب وتكـاد تكـون جبلية تمتد لعشرات الكيلومترات خلف الأفق الـشمالي... مـن هنـا، مـن نقطـة مراقبتنـا لا يمكـن رؤيـة أي شـيء يـدل علـى وجـود الغابـة: كـل شـيء تهـدّم واحـترق، وقـد نمـت أشـجار حديثـة العهـد تـصبو بقـوة نحـو الـشمس والحيـاة.... وتنتابـك الحـسرة عنـدما تـرى عمالقـة محطمـة بـشكل نـصفي كمـا القـصبة، وقد نُقلت ذراها أمتاراً عديدة نحو الجنوب.

سارت البعثة لمدة أسبوعين تقريباً عبر الغابة التي هدّمها الانفجار.

لقد أشارت ذرا الأشجار المتوضعة على الأرض نحو الجنوب الـشرقي، وفـق الاتجاه الذي ظهر منه النيزك. وقرب مدخل نهر تشوغوما تغيرت اللوحـة، فلقـد توضعت جذوع الأشـجار المحطمـة بـشكل قطـري. ومـن المحتمـل أن يكـون هـو مكان هبوط النيزك الذي نبحث عنه، ولم يعد أعضاء البعثة يشكون في أننا سنشاهد قريباً فوهة البركان وهو المكان الذي اخترقت عنده الكتلة الملتهبة

الأرض. لقد تهدمت الغابة هنا بشكل غير منتظم، وإلى جانب الحطام المختلط صادفتنا قطاعات انتصبت فيها أشجار متفحمة أو أشجار يابسة، كانت تسقط بين الحين والآخر بفعل هبات الريح القوية. لقد كانت الغابة المتهدمة محترقة هنا أيضاً، وفي المركز كان هناك العديد من الحفر الممتلئة بالمياه والتي تراوحت أقطارها ما بين عدة أمتار إلى بضعة عشرات من الأمتار. وقفلت البعثة عائدة بعد أن اعتبرت أن هذا هو مكان سقوط أجزاء النيزك المتحطم أثناء اصطدامه بالأرض.

وفقط في العام ١٩٢٩ اتجهت بعثة ثالثة برئاسة كوليك إلى المكان، وقد تزوّدت هذه المرة بمعدات حفر، وحاولت انتزاع حطام النيزك. ولم تجد شيئاً. لم تتمكن البعثة من إيجاد شظايا النيزك ولا حتى آثار اصطدامه بالأرض.

وفيما يخص الحُفر المذكورة سابقاً، فلقد قرر الجيولوجيون وعلماء التربة بالإجماع أن هذه "الحفر" لا علاقة لها بالنيزك وهي تمثل تشكلات طبيعية مرتبطة بعملية ترسب الفحم النباتي.

وتتالت البعثات إلى التايغا. وقد بحثوا عن النيزك بمختلف أنواع الأجهزة ولكن دون جدوى، فلم يعثروا على أية شظية أو أثر. لقد اختفى الجسم الفضائي دون أثر.

لقد بدا للباحثين في لحظة ما أنهم وقعوا أخيراً على أثر: إذ بينت تحاليل التربة في منطقة الكارثة احتواءها على قطرات مجهرية دقيقة لخليط سيلكوني ومعدني بارد، وقد أكد التحليل الكيميائي منشأها الفضائي. واضح أن الانفجار حول النيزك إلى بودرة تناثرت على مساحة هائلة. إلا أنه تم في القريب العاجل الحصول على معطيات تشير إلى أنه تسقط سنوياً كمية هائلة من غبار الشهب على سطح الأرض، تقدر بمئات آلاف الأطنان. ومن حيث الخصائص فلقد كانت هذه الجزيئات مماثلة عملياً للتي تم اكتشافها

في التربة في المكان الذي حدثت فيه كارثة تونغوسكا. ولذلك فإن المادة الفضائية التي تم إيجادها لا تمت على الأغلب بأية صلة لنيزك تونغوسكا.

لقد سمحت دراسة جميع الظروف المرتبطة بسقوط النيزك أن الجرم الفضائي الغامض دخل في الغلاف الجوي للأرض في حوالي الساعة السابعة من صباح ٣٠ حزيران من عام ١٩٠٨ بسرعة ٤٠ ـ ٤٥ كم في الثانية بزاوية حادة ١٠ درجات تقريباً. وقد كان وزن الجرم حوالي ١٠٠ ألف طن، وقطره حوالي ٣٠ متراً.

ويحتمل أن الانفجار لم يحصل بنتيجة اصطدام الجرم مع الأرض بل في الجو وعلى ارتفاع ٥ ـ ١٠ كم، ولم يكن لحظياً: فلقد تحرك الجرم وهو ينفجر لمسافة لا تقل عن ٢٠ كم. إن مجمل الطاقة التي أطلقها الانفجار تشكل حوالي ٢٠ ميغا طن وهو أكبر بألف مرة من طاقة انفجار القنبلة الذرية التي رماها الأمريكيون على هيروشيما في عام ١٩٤٥. وقد حطمت الموجة الضاربة (للانفجار) الغابة على مساحة ٢١٥٠ كم^{2}. وقد أظهرت الحسابات أنه لو دخل مذنب تونغوسكا في الغلاف الجوي للأرض بتأخير أربع ساعات، لكان مركز سقوطه مدينة سانت بطرسبورغ... (لينينغراد).

إذاً، ماذا كان ذلك؟ هل هو سفينة فضاء استقلها قادمون عادوا بنتيجة انفجار نووي؟ أم أنه نواة مذنب؟ أم كتلة ثلج هائلة؟ أم "ثقب أسود" اخترق الأرض إلى الجانب الآخر؟ أم سحابة غبار كوني؟ أم شعاع ليزري دو استطاعة عالية وقد تفرّغ في الغلاف الجوي للأرض؟ أم أنها صاعقة كروية هائلة؟ أم أنه جرم سماوي ارتد عن سطح الأرض وطار من جديد إلى ما بين النجوم؟ وقد وضعت فرضيات حول مذنب تونغوسكا لو شئنا تعدادها لملأت كتاباً. ولكن للأسف، لم تستطع أياً منها تقريب البشرية من حل أحد أكبر أسرار القرن العشرين....

رسوم في الصّحراء

إن الرسوم الغامضة في صحراء ناسكا البيروفية. هي أكبر نتاج فني في العالم، وواحدة من أكثر مبتكرات الإنسانية غير المفهومة في ذات الوقت، إذ لم يعرف بها إلا قليلون حتى عام ١٩٣٩. ففي ذلك العام انتبه الطيارون الذين حلقوا فوق الوادي الصحراوي بطائرة صغيرة، إلى زخرفة غريبة من خطوط مستقيمة طويلة بشكل غير منتظم، وتمتد بانحناءات بمقياس كبير، حيث كان بالإمكان ملاحظة الرسم أثناء إضاءة معينة.

حاز هذا الاكتشاف على اهتمام كبير. افترض علماء الآثار بدايةً أن هذه بقايا منظومة ري قديمة. وقد قَدِم لدراستها عالم الآثار بول كوسوك من الجامعة في لونغ آيلند الأمريكية.

لقد بدت الزخارف من الجو مترامية الأطراف (فسيحة)، ولكن على الأرض، وبسبب طبيعة السطح بالكاد استطاع كوسوك إيجادها: "كان يمكن تمييز الخطوط إذا نظرت إليها طولانياً. وإذا خرجت جانباً لعدة ياردات فإنه يصبح مستحيلاً ملاحظة أي شيء". بعد الدراسات الدقيقة الأولى فاقت دهشة كوسوك الحدود: وقد ظهر حسب رسوماته بأن هذه الخطوط هي صورة دقيقة لطائر كبير، يصعب تمييزها من الأرض. كيف أمكن صنع هذه اللوحة؟ درس كوسوك الوادي واكتشف صورة عنكبوت ضخم تبعتها

دستة من رسوم أخرى تصور حيوانات أو أشكالاً هندسية. لم يستطع كوسوك فهم هوية هذا الرسام الغامض، وما هذا الشعب الذي ترك خلفه هكذا نتاجات فنية.

في عام ١٩٤٦ نقل كوسوك كتاباته إلى الدكتورة ماريا رايخه، وهي دكتورة في الرياضيات ولديها اهتمامات بالمراصد القديمة، والتي ترتبط باسمها عملياً قصة الصور الغامضة في صحراء ناسكا. ومنذ ذلك الوقت علمت ماريا رايخه التي أصبحت أكبر الاختصاصيين في العالم بقضية ناسكا والتي مارست العمل وحيدة، الكثير حول أساليب تشكيل هكذا رسوم. وقد استعجلت لتسجيل الأبعاد الدقيقة وإحداثيات جميع الرسوم والخطوط قبل أن يخربها السياح والسيارات.

وقد قررت رايخه أن الرسوم قد صنعت بأسلوب بسيط جداً: فقد تم وضع طبقة رقيقة من الصخور القاتمة على شكل خطوط فوق الأرض المائلة للصفرة. ولكن، ومع أن هذا العمل ليس صعباً من الناحية الفيزيائية (العضلية) إلا أن المشروع كان غاية في التعقيد.

تعتبر رايخه أن الرسّامين استخدموا وحدة قياس محددة تساوي ٠,٦٦سم تماثل اليارد المعدني لالكسندر توم. بعد ذلك تم تبليط الأشكال وفق خطة وضعت بشكل خاص ضمن مقياس تم نقله إلى سطح الأرض بواسطة حبال رُبطت إلى صخور تمثل علامات، حيث يمكن رؤية بعضها حتى اليوم: "تم قياس وتحديد طول واتجاه كل مقطع بشكل دقيق. لم تكن القياسات التقريبية لتكفي لصنع هكذا رسوم دقيقة، والتي نراها بواسطة التصوير الجوي: ويكفي الانحراف بمقدار عدة بوصات لتشويه التناسب الهندسي للرسم. وتساعد الرسوم التي أخذت بهذه الطريقة على تصور مقدار الجهد الذي كان على الفنانين القدماء بذله. يجب أن يكون البيروفيين القدامى قد

امتلكوا معدات لا نملكها في عصرنا، والتي تم إخفاؤها بدقة مع المعارف القديمة عن الغزاة، باعتبارها الكنز الوحيد الذي يستحيل سرقته".

وقد ذاع صيت رسوم ناسكا من قبل ايريخ فون دينيكن وباحثين آخرين عن آثار الزوّار الفضائيين. فلقد تم إعلان الصحراء باعتبارها مطاراً فضائياً قديماً، والرسوم بمثابة إشارات ملاحية من نوع خاص من أجل سفن الزوار (القادمين). الرواية الأخرى قالت إن الرسوم في الصحراء هي خريطة لنجوم السماء، وقد وجد في الصحراء ذاتها يوماً ما مرصد قديم كبير الأبعاد.

عالم الفلك المشهور جيرالد هوكينز الذي فسر لغز ستون هينج، حضر إلى البيرو في عام ١٩٧٢ ليستفسر فيما إذا كان بين رسوم صحراء ناسكا علامات تشير إلى ارتباط (علاقة) مع المراقبات الفلكية (وقد تبين عدم وجود هذه العلامات). وقد أدهشه أن هذه الخطوط مستقيمة بشكل غير عادي ولم يشكل الانحراف أكثر من ٢ متر لكل كيلو متر. ((ليس بالإمكان صنع هذا الشكل حتى باستخدام القياس بالمسح التصويري (الجوي). إن هذه الخطوط مستقيمة بالفعل بشكل مطلق، ولما تمكنا من الحصول على هكذا نتيجة حتى باستخدام التصوير الجوي الحديث. وتمتد هذه الاستقامة لعدة أميال. وبسبب الضباب الكثيف الذي يغطي الأرض تصبح هذه الخطوط غير ملحوظة أحياناً. لكنها تستمر بدقة نحو الناحية الأخرى للأخدود مستقيمة كما لو أنها محرك (مسار) سهم منطلق)).

إن ماريا رايخه واثقة من أن هذه الخطوط هي مجرد ملامسة لسر قديم: ((إن أكثر ما يدهش في هذه الرسوم الأرضية هو أبعادها الهائلة بالإضافة إلى التناسب الهندسي الدقيق. كيف استطاعوا تمثيل أشكال الحيوانات بهذه الدقة وهذه الأبعاد. إنه لغز سننتظر كثيراً لحله، إذا استطعنا ذلك عموماً)). والحقيقة أن رايخه اعتبرت ذلك لغزاً إلا بشرط: "إذا لم يكن بإمكانهم الطيران طبعاً".

وهذا بالتحديد ما حاول إثباته بيل سبورر المندوب الأمريكي في البيرو، وعضو جمعية الدراسات الدولية. من المحتمل أن البشر الذين صنعوا هذه الزخارف نشؤوا من شعبين متشابهين معروفين بثقافة باراكاس وناسكا، والذين مارسوا الزراعة في عصرنا وقبله. ولكن هذه الشعوب مشهورة بنجاحاتها في فن النسيج وتزيين المنتجات الفخارية، **وهذا ما أعطى سبورر المفتاح للحل.**

أربع قطع نسيج من ناسكا، أخذت من ضريح مسروق وقد تم اكتشافها في مكان ليس بعيداً عن الرسوم البيروفية، تمت دراستها باستخدام المجهر. وقد تبين أن البيروفيين القدامى استخدموا في موادهم، حبكة أفضل من التي نستخدمها خلال صناعة نسيج المظلات الحديثة، وأكثر متانة من النسيج الحالي المستخدم من أجل المناطيد الهوائية الحالية بواقع ٢٠٥ x ١١٠ خيوط في البوصة المربعة بالمقارنة مع ٩٠x١٦٠ حالياً. وقد اكتشف على الأباريق (الخوابي) الفخارية رسوماً لأشياء تذكرنا بمناطيد وثعابين هوائية بشرائط تخفق خلفها.

عندما بدأ سبورر البحث عثر على أسطورة قديمة من حضارة الإنكا، تتحدث عن فتى صغير اسمه انتاركفي، ساعد الإنكا في القتال، حيث كان يطير فوق تحصينات العدو ويخبر الإنكا عن توضع فرقه. وتظهر على أقمشة كثيرة من الناسكا صور بشر طائرين. نشأت هذه الأساطير في زمن قديم جداً، ولكن معروف أنه حتى في أيامنا هذه فإن بعض قبائل الهنود في أمريكا الوسطى والجنوبية يصنعون لاحتفالاتهم مناطيد هوائية ويطلقونها أثناء الطقوس.

يوجد لغز آخر في ما يسمى "حفر النار"، والتي تنتهي فيها خطوط مستقيمة عديدة. هذه الحفر الدائرية التي قطرها حوالي ١٠ أمتار وفيها أحجار سوداء كالفحم. لقد درس سبورر مع بعض الباحثين الآخرين هذه

الصخور بهدف تبيُّن فيما إذا كانت أحجاراً نيزكية ناتجة عن سقوط أجرام سماوية، وتأكد أنها (الصخور) اسودّت نتيجة لتأثير مصدر حراري قوي. **ربما تكون قد أُشعلت في هذا المكان نار هائلة سخنت الهواء داخل المنطاد؟!!!!**

في تشرين الثاني من عام ١٩٧٥ خضعت هذه النظرية للاختبار. تم صنع منطاد هوائي من المواد والتقنيات التي كانت لدى هنود الناسكا. أشعلوا تحته النار وانطلق المنطاد ليحلق وعلى متنه طياران في سلة من القصب. ومن بين جميع الفرضيات الخاصة بنشوء هذه الزخرفة الرائعة كانت فكرة المنطاد الأفضل بينها. **ولكن الهدف من ذلك كله لم يتضح حتى الآن. ربما كان ذلك أحد أشكال الدفن، وقد أرسلوا أجساد قادة ناسكا الموتى في مناطيد هوائية سوداء إلى أحضان إله الشمس؟ وربما تمثل الطيور والكائنات الكبيرة الأخرى الحياة الأبدية لهؤلاء القادة؟ ولكن ما حاجتهم لهذه الخطوط المستقيمة؟ لا توجد إجابة.....!!!!!!!!!**

إلا أنه توجد معلومات مفادها أن السعي لبلوغ هذه الدقة كان شائعاً جداً بين القدماء. ويوجد تشابه واضح بين الرسوم البيروفية واللّقى في النهاية الأخرى للكرة الأرضية. ستون هينج وكثير من المقابر الصخرية المشهورة تتميز بدقة هندسية غير عادية. وفي الوقت الذي تم فيه رصف الزخارف البيروفية كانت تقاليد المنشآت الصخرية قد انطفأت، ولذلك فإنه لا وجود لشواهد مباشرة حول علاقة الثقافتين. ولن يكون طيشاً بدرجة كبيرة أن نفترض أن مستويات تطور هذه الثقافات التي استخدم فيها أناس أميّون الصخور في أغلب الأحيان، كانت متماثلة، وأن فن صنع رسوم أرضية قد تلاشى مع ظهور الكتابة والحضارة.

تعتبر الرسوم البيروفية إحدى عجائب الدنيا. وسيمر وقت طويل لكشف سرها بشكل نهائي. إذا لم نأخذ بالحسبان سقوط المقولة حول مدرجات الإقلاع والهبوط للسفن الفضائية. وتنفي رايخه بشكل قطعي إمكانية أن

تكون رسوم ناسكا إشارات هبوط للغرباء عن الأرض زاعمة أنه لا يحتمل أن يكون القادمون الفضائيون المفترضون على هذا المستوى البدائي لكي يرصفوا شكلاً من الحجارة. فضلاً عن أنكم "إذا أزحتم حجراً فإنكم ستجدون بأن الأرض تحته طرية جداً. **وتضيف ماريا رايخه: أخشى أن الفضائيين كانوا سيعلقون في هكذا تربة....**".

أساطير الدوغون

في عام ١٩٥٠ نشر عالما الأعراق البشرية الفرنسيان مارسيل غريول وجيرمينا ديترلين مقالة، كُرّست لأساطير الدوغون وهم شعب إفريقي قليل التعداد، ويعيش على أراضي جمهورية مالي الحالية. لقد شهدت أساطير الدوغون أن هذا الشعب قد عرف منذ العصور القديمة بخصائص ومسار حركة التابع سايروس (الشعرى، تسمية جرم سماوي) غير المرئي بالعين المجردة، وامتلك معلومات حول أكبر أربعة توابع لكوكب المشتري، وحول المجرات الحلزونية وحول حقائق فلكية أخرى كثيرة لم يعرفها العلم الحديث إلا منذ فترة وجيزة نسبياً. ولقد أخبرت أساطير الدوغون كذلك عن مجيء كائنات إلى الأرض ضمن "مركب دوّار"، لها علاقة ما بالنظام النجمي لسايروس. وبعد أن ضمن غريول وديترلن المعلومات التي حصلوا عليها من المسنّين الدوغونيين، اعترفوا أنهم "لم يطرحوا على أنفسهم سؤالاً حول الكيفية التي استطاع وفقها بشر لا يملكون الأدوات اللازمة أن يعرفوا هذه المعلومات حول حركة الأجرام السماوية غير المرئية بالعين المجردة ومواصفات محددة لها".

هذه المعلومات المحجوزة ضمن إصدارات متخصصة جداً لم تر النور إلا في عام ١٩٧٥ بعد إصدار كتاب ايريك غيربي الذي نقل أساطير الدوغون

باعتبارها شاهداً على زيارات قديمة للفضائيين، وبعد أن صدر كتاب روبرت تيمبل "أسرار سايروس" الممتع جداً والمثير للجدل في آن معاً، تحولت أساطير الدوغون إلى أهم دليل حتى يومنا هذا حول تواصل سكان الأرض مع الزوار الفضائيين.

لم يكن ممكناً التملص من هذه الواقعة كما حدث بتراكيب دينيكن ذات القالب العلمي، والتي فاحت منها رائحة اللامهنية لمسافة بعيدة. وافتتح جدل حول أساطير الدوغون على صفحات المنشورات العلمية ليمتد حتى يومنا هذا. في البداية تناول الجدل مصدر المعلومات: أعمال غريول وديترلن. غير أن السمعة العلمية لعالمي الأعراق البشرية لم تشبها شائبة، فضلاً عن أنهما لم يحاولا بأي شكل من الأشكال تفسير المعلومات التي حصلا عليها، بل قاما فقط بإثباتها بكل أمانة.

خلال دراسته للثقافات الإفريقية اتبع مارسيل غريول مبدأ "الوصف وفقط الوصف" مبتعداً بشتى الأساليب عن محاولات توضيح العقيدة القديمة للقبائل الإفريقية الباقية. وحتى أن تجاوب معارف الدوغون مع المعارف العلمية الحديثة متسلسل تماماً ومنتظم، الشيء الذي يمكن رده إلى عدم الفهم الدقيق لبعض الكلمات وتعابير المسنين الدوغون.

وقد ذكر بعضهم رواية "منقذة" تفيد بأنه كان لدى الدوغون تلسكوب ما له شكل مسبح كروي تدور فيه المياه بشكل منتظم، وقد اتخذت مرآته شكلاً محدباً بسبب الدوران، وبذلك كانت تجسد عاكساً للتلسكوب. وهي فرضية خيالية طبعاً. وحتى لو قبلناها، **فهل ستوضح لنا الكثير عن الوحي الفضائي للدوغون؟**

يعرف الدوغون، كما علم الفلك الحديث، أنه يدور حول سايروس "الرئيسي (سايروس A) تابع غير مرئي بالعين المجردة ـ قزم أبيض سايروس

B، ونجمة صغيرة مؤلفة من مواد كثيفة تملك كتلة هائلة جداً. لنفرض أن الدوغون شاهدوا في "تلسكوبهم" النجمة الضعيفة إلى جانب سايروس A ،فكيف استنتجوا "أنها النجمة الأثقل من بين جميع الموجودات"؟ لقد حسب الفلكيون كتلة سايروس B في القرن التاسع عشر حسب التأثير الذي يظهره على حركة سايروس A في الفضاء.

وعندما تسنى في بداية القرن العشرين تحديد الأبعاد الصغيرة جداً لسايروس B تم استنتاج أنه يتشكل من مواد كثيفة جداً وبالتالي ثقيلة جداً... **هل سنفترض أن الدوغون قاموا بهذه الحسابات في عمق إفريقيا؟**

يعرف الدوغون كذلك عن دوران سايروس B حول محوره، وأن درب التبانة هي منظومة نجمية لولبية. لا يمكن لهذه المعارف أن تكون قد ولدت من تأمل بسيط للسماء من تلسكوب مهما كانت قوته. إن هذه المعارف تشطب الأفكار حول "تلسكوب الدوغون" وكذلك فرضية أن يكون أسلاف الدوغون قد ورثوا معارفهم عن الكهنة المصريين القدامى لأنه لم يكن باستطاعتهم امتلاك هذه المعارف.

هل يعني هذا أنهم القادمون من الفضاء؟ يبدو وكأن هناك توافقاً: شعب بدائي يملك معارف عن الفضاء تزيد مرات كثيرة عن مقدرته الذاتية للفهم، ولدرجة ما، عن مستوى معارف العلم الحديث...

ومع ذلك، فإن هذا غير بديهي. لقد ذكر نقاد هذه الفرضية أن المعارف الفلكية للدوغون تبدو غير كافية بشكل كافٍ. لنفرض أن فضائيين زاروا الأرض وأخبروهم بوجود سايروس B. ولكن لم يكونوا ليسمونه النجم الأصغر والأثقل، وذلك لأننا نعرف اليوم بوجود جملة من النجوم أكثر صغراً وأثقل وزناً.

ولماذا "نسي" الزوار بعد أن سموا التوابع الأربعة للمشتري أن يحدثوا الدوغون عن الاثني عشر تابعاً التي نعرفها اليوم. وعموماً، فإن علم الفضاء لدى الدوغون يذكرنا كثيراً بمستوى علم الفضاء الأرضي قبل خمسين عاماً!

وهكذا تم طرح "فرضية المبشّرين". فكما هو معروف، لم تكن ثقافة الدوغون معزولة عن تأثير الحضارة الغربية الحديثة. وبالتحديد، في العشرينيات من القرن العشرين عمل بين الدوغون مبشرون من المنظمة الكاثوليكية "الآباء البيض". ولربما استطاع أحد ما منهم الانتباه إلى أن أساطير السكان الأصليين تضفي قيمة كبيرة لسايروس (وهذه الحقيقة لا تمثل لغزاً، فسايروس هو النجم الأكثر بريقاً في السماء، وكان منذ القدم إلى جانب الشمس والقمر موضع احترام)، وحاول سرد وجهات النظر العلمية حول هذا النجم للدوغون. ولكن لماذا؟ لنفرض أنه أراد إقامة علاقة طيبة معهم، أو "التقليل من مجد" العقائد الوثنية للأفارقة من مواقع علمية.

ونذكر هنا أنه تحديداً في العشرينيات من القرن العشرين كان سايروس في مركز اهتمام المنشورات العلمية الشائعة. وحتى ذلك الوقت كانت قد أثبتت الكثافة الرهيبة لسايروس **B** واستنتج العلم على أساس ذلك وجود فئة خاصة من النجوم سمّاها "الأقزام البيض". "إنه النجم الأصغر والأثقل". وهذا الوصف لسايروس صحيح من أجل المعارف الفلكية فقط لعشرينيات القرن العشرين.

ماذا إذاً، هل تم كشف سر الدوغون؟ لو أن كل شيء كان هكذا ببساطة... ربما استطاع "المبشر" أن يروي شيئاً ما للدوغون. ولكن ليس كل شيء. وتكمن القضية في أن الدوغون يعرفون ثلاث سايروسات! إنهم يعرفون أنه يدور حول سايروس **A** نجم آخر غير مرئي ـ سايروس **C**. وحسب قول الدوغون هو نجم أكبر من سايروس **B**، وأخف منه بأربعة مرات، ويدور وفق مسار أعلى وهو محاط بتابعين خاصّين.

لقد بدأ النقاش حول وجود سايروس C في العشرينيات من القرن العشرين ولم يتوصل العلم الحديث حتى الآن إلى رأي موحد حول هذه القضية. وإذا ما ثبت أن سايروس C غير موجود فإن حظوظ "نظرية المبشرين" سترتفع بشكل حاد، لأنه سيتضح أن معارف الدوغون مرتبطة بالعشرينيات من القرن العشرين وليس برواية الزوار الفضائيين.

مع العلم أنه تبقى أمور كثيرة غير واضحة في أساطير الدوغون. وقد سمى عالم الفلك الألماني ديترهيرمان الحالة مع معارف الدوغون عن الفضاء "بالحالة الميئوس منها". حسناً، **كل ما هو سري سيصبح يوماً ما علنياً...!!!!!**



العوالم الموازية

في الأول من شباط عام ١٩٦٤ أنهى المحامي المؤهَّل توماس ميهان يوم عمل عادياً وجلس في السيارة ليتوجه إلى البيت في بلدة إوريكا التي تبعد ساعة ونصف في السيارة. إلا أن أحداً لم يره في البيت في ذلك اليوم أو بعده، وبقيت الأحوال الحقيقية لاختفائه مجهولة للأبد. إلا أننا لا نستطيع تسمية اختفائه عديم الأثر. لقد رمقت ماريسا كلْدفانس، ممرضة الاستقبال في المستشفى في هربرفيلي في ولاية كليفورنيا، شخص الرجل الشاب الذي ارتدى طقماً أسود، دون اكتراث.

ـ "**توماس ميهان**"، **قدم الغريب نفسه**. لقد طلب أن تقدّم له المساعدة الطبية لأنه بدأ يعاني من ألم مفاجئ عندما كان يقود سيارته. وحسب قوله فإن الألم كان قوياً لدرجة أن المحامي أحس في لحظة ما أنه مات وأن العالم من حوله قد اختفى.

تحققت ماريا من رقم بطاقة الضمان الصحي للمحامي والتفتت إلى خزانة كانت خلفها. وبعدها بثانية التفتت إلى المريض **الذي كان قد اختفى**. وكأنه ذاب في الهواء. لم تسفر أعمال البحث عن المريض اللغز عن أية نتيجة.

في هذه الأثناء، وحوالي الساعة العاشرة مساءً عثرت دورية شرطة الطرقات قرب نهر إل على سيارة ميهان. لقد أظهرت آثار عجلاتها على

الإسفلت أن محاولات مستميتة وغير ناجحة للتوقف قد حصلت. وقد ظهرت بشكل واضح بقع دم على سطح السيارة. كان زجاج الباب الأمامي الأيمن مكسوراً. والسائق قد اختفى. امتدت بقع الدم وبصمات آثار بشرية في الوحل لمسافة ٥٠ متراً تقريباً، ومن ثم انقطعت، **وكأن الإنسان الذي خرج من السيارة ذاب فجأة في الهواء...**

أعمال البحث الواسعة عن الشخص المختفي أتت بنتيجة فقط بعد مضي ١٩ يوماً. لقد تم اكتشاف جثة توماس ميهان على شاطئ النهر وعلى مسافة ٣٠ كيلومتراً عن موقع الحادث. وقد بين فحص الجثة والتشريح وجود خثرة عميقة على رأس القتيل إلا أنها لم تكن سبب الموت بل كان السبب سقوط الجريح في النهر ومن ثم غرقه. وقد بيَّن التمثيل الدقيق لما حدث أن ميهان سقط في النهر في نفس اللحظة التي ظهر فيها في حجرة الاستقبال في مستشفى البلدة.

في ٢٥ حزيران عام ١٩٤٣ شاهدت سفن الأسطول العسكري الأمريكي التي كانت تعبر بمحاذاة جزر إليوتسكي شاهدت على شاشات راداراتها سبع سفن يابانية تبحر في الاتجاه المقابل. أمر قائد الأسطول بفتح النار. وخلال إطلاق مدفعي استمر نصف ساعة أطلقت السفن الأمريكية ٢١٢ طناً من القذائف، غير أن دهشة البحارة الأمريكيين كانت كبيرة عندما لم يرد الخصم على إطلاق النار، وعندما توقف القصف كان قد اختفى تماماً. وفقط بعد الحرب، وعلى أساس وثائق السطح العسكري البحري للولايات المتحدة، تم التأكد من أنه في ذلك اليوم لم تتواجد سفن يابانية على الإطلاق في تلك المنطقة!.

في ٢٥ تشرين الأول عام ١٩٧٤ خرج روبرت فايومينغ للصيد. ولمدة يوم كامل تجول في الغابة دون نتيجة. وفي النهاية، وحوالي الساعة الرابعة مساءً وجد نفسه بمواجهة مباشرة وجهاً لوجه مع بيزون (ثور أمريكي). وقف الثور

القوي على مسافة حوالي ٣٠ متراً عن الصياد. أخذ فايومينغ السلاح وسدد ثم أطلق....

ما حدث لاحقاً كان كما الحلم. لقد انطلقت الرصاصة ببطء وكأنك تشاهد عرضاً سينمائياً، وبعد مسافة ١٥ متراً سقطت ببطء على الأرض في ورقة شجر صيفية. أخذت الصياد الدهشة، وما إن استعاد وعيه حتى شعر من جديد بالارتعاش. فلقد رأى على مقربة منه شيئاً يذكره بـ... سفينة فضاء! وقرب السفينة وقفت كائنات عجيبة. **اقتربوا منه وسأل أحدهم الصياد: كيف يشعر...**

استفاق فايومينغ في المستشفى حيث أوصلته دورية حراس الغابة. **والحقيقة هي أنه كان قد مر على هذه اللحظة أربعة أيام...**

يضم أرشيف مختلف بلدان العالم معلومات حول حوادث غريبة مشابهة أو أكثر غرابة. إلا أن جميع هذه الأحداث الغامضة تبقى عادة، خارج حقل رؤيا العلم ـ فبلوغ ذلك بعقل العالم مسألة معقدة جداً وغير ممكنة عملياً. فأنت لا يمكنك الدفاع عن أطروحة تعتمد فيها هذه المادة، في الوقت الذي يمكنك إنهاء منصب علمي، وبالتالي ليس عليك أن تعمل على ذلك. إلا أنه، ومن دواعي السعادة لا يقف جميع العلماء هذا الموقف، وتجري دراسات لظواهر كثيرة "غير قابلة للتفسير" في بلدان عديدة. **ويزداد ميل الباحثين إلى الإيمان بفرضية وجود عوالم موازية تملك الحق في الوجود...**

يوجد في الكون في آن معاً عدة عوالم موازية يمكننا التواصل مع غالبيتها. هذه هي المقدمة الأولى لهذه الفرضية. وحالة التواصل الأبسط مع العوالم الموازية هي الحُلم.

إن حقيقة ما يجري في الأحلام يقنعنا أن كل ذلك يحدث في الواقع. ويستقي وعينا الباطني من الحلم معلومات. تكون سرعة نقل المعلومات في

الحلم أعلى بعدة مرات من سرعة نقل واستقبال المعلومات في الواقع الحقيقي: وخلال ثماني ساعات من النوم يمكننا "أن نعيش" (نجتاز) أسابيع وشهوراً من الحياة، وخلال دقيقة نوم قبل استيقاظنا الداخلي يمكننا استعراض فيلم من حلقات عدة. في الحلم يمكننا رؤية نماذج عديدة من العالم المحيط بنا وكذلك نماذج غريبة لا تشبه أية رؤى ولا ترتبط بأي شكل من الأشكال بما حدث معنا خلال ممارسة حياتنا الطبيعية. **من أين تأتي هذه النماذج يا ترى؟ وهل بالإمكان رؤية مثيلاتها في اليقظة؟**

إن الكون المترامي الأطراف يتشكل من ذرات متناهية في الصغر. ومع امتلاك هذه الذرات طاقة داخلية هائلة فإنها تبقى غير مرئية بالنسبة لنا وتكتسب "جسداً" فقط عندما تتوحد في جزيئات وتشكل المادة، والعالم المادي الذي يحيط بنا.

ومع أن هذه الذرات غير مرئية فإنه لا يخطر في بال أحد نفي واقع وجودها. فالمعروف أن جسمنا نحن يتألف من ذرات.

تقوم الذرات بحركات اهتزازية مستمرة. وحسب نوع وبنية الذرات فإنها تملك تردداً مختلفاً وسرعة مختلفة واتجاه انتقال مختلفاً في الفضاء. وإن وجود هذا الاختلاف (الفرق) هو السبب في قدرتنا على الوجود.

ولكن، ما الذي كان سيحدث لو أننا فجأة بدأنا "نهتز" بنفس السرعة التي ننتقل فيها في الأحلام في وعينا الباطني؟ ما كان المراقب ليرانا في هذه الحالة - فالبصر البشري وأعضاء الإحساس ليست قادرة على تسجيل هكذا حركة. وأي شخص آخر وجد معنا بنفس "الوتيرة". لن يحس بشيء من ذلك.

سنفترض أننا بشكل أو بآخر استطعنا إكساب جسدنا سرعة الأمواج اللاسلكية. في هذه الحالة، كانت ستلزمنا أجزاء من الثانية للالتفاف حول الكرة الأرضية والظهور من جديد في المكان نفسه. وهذه الأجزاء من الثانية

ستكفينا لمشاهدة القارات والمحيطات والجزر التي لمحناها، أما بالنسبة لشخص مراقب فسيبدو له أننا اختفينا عن العين للحظة واحدة.

والآن سنفترض أنه يوجد معنا، بجانبنا، هكذا عالم، والذي "يتحرك" بسرعة تزيد على سرعتنا بمراتب عديدة. **فهل كنا سنحس بوجوده برأيكم؟** طبعاً لا، وببساطة، لا يمكن لوعينا وحواسنا تسجيل ذلك. أما عقلنا الباطني فإنه يقوم بذلك عملياً بشكل دائم. ولذلك تنشأ لدينا أحياناً حالات غريبة، **ترى هل كنت أنا في هذا المكان أم لا؟ أين يا ترى رأيت هذا الإنسان؟ ترى بماذا تذكّرني هذه الرائحة؟** لكن مهما حاولتم فلن تتذكروا: لقد كان ذلك في نقطة تقاطع العوالم الموازية. وهناك بالتحديد ولأسباب مجهولة حتى الآن، يحدث تماس بين عوالم "ذات سرعات متفاوتة"، وتحصل أحداث غريبة ليس لها أي تفسير واقعي.

هذه الظلمة المخيفة

في تموز عام ١٩٥٧ نشرت الصحف الفرنسية قصة حدثت مع ميري جيني، من سكان بلدة أرل والتي تبلغ من العمر ٥٤ عاماً. كانت ميري ممرضة مؤهلة وخبيرة، وكان السكان يستدعونها بمثابة ممرضة غير مقيمة وجليسة أطفال. لقد كانت معروفة في البلدة كسيدة هادئة وبطبيعة متزنة. وقد استرعت قصتها حول الحديث غير العادي الذي حصل معها في أحد أيام الصيف مزيداً من الاستغراب والدهشة.

في ١٦ تموز عام ١٩٥٧ وعند منتصف النهار تقريباً دخلت السيدة جيني إلى بيت عائلة كُتيلون التي استدعتها للعناية بطفلها الرضيع. أخذت العربة والطفل واتجهت الجليسة إلى النزهة في حديقة البلدة. كان الطقس مشمساً ورائعاً. وبسبب الحر قضى غالبية السكان وقتهم على النهر، وكانت الحديقة في هذا الوقت خالية من الناس. نام كتيلون الصغير بهدوء في العربة. وجلست الجليسة قربه على المقعد الخشبي في ظل شجرة كبيرة. فجأة اختفى الضوء. وأصبح كل شيء في المحيط كثيفاً ومظلماً بدرجة مطلقة. لم يكن ذلك تأثير ضربة شمس، حيث يظلم كل شيء في عين المرء، ولم تكن تلك أعراض مرض آخر، لأن السيدة جيني احتفظت بوعي واضح وتام وتذكرت كل تفاصيل حالتها.

استفاق الرضيع النائم وبدأ يبكي بصوت عالٍ. تلمست الجليسة الطفل في الظلام وضمته إلى صدرها بقوة في محاولة منها لتهدئته. ساد ظلام دامس. وقد اختفى ضجيج الشارع وروائح الأزهار والأشجار وأصوات العصافير. وقفت السيدة جيني دون حراك.

لقد بدا لها أن الوضع استمر مدة لا تزيد عن ربع ساعة. اختفت الظلمة فجأة كما بدأت. وتبين أنه حل المساء وبدأ الجو يظلم. هبت رياح باردة وأنيرت الإضاءة في الحديقة. تجولت عدة أزواج من الشباب في المنتزه وقد ارتدوا ثياباً دافئة.

أسرعت الجليسة مع العربة نحو بيت كتيلون. فاستقبلها الوالدان خائفين دامعين: لقد تبين أن السيدة جيني والطفل قد غابا لمدة ثلاثة أيام! وقد بحثت عنهم الشرطة والعديد من المتطوعين، وقد قلبوا بلدة آرل رأساً على عقب، وفتشوا كل سنتمتر من حديقة البلدة، ولكنهم لم يجدوا أحداً كما هو متوقع.

في مركز الشرطة تعرضت السيدة جيني لتحقيق قاسٍ وطويل: كيف لها أن تفسر اختفاءها لمدة ثلاثة أيام مع الطفل؟. ولكنها لم تستطع الحديث إلا عن الظلمة...

إن حادثة آرل تدخل حتى الآن في عداد الظواهر غير العادية والمبهمة التي حدثت في القرن العشرين. ولكن هذه القصة ليست الحادثة الوحيدة التي يواجه فيها أحد ما ظلمة مبهمة ماصة لكل نور.

في الثاني من نيسان عام ١٩٠٤ غطت ظلمة كثيفة صعبة الاختراق محطة مترو في حي ويمبلدن في لندن وتسببت في هلع كبير بين العدد الهائل من الركاب وعناصر خدمة المترو. بعد عدة أيام من الحادث جرت تجربة علمية، كان الهدف منها نمذجة الحادثة التي سبق وحصلت وتقديم تفسير لها.

إلا أن المرتابين لم يتمكنوا من إحلال ظلمة مماثلة، واستطاع المشاركون في التجربة تمييز الخيالات غير الواضحة للناس وللأشياء ورأوا بعضهم بعضاً، وشاهدوا قطارات المترو المتحركة. لقد كان الظلام الذي سيطر على ويمبلدون في الثاني من نيسان حالكاً لدرجة لم يتمكن أحد خلاله من رؤية ولو بصيص ضوء وكأن الناس والمحطة قد غمروا بفحم أسود كثيف.

هذه الحادثة استنهضت للحياة عاصفة من المزاودات والمراهنات العلمية إلا أنها ما تزال مبهمة حتى وقتنا الحاضر. وبنفس الوقت أصبح هذا المشهد المبهم الذي أقلق الخيال منسياً عندما انتشر خبر الظلمة الخفية التي غطت هذه المرة مدينة كاملة تضم خمسين ألفاً من السكان.

في السابع من آذار عام ١٩١١، وحوالي الساعة السادسة عشرة حل على بلدة لويس ويل في ولاية كينتوكي الأمريكية ظلام دامس استمر حوالي ساعة. خلال هذا الوقت حدثت في شوارع المدينة مشاهد تستحق ريشة دانتي. لاحقاً قام عديدون بوصف تفاصيل الحادثة. للأسف لم يكن بالإمكان تصوير ذلك.

لا توجد إجابة حتى الآن حول طبيعة هذه الظلمة التي تنشأ بشكل مفاجئ. هناك من الناس من يؤكد أن هذا من عمل الشيطان، أو على العكس: إنها علاقة ربانية. توجد تكهنات متفاوتة من حيث منطقيتها، لكن العلم غير قادر حتى الآن على تفسير هذه الظاهرة المبهمة (اللغز). ربما ما يحصل له علاقة بخلل في كمالية الفضاء المحيط، أو بتقاطع أبعاد مختلفة، وربما أن هذه الظاهرة مرتبطة باهتزازات الحقل المغنطيسي للأرض، عندما يغير الجزء المرئي من الطيف تردد اهتزازاته لسبب ما فجأة وينتقل إلى حالة لا يمكن للحواس الإنسانية تسجيلها...... **من يدري؟**.

ألغاز الطبيعة والإنسان

مثلثُ الشيطان

في الجزء الغربي من المحيط الأطلنطي وقرب السواحل الشرقية للولايات المتحدة الأمريكية توجد منطقة يقارب شكلها المثلث. تمتد أضلاعه من نقطة إلى الشمال من جزر برمودا إلى جنوب فلوريدا ، ثم على امتداد جزر الباهاماس حتى جزيرة بورتوريكو حيث تلتف من جديد نحو الشمال وتعود نحو جزر برمودا قرب خط الطول ٤٠ درجة غرباً.

إنه واحد من أكثر الأمكنة غموضاً وإدهاشاً على الأرض. في هذه المنطقة التي تسمى عادة مثلث برمودا اختفت دون أثر (بعد عام ١٩٤٥) أكثر من ١٠٠ (مئة) طائرة ومركب (من ضمنها غواصات) وأكثر من ١٠٠٠ إنسان.

❖ عرض لحوادث الاختفاء

في عام ١٩٠٩ اختفى في مثلث برمودا القبطان جوشوا سلوكام أشهر وأمهر بحار في عصره. لقد كان أول من أبحر حول الأرض بسفينة شراعية. في ١٤ كانون الأول انطلق من جزيرة مارتاس ـ فينيارد شرق الولايات المتحدة متجهاً نحو أمريكا الجنوبية ، ومنذ ذلك الوقت لم ترد منه أية معلومات.

كانت هناك كمية هائلة من الروايات التي تفسر الاختفاءات المستمرة للناس والمراكب والطائرات.

من بينها: حدوث موجة تسونامي مفاجئة بسبب زلزال؛ نيازك وهّاجة، طائرات مفجّرة، هجوم وحش بحري؛ انحراف فضائي ـ زمني يأخذ إلى بعد آخر؛ حفرة أمواج كهرطيسية وقوى جاذبة تجبر المراكب على التيهان، والطائرات على السقوط؛ جمع نماذج الكائنات الحية على الأرض تقوم به (أجسام طائرة مجهولة جوية أو تحت مائية يقودها أحياء باقون من أقدم الحضارات، أو كائنات فضائية أو بشر من المستقبل وهكذا..

نعود ونقول إنه تطير فوق المثلث سنوياً طائرات كثيرة وتعبره مراكب عديدة وتبقى سليمة ودون ضرر.

أضف إلى ذلك أنه ولأسباب عديدة تحدث في جميع بحار ومحيطات العالم كوارث للمراكب والطائرات (أريد أن أنوه هنا أن كلمتي "كارثة" و "اختفاء" هي مفاهيم متباينة. ففي الحالة الأولى تبقى الجثث والحطام؛ أما في الثانية فلا يبقى أي أثر). إلا أنه لا يوجد مكان آخر حدث فيه هذا العدد من حالات الاختفاء المبهمة والمفاجئة في ظروف غاية في الغرابة.

قيِّم مكتبة من ولاية أريزونا الأمريكية يدعى لورنس د.كوشي "فضح" سر هذه المنطقة في كتابه "مثلث برمودا: الخرافات والواقع". إنه يعتبره مفاجأة تضخمت بالأساطير. وفي الوقت الذي ينقض فيه، وبشكل اختياري، بعض الحوادث فإنه يترك غالبية حوادث الاختفاء الغامضة حيث لم يتسنَّ له إيجاد مفاتيح لها.

كما أنه يصعب الإفساح في المجال للسفن ـ السراب الغريبة التي غادرتها طواقمها، ووضعها ضمن إطار نظرية كوشي، الذي يفسر جميع حوادث اختفاء المراكب والطائرات بأسباب "عادية". وكما هو معروف فإنه بدءاً من عام ١٨٤٠ حتى ١٩٥٥ صودف هنا ما يقرب من خمسين مركباً! المركب الفرنسي "روزانا" قرب جزر الباهاماس (١٨٤٠). السفينة الشراعية "كارول أ.ديرينغ" بأشرعة

مرفوعة وطعام محضر في مطبخ السفينة مع قطتين حيَّتين (١٩٢١). المركب "روبيكون" وعليه كلب (١٩٤٩).

وهاكم حادثاً يرفض ل.كوشي تفسيره، وقد حصل عام ١٩٤٨.

في الصباح الباكر يوم ٣٠ كانون الثاني خاطب القبطان ماكميلاّن قائد الطائرة "ستار تايغر ـ (نمر النجوم)" من طراز "تيودور ـ **IV**" التابعة لشركة "بريتش ساوت أميريكان ايرويز" (**BSAA**) غرفة العمليات في برمودا وأخبرهم عن موقعه. وقد أكد أن كل شيء في الطائرة على ما يرام وأنه يسير وفق البرنامج المحدد للرحلة. كان هذا آخر ما سمعه العاملون في غرفة العمليات حول "ستار تايغر".

وبدأت عمليات البحث. عشر سفن وحوالي ثلاثين طائرة مشطت المنطقة التي تطير فوقها الرحلات. لم يتسنَّ لهم اكتشاف أي شيء: لم يكتشفوا بقع زيت على سطح الماء ولا حطام الطائرة ولا جثث القتلى. وقد ورد في بيان اللجنة أن التحقيقات لم تقف أمام قرار أصعب من هذه القضية.

"**إنه بالفعل سر سماوي غير قابل للكشف"، اضطر كوشي للاعتراف.**

يوجد عدد كبير بين الطيارين والبحارة الذين يعتبرون "إنه في منطقة كثيفة الحركة كهذه من الطبيعي تصوّر طائرة أو سفينة أو يخت ضائع بنتيجة الأحوال الجوية مثل: عاصفة مفاجئة، سديم، حطام".

إنهم يعلنون أنه لا وجود للمثلث وأن هذه التسمية ما هي إلا خطأ أو فكرة باطلة اختُرعت من أجل قراءٍ يميلون إلى الخيال. وتدعم رأيهم شركات الطيران التي تخدِّم هذه المنطقة. وفيما يتعلق بوجود مثلث برمودا نفسه وحدوده فإن النقاشات لا تهدأ. تُرى ما هو شكله الحقيقي، **وكيف نشأت الأساطير حول الاختفاء بين طواقم الطائرات والسفن واليخوت والغواصات؟** ربما بسبب شهرة هذه الأساطير فإن أي حدث مبهم يفسّر على الفور على أنه اختفاء؟ هل

يكمن السبب في ذلك؟ أمطر الراديو والتلفزيون شهود العيان الذين طاروا في هذه المنطقة بأسئلة أوصلتهم إلى حالة من التوتر والانزعاج. وأثناء مثل هذا التبادل المتوتر للأسئلة والأجوبة فإن النتيجة عادة تكون على النحو التالي: "لقد طرت عبر المثلث مرات عديدة ولم يحدث شيء. لا وجود لأي خطر".

غالباً ما يُطرح على الناس ومنظمي الرحلات والركاب المتجهين نحو المثلث السؤال التالي: "**هل سنطير عبر مثلث برمودا؟**" وبما أنه لا توجد حدود دقيقة فإن الإجابة تأتي سلباً. أحياناً ولتبرير تأخر وصول الطائرة يؤتى بمثل هذه الحجة: "لقد اضطررنا للالتفاف حول مثلث برمودا".

وبصرف النظر عن ذلك، تستمر الحوادث الغريبة والكوارث في المثلث والمناطق المجاورة له. ففي السبعينيات من القرن العشرين وقرب مطار ميامي تماماً، فوق اليابسة، تحطمت عدة طائرات دون معرفة السبب. فلقد اختفت الرحلة ٤٠١ إلى ايستون ("لوكهيد" **L - io2**) والتي كان على متنها أكثر من ١٠٠ راكب في ٢٩ كانون الأول عام ١٩٧٢. وقد تُلقي التحقيقات في ظُروف اختفاء الرحلة ٤٠١ بعض الضوء على كثير من حوادث الاختفاء المفاجئ السابقة فوق المحيط.

معروف أن هذه الطائرة انخفضت خلال آخر ٧- ٨ ثوان طيران بسرعة لم يستطع فنيو غرفة العمليات في ميامي ولا الطيارون من تتبعها. وحيث أن جميع قوائس الارتفاع كانت تعمل فإنه كان سيتوفر لدى الطيارين وقت كاف لتعديل وضع الطائرة لو أنها انخفضت بسرعة عادية. إلا أن الانخفاض حدث هكذا بسرعة لم يستطع معها فنيو العمليات من التقاط سوى صورة واحدة للطائرة خلال دورة الرادار (٤٠ ثانية). مع بدء الدورة التالية كانت الطائرة قد انخفضت من ٣٠٠ متر إلى أقل من ١٠٠ متر وربما كانت قد اصطدمت بالماء.

لا يمكـن تفسير سـرعة الانخفـاض هـذه بتعطـل نظـام القيـادة الآليـة، أو فقدان السرعة، أو قلة خبرة الطيـارين أو حدوث رفرفة في الأجنحـة. لا بـد مـن وجود سبب يرتبط بالغلاف الجوي. ربما هو شذوذ في الحقل المغناطيسي.

كـان كولـومبس أول الـشهود المعـروفين لـدينا والـذي سـجل مـشاهداته لأشعة ضوئية في هـذه المنطقـة. ففـي ١١ تـشرين الأول عـام ١٤٩٢ وقبـل سـاعتين مـن مغيـب الـشمس، شـاهد مـن مرفـأ "سـانتا ماريـا" كيـف أن سـطح المـاء في الجزء الغربي لبحر سارغاس قرب جزر الباهاماس، أضـاء بشعاع أبيض. وبعد خمسمائة عام لاحظ الفلكيون الأمريكان إضاءة حزم في الماء (أو تيارات).

ويعـزى حـدوث هـذه الظـاهرة الغريبـة لأسـباب عديـدة مثـل: رفـع سـرب مـن الأسماك لطحالب بحرية، أو سرب من الأسماك (يرتفع إلى السطح)؛ أو أجسام أخـرى. وأيـاً تكـن الأسـباب، والـتي لم تتأكـد حتـى الآن، فـإن هـذا الـضوء المدهش ما زال يشاهد من سطح البحر، وهو جميل عندما يشاهد مـن الـسماء خاصة.

توجـد ظـاهرة أخـرى في المثلـث، وكـان كولـومبس كـذلك أول مـن شاهدها خلال بعثته، ما تزال حتى وقتنا الحاضر موضوع جدال وتثير الدهشة. في الخـامس مـن أيلـول عـام ١٤٩٢ في الجـزء الغربـي مـن بحـر سـاراغاس شـاهد كولومبس مع أعضاء فريقه القلقين كيـف أن سـهماً نـارياً هـائلاً عـبر الـسماء ولم يتأكدوا من أنه سقط في البحر أو اختفى ببساطة.

بعد بضعة أيام لاحظوا أن البوصلة تظهر شيئاً غير مفهوم وقد شعر الجميع بالخوف جراء ذلك ـ ربما في منطقة المثلث ـ سواء في السماء وفي البحـر، تملك الظواهر الكهرطيسية تأثيراً على حركة المراكب.

توجد روايـة أخـرى تفـترض وجـود علاقـة بـين اختفـاء المراكـب والطـائرات والظواهر الأخرى. وتطلق تسميات مختلفـة عليهـا ـ "انحرافـات الوسـط الجـوي"

"ثقب في الفضاء"، "الاستيلاء على الطائرات والمراكب من قبل كائنات حية" وما إلى ذلك. إلا أن هذا ما يزال حتى الآن مجرد محاولة لشرح شيء مبهم بشيء آخر مبهم.

في أغلب حالات الاختفاء في مثلث برمودا لم يبق أحد حياً ولم يتم إيجاد أي جثة. ولكن في السنوات الأخيرة كسر بعض الطيارين والبحارة الصمت المسيطر حتى الآن، وبدؤوا يتحدثون كيف أنه تسنى لهم الإفلات من قوىً ما في هذه المنطقة وفي مناطق أخرى. إن دراسة تجربتهم، بل حتى أسلوبهم الذي تمكنوا بواسطته من النجاة يحتمل أن يمكّن من إيجاد تفسير لشيء ما في هذا اللغز.

في المجادلات حول جوهر ظاهرة مثلث برمودا غالباً ما يأتون بهذه الحجة: تتحطم مراكب وطائرات في كل مكان في العالم، وإذا وضعنا (طبقنا) مثلثاً كبيراً على خريطة أية منطقة تشهد كثافة في حركة المراكب والطائرات، فإنه سيتبين أنه حدثت في هذه المنطقة بالتحديد العديد من الحوادث والكوارث. هل هذا يعني أنه لا وجود لأي لغز؟ كما يضيفون: إن المحيط ضخم والمركب أو الطائرة فيه ــ كحبة القمح، وتتحرك على السطح والأعماق تيارات مختلفة، ولذلك لا عجب أن أعمال البحث لا تعطي نتيجة. إن سرعة التيار الشمالي في خليج المكسيك أربع عقد في الساعة. والطائرة أو المركب الذي تحدث له كارثة بين جزر الباهاماس وفلوريدا يمكن أن يصبح في مكان آخر تماماً ما بين لحظة الإرسالية الأخيرة، (ووصول الباحثين) مما يجعل الأمر وكأنه اختفاء.

إلا أنه يجب أن لا ننسى أن هذه التيارات معروفة وتؤخذ بالحسبان من قبل حراس الساحل ومنظمي البحث في منطقة الكارثة. تجري أعمال البحث عن المراكب الكبيرة ضمن دائرة نصف قطرها ٥ أميال، والطائرات ـ ١٠ أميال،

والمراكب الصغيرة ١٥ ميلاً. كما تجري البحوث في منطقة "أثر ـ الانسياق"، أي أنه يؤخذ بالحسبان اتجاه حركة الجسم وسرعة التيارات والهواء.

فضلاً عن أن المراكب والطائرات الغارقة تغوص بسهولة في الطين، ويمكن للعاصفة إخفاؤها، كما يمكن للعاصفة التالية رميها خارجاً، ويمكن للغواصات والسباحين كشفها.

ميل فيشر، وهو رجل ضفدع، والذي يعمل في شركة سابا (وهي مؤسسة تزاول إنقاذ المراكب والبضائع)، قام يوماً ما بعمليات بحث تحت الماء في الحيد القاري للمحيط الأطلنطي والبحر الكاريبي في منطقة المثلث.

في ذلك الوقت، نشطت أعمال المغامرين الجدد في البحث عن السفن الإسبانية المحملة بالذهب التي غرق منها الكثير هنا، وقد اكتشف ميل فيشر على القاع غنائم مدهشة أخرى. لقد جرى البحث عنها ذات يومٍ بكثافة، بعد ذلك لف النسيان ذكراها. يتم كشف هذا الركام من المعادن عادةً بواسطة مغناطيس ضخم ذو حساسية أكبر بألف مرة من البوصلة التي تشير إلى تراكم المعدن تحت الماء. وبواسطة هذه الأجهزة تحديداً، كثيراً ما وجد فيشر أشياء أخرى، وبدلاً من الكنوز الإسبانية المطموع بها، غالباً ما كان الغواصون الذين ينزلون إلى قاع المحيط وفق مؤشر مقياس المغناطيسية، يكتشفون مقاتلات قديمة، وطائرات خاصة ومختلف أنواع المراكب.

ذات مرة تم اكتشاف مركب بخاري على القاع وعلى مسافة عدة أميال عن الشاطئ وقد تركه فيشر على وضعه من أجل المؤرخين وعلماء المحيطات.

ويرى فيشر أن سبب اختفاء السفن في منطقة فلوريدا ـ الباهاماس ـ يعود إلى القنابل التي لم تنفجر، والتي ألقتها القوات الجوية خلال المشاريع في الحرب الماضية، وكذلك الطوربيدات والألغام العائمة المستخدمة في المشاريع (العسكرية) الحديثة.

لقد عثر فيشر على مجموعة من الشظايا التي لم يتح له تحديد مرجعيتها. وقد قرر أن مئات المركب اصطدمت بالشعب المرجانية خلال العواصف وامتص الطين كثيراً منها. وبالفعل، فإن التيار في خليج المكسيك في منطقة أطراف شبه جزيرة فلوريدا يحمل الكثير من الطين الذي يمكن أن يبتلع حتى السفن الكبيرة المتوضعة في القاع.

يمكن أن تكون التيارات البحرية هي السبب في عدم نجاح أعمال البحث عن السفن والطائرات المحطمة. ولكن توجد خاصية أخرى لدى مثلث برمودا. وهي ما يسمى الكهوف "اللازوردية"، المنتشرة ضمن منطقة جزر الباهاماس ذات المياه الضحلة، وحفر عميقة جداً ضمن جروف كلسية. قبل عدة آلاف من السنوات كانت هذه الكهوف بمثابة مغارات هابطة فوق الأرض، ولكن بعد العصر الجليدي قبل ١٢ - ١٥ ألف عام ارتفع مستوى البحر وأصبحت "الكهوف اللازوردية" مساكن للأسماك.

تصل هذه المغائر الكلسية حتى حافة الجرف القاري وتتخلل كامل الطبقة الكلسية ويصل بعضها إلى عمق ٤٥٠ متراً، وتمتد أخرى إلى المغائر تحت الأرضية على جزر الباهاماس وترتبط مع البحيرات والمستنقعات.

تتوضع "الكهوف اللازوردية" على مسافات مختلفة عن سطح البحر. لقد انتبه رجال الضفادع الذين غاصوا في المغائر تحت المائية إلى أن صالاتها وكاريدوراتها مرتبة تماماً كما هو حال صالات وكاريدورات المغائر على اليابسة. فضلاً عن أن التيارات في بعض "الكهوف اللازوردية" قوية لدرجة أنها تشكل خطراً على ما هو موجود تحت الماء. وبسبب المد والجزر فإن كمية كبيرة من الماء يجري امتصاصها مشكلة دوامات مائية على السطح. ولا تستبعد إمكانية أن تكون هذه الدوامات هي من يمتص المراكب الصغيرة مع طاقمها.

وقد تأكدت هذه الفرضية عندما تم إيجاد مركب صيد في إحدى المغاور على عمق ٢٥ متراً. لقد اكتشفه الباحث في علم المحيطات جيم سون خلال بحوث تحت مائية. وقد وجدت زوارق ومراكب صغيرة في مغاور أخرى على عمق أكثر من ٢٠ م. ويبدو أن سبب فقدان السفن الضخمة في هذه المنطقة، يجب أن يعزى إلى أعاصير وتسونامي مفاجئة. تتولد الأعاصير الهائلة التي تعبر المنطقة في فصل محدد من العام وترفع كتلاً ضخمة من الماء على شكل قمع. وتقوم الأعاصير كثيرة العدد كمثيلاتها التي تجتاح اليابسة وترفع السقوف والأسيجة، والسيارات والبشر بتدمير كامل للمراكب الصغيرة والطائرات التي تحلّق على ارتفاع منخفض.

في النهار تكون الأعاصير مرئية، ويمكن تفاديها، ولكن الوضع يختلف ليلاً عندما تكون الرؤية سيئة فيصعب على الطائرات الانحراف عن الأعاصير.

إلا أن المتهم الرئيسي في الغرق غير المتوقع للسفن في البحر هو **التسونامي** الذي يتولد خلال الزلازل تحت المائية العادية. ويحدث أن يصل التسونامي إلى ارتفاع ٦٠ متراً. وهي تنشأ على نحو غير متوقع وعندما تصطدم المراكب معها فإنها تغرق أو تنقلب في لمح البصر.

ومثل هذه القوة المدمرة الهائلة تملكها الأمواج "الزاحفة". وهي تأتي بنتيجة انزياح كتل من الغضار على القاع، والتي سببها انسلاخ الترسبات. ولا تبلغ الأمواج الزاحفة الارتفاع الذي يبلغه التسونامي، ولكنها تملك قدرة كبيرة وتتسبب بتيارات مد قوية جداً. وهي خطرة بشكل خاص على البحارة لأن درجة تمييزها سيئة بالعين المجردة. وإذا أتت هذه الموجة بشكل مفاجئ فإنها ستحطم المركب بلمح البصر، وتتناثر شظاياه إلى مسافات بعيدة جداً.

هل من الممكن حدوث شيء من هذا القبيل لطائرة في الجو؟

عموماً، تتولد في الجو كذلك تشوهات مثيلة للتسونامي. وهي غالباً ما تظهر عندما تتحرك الطائرة بسرعة كبيرة. تتغير الرياح في الأعالي، ويحدث غالباً أن تصطدم الطائرات المتسلّقة (في طور الارتفاع) أو الطائرات المتجهة نحو الهبوط بالرياح التي تهب باتجاه مختلف تماماً يقوم المطار بالإشارة له. وإذا كانت هذه الرياح قوية بشكل غير عادي فإنها تؤثر على الطائرة بشكل سيء.

إن ظاهرة "الرياح المتغيرة" هي عامل هام للحوادث في الجو. والشكل المضخّم لهذه الظاهرة هو "المطبات الهوائية" والذي يمكن مقارنته مع الأمواج الزاحفة التي تنشأ في بحر هادئ. إن اصطدام الطائرة بتيارات صاعدة وهابطة متغيرة بسرعات كبيرة يعادل من حيث القوة الاصطدام بجدار حجري.

إن هكذا ظاهرة لا يمكن توقعها عادة. وتتحطم طائرات كثيرة على حافة التيار الهوائي الذي يتحرك بسرعة حوالي ٢٠٠ عقدة (١٠٠ م/ثا) على الأرض. ويبدو أن هذه الظاهرة يمكن أن تفسّر لدرجة ما اختفاء الطائرات الخفيفة في المثلث. في هذه الحالة، تتفجر الطائرة الخفيفة إما بنتيجة الضغط غير الطبيعي، أو بسبب الانفراغ الناشئ بشكل مفاجئ الذي يضغطها نحو السطح أو يرميها في البحر.

الفرضية الأخرى تربط اختفاء الطائرات بتعطيل معداتها الإلكترونية تحت تأثير الظواهر الكهرطيسية. فمثلاً يرى الميكانيكي ـ الكهربائي هيو براون ما يلي: "إن العلاقة بين هذه الظواهر والحقل المغناطيسي الأرضي محتملة جداً. ويحدث الآن، على ما يبدو، هناك تغير جديد وكبشائر له تحدث "**زلازل مغناطيسية**".

ويخطر في الذهن تفسير اختفاء الطائرات وسقوطها نتيجة شذوذ القوى المغنطيسية. مع أنه لا يمكن تفسير اختفاء المراكب بواسطة هذه الفرضية.

في عام ١٩٥٠ اكتشف ويلبرت سميث الذي شارك في برنامج دراسة قوى المغناطيسية والجاذبية، الذي تم تنظيمه بإشراف الحكومة الكندية، اكتشف مناطق الاتصالات المركزة. "إن قوى الجاذبية والمغناطيسية في هذه المناطق غير منتظمة لدرجة يمكنها بسهولة تفجير طائرة. وبالتالي، لدى وقوعها في مناطق شذوذ قوى المغناطيسية والجاذبية غير المرئية وغير المحملة على الخريطة فإن الطائرات ودون أن تدري، تأتي إلى قدرها المحتوم". وبعد ذلك: "... هل تنتقل مناطق الاتصالات المركّزة هذه أم أنها تختفي ببساطة، هذا ما لا نعرفه... بعد ٣- ٤ أشهر حاولنا مرة أخرى إيجاد بعضها، ولكن لا وجود لأية آثار.....".

قام آيفن ساندرسون بدراسة أكثر تفصيلاً لمنطقة المثلث ومناطق أخرى مشتبه بها. وبنتيجة ذلك تقدم بفرضية حول "الاثني عشر ضريحاً شيطانياً في العالم". وقام مع مساعديه بتحميل الأماكن التي يتكرر فيها اختفاء الطائرات والمراكب أكثر من غيرها، مشيراً في البداية إلى أن القسم الأكبر منها يتركز في ست مناطق في العالم.

لقد كان لجميع المناطق تقريباً شكل المعيَّن وكانت متوضعة بين خطوط العرض ٣٠ و ٤٠ شمال وجنوب خط الاستواء.

وحسب رواية ساندرسون، فإن "المناطق الغريبة" متوضعة من خلال خط الطول ٧٢° وتقع مراكزها على مسافة ٦٦ درجة من حيث العرض عن بعضها - خمس إلى الشمال من خط الاستواء، وخمس إلى الجنوب منه. وهي تشكل شبكة تلف الأرض بما في ذلك القطبين. والحركة هنا هي الأكثر نشاطاً. وهي أقل في المناطق الأخرى، إلا أن العوامل التي تؤكد شذوذ الحقل المغناطيسي. وربما الشذوذ المكاني - الزمني موجودة بشكل ما.

إن الجزء الأكبر من هذه "المناطق الغربية" يتوضع عند الجزء الشرقي من الصفائح القارية، في مناطق اصطدام التيارات الشمالية الحارة والجنوبية الباردة. تتطابق هذه المناطق مع الأماكن التي تختلف فيها اتجاهات تيارات المد العميقة والسطحية. إن التيارات تحت المائية القوية والمتغيّرة وتحت تأثير اختلاف درجة الحرارة تشكل قوى مغناطيسية وربما جاذبية مخربة للاتصال اللاسلكي، وهي ما يسمى بـ "القموع المغنطيسية" التي يمكنها خلال ظروف معينة في البحر، نقل الأجسام التي في الجو أو الفضاء إلى نقاط تتوضع في زمن آخر.

وكتأكيد غير مباشر لهكذا عمليات في هذه المناطق، يقدم ساندرسون ظاهرة مدهشة وهي وصول الطائرات في غير وقتها. وكما هو معروف، فإن وصول الطائرات قبل الوقت المحدد بكثير أمر غير ممكن في الظروف العادية إذا لم تكن الرياح قوية. هذه الحالات، ومع إمكانية تفسير حدوثها نتيجة رياح قوية غير ثابتة، ولسبب ما غالباً ما تحدث في منطقة المثلث و"القموع" الأخرى، وكأن هذه الطائرات اصطدمت بـ "القمع" ومرت منه متخطية بنجاح "ثقباً سماوياً" قام بابتلاع هذا الكم من الحيوات.

الإنسانُ الثلجي: لغز حله قريب؟

لقد دخل القرن الواحد والعشرون، ولغز الإنسان الثلجي لم يحل بعد.

لقد استمر اللغز بإثارة عقول الباحثين المتفائلين واستدعى سخرية الخصوم بمختلف الاكتشافات في مجال علم الحيوان والروايات المشبوهة.

يدور الحديث عن كائن عاش شكلاً من أشكال الحياة السرية جداً، بحيث لا يمكن تخطيط اللقاء معه عملياً.

لسنا بصدد إقناع الآخرين أنهم ليسوا على حق ومحاولة إثبات أن "الديناصورات" - ليست مجرد إشاعات، وأن مصطلح "الإنسان الثلجي" ليس صحيحاً أصلاً، وأن أطلنطا يجب البحث عنها في قاع المحيط الأطلنطي وليس في مكان آخر.

يمكن أن يستمر النقاش إلى الأبد. والزمن سيحاكم الجميع.

منذ حوالي ٢٠ عاماً كتب المؤرخ السوفييتي الكبير "ب.ف. بوشنيف" الذي اهتم بتاريخ الإنسانية القديم وعلم الأعراق البشرية وترك للخلف كثيراً من الكتب القيمة والممتعة: "لقد بدا سابقاً أن على بعض - المتهمين - أن يأتوا ببرهان لبعض القضاة وعندها سيأخذ هؤلاء الخبراء بكل رضى على عاتقهم التطوير اللاحق للدراسات.

والآن اتضح أن "المتهمين" هم فقط الأخصائيون وكذلك الخبراء في هذه القضية. وستتوسع حلقتهم بانضمام البيولوجيين الشباب إليهم، والذين ستتوفر لديهم الرغبة بامتلاك حجم المعلومات المتوفر ونقل الخبرة العلمية.

أما القضاء "فسينامون على مقاعدهم في صالة فارغة". وقد اعتبرت: بامير، الهيمالايا، تيان ـ شان المناطق التقليدية لاستيطان رجل الثلج. وسنعود لاحقاً إلى جبال الهيمالايا. ولكن بداية سنتحدث عن الأماكن "غير التقليدية" والتي لا يتوقع تواجد الكائن المجهول (الغامض) فيها. ومثال على ذلك، في أمريكا الشمالية حيث يسمونه هناك "القدم الكبيرة".

عاش عامل الطرقات (ديني تشابمين) مع زوجته وولدين في مكان يسمى (روبي كريك). وذات مرة شاهدت زوجته على طرف الغابة اقتراب كائن ذو شكل بشري إلى البيت وقد كان طوله أكثر من مترين ونصف المتر وقد تحركت قدماه الهائلتان ببطء، وأمسكت المرأة المذعورة بالأطفال وهربت راكضة باتجاه الزوج. أما داني فقد استل سلاحه واتجه إلى البيت، وفي ذهنه أنه سيرى هناك دباً. وبالفعل فقد وقع على أثر، ولكن ليس أثر دب!.

لقد كان عمق الأثر في الأرض أكثر من ٥ سم، وزاد طوله على ٤٠ سم. وكان عرض الخطوة حوالي المتر. وقد فُقدت الآثار فوق ركام صخور جبلية.

ويتحدث الهنود الأمريكيون كذلك عن لقاءات مع الكائن المجهول، لقد أطلقوا عليه اسم - "ساسكفاتش"- القدم الكبيرة.

إن معلومات الناس الذين شاهدوه تعطينا الحق بافتراض أن منطقة استيطان الحيوان ـ هي مناطق الغابات التي يصعب الوصول إليها والموجودة شمال ـ غرب الولايات المتحدة الأمريكية وفي أراضي كندا.

يقول البروفيسور في علم الأعراق البشرية في جامعة كاليفورنيا ألان داندس ـ بارتياب: "هذه على الأغلب شخصية من الفلكلور الهندي".

إلا أن لكثير من الباحثين المتحمسين والعلماء الجديّين رأي آخر. وهم يعتبرون أن ساسكفاتش هو أحد المظاهر المتبقية منذ العصر قبل الجليدي للقرود الضخمة الشبيهة بالإنسان. واستطاعوا طيلة ١٠٠٠٠ عام التكيف مع مناخ أدغال سيبيريا القاسي.

وكثيراً ما صادف الصيادون والسكان المحليون بشكل خاص آثار ساسكفاتش في شمال ـ شرق واشنطن بالقرب من البركان الخامد (سانت ـ هيلنس) في ولاية الكونت "سكاماني" وفي الأراضي التي تقع فيها هذه المنطقة، تم اتخاذ قرار يمنع بموجبه صيد القدم الكبيرة. ومن المحتمل أن تكون هذه هي الحالة الوحيدة التي تحظر إطلاق النار على الحيوانات، التي يشك كثير من العلماء حتى بوجودها.

وهاكم خبراً لم يمض عليه وقت طويل نسبياً: لقد ظهر الكائن الغامض في مكان لم يتوقع رؤيته فيه أحد. لقد لاحظ سكان ضاحية قرب مدينة سياتل الأمريكية آثاراً ضخمة على الثلج زاد طول كل منها على ٥٠ سم.

"تحدثت غلاديس توتلاند التي تعيش بالقرب من هنا، إلى مراسل وكالة رويتر قائلة: لقد كان الأثر شبيهاً بآثار الإنسان إلا أنه ضخم جداً. ومنذ عام ١٩٨١ كان الجيران قد شاهدوا قرب الغابة حيوانات ضخمة يغطيها وبرٌ كثيف. وأقول لكم بصدق: إننا لم نصدقهم وقتئذ. والآن، وقد ظهرت هذه الآثار....".

لقد بدأت الرواية بالكامل على النحو التالي:

في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، وتحديداً في الغابات المظلمة على شواطئ المحيط الهادي، وكانت السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر، تحدث هندي عجوز اسمه فاكاوا، وقد بقي حديثه بفضل حفيده الذي سجله آنذاك. يقول فاكاوا إنه صادف في صيف ١٨٩٧ كائناً مجهولاً. فبينما تعقّب الهندي

أيلاً لاحظ فجأة بالقرب من البحيرة شيئاً ما يشبه العظم الكبير. اقترب منه وأحسَّ برائحة مسك حادة. نظر العجوز ملياً وتبين له أن هذا لم يكن عظماً، بل كائن مغطى بشعر كثيف يشبه شعر الحصان من رأسه حتى قدميه. اقترب الهندي أكثر، غير أن الكائن أطلق صرخة تشبه "نايا ـ آخ" وعندها فهم العجوز أن هذا هو الساسكفاتش نفسه، الذي حدثه عنه والده. وبالرغم من أن الظلام كان دامساً، فإن العجوز رأى على الوجه المليء بالأشعار عيوناً بنية فاتحة. تحرك الكائن، قام العجوز بإيماءة مهدئة بيده ووضع رزمة من السمك على الأرض، فهم الكائن الإيماءة وأخذ السمك وهرب نحو الأدغال. توقف الكائن للحظة فقط وأصدر صرخة أخرى، سيتذكرها الهندي طيلة حياته. صرخة طويلة مبحوحة "إليفو ـ و ـ م" لم يقص الهندي هذه الحكاية لأحد غير حفيده، وقد تمت طباعتها منذ فترة قصيرة نسبياً. بعد عدة أسابيع من لقاء الكائن، استيقظ الهندي العجوز جراء ضجيج غريب، وبينما كان يخرج من الكوخ ارتطم بكومة من جلود الأيائل الطازجة. ثم سمع من بعيد صرخة باتت معروفة له. بعد ذلك صار الساسكفاتش يحمل للعجوز الثمار تارة وتارة أخرى يحمل أغصاناً لتدفئة المسكن، وأحياناً الفواكه.

يتناقل الأسكيمو قصصاً عن عرق من الناس بعادات قبيحة وشنيعة قطن أرضهم قبل أن يأتوا هم إليها.

كانت هذه المخلوقات ذات قامات طويلة، وقد غطى الشعر أجسادها بالكامل. كانت لديهم ميول إلى العزلة، وبنفس الوقت كان ينشب بينهم عراك قاس، وأكلوا اللحم البشري، وتجولوا عراة، مع أنهم بنوا من الحجارة الضخمة محطات دائرية غطوها بسطوح مصنوعة من أضلاع وجلود الحيتان.

ويروي الأسكيمو أن هؤلاء كانوا قد امتلكوا أسلحة بدائية من العظام والحجارة. يسمونهم في أرض بافينوفا إلى الشمال من غرين لاند "التونيجوكي"، مع العلم أن لهم تسميات متشابهة فيما بينهم في مختلف المناطق الغربية.

يؤكد الأسكيمو أنهم تجولوا عراة في غرينلاند. لكن أجسادهم كانت مغطاة بوبر يشبه الريش، كما استخدموا جلود الحيوانات كألبسة في مناطق الغرب الأقصى. لقد كان التونيجوكي صيادين مميزين، استطاعوا التعرف على الطريدة من خلال صوتها وسلوكها ، كما أنهم تمتعوا بقوة كبيرة حيث كان باستطاعتهم إمساك فقمة كبيرة بيدهم.

يروي بعض الأسكيمو أن أسلافهم قتلوا التونيجوكي تدريجياً الواحد منهم بعد الآخر ودمروهم جسدياً. ومع ذلك يؤكد سكان غرينلاند أن بعض التونيجوكي ما يزالون يعيشون في بلادهم ولكنهم حذرون ولبقون جداً.

في تشرين الأول من عام ١٩٦٧ ، صور الباحثون عن ساسكفاتش ـ وهم: (ر.بترسون) ومساعده "هيملن" فلماً سينمائياً لأنثى ساسكفاتش التي اجتازت مجرى ساقية جافة في منطقة (بلاف ـ كريك) شمال كاليفورنيا. ولكن معارضي وجود أسلاف الكائن البشري حاولوا إظهار زيف الفلم.

ولكن تم رفض التهمة من قبل مجموعة كاملة من الباحثين وخاصة منهم العلماء السوفييت، الخبراء بالبدائل الصناعية وغيرهم.

صنع بترسون بصمة من الجص لكف أنثى ساسكفاتش وقد درسه علماء كبار في مجال أصول الحيوانات واستنتجوا "أنه لا يوجد تزييف في هذا".

ومنذ فترة ليست بعيدة، تم في مجلة "آلاسكا" طباعة مذكرات مايكل باوليزنيك أحد المبادرين للبحث عن ساسكفاتش في آلاسكا. يقول باوليزنيك:

"لقد بدأت أبحاثي عن القدم الكبيرة في آلاسكا في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٥م ولم أجده حتى الآن، ولكنني لا أفقد الأمل. **ويسمى هذا الكائن الغامض في آلاسكا عادة بـ "بوشيمون"**.

إن محاولة إيجاد "القدم الكبيرة" دفعتني للخروج من مسكني المؤقت في "انكوريج" لقد فتشت آلاسكا الوسطى والآلاسكا الجنوبية وجنوب غرب الآلاسكا. وقد ساعدتني في الأبحاث الهيئة الاجتماعية غير التجارية الموجودة في ميامي - وهو صندوق أبحاث أمريكي لدراسة الأعراق البشرية.

وتحدث "م. باوليزنيك" أن بعض سكان الآلاسكا لم يرغبوا كثيراً بمناقشة مقابلاتهم لهذا الكائن الغريب، وذلك لأنهم يخافون من أن الناس سيسخرون منهم وينعتونهم بالمجانين.

يتناقل الأليوتي، الذين يقيمون في جزر "كادياك وافوكتاك" جيلاً بعد جيل، أساطير عن كائن غامض يشبه كثيراً الإنسان. وهم يسمونه بـ "أولاكخ" وقد حصل باوليزنيك على أكثر المعلومات فائدة من شهود عيان يعيشون على هذه الجزر بالتحديد.

بدرجة أقل تمت دراسة معطيات عن لقاءات مع الكائن المجهول في الصين. وقد أصبحت الدراسة بتصرف العلماء منذ وقت قصير نسبياً، مع العلم أنه منذ عدة سنوات فقط لم تكن قد وردت معلومات حول "إنسان الثلج" من هذا البلد. "يصل طول قامته إلى أكثر من مترين، أكتافه أعرض من أكتاف الإنسان، جبينه عالٍ، عيناه غائرتان وأنفه عريض (أفطس) مقلوب إلى الخلف، وكانت لديه خدود مقعرة وآذان تشبه أذني الإنسان ولكنها أكبر، عيناه مدورتان ولكن أكبر من عيني الإنسان. فكه السفلي بارز إلى الأمام والشفاه متدلية. الأسنان الأمامية كبيرة تشبه أسنان الحصان، العيون سوداء.

الشعر أسود كستنائي طويل، يصل طوله إلى ٣٠ سم يتدلى بشكل حر على الأكتاف. كامل الوجه باستثناء الأنف والأذنين مغطى بالوبر القصير. تدلت يداه إلى أسفل الركبة. وعظام اليدين كبيرة والأصابع بطول حوالي ١٤ سم، سلاميات الأصابع غير واضحة جداً. لم يكن لديه ذيل، وكان الجسم

مغطى بالوبر القصير. وكان له أفخاذ ثقيلة أقصر من الساق. يسير إلى الأمام مباعداً بين قدميه.

وكان أثر القدم بطول أكثر من ٣٣ سم وعرضه تقريباً ١٥ سم وكان الأثر من الأمام أعرض منه في الخلف. بأظافر مسطحة. لقد كان ذكراً.

وهذا ما أتيح لي رؤيته بوضوح.

هذا ما وصف به "بانك اينيسنك" ٣٣ عاماً في تشرين الأول عام ١٩٧٧ الكائن المجهول أمام مجموعة باحثين من أكاديمية العلوم الصينية.

تحدث بانك كيف قابل الرجل المشعراني في الغابة على السفح قرب شعب حيث ذهب لجمع الحطب. ((اقترب هذا الإنسان مني أكثر فأكثر، أما أنا فتراجعت إلى الخلف حتى اصطدم ظهري بصخرة. لم يعد لي مفر من المواجهة. رفعت الفأس وكنت جاهزاً للصراع من أجل الحياة. وقفنا الواحد مقابل الآخر قرابة الساعة دون حراك. ومن ثم أخذت حجرة وقذفته بها. أصابته الحجرة في صدره. أصدر عدة صيحات وبدأ يحك مكان الضربة بيده اليسرى. وبعد ذلك استدار نحو اليسار، اتكأ على شجرة، ومن ثم مشى ببطء إلى الأسفل إلى قاع المغارة وتابع تألمه".

في ليلة مقمرة من شهر أيار عام ١٩٧٦، سافر ستة زعماء، ممن أقاموا مشاعات لهم في منطقة غابة "شينو نتصيا" محافظة "هوبيه" في سيارة جيب إلى مكان ليس بعيداً من قرية "تشونهيا" وفجأة أضاءت مصابيحهم "كائناً غريباً أبتر" ذا شعر أحمر يقف في الطريق.

توقف سائق الجيب، مركزاً أشعة المصابيح على الكائن، أما الرجال الخمسة فقد ترجلوا من السيارة، ليروا الكائن المجهول. اقتربوا لعدة أمتار ـ وقد أبدى الكائن اهتماماً لظهورهم كذلك. لكنه اختفى بعد ذلك في الظلام. لم يحاول الناس تتبع أثره، ولكن في صباح اليوم التالي أرسلوا برقية إلى

أكاديمية العلوم في الصين. كان الجميع على قناعة أنهم شاهدوا واحداً من البشر الصينيين الخرافيين **المشعرانيين**.

احتفظ الفلكلور الصيني على مر القرون بحكايا رهيبة عن **كائنات كبيرة مشعرانية**، تشبه الإنسان، والذين يسيرون على أطرافهم الخلفية. وحسب الأسطورة فإن هذه الكائنات تعيش في المنطقة الجبلية الوسطى للصين تسينلين ـ باشان ـ شينونتسزيا، كما تعيش في هذه المنطقة أيضاً دبب باندا عملاقة وأنواع نادرة أخرى من الحيوانات، والتي لم تشاهد في أي مكان آخر من العالم.

توجد عدة فرضيات تتحدث عن **أصل الناس المشعرانيين المتوحشين في جنوب شرق آسيا**. تؤكد واحدة منها أن الناس المتوحشين ـ هم الخلف الأحياء للقرود والعملاق شبيه الإنسان والذي عاش على الأرض منذ حوالي ٢ مليون سنة. على الرغم من الاعتقاد بأن هذه القرود قد انقرضت منذ ألف عام فإن العلماء يشيرون إلى أن الباندا العملاق، الذي عاش نوعه كما هو معروف، جنباً إلى جنب مع القرود العملاقة، ما زال يسكن كما في السابق نفس المنطقة.

كما أن الكثير من النباتات القديمة ـ مثل شجرة الحمام، وشجرة السوسن الصينية ـ قد نمت فقط في منطقة تسينلين ـ باشان ـ شين نوتسبا.

إن الحيوانات الأخرى النادرة والحيوانات القديمة، مثل القرد الذهبي والـ تاكين تعيش في هذه المنطقة فقط. لذلك يفترض بعضهم أن القرود العملاقة استطاعت البقاء هنا كنوع.

وتوجد معلومات أخرى عن لقاءات حديثة العهد مع الكائن المجهول. كان أحدها معلومة من جبال الهيمالايا الغربية مدعمة بالصور. ومع أنها غير دقيقة لكنها تسمح **بالاستنتاج التالي**:

خلال ١٠ سنوات من البحث جالت "مايا هنري خوفنابيكوفا" البلد كله. وقد حالفها النجاح في آب من عام ١٩٨٧ في عزبة بعيدة في أدغال سيبيريا. تقول بيكوفا: بينما كنت أتجه في عام ١٩٨٧ للقاء سلف الإنسان المكنّى بالموسوم. ـ تخيلت مراراً مع من سألتقي في حرش الصنوبر البعيد.

كان مخبري فلاديمير فيكين من شعب "مانسي" وكان كما جميع أسلافه ـ مواطن أدغال ـ خدم في الجيش وحصل على التعليم المتوسط وسائق وميكانيكي. هو وعائلته أيضاً "بعيدين كل البعد عن الدين" **وهاكم ما تحدث به:**

((توجد لدينا عزبة نقيم فيها صيفاً وشتاء، وتبعد حوالي ٧٠ كم عن أقرب مسكن. أقامها جدي قريباً من القرية السابقة التي هجرها الناس منذ أمد بعيد. منذ حوالي ٤٠ سنة، وربما في نهاية الحرب، لاحظ جدي أنه في شهر آب، كان أحد ما يتردد على المسكن ليلاً وأحياناً عند الفجر. ومن ثم عرف الجد وأبي من هو، لأنهما راقباه غير مرة من النافذة. متجولاً حول العزبة.

لقد بدا موسوماً: كان مغطى بالوبر الأبيض من راحة الكف حتى مرفق اليد اليسرى. كان يقترب من العزبة وكل مرة يقرع النافذة بطرقتين قصيرتين أو ثلاث طرقات)).

في عام ١٩٨٥ شوهد مرتين (أو ثلاث مرات كما تبين لاحقاً)، "م.ب" أنا شاهدته أيضاً، لم نسمِّه أبداً عفريتاً. أعتقد أن هذا الشيء الذي تبحثون عنه، سافروا إلينا وسيتلاشى الشك فوراً.

وصل الموسوم عند الفجر في الليلة الأولى من حضورنا إلى العزبة الشتوية ـ تابعت "مايا هنري خوفنا" ـ خرجنا على أثر طرقاته المحذرة على النافذة........ وتبين أننا على بعد ٥ أمتار عنه، هذا الذي يسمى برجل أو سلف الإنسان القرد

لقد كان ضخماً، كثيف الشعر بعيون حمراء. ولم يكن هناك ما يدل على وجود ذيل ولا قرون ولا حوافر ولا يمكن مقارنته من حيث الشكل والمظهر إلا مع الإنسان فقط. كل شيء فيه متناسق ومتناغم، وكل شيء يدل على القوة، لأن العضلات كانت ظاهرة حتى تحت الوبر. لقد بدا الرأس وكأنه غائص بين عضلات الرقبة. وتجبرك عظام الأيدي الضخمة وأقدام الرجلين على الأخذ بالحسبان، أنك أمام رحّالةٍ ومسّاحٍ دائم، ومقتلع للأشجار من جذورها وقاذف للحجارة الكبيرة والصغيرة ولا يشترك بأي شبه مع الدببة أو القرود: فللدببة بوزٌ وأرجل قصيرة وبنية متراخية، ـ أما القرود فهي بمثابة نسخة هزلية عن "الموسوم" ولمدة دقيقة كاملة بدت طويلة جداً، حدق الواحد منهم في الآخر.

"بالنسبة للأحاسيس ـ فلا حاجة لذكرها. وتتابع بيكوفا: لم يستمر عدم اكتراثه، تلاقت نظراتنا، نطق دون أن يحرك شفتيه: "كخيْ" كمن ينظف حنجرته بعد صمت طويل.

مضت الدقيقة. ومن وراء البيت خرج إلينا جرو يلقب بوكس وهو ينبح بصوت عالٍ، وبعدة وثبات وصل إلينا ونبح بشكل متوحش من الخوف ورغبة بحماية صاحبه. ألقى الموسوم نظرة كمن يقدر الوضع، ونقل رجله اليمنى، وخطى خلف الشجرة، وبعدها لم نره".

انقضى عام. وفي آب توجهت "م. بيكوفا مع مجموعة من علماء الحيوان" في بعثة إلى زابو لياريه. في أوقات المساء كان أعضاء البعثة يتحلقون حول النار وشعروا لسبب ما ببعض الضغط. بالرغم من الليالي المضيئة، فلقد كان لديهم إحساس كما لو أن شبح الغابة يخيفهم ويطردهم من ممتلكاته.

كان سلافا كوفاليف مرتبكاً أمام أصدقائه. لقد اصطحب معه في المسير جرواً صغيراً جداً، وقد اضطروا للنوم في العزبة التي بناها الشباب بأنفسهم. إن الجدول المنحدر من الجبال يفيض في الربيع، لذلك فقد تم بناء

العزبة فوق أوتاد طبيعية (فوق أشجار تم نشرها على مستوى واحد)، وقد بدت وكأنها على رجلي دجاجة وكان ينقصها فقط "بابا ـ ياغا (وهي شخصية خرافية من التراث الروسي تعيش في عزبة وتسير على رجلي دجاجة ـ المترجم). وقد ترك الجرو مفرشه على الأرض وأكياس النوم والحقائب طيلة الليل، ولذلك قرر سلافا ربط الجرو ليلاً في الحقل إلى وتد. حتى أن أحدهم أوضح له، كيف يتم ربط الحبل بعقد رباعية متينة.

وفي الصباح لم يشاهد الجرو في مكانه. لقد اختفى مع الحبل. **لكن من يستطيع حل الحبل ونزعه من الجذمور العالي جداً؟** ليس باستطاعة وحش فعل ذلك. إذاً فمن فعل ذلك؟.

في اليوم التالي تطورت الأحداث بشكل غير متوقع تماماً. لم يدخل ساشا العزبة مساءاً واتكأ على أحد "قوائم الدجاجة" ومن تحت البيت راح يراقب النهر. وفجأة ظهرت على الشاطئ الآخر أرجل إنسان مغطاة بشعر أشهب كثيف.

عبرت الأرجل النهر وراحت تطوف حول العزبة. التصق ساشا بالأرض محاولاً معرفة لمن هذه الأرجل ودُهش حين لم ير لها نهاية. ثم وثب وبقفزة واحدة أصبح قرب الباب:

"أيها الشباب، يعيش هنا عملاق ما!".

قبل حوالي سبع سنوات ألقت "مايا هنري خوفنا" محاضرة في موسكو حول تصورات شعوب الشمال عمّا يسمى برجل الثلج، أو الإنسان القرد أو ياك مورت أو شبح الأرض. والآن بات لديها تأكيدٌ غير متوقع للتخمينات. إننا نتلقى الأخبار ونسافر على الفور مع علماء الحيوان (ف. راغوفي) و(م. غافريلوف) إلى مكان الحدث.

وهناك لم نكتف بالاستماع لـ (١٦) شاهداً رأوا هذا الكائن، بل قابلنا مجموعة من الناس الذين تواصلوا معه.

والشيء الرئيسي ـ هو أننا أحضرنا إلى العاصمة شواهد مادية تدل على بقائه: مثل الشعر والبراز (التي وجدها هنا قبلنا عالم الحيوان "ل. ايرشوف") وأحضرنا أيضاً علكة صمغ مبصوقة.

لم نكتشف المضاجع المؤقتة فحسب وإنما المضاجع الدائمة للكائن وفيها تحديداً تكمن الإجابة عن السؤال: لماذا لا توجد حتى الآن صور للإنسان القرد. إن بطلنا هو حيوان ليلي: ويبدو للكثيرين أنه يكفي للنجاح أن توصل جهاز رؤية ليلية مع كاميرا سينمائية. كما أعرف فضلاً عن ذلك، أن كل مختص في مجال التصوير الليلي يبحث طويلاً عن عش البومة أو وكر الذئب لكي يثبت بشكل مسبق معداته ويتحكم بها عن قرب في الوقت الذي يغيب فيه صاحب العش أو الوكر. إنهم يبحثون عن الأعشاش دون جدوى! والحال مع بطلنا من نوع آخر: فحتى هذا اليوم لم يجد أحد هذا "العش".

لقد حالف الحظ المجموعة التي كانت فيها بيكوفا، وليس العشرين شخصاً المسلحين، الذين أرادوا القصاص من الحيوان الذي أقلق راحتهم آملين أن يكون دباً رمادياً، أراد أن يسير على قدميه الخلفيتين. وفي ذلك العام بالتحديد استوعبت مايا هنري خوفنا الصرخة التي قلدت صرخته أو ببساطة لفتت انتباهه. وقد ساعدها في ذلك واحد من الشهود الرئيسيين الذين اصطدموا مع الحيوان "وجهاً لوجه" وسمع همرته ـ صرخته، وهو طالب الصف العاشر رومان ليونوف. فبينما كان يحاول تثبيت الباب كي يمنعه من دخول العزبة فقد للحظة قوته وانفتح الباب. وهنا التقينا: الإنسان والوحش الغامض. وأول ما خطر بباله: "كيف لهذا الشبح أن يكون مرحاً كالشباب". وعلى جلد الوجه الداكن المسمر تماماً، والأمرد والذي غطته التجاعيد لمعت أعين ضخمة. ترى كيف يبدو؟ إليكم وصف الصياد إيغور فلاديميروفيتش بافلوف

لهذا الكائن. إن طوله ٢,٧٥ متراً تقريباً. طول آثار قدمه ٣٤ سم. عرض الخطوة أثناء الركض ثلاثة أمتار. عريض المنكبين، بارز العضلات (وقد شاهد يده اثنان. لقد دسها في العزبة لفتح الباب. إنها مغطاة بالأوردة، وقليلة الشعر). أردافه بيض تماماً، وتبرز كما في فيلم باترسون (ي. بافلوف رأى هذه الصور بعد الأحداث). الأجزاء العليا والسفلى للبدن قاتمة قليلاً وكأنها نهايات شعر أبيض أو أنها متسخة، أو أنها ذات لون رمادي ـ حديدي أصلاً. وكما في الصور الملتقطة في كاليفورنيا، يوجد على الخصر حزام ما وكأن الأشعار تنمو هنا باتجاهات مختلفة. العينان لامعتان، وغاضبتان كأنه أتى ليطرد أحداً!.

وهكذا، يوجد لدى علماء الحيوان حقائق وقرائن مادية، وهناك الكثير مما يجب معرفته. ولكن إذا رغب السّواح الفضوليون بأن يصلوا إلى السّر، ويتدفقوا إلى أماكن معيشته. فإنهم سيدمرون الآثار ويخلّون بهدوء الطبيعة ويحطمون المضجع فإن الكائن سيغادر هذه المناطق طبعاً.

سيّروش على بوابةِ الملكة

... كان يمكن أن نبدأ هذه القصة من أحداث السنوات الأخيرة، لكننا نعود لمئة عام مضت.

في الثالث من حزيران عام ١٨٨٧ ، عندما حضر البروفسور الألماني روبرت كولديفي على مدى يومين إلى مكان الحفريات في بابل القديمة ، وأخذ من الأرض قطعة قرميد قديمة. وقد غطى أحد سطوحها طلاء أزرق فاتح وتضمن مقاطع صورة اهتم لها العالم كثيراً. لقد أمل أنه وقع على اكتشاف، ولكنه لم يحلم بأنه سيكون هاماً لهذا الحد. وأغلب الظن أنه لم يعرف أن ذلك سيسبب كثيراً من ألم الرأس الذي لا يقل أثره علينا اليوم عن أثره قبل ٥٠ عاماً مضت.

ومهما يكن ما حدث، فإن البروفسور لم يعد إلى مكان الحفريات إلا بعد ١٠ سنوات ونيّف. في هذه المرة كرّس الأيام الثلاثة الأخيرة من عام ١٨٩٧ للتنقيب عن قرميد جديد مغطى بالطلاء الأزرق الفاتح. لقد لمّحت له إدارة المتحف الملكي في برلين والجمعية الألمانية الشرقية إلى أنها ستخصص نفقات للتنقيب في بابل بشرط الحصول على نتائج مفيدة. ولقد لبت الغنائم التي أحضرها البروفسور من الرحلة الثانية طموح السادة أرباب المنازل.

"بدأت التنقيبات في ٢٦ آذار من عام ١٨٩٩ على الناحية الثانية من القصر، إلى الشمال من بوابة عشتار"، جاء ذلك في كتابات كولديفي. وفي عام ١٩٠٢ ظهرت من جديد بوابة الملكة عشتار، التي اختفت لقرون طويلة تحت طبقات الأرض. ومع أنها تهدمت بشكل جزئي، إلا أنها تركت انطباعاً قوياً. بوابة عشتار تمثل قنطرة نصف دائرية هائلة محدودة الجوانب بجدران كبيرة جداً وتطل على طريق طويل من أجل المواكب، والتي امتدت على جانبيها جدران من اليمين واليسار. وقد بُني كل ذلك من الآجر (الفخار) المغطّى بطلاء أزرق فاتح، وأصفر، وأبيض وأسود. ولزيادة الروعة فقد تمت تغطية جدران البوابة والممر بنقوش بارزة رائعة الجمال، تمثل الحيوانات في وضعيات قريبة جداً إلى الطبيعة. وصفوف الأسود الرصينة تزين جدران الممر. لقد تمت تغطية جدران البوابة من الأعلى إلى الأسفل بصفوف متناوبة من صور حيوانين آخرين. أحدهما يمثل ثوراً قوياً بمظهر شرس، والثاني يمثل شيئاً يجبر علماء الحيوان على التفكير الجدي بماهيته...

لقد جرت تسمية هذا الحيوان الثاني بالتنين البابلي، وهو نفسه الوحش الذي يشخصونه تحت التسمية نفسها في الكتاب المقدس. ولقد احتفظت الألواح الطينية بتسميته البابلية ـ سيرّوش. وسنتركه هكذا مع أنه يوجد بعض الشك فيما يتعلق بلفظه الصحيح.

وهاكم وصف كولديفي لأبعاد بوابة عشتار:

"تترتب صفوف الآجر فوق بعضها البعض. ولا يحدث أن تجد التنانين والثيران في نفس الصف الأفقي، ولكن صف الثيران يلي صف السيروش، وبالعكس. كل صورة مستقلة تشغل ١٣ قطعة آجر بالارتفاع، والبعد بينها ١١ قطعة آجر. وهكذا، فإن المسافة من أسفل إحدى الصور إلى أسفل الصورة الأخرى تساوي ٢٤ قطعة آجر، أو ما يساوي ٢م تقريباً، أي أربع إيلات بابلية".

مجموع صور الوحوش على البوابة ٥٧٥.

تفرض المنشأة انطباعاً شديداً، وليس عجباً أن الملك نبوخذ نصر الذي أعاد بناء بوابة عشتار افتخر بها كثيراً. وعندما انتهى العمل بها صنع نقشاً من الفخار ووُضع ليراه الجميع. ومع كل ما يميز ذلك الوقت من عدم التواضع، فقد احتوت الأسطر الأولى ما يلي:

"أنا نبوخذ نصر، الملك البابلي، الأمير المعظّم، الذي يحكم بإرادة ومباركة مردوك (كبير آلهة بابل)، الحاكم الأعلى للمدينة، وحبيب السماء (ابن مردوك كبير آلهة مدينة "بورسيب" المجاورة)، الداهية والهمام.... الذي يتحرق دائماً لمصلحة بابل، الابن العبقري الأصيل لبنو بولاسار، ملك بابل....

بعد ذلك، يذكر في النقش أنه وبسبب التزايد الدائم للترسبات على الطريق المؤدية إلى بابل فإن ارتفاع البوابة ينخفض باستمرار، وقد أمر نبوخذ نصر في نهاية الأمر، بإعادة بناء البوابة بشكل تام. وكل ذلك يتأكد بواسطة اللّقى الأثرية، ولا نملك أساساً للشك في صدق أو أصالة النقش، والذي تبين صدفة أنه غير منتهٍ تماماً. ولم يخلُ النقش من لفت الانتباه إلى صور الحيوانات.

"لقد تم رسم الثيران الشرسة (وقد سميت في الأصل بـ "ريمي") ورسمت التنانين العابسة على باحة البوابة (ويقصد هنا الجدران)، والتي أعطت للبوابة جمالاً وروعة ويمكن للجنس البشري أن ينظر إليها بإعجاب".

وبالفعل نظر البشر بإعجاب قروناً طويلة إلى هذه الرسوم. والآن، وبعد التنقيبات وإعادة البناء يعود لينظر من جديد. حتى أنه تم صنع نسخ للريمي في أماكن أخرى. في اليونان القديمة عرفوا جيداً بوابة عشتار، لكنهم يفضلون تسميتها هناك ببوابة سميراميس.

في تلك الأيام لم يقلق أحد طبعاً فيما يخص مصداقية وجود هكذا حيوانات لقد كانت الأسود على جدران الممر أسوداً ، والتيوس الجبلية على البوابة تيوساً حتى بصرف النظر عن الشكل غير العادي لها ، أما التفاصيل التي اعتبر صنّاع نبوخذ نصر أنها ضرورية لتجميل الوحوش التي تم رسمها ، فإنها لا تعيق أحداً. لقد رسموا العقبان أحياناً بلحى، ووجوه بشرية وغير ذلك. وباختصار فإن السيروش لم تثر أية دهشة. ولكي يدهشوا كان عليهم التسلح بمعارف ضخمة للقرون الأكثر قدماً ، وهي المعارف التي ساعدت على إيجاد وإعادة ترميم بوابة عشتار. إن النقوش البارزة للسيرّوش تملك دوائر دقيقة: خصرٌ ضيّق مغطّى بحراشف، وذيل حرشفي طويل ودقيق وكذلك رقبة حرشفية طويلة ودقيقة ورأس أفعى. الفم مغلق، ولكن خرج منه لسان طويل بشعبتين. وتلاحظ على القفا أذنين جلديتين مزينتين بقرن مستقيم هو بمثابة سلاح كذلك. ويمكن وجود قرنين لأنه لا يوجد في صورة التيوس الجبلية إلا قرن واحد. "يكتب كولديفي ــ شيء يستحق الاعتبار، إذ أنه بصرف النظر عن الحراشف، فإن الحيوان يملك صوفاً. وإلى جانب الأذنين تدلت ثلاث جدائل حلزونية من الرأس، أما على الرأس حيث يجب أن يوجد عُرف العضاءة فيمتد صف طويل من الضفائر المجعدة".

إلا أن الشيء الملفت أكثر من غيره هو الأطراف. فالأطراف الأمامية شبيهة بأطراف حيوانات من فصيلة القطط (الفهود مثلاً)، أما الأطراف الخلفية فتشبه أطراف الطيور. وهي كبيرة جداً ، بأربعة أطراف مغطاة بحراشف متينة. وبالرغم من تراكب هذا العدد من القطع المختلفة، فإن السيرّوش يظهر كما لو أنه حي، تماماً كما الريمي التي بجانبه إن لم يكن أكثر.

لو أن أحداً ما انتشل بوابة عشتار قبل ١٠٠ عام من الوقت الذي اكتشفت فيه، فإن تركيب الأطراف المختلفة كان سيعتبر دليلاً على أن الثعبان

السحري ـ ليس حيواناً حقيقياً أكثر من الثيران المجنحة والطيور ذات الرؤوس البشرية من الأساطير البابلية والآشورية. ولكن خلال مئة عام نجح جورج كيوفيني بأن يصبح أباً للأخصائيين بعلم الحفريات، والبروفسور مارش في أمريكا اكتسب (حاز على) لقب "أب الديناصورات"، وحتى أن وجهات النظر إلى العلوم البيولوجية خضعت لتغييرات هائلة. لقد اكتشف علماء الحفريات الحيوانات التي جرى التنقيب عنها، والتي تملك رقاباً وذيولاً مزيفة (غير حقيقية) وجسماً ضخماً ورأساً صغيرة أو رأس أفعى متوجاً بقرون (وربما امتلكت ألسنة بشعبتين، مع أنها للأسف، لا تبقى على شكل مستحاثات متحجرة). حتى أنه وجدت أشكال استطاعت المشي إلى الأمام أو على أربعة أطراف. من المحتمل أنها استخدمت وبالتناوب هذا الأسلوب أو ذاك في التنقل وذلك تبعاً للظروف.

وبمقابل ذلك صاروا فجأة يتصورون أن سيروش يمثل حقيقة ممكنة تماماً.

في البداية، فكروا أن هذه صور حيوان من فصيلة العضاءات. وفي عام ١٩١٣ صرح البروفسور كولديفي للمرة الأولى أن تنين بابل يشبه من حيث ملامحه الأساسية العضاءات المكتشفة كمستحاثات.

أكد البروفيسور أن "سيروش... يتفوق كثيراً من حيث تماثل تركيبه الفيزيولوجي على جميع الكائنات الخيالية الأخرى، وختم متنهداً: "لو لم تكن لديه هذه الأطراف الأمامية الشبيهة بكل وضوح بأطراف القطط لكان ممكناً جداً وجود هكذا وحش". وبمعرفته أن الكتاب المقدس يؤكد وجود السيرّوس، انبرى البروفسور ليفترض أن الكهنة البابليين اقتنوا في معابدهم تحت الأرضية زاحفاً ما واستعرضوه في الضوء الخافت على أنه سيرّوش حي.

وقد كتب كولديفي عن ذلك في أول تقرير واسع له حول التنقيبات في بابل. في عام ١٩١٨، وبعد مرور خمس سنوات كتبت جزءاً تاماً حول بوابة عشتار مزوداً إياه بصور رائعة، وبهذا الشكل انخرط في معركة مع التنين. في هذه المرة كان أكثر شجاعة. مع استمرار تأثره بالشبه الموجود بين الأطراف الأمامية للسيروش وأطراف القطط، فقد أورد قائمة بالعضاءات (الزواحف) المنقرضة، مشيراً إلى ملامحها التي اختص بها السيروش. وقد خرج بنتيجة مفادها أن الحيوان، فيما إذا كان قد وجد سابقاً، فإنه يجب أن يُصنف باعتباره ديناصوراً ذا أرجل طير. وبينما كان يقود القارئ إلى هذا الاستنتاج بحذر شديد أعلن فجأة: "إن ايغوانودن (وهو ديناصور ثنائي الأطراف من العصر الطباشيري) الذي تم إيجاده في ترسبات العصر الطباشيري في بلجيكا هو أقرب الأقرباء لتنين بابل".

إن هذه القصة مدهشة في نواحٍ عديدة. لقد تم تكبير عشتار وتزيينها بهذه النقوش البارزة بأمر من الملك، الذي اشتهر لدينا بسبب ذكر اسمه في الكتاب المقدس. ويظهر على هذه البوابة الوحشان الأكثر سرية واللّذين ذُكِرَا في الكتاب المقدس جنباً إلى جنب، أو بالأحرى، فوق بعضهما البعض.

ريمي، الوحوش التي بعثت على الشك بالرغم من قوتها الجبارة، والتنين الذي احتفظوا به في أحد معابد بابل والذي كان السكان ينحنون له، قبل أن يقتله دانيال (النبي).

وقد قرر في نهاية الأمر أن الريمي هو تيوس جبلية. **وماذا عن السيروش؟ لماذا لا نعتبره مجرد تخيّل؟** لقد اعتبر كولديفي نفسه أن ذلك قليل الاحتمال، لأن صورة سيروش لم تتغير على مدى آلاف السنين، وهذا ما لا تتميز به الكائنات الخيالية في بابل. لقد ظهر سيروش في الفن البابلي المبكر بشكل معروف، وقد رسم كما في السابق في عهد نبوخذ نصر، أي حوالي ٦٠٤ ـ ٥٦١ ق.م.

يستطيع العلم الحديث وبسهولة تحديد نوع العضاءة التي ينتمي لها السيروش، مع أن الأجسام التي تم اكتشافها عن طريق الحفريات لم تعرف نوعاً مماثلاً تماماً له، أما الفنان الذي رسم السيروش، فيحتمل أنه سمح لنفسه ببعض الأخطاء الصغيرة.

وبات معروفاً الآن احتمال عدم معرفة أهل بابل بعلم الزواحف. وسيروشهم. إما أنه نسخة دقيقة لشيء ما كانوا يعرفونه، أو أنه صورة وحش عجيب كان يشبه حقيقة وجدت. وهو على الأغلب ليس "إعادة تجميع". فضلاً عن أنه لم يعثر على مقبرة للديناصورات بالقرب من بابل.

وحيث أننا لا نعرف حيواناً عاش أو انقرض منذ وقت قصير، يمكن أن يكون بمثابة "طبيعة" لرسم السيروش، فإننا نقف أمام خيار: "إما أن نوقف البحث، أو نفترض أن السيروش هو صورة دقيقة لحيوان غير معروف لعلم الحيوان الحديث. يجب أن لا تقلقنا حقيقة أن الحيوان ربما لم يكن موجوداً حتى في زمن بابل القديمة. لقد ماتت الريمي في ذلك الوقت في منطقة بلاد الرافدين ولكنها عاشت ٢٠ قرناً آخر في أوروبا. ولقد كانت الريمي بالنسبة لسكان بابل "وحشاً من البلدان البعيدة". يمكن أن نقول الشيء ذاته عن السيروش.

ولكن من أين أتى؟ يرى بعض العلماء أنه أتى من إفريقيا الوسطى.

يجب هنا أن نقوم بعرض لما يقوله معارضو "الرواية الإفريقية".

لقد تم إثبات الأسطورة التي تتحدث عن التنين في الكتابات الأولى عن التاريخ البشري. وقبل غيرها ظهرت في المصادر السومرية. وما من شك أن التنانين هي كائنات خرافية. غير أن الأساطير التي تتحدث عن التنانين والثعابين تنتقل من ألفيّة إلى ألفية في كافة قارات الأرض، ويوجد بينها تشابه مذهل.

يعتبر عالم الحيوان من جامعة ولاية فلوريدا وولتر أوفنبرغ أن تشابه هذه الأساطير كبير جداً لاعتباره تطابقاً بسيطاً.

ويقول العالم، إن التنين في الأسطورة له أجنحة وهو محصن ضد الموت ويملك معارف خاصة فيما يخص جوهر الحياة والموت. وعلى ما يبدو فإن التنانين تسيطر على الأنهار والمطر وهي تملك أسرار الخصوبة.

إن الأساطير التي تتحدث عن التنانين موجودة في الصين، اليابان، استراليا، أمريكا، الهند، وفي أوربا طبعاً. ويكفي تذكر قصة القديس جورجيوس والتنين. إن تنانين الغرب تحمل عادة الحقد، ولكن في الشرق فإنها تعتبر مفيدة ولها تقدير كبير.

يفترض أوفنبرغ أن الأسطورة عن التنين قد نشأت قبل ١٠٠ ألف عام، في الوقت الذي راقب الإنسان الساذج كيف أن الأفاعي تزحف في الربيع من تحت الأرض "تتبعث" بعد الشتاء. وقد افترض أن بالإمكان ذكر ذلك في التقويمات المصنوعة من العظم والتي يجدها علماء الآثار.

إلا أن العالم يضيف أن المعلومات الأولى التي يمكن تعريفها بدقة على أنها تخص التنانين، وتنتمي للثقافة السومرية، التي نشأت قبل ٥ آلاف عام مضت فيما بين النهرين دجلة والفرات. لقد تكونت تنانين السومرين من أجزاء "مختارة" من الصقور والضباع والأفاعي. والتنين المشكل من حيوانات تتغذى على الجيفة استطاع بشكل منطقي أن يجسد العلاقة بين الحي والميت.

ثم يتابع أوفنبرغ ويفترض أنه في حوالي ١٥٠٠ ق.م حمل الفرسان المقاتلون من آسيا الوسطى مقاطع من الخرافة السومرية إلى أوربا غرباً وإلى الصين شرقاً. ويفترض العلماء أنه كان باستطاعة الغزاة الآريون إحضار الأساطير عن التنين إلى الهند، ثم أوصلها التجار حتى إندونيسيا وأستراليا حيث توجد أسطورة عن الثعبان الطائر.

في أمريكا الشمالية اتخذت هذه الأساطير التي سبقت التاريخ، شكل ثعابين طائرة تسكن السماء. وفي أمريكا الجنوبية ظهرت "تماسيح خارقة" تسيطر على الأنهار.

ولكن نفرض مع ذلك أن هذا الحيوان ما زال غير مكتشف بعد. والمكان الوحيد الذي كان بإمكانه العيش فيه دون أن يُلاحظ هو إفريقيا الوسطى، في منطقة الغابات الاستوائية وحوض نهر الكونغو. ولذلك فإن جميع الإشاعات التي تتحدث عن حيوان ضخم ورهيب تنطلق من هناك بالتحديد. إحدى هذه الإشاعات وصلت إلى الصياد الذي تتبع فريسة ضخمة هانس شومبرك قبل سنوات كثيرة من كتابة كولديفي لتقريره الكبير الأول.

عمل شومبرك لمصلحة كارل هاغن بيك، تاجر الحيوانات المفترسة، التي قدمها لحدائق الحيوان كما اقتنى حديقة حيوان كبيرة في شتيلينفن في هامبورغ.

في عام ١٩١٢ روى شومبرك العائد إلى إفريقيا لهاغن بيك قصة مدهشة. وقد سُرَّ شومبرك عندما لم يسخر هاغن بيك منه. وبدلاً من ذلك، أخبره أنه سمع هكذا معلومات غير مرة من مصادر أخرى. هذه الأخبار كانت قصص السكان الأصليين حول الوحش الهجين من "تنين وفيل"، والذي يفترض أنه عاش في مستنقعات استحال عبورها.

يبدو أن شومبرك لم يسمع عندما زار ليبيريا عن هذا الحيوان، ولكن عندما وصل إلى ضفاف بحيرة بانغفيولو، إلى المكان الذي بدا وكأنه المكان المثالي لعيش جواميس النهر، وسأل السكان الأصليين عن سبب عدم وجود أيّ من جواميس النهر هنا أجابوا بوجود سبب وجيه لذلك. (وهنا ننقل من كتاب شومبرك "خلف الحيوانات المتوحشة في قلب إفريقيا"). "أخبروه أنه

يعيش في هذه البحيرة وحش أصغر من حجم أفراس النهر ومع ذلك فإنه يقتلها ويتغذى عليها . وحسب الأخبار فإنه يجب أن يكون برمائياً: وحش يخرج إلى الشاطئ، ولكن لم يتسنَّ لأحد رؤية آثاره. وللأسف فإنني قيمت هذه القصة على أنها خرافة ولم أتابع البحث فيها. وفي وقت لاحق تحدثت عن ذلك مع كارل هاغن بيك، والآن أنا على قناعة أن الوحش انتمى إلى أحد أنواع العضاءات. وأنا إلى جانب هذا الرأي، لأن هاغن بيك حصل من مصادر أخرى على معلومات تطابقت تماماً مع مشاهداتي ومع المعلومات التي حصلت عليها من السكان الأصليين الذين سألتهم. أرسل هاغن بيك بعثة خاصة إلى بحيرة بانغفيولو، ولكنها للأسف لم تستطع إيجاد هذه البحيرة".

في عام ١٩١٣ أرسلت الحكومة الألمانية بعثة إلى الكاميرون بقيادة فرايرفون شتانيتسو لاوزنيتا بمهمة القيام بدراسة شاملة للمستعمرة. والتقرير الرسمي حول هذه البعثة الذي مازال موجوداً في النص الأصلي، يحتوي جزءاً واسعاً مكرساً لحيوان شومبرك المجهول. النقيب فون شتاين كان طبعاً في غاية الحذر، واختار الكلمات في هذا الجزء من التقرير، مسمياً الحيوان "بالكائن الغامض جداً"، والذي "ربما يوجد في خيال السكان الأصليين فقط". تألّفت معلومات فون شتاين كما يقول من "روايات السكان الأصليين للمستعمرة الألمانية السابقة" (الكاميرون) حول "الكائن الذي أخاف الزنوج في بعض مناطق أرض الكونغو، في المجرى السفلي لنهر أوبانغا، وسانغا وايكيلمبي".

لقد أكد أن هذه القصص انطلقت من "أدلاّء خبراء لا يعرف بعضهم بعضاً، إلا أنهم يعيدون جميع التفاصيل بشكل مستقل عن بعضهم". لقد سمّى السكان الأصليون هذا الحيوان موكيلي ـ مبيمبي، وربما لا يمكن القول إن لهذا الاسم معنى ما. كتب النقيب فون شتاين:

"حسب الأخبار، فإن هذا الكائن لا يعيش في الأنهار الصغيرة مثل أوبي ليكوالي، أما في الأنهار التي جئنا على ذكرها سابقاً فيقال بوجود بعض الأفراد منها. عندما كنا في البعثة قالوا لنا إنهم رأوا لاحظوا في القطاع غير الصالح للملاحة من مجرى نهر سانغ، في مكان ما بين أنهار مبايو وبيكوند؛ وللأسف فإن هذا الجزء من النهر لم تتم دراسته لأنه تبين أن بعثتنا منكمشة. كذلك سمعنا عن حيوان ما يعيش في نهر سمبو. وتؤول أحاديث السكان الأصليين إلى الوصف التالي. إن للحيوان كما يقولون، لوناً رمادياً داكناً، وجلداً أملس وأبعاده تقارب أبعاد الفيل أو جاموس النهر على الأقل. لدى الوحش رقبة طويلة ومرنة جداً، وضرساً واحداً، إلا أنه طويل جداً. ويقول بعضهم إن هذا يمثل قرناً. وقد ذكر بعضهم ذيلاً طويلاً ذا بنية عضلية كما لدى التمساح الأمريكي. ويقولون إن المقتربين من الوحش كان محكوماً عليهم بالموت، فالحيوان ينقض عليهم ويقتل الفريسة ولكنه لا يلتهم الأجساد. هذا المخلوق يعيش في الكهوف التي حفرها النهر في الضفاف الغضارية على المنعطفات الحادة. ويخرج زاحفاً إلى الشاطئ حتى في النهار ويتغذى على العشب فقط. وهذا لا يسمح بتفسير كل شيء بالأساطير. وقد عرضوا إلى نبتته المفضلة. إنها نوع من النباتات المتسلقة ذات الأزهار البيضاء الكبيرة، وعصيرها يذكّر بالحليب، وثمارها تشبه التفاح. وعلى نهر سومبو كشفوا لي على ممر طرقه هذا الوحش بحثاً عن الطعام. لقد كان الدرب حديثاً وليس بعيداً ووجدت النبتة التي جئنا على ذكرها آنفاً. إلا أنه كانت هنا ممرات كثيرة جداً، وقد مرت فيها فيلة ووحيدات القرن وحيوانات ضخمة أخرى، ولم يكن بالإمكان تحديد آثار هذا الكائن بدقة معينة.

آسف لأن البارون فون شتاين لم يملك الكثير من الوقت. ولربما كان استطاع إيجاد موكيلي ـ مبيمبي.

أما ما يخص حيوان بحيرة بانغفيولو، الذي تحدثوا عنه لشومبورك، فلقد

حصل الانكليزي هيوز على معلومات أكثر بقليل. فلقد أورد هيوز في كتابه "٢٨ عاماً في بحيرة بانغفيولو" حديثاً مع ابن زعيم القبيلة المحلية حول حيوان يسمونه هنا "تشيبيكفي".

لقد ذكر الفتى بسرور أن جده شارك أو على الأقل راقب عملية صيد "تشيبيفكي". ولقد نقلت الأخبار غير المكتوبة (المتناقلة) وصفاً لعملية الصيد هذه. فلقد شاركت فيه نخبة من أفضل الصيادين، وأمضوا يوماً كاملاً وهم يخزون تشيبيفكي بحرابهم الحادة التي كانوا يستخدمونها أثناء صيد أفراس النهر. ويصفون تشيبيفكي بأنه حيوان ذو جلد أملس قاتم لا يحوي هلباً (الهلب: شعر الخنزير)، وهو مُسلّح بقرن أملس أبيض اللون كما هي حال وحيد القرن، إلا أنه أبيض كالثلج مصقول. وللأسف لم يحتفظوا بهذا القرن، لأن هيوز كان سيدفع لهم كل ما يرغبون به.

كان هيوز على معرفة بالموظف الروسي الذي روى كيف أنه سمع ذات مرة ليلاً صوتاً عالياً جداً لطرطشة الماء في البحيرة التي كان عسكر بجانبها، وفي الصباح وجد آثاراً لم يعرفها في السابق!.

سخر العلماء لدى سماعهم هذه القصص. فعن أي حيوانات كبيرة مجهولة يمكن الحديث في الوقت الذي تم فيه اكتشاف كل شيء!.

إن المعطيات المتشابهة الكثيرة جداً تقود إلى فكرة مفادها: وماذا لو أن حيواناً ضخماً مجهولاً يختفي في التجمعات المائية الصغيرة وأنهار إفريقيا الوسطى وأغلب الظن تمساح أمريكي.

وبالطبع يظهر السؤال التالي: هل كان بالإمكان لزاحف ضخم أن يعيش في إفريقيا الوسطى؟ كانت إجابة علماء الحيوان كالتالي: إذا كان هناك مكان مناسب لعيش هذه الحيوانات فهم هنا فقط، في إفريقيا الوسطى.

وإليكم ما اعتمد علماء الحيوان عليه في تأكيدهم.

إن الديناصورات الحقيقية وقريباتها من الزواحف الضخمة انقرضت في نهاية العصر الطباشيري منذ حوالي ٦٠ مليون سنة مضت. وتوجد فرضيات كثيرة تخص هذا الموضوع. وتدل المقابر الضخمة للديناصورات قرب تينداغورو في إفريقيا الشرقية على أن شيئاً من هذا القبيل حدث في إفريقيا كذلك. ولا توجد أية شكوك أن الأشكال الضخمة اختفت هنا كذلك كما في كل مكان. إلا أن لدى أشكال المقياس المتوسط تاريخاً مختلفاً قليلاً.

لقد دلت الستون مليون عام الأخيرة في كل العالم على جميع التغيرات الجيولوجية الممكنة. وقد غمرت البحار الصغيرة مساحات كبيرة من اليابسة، وأصيبت مناطق أخرى بالجفاف. ونشأت برازخ ثم اختفت من جديد: ودكت القوى التكتونية الجبال ونشطت البراكين. غير أن إفريقيا الوسطى بدت مستقرة من الناحية الجيولوجية فالقارة ما زالت هي نفسها كما كانت قبل ٦٠ مليون سنة مضت.

وأخيراً فإن القارات إلى الشمال والجنوب من خط الطول الخمسين في نصفي الكرة الأرضية تعرضت للتجمد عدة مرات، ومع أن التجمد قد أثر على المناخ بين مداري السرطان والجدي فإن هذا التأثير لم يؤدِ إلى آثار مفجعة (دراماتيكية).

أما إفريقيا الوسطى فلم تتعرض إلى اجتياح جيولوجي منذ العصر الطباشيري وعايشت تغيرات مناخية خفيفة فقط. ولذلك، فإنه إذا كانت قد سلمت تماسيح كبيرة منذ ذلك الوقت، فإنه يجب البحث عنها في إفريقيا الوسطى....

وبدأت أعمال البحث. إنه عام ١٩٨١. لقد اتجهت بعثة إلى المناطق الداخلية في زائير، التي رعتها شركة النفط جاك برايانت، ثلاثة صحافيين وروي ميكال البيولوجي ومدير جامعة شيكاغو الذي صادف أنه كان نائباً لرئيس الجمعية العالمية لعلم الحيوان. لقد كان هدف البعثة التأكد من المشاهدات التي حصلت عام ١٧٧٦. حيث أنه تم في ذلك الوقت، وللمرة الأولى، مشاهدة

وحشٍ يشبه الـ زافروبود، وهو ديناصور آكل للأعشاب. ويسميه السكان المحليون كما سبق وذكرنا موكيلي ـ مبيمبي.

عبرت البعثة على متن زوارق الكانوي من خلال نباتات الأحراج المخيمة فوق الرؤوس، ووصلت بعيداً ضمن الأجمات المليئة بالمستنقعات. وقد درسوا التجمعات المائية بواسطة السّونار (وهو جهاز سبر بالصدى، يستخدم لتحديد مواقع الأشياء تحت الماء) بحثاً عن الحيوانات الغائصة تحت الماء. وقد جدفت البعثة ليومين متواصلين عساها تجد قطعة من الأرض اليابسة.

وذات مرة، بينما كانت البعثة تلف إحدى منعطفات النهر بدأت زوارق الكانوي (وهي زوارق انتشرت في مناطق المستنقعات والمياه الضحلة في إفريقيا وأمريكا) تتقلقل بشدة لأنها اصطدمت بموجة سببها حيوان ضخم. لقد غاص الوحش في الماء للتو، وقد أكد ريتشارد غرينفل الأخصائي بالبيئة الصحراوية وسكرتير الجمعية الدولية للحيوان وكان مشاركاً في البعثة أن: "السكان الأصليين الذين كانوا معنا أصيبوا بالذعر".

تعامل العلماء مع هذا الأمر بهدوء أكثر. واعتبر غرينفل أن ما شاهده كان يمكن أن يكون فرس نهر أو فيلاً أو تمساحاً. ولكنه يعرف أن أفراس النهر لا تعيش في المستنقعات، والفيلة لا تغطس في الماء بالكامل، أما التماسيح فإنها لا تزيح كمية ماء كبيرة. المسؤول الحكومي في ما يخص علم الحيوان، الذي شارك في البعثة، وكان اسمه مارسيلين أنيانيا، وقد أبدى اهتماماً لدرجة أنه قرر العودة إلى هنا مع بعثة خاصة. وهذا ما فعله في نيسان ١٩٨٣م. ولم تثمر عدة أيام من البحث أية فائدة، ولكن ذات مرة، وأمام أعين أنانيا ورفاقه ارتفع كائن ما من الماء. لقد كان حيواناً غريباً بظهر عريض ورقبة طويلة ورأس صغير ولكن، وللأسف، كما يقول العالم "فإنني وسط تدفق الأحاسيس والذهول بسبب هذا الظهور المفاجئ وغير المتوقع، لم أستطع تصوير الحيوان على شريط".

"قال أنانيا: إن الجزء المرئي من الحيوان يقابل تصورنا حول برونتوزاور (وهو ديناصور ضخم من مجموعة **Sauros podos** ـ وهي مجموعة من الديناصورات آكلة الأعشاب، عاشت في العصر الطباشيري، تسير على أربعة أطراف، أطرافها تشبه أطراف التمساح الأمريكي ـ المترجم). وأنا شخصياً على قناعة أنه يعيش في الأحراج المليئة بالمستنقعات في ليكوالا نوعان على الأقل من الحيوانات المجهولة. وقبل أيام من وصول بعثتنا إلى منطقة إيجاما المأهولة جرت الحادثة التالية "بينما كانت امرأة تبحر على قارب رفيع في عرض النهر، اصطدم القارب فجأة بعائق ما وتوقف. اتكأت المرأة على الصاري محاولة تخليص القارب من (المياه الضحلة) بعد ذلك رمت قبضة قوية القارب إلى الضفة مباشرة، وبرز على السطح حيوان هائل. أرغى الحيوان نصف ساعة تقريباً مطلقاً زعيقاً مزعجاً جداً".

حل فصل الجفاف في شمال الكونغو، وانخفض مستوى نهر ليكوالا أوز إرب، بحيث صار بالإمكان عبوره بالخوض. إلا أن عمق الماء في منطقة الحدث بلغ ١٠ ــ ١٢م. وهنا بالتحديد، اكتشف العلماء جزيرة سابحة، مكونة من طبقة سميكة من الرمل، ترقد على وسادة متماسكة من النباتات المائية الميتة. وقد بقيت آثار على سطح مستوٍ بشكل مثالي، وكأن حيواناً ضخماً زحف عبر النهر. وقد وجدوا على النهر قطعاً من الجلد طولها من ١ ـ ١٥ سم. ولم تكن هذه نهاية القصة. فلقد سجل الرحالة الأمريكي هيرمان راغاستر شريطاً لأصوات أطلقها حيوان مجهول في منطقة بحيرة تيلي. لقد نقل تسجيلاً لصوت عالم من كاليفورنيا اسمه كينيت تمبلين، والذي نظفه من الضجيج وقارنه مع تسجيلات لحيوانات أخرى. **وقد قرر أن الصوت المسجل يعود لكائن مجهول حتى الآن.....**

لمن هذا الصوت يا ترى؟......



كائنات بحرّية مجهولة

في ساعات بعد الغداء يوم ٣١ تشرين الأول من عام ١٩٨٣ كان فريق الصيانة في منطقة مارين في ولاية كاليفورنيا الأمريكية يعمل في قطاع الطريق السريعة رقم١ ، وتحديداً في المنطقة التي يمر الطريق فيها فوق شاطئ المحيط. وقد امتدت تحته مباشرة الشواطئ الرملية ستينسن ـ بيتش، ومن خلفهم المحيط الهادي مترامي الأطراف. وفي حوالي الساعة الثانية توقف رئيس الفريق للتدخين ونظر إلى البحر، كان هناك شيء مبهم وضخم سبح على السطح باتجاه الشاطئ. وعلى الفور نادى رفيقه (ميتا راتّو) وأخذ المنظار وراح ينظر.

في الأسفل، وتحت الطريق مباشرة كان شاطئ العراة هو أكثر ما يسترعي انتباههم. ولكن (راتّو) الذي أخذ المنظار وراح ينظر من خلال زجاج الجهاز. رأى حيواناً ضخماً قاتم اللون على بعد نصف كيلو متر عن الشاطئ. شيء لم ير مثله في السابق: إنه مخلوق رقيق بطول حوالي ٣٠ متراً، وله ثلاثة أسنمة (حدبات) شاقوليّة! على هذا الشكل رأى راتّو ثعبان البحر (تنين البحر) لأول مرة في يوم خريفي. لقد رأى بدقة كيف أن الحيوان أطل برأسه من الماء وتلفّت. ثم غير الكائن الاتجاه مستديراً بشكل حاد؛ دخل الرأس تحت الماء من جديد، وراح يبتعد في البحر. شاهد آخر، وهو سائق جرار (سيف بيوري) الذي حدد بالعين المجردة سرعة الحركة بـ ٦٥- ٧٠ كم في الساعة. لم ير

بيوري إلا سنامين فقط وقد بدا له الحيوان شبيهاً بثعبان ماء طويل. في ذلك اليوم رأى العمال الخمسة جميعاً الكائن نفسه، وقد تطابقت وصوفاتهم له بشكل تفصيلي وذلك فيما يخص الأبعاد واللون والسلوك. الشاهد الآخر، مارلين مارتين، الذي ربما لم يرغب بأن تشوب سمعته شبهة، رفض تماماً إعطاء أية معلومة للجمهور. غير أن ابنته قالت إنه رأى وبدقة وحشاً ووصفه على أنه كائن ذو أربعة أسنمة، وهو أكبر وحش رآه في حياته.

ويوجد شاهد آخر أيضاً رأى الثعبان في ذلك اليوم، وهو رونالد كيرّي وعمره ١٩ سنة. وقد أعلم الصحفيين فيما بعد أنه كان قد رأى هذا الكائن منذ أسبوع مضى، وكان حدث صديقته بذلك، لكنها سخرت منه وضحكت. ولكنه الآن رأى كل شيء بدقة ولن يسمح لأحد بالسخرية منه!

بعد ثلاثة أيام من الحادثة في ستينس - بيتش رأت مجموعة من الناس مخلوقاً مشابهاً على بعد ٦٠٠ كم إلى الجنوب، وذلك عند رأس كوستا. أما يان هاتشنسون ابن الـ ١٩ سنة، فهو رياضي يمارس رياضة ركوب الأمواج، وقد أخبر أن المخلوق قد بدا (ظهر) من الماء عند مصب نهر سانت آنا أمامه مباشرة على بعد ثلاثة أمتار منه.. في البداية أحجم هاتشنسون عن الحديث في هذا الموضوع وذلك لأنه افترض أن الآخرين سيعتبرونه مجنوناً. ولكن بعد أن قرأ في الجريدة حول الحادثة في منطقة المارين، استسلم قائلاً: "لقد كان المخلوق كما وصفه العمال تماماً؛ ثعباناً أسود طويلاً".

وطيلة القرن العشرين ظهرت كائنات غامضة للناس على طول شواطئ المحيط الهادي، ولكن أحداً لم يستطع التحديد عن أي حيوان جرى الحديث. وقد أظهر العلماء ميلاً إلى الرأي القائل أن حادثة عام ١٩٨٣ ما هي إلا جثمان حوت طافٍ، كان يلمع في ضوء الشمس. واعتبر آخرون أن هذا كان قطيع خنازير بحرية امتد على شكل سلسلة. وقد رفض راتّو وهاتشنسون هذه الافتراضات، فكلاهما كان يعرف الحيتان وكانا واثقين تماماً أن ما رأوه لا

يشبه الحوت! من الممكن طبعاً، أن يكون هذان الاثنان وكذلك غيرهما، قد اصطدموا بظاهرة معروفة في السابق ولكن لم يستطيعا التعرف عليها. ولكن من غير الممكن أن تكون حادثة ٣١ تشرين الأول بمثابة مباريات يوم جميع القديسين أو يوم الهلوسة الجماعية، أو أن البرامج الأخبار قد جمّلت معلوماتهم، بينما جرى الحديث أصلاً عن طيف أو خيال.

من ناحية أخرى، كان بإمكان الشهود من ستينسون بيتش ورأس كوستا فعلاً أن يروا كائناً بحرياً لم يعرفه العلم، أو حتى ممثلين عن حيوانات قديمة منقرضة خاصة بمنطقة ما كما أشار أحد العلماء الأحياء. كان يمكن أن يكون أي حيوان من العصر البعيد والذي لا يشك العلم حتى بوجوده.

الغول (الوحش) ـ وهو بالتعريف كائن ما، يستحيل وضعه ضمن الأطر العادية لما شاعت معرفته. وهو غريب جداً، وضخم أكثر من المتوقع، وغير معقول، ومخيف وخطر جداً ليكون حقيقة. ومنذ بدء التاريخ كان الناس يؤلفون الخرافات حول وحوش خيالية ويتحدثون عن كائنات ضخمة ومبهمة ونادرة. لقد سيطروا على مخيلة الشعراء والبحارة وممثلي الكنيسة والجماهير الساذجة وقد استعانوا بالمشعوذين واللاهثين خلف المجد والكسب السريع. وقد أفلتت هذه الكائنات دائماً من الصيادين بالاختباء في أكثر المواقع غموضاً على الكوكب، وفي البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات وعلى الجبال وفي الغابات.

وعلى الدوام كانت الأعماق الهائلة المجهولة (غير المدروسة) للبحار تعّج بمجموعة من الحيوانات المعروفة وغير المعروفة. وقد رُسم كثير منها على خرائط الملاحة البحرية. فمنها ماله قرون أو أجنحة، أو أشواك أو أسنان كبيرة. وقد قفز بعضها مثل الأخطبوط العملاق، من الخرافات والأساطير إلى صفحات كتب علم الحيوانات مباشرة. وبعضها الآخر، مثل ثعابين البحر

(تنانين البحر) العملاقة (ليس واضحاً، هل هي زواحف أم لا؟) فإنها على ما يبدو تنتظر ساعتها.

وكما في السابق، تبقى الأنهار العميقة والبحيرات المكان المعترف به من قبل الجميع لحياة وحوش المياه العذبة الضخمة، مثل وحش بحيرة لوخ - نيس أو اوغوبوغو، شان، موراغ الغامضة، وقد سمّي كثير منها باسم التجمع المائي الذي يفترض أنها تعيش فيه.

في الوقت الذي تختفي الوحوش البرية ووحوش البحيرات في ملاجئ طبيعية فإن المحيطات تبقى منطقة هائلة مجهولة وصعبة المنال لدراستها. وهنا يمكن أن تختفي المخلوقات التي لا تريد أن تظهر للعالم أو التي لم تخرج يوماً إلى ضوء الشمس. هذه المخلوقات التي نادراً ما نراها، يمكن أن تمثل قطرة صغيرة من محيط الألغاز الهائل الذي لن ينضب يوماً.

يحصر غالبية الباحثين في علم المحيطات نشاطهم في الحيد القاري الضيق نسبياً، والذي يحيط بالقارة. هذا الحيد يشكل ٧٪ من المسطحات تحت المائية ولا يقدم معلومات عن التنوع الطبوغرافي في مناطق المياه العميقة، كالمنحدرات القارية، ومجاري الأنهار العميقة شديدة الانحدار، والانكسارات والهضاب المغمورة عميقة المياه هذه المسطحات التي تتوضع على عمق ٣ آلاف متر تشغل نصف سطح الكرة الأرضية تقريباً. ويتخللها أحياناً انكسارات وانهدامات. ويعتبر منخفض منداناو عميق المياه واحداً من أهم هذه المنخفضات، ويصل عمق المياه حتى ٩ آلاف متر؛ومن مركز المسطح الذي يقع على عمق ٣ كم ترتفع أكبر سلسلة جبلية وسط المحيط في العالم بارتفاع ٥,٣ كم. وتمتد لـ ٥٠ ألف كم تحت سطح المحيطات الثلاثة الرئيسة.

وكل ما نعرفه عن حياة هذا العالم تحت المائي، هو نتيجة دراسات علمية استخدمت آخر الإنجازات العلمية. ولقد قام العلماء باستخدام السونار (وهو

جهاز يعتمد ارتداد الصدى لكشف مواقع الأشياء تحت الماء ـ المترجم) بتشكيل خرائط تفصيلية للمناطق تحت المائية على الكوكب. ولكن لم تتم دراسة سوى جزء ضئيل جداً من هذا العالم، وقليلون هم الذين يتصورون أشكال الحياة التي يمكن أ ن يصادفها روّاد الأعماق وسط الشقوق والوديان تحت المائية. وخلال السنوات العشر الأخيرة تم اكتشاف كثير من الأحياء المائية "الجديدة" ـ كائنات أفلتت (تملّصت) من الإنسان على مدى آلاف السنين.

إحدى هذه القصص الخارقة (فضلاً عن قصة السيلاكانت "التقليدية" المعروفة للجميع) مرتبطة بكالمر ضخم (الكالمر ـ نوع من الرخويات التي تملك عشرة أرجل) وعلى مدى آلاف السنين سطرت عنه أساطير، ثم نسيه الناس لعشرات السنين، قبل أن يتم الاعتراف به من قبل علم الحيوان على أنه يمثل حيواناً محدداً. أما هذا العملاق ثماني الأرجل فما زال "نصف معترف به".

ومع أن كلا الرخويين (من الرخويات المفترسة) يتصف بامتلاكه أطرافاً عضلية طويلة تحوي على ممصات وعيون متطورة، فإن علماء الأحياء يرون اختلافات دقيقة (محددة) بين الكالمرات وثمانيات الأرجل. فلدى الكالمرات عشرة أرجل اثنتان منها طويلتان بشكل خاص، وهي بمثابة قرون استشعار. أما الكالمارات فهي وحوش نشيطة، وتستخدم جسمها المضغوط والمنساب لتتبع ضحاياها. أما ثمانيات الأرجل فهي مدورة أكثر ولها ثمانية أطراف وحركتها أبطأ، ونادراً ما تغادر مخابئها تحت المائية. ولكن على مر القرون اختلطت أشكال الرخويين العملاقين لدرجة أن تم دمجهما مما يجعل من الصعب أحياناً التفريق عن أي منهما يجري الحديث. وتحمل في أحيان كثيرة شخصيات الفلكلور القديمة والخرافات في مضامينها عناصر من كلا المخلوقين فضلاً عن مواصفات الحوتيات.

وكان هوميروس (الشاعر اليوناني الأعمى الذي كتب الإلياذة والأوديسا ـ المترجم) الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، أول من وصف الحيوان الرخوي العملاق. ففي أوديسا يصف الوحش المرعب سكيلا (وهو وحش بحري خرافي عاش في أحد المضيقات له ١٢ رجلاً وستة رؤوس بأفواه التهم بها كل ما هو حي ـ المترجم) الذي بالرغم من مظهره الغريب كالرؤوس الستة المستندة على رقاب ستة وثلاثة صفوف من الأسنان واثنتا عشرة رجلاً، إلا أنه يمثل ثُماني أرجل عادي ضمن إطار خرافي. وكما هو حال ثماني الأرجل هذا، فإن سكيلا ينتظر الفريسة وهو مختبئ في مغارة. إلا أن أسنان سكيلا المرتبة ضمن ثلاثة صفوف تذكر أكثر بصفوف الرؤوس الماصة لكالمر منها بأفواه ثماني الأرجل.

ميدوزا (قنديل البحر) يمكن أن يكون واحداً من وحوش الخرافات الإغريقية القديمة الهائلة. فأشعارها من الأفاعي المربكة هي تمثل بوضوح الأطراف التي لدى كل من الكالمر وثمانيات الأرجل، تنمو من الرأس مباشرة. وأعين الميدوزا التي تحول الناس إلى حجارة تذكر بالعيون الكبيرة الهائلة المخيفة لدى الكالمر العملاق أو ثماني الأرجل الهائل، التي تشبه أعين الإنسان. وبعد واحد من اللقاءات الدراماتيكية للغواص مع أخطبوط صرح الفتى المسكين أنه بدا منوماً مغناطيسياً بشكل كامل بسبب (جراء) التأثير القوي لهذه النظرة عليه " والتي تركز فيها كل الكره والتهديد". وفقط الحركة الحادة للحيوان هي ما أخرج الغواص من الذهول وهي في الحقيقة ما أنقذه.

في العصر الذي سبق العصور الوسطى ظهرت ثمانيات الأرجل العملاقة من جديد وقد أضيف لها الحوت باعتباره "الجزيرة ـ الوحش" ولضخامته فإن الأغرار من البحارة لم يستطيعوا تمييزه عن اليابسة، وبمجرد نزولهم إليها فإنهم كانوا يقتنعون بأن الأرض تتحرك تحتهم. ويأتي ذكر الشخصية

الاسكندينافية كراكن لأول مرة في مخطوط في العام ١٠٠٠ وتستمر في الحياة ضمن الأساطير الشعرية الشمالية على مدى قرون.

وتخبر إحدى الأساطير المعبرة عن أسقف عثر على جزيرة لم يكن قد رآها من قبل والذي أمر خدمه بالإبحار نحوها. نزل إلى الجزيرة وأدى الصلاة بمناسبة اكتشافه لأرض جديدة. وعندما غادرها فإنه ذهل لمرأى كيف أن الجزيرة اختفت! وبعد عدة قرون، وفي عام ١٨٥٢ طبع قديس اسكندينافي آخر كتاباً كاملاً عن الوحوش البحرية. وفي كتابه "التاريخ الطبيعي للنرويج" يقوم إريك ليودفيفين بونتوبيدان، الأسقف برغينسكي، بوصف الكراكن باعتباره "مسطحاً ضخماً ذو أيد أو فروع عديدة". لقد شكل الظهر المتحرك للكائن ١,٥ميلاً انكليزياً. وللوهلة الأولى كان أشبه بعدة جزر. أما أذرعه فقد كانت بحجم صواري مركب متوسط الأبعاد. ويخبر بونتوبيدان أنه كان بإمكان الوحش إغراق السفن الكبيرة - وهذه الصفة لازمت كالمر العملاق لزمن طويل.

في بداية القرن الماضي (العشرين) تطلب ثماني الأرجل العملاق ضحية أكاديمية أو بشكل مجازي على الأقل. قام عالم الطبيعة، الفرنسي بيير داني دي مونفور، الذي شدته الشائعات حول الوحوش البحرية، بتحليل دقيق للأخبار، وكذلك بقايا الطعام المستخرجة من بطون الحيتان الزرقاء. وفي عام ١٨٠٢ أطلق كتابه "التاريخ الطبيعي للرخويات" ولكن هذا المؤلَّف كبح الدراسات اللاحقة فقط ولم يتقدم مطلقاً. لقد اتُّهم داني دي مونفور بالاختيار غير النزيه للمادة سعياً منه للمفاجأة وطباعة صور تثير المخيلة. لقد رفض الوسط العلمي استطراده وأدار وجهه عن الباحث الذي أنهى أيامه فقيراً في قناة على جانب الطريق.

ومع ذلك فإن الحياة تستمر. وفي منتصف القرن عرض عالم الحيوان الدانمركي يوهان يابيتوس ستنستروب للقراء بحثاً عن الكراكنات، جمع فيه

كل ما صدر من معلومات ورسوم. وفي عام ١٨٤٢ قدم مداخلة في جلسة عامة للجمعية الاسكندينافية لعلماء الطبيعة. وقبل ذلك ساءت سمعة ستنسروب كعالم. لقد رفض حقيقة أن الإنسان وفيل الماموث قد عاشا في عصر واحد، وقد لاقى مصيراً خسيساً كما هي حال مونفور. ولكن الحظ ضحك له أكثر. فلقد بدأت تظهر في ذلك الوقت شواهد علمية وأتيح لستنسروب الحصول على بلعوم ومنقار كالمر عملاق، مرمي على شاطئ الدانمرك في عام ١٨٥٣. وبعد أربعة أعوام طبع وصفاً علمياً للشكل.

وهكذا صار للكائن اسم.

لكن العلماء استمروا بالتعامل مع هذه المعطيات بارتياب. وعندها ظهرت المفاجأة التي كانت بمثابة شاهد حقيقي تماماً.

ففي الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٨٦١ عثرت السفينة الفرنسية الحربية "أليكتون" على كالمر عملاق قرب جزيرة تينيريفي (جزر الكناري). ربان السفينة، الملازم فريدريك ماريا بويي قرر الإمساك به. وقد أطلق أحد رفاقه النار على الوحش لكنه لم يصبه. وبعد صراع مديد تسنى لهم محاصرته وشدّ الحبل حول رقبته. إلا أنهم عندما حاولوا رفع جسده إلى سطح السفينة انقطع الحبل وسقط كل شيء في الماء باستثناء طرف الذيل. وعندما وصلت السفينة "أليكتون" إلى تينيريفي عرض بويي قطعة الذيل على القنصل الفرنسي وكتب مذكرة رسمية إلى ديوان البحرية ـ العسكرية. بعد مرور شهر استلمت الأكاديمية الفرنسية للعلوم خبراً عن هذا الحادث. لكنه لم يظهر الانطباع اللازم على غالبية المرتابين، غير أنه في سبعينيات القرن الماضي جرت قرب شواطئ نيوفاولاند ولابرادور أحداث لم يعد هناك بفضلها أدنى شك بحقيقة وجود الكالمر العملاق. ولأسباب غير مفهومة راح عدد كبير من هذه الكائنات يموت ويغطي بأجساده شواطئ الجزر. وكان الكثير منها فرائساً للأسماك والكلاب الجائعة، ولكن العلم كذلك جمع حصاده. لقد كان

واحداً من أكبر الكالمرات التي اعترف بها العلم يوماً ذلك الذي ظهر قرب شواطئ تيمبل ـ تيكل في نيوفاولاند في عام ١٨٧٨. ففي الثاني من تشرين الثاني وبينما كان ستيفن سبيرينغ ورفيقاه يصطادون الأسماك لاحظوا فجأة في مكان ليس بعيداً عن الشاطئ شيئاً بأبعاد هائلة. وظناً منهم أنه جزء من سفينة ما غارقة، اقتربوا واكتشفوا حيواناً رخوياً ثماني الأرجل بعينين زجاجيتين يتحرك في الوحل إذ لم ينجح بالعودة إلى الأعماق قبل حدوث الجزر. ربط الرجال الثلاثة المخلوق بخطاف وسحبوه إلى الشاطئ حيث علقوه على شجرة كيلا يزحف عائداً إلى البحر. لقد كان طوله ٦ أمتار وطول ذراعه ١٠ أمتار. وكان قطر عينه ٩ سم، أما الممصات فكان قطرها ٨ سم. قام الصيادون بتقسيمه لإطعام الكلاب، ولكن قبل ذلك تمت دراسته من قبل رجل الدين المحلي موسس هارفي الذي كتب عن هذا الاكتشاف في مجلة بوسطن.

تُظهر المحيطات من وقت لآخر وحوشاً تشبه الوحش الذي شُوهد في تيمبل ـ تيكل. وأثر الممص الذي قطره ٩ سم، الذي اكتشف على جثة حوت، كأنما هو شاهد على وجود أخطبوط بطول يزيد عن ٣٠ متراً. ولكن هذا ليس دليلاً دامغاً، لأن الأثر يمكن أن يكون قد نما مع نمو الحوت.

وفي بداية القرن العشرين ساعد الحظ وحشاً برياً آخر غامضاً. فبين السادس والثالث والعشرين من آب عام ١٨١٧ شاهد أكثر من مئتي شاهد محترم وحشاً بحرياً هائلاً عرض نفسه قرب الميناء في غلوشستر في ولاية ماساتشوسيتس الأمريكية. وبما أن ظاهرة الارتياب قد خفّت بشكل ملحوظ فإن الأوساط العلمية تجاوبت مع الخبر باهتمام كبير.

وفي ١٤ آب أظهر الوحش نفسه لمجموعة من ٢٠- ٣٠ شخصاً، كان بينهم القاضي الدولي غلوتشستر لونسون نيش. انطلقت في ذاك اليوم عدة مراكب خلف الوحش وبعد منتصف النهار حدد نجار المراكب (صانع

المراكب) ميتيو غيفني موقع "الحيوان البحري الغريب الذي كان يشبه الزواحف". لقد رأى جزءاً منه فقط بطول عشرة أمتار وقام بالتصويب عليه بدقة من السلاح. لقد اعتبر غيفني أنه أصاب الهدف إلا أن الحيوان لم يبدُ قلقاً. لقد استدار بشكل حاد جداً نحو القارب وقد خاف ركابه من أن الكائن قد يهاجمهم. ولكنه بدلاً من ذلك غاص في الماء كالحجر، ومر تحت القارب وسبح إلى الناحية المقابلة، وتابع مرحه دون أن يعير أي اهتمامٍ للناس. وقد تحدث غيفني لاحقاً أن للوحش جلداً أملسَ ولوناً قاتماً مع حنجرة وبطن أبيضين. وقد كان ضخماً بالفعل، فطوله ١٢ متراً أما الرأس فكان بحجم غالون سعة عشرة ليترات. وبحركته الشاقولية كما لو أنه دودة فإن سرعته بلغت من ٣٥ حتى ٥٠ كم في الساعة.

هذه الشواهد بالإضافة إلى الشواهد اللاحقة خضعت لدراسة دقيقة من قبل لجنة خاصة في جمعية لينييف في انكلترا الجديدة. وبإشراف هذه الجمعية أطلق القاضي الدولي نيش قائمة أسئلة مؤلفة من ٢٥ بنداً وجمع كمية كبيرة من الشواهد ممن رأوا الحيوان. ولقد تطابقت غالبية الشواهد مع وصف غيفني، فضلاً عن احتوائها لمعلومات إضافية. في أنباء أخرى وجدت معلومات جديدة، مثل التي تحدثت حول الظهر كثير الأسنمة (حتى عشرة أسنمة) وكيف أن الكائن يتحرك بفضل الالتواءات الشاقولية. أمام الرأس الذي بدا من الماء بمقدار ١٢- ٢٤ سم فكان يشبه رأس التمساح أو السلحفاة.

يتفق العلماء حالياً في الرأي القائل أن وحش غلوتشستر لا يمكن أن يكون ثعباناً، فالزواحف لا تستطيع الحركة بشكل شاقولي والنزول تحت الماء بشكل مستقيم. لكن جمعية لينييف لم تمتلك هكذا معلومات. وبعد التأكد من أن الثعبان البحري هو من الزواحف قرر أعضاء الجمعية أن هذا الثعبان يجب أن يضع بيضاً في مكان ما على الشاطئ. فلقد وردت أخبار أن الكائن خرج إلى

الرمل في الميناء! لقد صبت هذه المعلومات الزيت على النار. صحيح أنه لم يتم الكشف عن أية بيوض، إلا أن شابين عثرا على كائن ما بطول متر، بدا وكأنه ثعبان أسود ذو أسنمة على ظهره. جمعية لنييف أعلنت فوراً: "إنه ولد الحيوان!" تمت دراسة الكائن وتسميته: إنه ثعبان أطلسي ذو أسنام. وقد كرس له الكثير من المطبوعات في الدوريات العلمية.

أما في أوروبا فقد تعاملوا مع الاكتشاف بارتياب أكثر، وبعد بعض الوقت أوضح عالم الحيوان الفرنسي شارل ـ الكسندر لو سيوير أن الثعبان الأطلسي ما هو إلا أفعى عادية بعمود فقري ملتو نتيجة المرض أو التشوه. وقد سخر العلماء طويلاً من زملائهم الأمريكيين، وبهذا الشكل لم يتم اعتماد جميع أحداث غلوتشستر، مما شكل أذىً لتاريخ الثعبان البحري ككل.

في الوقت ذاته تابع الناس يشاهدون كائنات بحرية مشابهة قرب سواحل انكلترا الجديدة وكندا، ولكن مرت سنوات كثيرة قبل أن يعود الناس للتعامل مع هذه الشواهد (المعطيات) من جديد بشكل جدي. وقد دفعت هذه التراكمات الناس الجديين بعيداً عن دراسة الحيوانات البحرية الغامضة. إلى أن جاء عام ١٨٤٨ وظهرت معه إفادات عدد كبير من ضباط البحرية البريطانية الذي بددوا شك العلماء الأوروبيين.

في السادس من آب كانت سفينة جلالتها "ديدال" قرب رأس الأمل الطيب، عند الطرف الجنوبي لإفريقيا. وفجأة لاحظ الضابط المتدرب في البحرية شيئاً ما في البحر يقترب بسرعة من المركب الشراعي. وعلى الفور أخبر الضباط عن ذلك. شاهد عناصر الطاقم السبعة بما فيهم الربان بيتر ماكّي ما أسموه ثعباناً بحرياً عملاقاً. لقد كان طول الجزء المرئي من الكائن أكثر من ٢٠ متراً، ولكن قطره لم يتجاوز ٣٠ سنتيمتراً. كان لونه بنياً قاتماً وأبيض مصفرّاً على الحنجرة مع ما يشبه العرف، وعليه ما يشبه كومة العشب في نهايته. تحرك الكائن بسرعة ١٨- ٢٠ كم في الساعة،

ولم يظهـر أن قـام بـالتواءات لا شـاقولية ولا أفقيـة، ولا ظهـرت منـه دفعـات إلى الأمام. "لقد ثبت رأسه كما الأفعى، على ارتفـاع متر عن سطح الماء ولم يحد عـن مساره أبـداً". عنـدما عـادت السفينة "ديـدال" إلى بليمـوت وظهـر خـبر عـن الحادثة في "التايم" اللندنية طلبت إدارة الأسطول البحري تقريراً مفصلاً. كتب مـاكّي تقريـراً رسميـاً. وقـد تمـت طباعتـه. ارتفعـت ضـجة عارمـة. وحيـث أن الوصف كان نمطياً فقد تم تصديق الخبر. لقد تمتع ماكي وضباطه بسمعة شريفة، إلا أن البريطانيين الذين لطالما أُطعموا تضليلاً وشعوذة، لم يستطيعوا التصديق بوجود الوحش فوراً. وعندما لم يجدوا دلائل ضد هذه الشهادات فإن المرتابين التفتوا إلى حججهم المعتادة، وبعد فترة معينة احتدم جدال علمي.

لقد نتجت الشكوك من أقوال الشهود أنفسهم. وحتى بوجود سمعة نظيفة تمامـاً فـإن المقـدرات العلميـة قليلـة بـشكل واضـح. إن البحـارة، ورجـال الـدين والرّحالة العاديين لم يملكوا في أغلب الحالات مهارات المراقبة العلمية ولم يكن بإمكانهم تحديد قيمة وطبيعة ما يرون. ولذلك، وبالرغم من الأخبار الواردة من جميـع أنحـاء العـالم طيلـة مئـات السنين فإنـه لم يتجـرأ أي عـالم علـى الاهتمـام بشكل جدي بالوحوش البحرية.

إلا أن الوضـع تغيّـر بـشكل حـاد في العـام ١٩٠٥، عنـدما شـاهد اثنـان مـن الطبيعيين المحترمين، العضوان في جمعية الحيوان اللندنية شاهدا أخيراً وحشاً بحرياً عملاقاً مجهولاً ولم يذكره العلم بعد.

في ٧ كـانون الأول طـاف أخـصائيون في العلـوم الطبيعيـة إ، ج، ب. ميـد ـ فالـدو ومايكـل نيكـول علـى يخـت الأمـير كراوفـورد "فالغـالا" علـى طـول شواطئ ولاية بارايب البرازيلية. وفجأة لاحظ ميد ـ فالـدو زعنفـة عريضة بطـول ٢ متر تقريبـاً، تـشق المـاء علـى بعـد ١٠٠ متـر عـن السفينة. راح العـالم يتفحص الأبعاد المدهشة للجسم تحت سطح الماء. وفي اللحظـة الـتي استل فيهـا المنظـار ظهر فوق الماء رأس ضخم ورقبـة. وكـان طـول الجـزء المرئـي مـن الرقبـة حـوالي

متريـن ونـصف. وبعـرض جـسم رجـل متوسـط. وكـان الـرأس أشـبه بـرأس السلحفاة، وكذلك العينان. وكان لون الرأس والرقبة بنياً قاتماً، يصبح مائلاً للبياض باتجاه الأسفل.

وكانت شهادة نيكول شبيهة بما رآى ميد ـ فالدو مع إضافة واحدة: فهو يرى أن الكائن كان من الثديات وليس من الزواحف، مع أنـه "لا يكفل دقة ذلك" كما يقول. اختلف هذان الخبران قليلاً عن أخبار أخرى كثيرة، إلا أن العلماء لم يشككوا بهما كثيراً. ومع ذلك كان ميد ـ فالدو ونيكول استثناءاً نادراً عن القاعدة. إن الوحش المحاط بالخرافات تسبب دائماً بالسخرية ممن رآه ووصفه مما حدا بكثيرين على التراجع عن بلاغاتهم ونفي ما رأوه. والآن لا يمكن إحصاء عدد المشاهدات التي لم تأتِ بنتيجة لسبب وحيد هو أن مشاهدي الحادث "تعرضوا كثيراً لأشعة الشمس" أو ما شابه....

ومع حلول المراكب البخارية بدلاً من المراكب الشراعية قلّت بالتدريج الأخبار الواردة حول حيوانات مجهولة أو مبهمة شوهدت في أعالي البحار. لم يعد قباطنة السفن بحاجة للابتعاد عن الممرات البحرية المطروقة، وهنا يكمن سبب انخفاض المشاهدات حسب رأي علماء الحيوان. ويحتمل أن ضجيج المحركات بات ينبه الحيوانات عن الخطر المقترب. ويقول الباحث النرويجي المشهور تور هييرداد: "إننا غالباً ما نشق عباب البحار بمحركات تدوي ومكابس تدق، وتزبد المياه قرب موانئنا. وبعد ذلك نعود بنفس الطريق ونعلن أننا لم نر شيئاً حولنا في المحيط!" لذلك لا عجب في أن يرى الناس ثعبان البحر في أيامنا هذه من الشاطئ أو من قوارب صغيرة تطوف على طول الخط الساحلي. وربما هذا هو السبب الذي يجعل شواطئ كاليفورنيا اليوم فاتنة بالنسبة للوحش. وفضلاً عن الكائن المجهول الذي لوحظ في عام ١٩٨٣ قرب ستينسون ـ بيتش ورأس كوستا تواجد هنا زوار غامضون آخرون

كذلك:فلقد ظهر قرب سان ـ مارتين شيء سمّي بـ "بو ـ بو"، أما سان ـ كليمنتي فلقد زارها وحش له نفس الاسم وهو الأكثر شهرة بينها جميعاً.

والكائن الذي ظهر لأول مرة ما بين الأعوام ١٩١٤- ١٩١٩ دخل مرة أخرى في المياه المزبدة لمضيق سانتا ـ باربارا الخارجي بين جزر سان ـ كليمنتي وسانتا ـ كاتالينا. وطيلة سنوات عديدة كان عناصر النادي الرياضي الأمريكي لصيد الأسماك "تونتس" يشاهدون بشكل متكرر وحشاً وقد أخبروا عنه باستمرار وساهموا بذلك في رفع مجد ناديهم. وقد ظهرت وصوفاتهم متطابقة لدرجة أن أحد الصحافيين لاحظ: "إنه كما لو أنك تسجل اسطوانة ويقوم الشاهد بفتل هذه الاسطوانة كل مرة من جديد". وأشار الصحفي أنه سأل جميع الناس كلاً على حده:"ولم يعلم أي منهم أنني أتحدث مع الآخرين عن الوحش نفسه". وكان بإمكان المرتابين أن يستغربوا فقط كيف أن أعضاء النادي ناقشوا لساعات وبشكل تفصيلي القصة الأغرب في حياتهم قبل أن تندمج وصوفاتهم في صيغة واحدة إلا أن السؤال بقي مفتوحاً بالرغم من ذلك.

وحتى منتصف الستينات اتصفت جميع الأخبار بميزة واحدة:وهي أن الأخبار كانت شفوية وغير موضوعية من قبل أولئك الذين يؤكدون أنهم رأوا الوحش. وفي عام ١٩٦٥ ظهر دليل من نوع مختلف. أخبر المصور روبير لي سيريك أنه تسنى له القيام بأول صورة أصلية للثعبان البحري. ويقول المصور أن اللقاء حصل قرب شواطئ ولاية كوينزلاند في استراليا، في ١٢ كانون الأول عام ١٩٦٤م. لقد أبحر بهدوء مع أسرته وصديقه هانغ دي جونغ على قارب عبر خليج ستوينهيفن، عندما لاحظت الزوجة شيئاً طويلاً على القاع الرملي على عمق حوالي ١٨٠ سم عن سطح الماء. ظن دي جونغ في البداية أنه ساق شجرة ضخم وقد غرق في الماء،ولكن اتضح فوراً أن هذا كائن حي. لقد تلوى كما لو أنه فرخ ضفدع عملاق برأس ضخم وجسم ثعبان شبيه بالمخروط. التقط لي

سيريك عدداً من الصور، ثم اقترب على قاربه وراح يصور بالكاميرا السينمائية. الآن بدا واضحاً جرح بطول متر ونصف على الظهر وكذلك الرأس العريض الذي يشبه رأس الأفعى.

في هذه اللحظة ارتعب أطفال لي سيريك بشكل قوي. تم إيصال الأولاد إلى الشاطئ بواسطة قارب وتابعوا المراقبة. وحيث أن الكائن بقي ساكناً، فقد كان مجروحاً بشكل جدي أو حتى كان ميتاً، اقتربوا منه أكثر وشاهدوا عينين أعلى الرأس وخطوطاً بنية منتظمة على طول الجسم الأسود. فكر لي سيريك مع صديقه بطريقة تجعل الكائن يتحرك، إلا أنهما خشيا من إمكانية قيامه بقلب قاربهم. ومع ذلك قررا الغوص ليريا كل شيء بشكل أفضل، فاقتربا مصطحبين كاميرا للتصوير تحت الماء وسلاح تحت مائي.

كان الظلام أقوى تحت الماء منه على السطح ولم يكن ممكناً رؤية أي شيء على مسافة ستة أمتار. وثمة شيء واحد كان واضحاً: إنه عملاق حقيقي، لقد بلغ طوله من ٢٥ حتى ٣٠ متراً، وفك بطول متر وأعين بطول أربعة سنتيمترات، وقد ظهرت خلف الجفون المغلقة بلون أصفر مخضر. وعندما بدأ لي سيريك التصوير فتح الوحش فمه على نحو غير متوقع وانعطف ببطء نحو الرجلين مهدداً. ارتفع الصديقان سريعاً وبعد أن صعدا إلى القارب لاحظا أن الحيوان اختفى. شاهدت زوجة لي سيريك كيف أن الحيوان سبح نحو أعالي البحار منفذاً ثنيات أفقية كالتي تميز حركة ثعبان البحر أو الزواحف، وليس حركة حيوان من الثدييات.

في الأزمنة السابقة سعى الطبيعيون لتسجيل جميع الثعابين البحرية ضمن سجل موحد للحيوانات. أما اليوم فإن الباحثين المهتمين بالألغاز البحرية مقتنعون أن هذه الكائنات تنتمي إلى أنواع مختلفة. وما رآه البحارة من اليخت "فالفال" مثلاً، يشبه وحش سان ـ كليمنت كما يشبه ثعبان البحر الميدوزا (قنديل البحر). وليس هناك إجماع على أن هذه الحيوانات هي زواحف. وأغلب الظن أنها

ليست زواحف وإنما أعطي مصطلح "ثعبان البحر" لهذا الكائن حسب العادات القديمة وبحسن نية.

قام العالم البلجيكي برنار ايفيلمانس بتصنيف مختلف الإخباريات. لا يتفق جميع العلماء وحتى علماء الحيوان مع تصنيفه، إلا أنهم ينحنون أمام هذا العمل الهائل. فخلال عشر سنوات جمع ايفيلمانس وحلل ٥٨٧ حالة مشاهدة لثعبان البحر في أي شكل وصنفها إلى حقيقة وعشوائية وكاذبة. وبعد أن حذف الأخطاء والأوصاف التضليلية والغريبة قام بتحديد مواصفات لتسع فئات دقيقة للثعبان: طويل العنق، "فرس البحر"، كثير الأسنمة، "كثير الزعانف"، كلب بحر عملاق، ثعبان بحر عملاق، ثدييات بحرية، "سلف (أب) جميع السلاحف"، "ذو الكرش الأصفر".

يعتبر بعض الخبراء بما فيهم ايفيلمانس نفسه، أن هذه تمثل عدة حيوانات بحرية مختلفة وهي على الأغلب ثعبان بحري عملاق. بعضهم يرجحون الزيفلدون وهو حوت بدائي وكائن منقرض تم استخدام رفاته لتشكيل "ما يشبه ثعبان البحر" الذي ذكرناه سابقاً وهو واحد من الأضاليل الضخمة في القرن التاسع عشر. يميل البقية للاستنتاج بأن هذا الكائن يمثل نوعاً من الفهود البحرية الشمالية طويلة العنق (رخويات تعيش في القارة المتجمدة الجنوبية).

واحد من أكثر الاحتمالات ثباتاً هو الذي اعتبر أن الحيوان هو ثعبان بحري وهو أحد أنواع الديناصورات طويلة العنق الناجية، والتي اصطاد مركب ياباني جثته. وفي الوقت نفسه، أثبتت لقيا السيلاكانت أن حيوانات تعتبر منقرضة يمكنها العيش بهدوء حتى وقتنا الحاضر. ولكن، وبفرض أن البلصور (وهو مفترس بحري ضخم من فصيلة الزواحف التي عاشت في العصر الحيواني الأوسط ذو جمجمة ضخمة ورقبة طويلة ـ المترجم) يبدو مختلفاً قليلاً (فقد وصفوه وكأنه ثعبان ابتلع برميلاً صغيراً)، ولكنه لا يستطيع "التصرف

بشكل مختلف" وهذا ما تؤكد عليه غالبية الخبراء. لم يكن كبيراً جداً، ولم تتميز رقبته بحركية خاصة. وكان واضحاً أنه غير قادر على القيام بانثناءات (التواءات) شاقولية، كما أن سرعته ليست كسرعة ثعابين البحر طويلة العنق..

يميل المرتابون إلى جملة من التفاسير لظاهرة ثعبان البحر. ويعود التفسير (التوضيح) التقليدي إلى عام ١٨٠٣ ويعيش حتى يومنا هذا، ومع أنه تعرّض لتغيرات زمنية (مؤقتة). فمثلاً، تم الأخذ بالحسبان إمكانية الالتفاف بشكل حلقي نحو الخلف. إن هذا الوصف ينطبق على الثعابين البرية الضخمة وخاصة البيتون (أفعى الصخر).. ولكن حتى لو كانت كبيرة جداً على أن تكون ثعابين بحرية فهي كانت ستضطر للتلاؤم مع المناخ الشمالي القاسي. أما أن تتلوى بشكل شاقولي فهذا أمر لا تقدر على القيام به بنجاح كما تنفذه شخصياتنا.

يوجد تفسير شائع آخر وهو ملك الرنكة، ذو الشكل المخيف الذي يشبه شكل الثعبان الذي يعيش في المحيطات، ولونه فضي ذو زعانف حمراء فاتحة تبدأ من الرأس مباشرة، وزعانف صدرية تشبه المجاديف. ومع أن طول ملوك الرنكه يصل إلى ١٠ أمتار، كما أن سلوكها يجعلها مختلفة جداً عن ثعابين البحر. (فهي غير قادرة على الالتواءات الشاقولية وكذلك لونها الفاتح). إن قائمة المرشحين للقب ثعبان البحر طويلة جداً وتضم جذوع أشجار وعوالق بحرية.

تستمر المناقشات على ما يبدو وسط ذوي الرأي المستقيم الذين يطلبون أدلة مادية موثوقة وكذلك بين الأشخاص الأقل عدوانية، الذين يطالبون بشيء مادي لتتم دراسته. كتب ليبلون وسيبرت في مؤلفهما ضمن محاولة لحماية ثعبان البحر: "يبني الكثيرون استنتاجاتهم على أساس شهادات عرضية هشة (خرقاء)، أما مستقيمو الرأي ذوي الجبين الضيق (كناية عن العصبية -

المترجم) فيؤكدون ويؤكدون أنه لا يمكن أن يوجد في الطبيعة حيوان ضخم غير مكتشف، وأن ثعبان البحر ما هو إلا وهم، وخطأ أو ثمرة عقيدة". ومع ذلك فإن العلماء ما زالوا يعترفون: "لكي يصدق الجميع يلزمنا شيء واحد وهو الجسم. وحتى الآن هو غير موجود، وهذه حقيقة".

كائن مائي باسم نيسّي

يوجد في شمال شرق اسكتلندا، وتحديداً في إمارة انفرنس منطقة منخفضة واسعة تسمى غلين ـ مور. وفي وسطها تمتد أكبر بحيرة في هذه المناطق القاسية وهي لوه ـ نيس (وتعني حرفياً بحيرة الأنف). تشكل مساحة البحيرة حوالي ستين كيلو متراً مربعاً، ويبلغ عمقها الأعظمي ٢٣ متراً. وتصل قناة كاليدونسكي البحيرة مع بحر الشمال في الشمال الشرقي ومع البحر الايرلندي في الجنوب الغربي. وما يثير الفضول هو أن ماء البحيرة لا يتجمد حتى في أكثر الشتاءات برودة. أما الحياة المائية في أعماق البحيرة فإنها تبعث على الدهشة لغزارتها وتنوعها. تعيش هنا غالبية الأنواع بدءاً من السلاحف، وثعابين البحر (الحنكليس) وحتى سمكة الزجر التي تؤكل مقددة. إضافة إلى الأسماك الأقل حجماً.. كل ذلك بالإضافة إلى شبح مائي. وقد انتقل ليعيش في البحيرة في أزمنة بعيدة غابرة. أو على الأقل، هذا ما تقوله الأسطورة الاسكتلندية القديمة.

لقد كانت لدى الاسكتلنديين القدامى أساطير وخرافات كثيرة. نسي الناس بعضها مع مرور الزمن. وبعضها عاد ليُبعث من جديد بعد مئات السنين ووصل إلى أيامنا هذه. في إحدى الأساطير، وهي الأكثر تميزاً بينها، يجري الحديث عن حيوان مائي (كالبي)، يظهر في وقتنا الحاضر أمام الناس على شكل وحش من وحوش ما قبل التاريخ.

لا أحد يعرف بالضبط متى انتقل كالبي ليعيش في مياه لوه ـ نيس، من المحتمل أن ذلك حدث قبل وقت بعيد من أول ظهور للناس على ضفاف البحيرة. ويجدر بنا القول إن كالبي لم يُسر كثيراً بالقادمين الذين اقتحموا عليه ممتلكاته. ولذلك، وبغية إخافة الضيوف غير المرغوب بهم، فإن هذا الكائن المائي يظهر لهم في كل مرة بشكل مرعب. وفي أغلب الأحيان كان يتعمد إخافة الغرباء الوحيدين متحولاً إلى حصان برقبة طويلة ورأس صغير جداً. وما أن يرى عابراً ما حتى يستدرجه ويقدم ظهره اللمّاع وكأنه يقترح إيصاله إلى المكان المطلوب. بينما هو في الحقيقة يسحب الإنسان الساذج إلى أعماق البحيرة. ولا يعود أحد يرى المسكين بعدها..

لقد خاف الناس من العيش قرب البحيرة، لأنهم اعتبروها ملعونة. وحتى في أيامنا هذه، ما تزال شواطئ لوه ـ نيس الأقل سكاناً في كل المنطقة: من قرى وبلدات، دون الحديث عن المدن.

وكيفما كان الوضع، فلقد مرت السنين، واستمر الناس بالاختفاء على شواطئ البحيرة اللعينة. وباءت بالفشل كل محاولات الاسكتلنديين لصيد هذا الكالبي الشرير لتخليص الناس منه. والأنكى من ذلك، أنه اختفى في نهاية الأمر وببساطة غاص في جحره في قاع البحيرة. ولفترة طويلة..

مرت قرون، ذات مرة في صيف عام ١٩٣٣ الحار عاد الزوجان مكّي في سيارتهما إلى بيتهما في بلدة درامنا دروهيت الصغيرة في شمال الهضبة الاسكتلندية. لقد امتد طريقهم على طول شواطئ لوه ـ نيس المقفرة. كان الهدوء مطبقاً في ذلك اليوم، لم تكد تحس بالهواء. وقد لمع سطح الماء تحت أشعة الشمس وكأنه مرآة كبيرة. تدحرجت السيارة بهدوء، واستمتع الزوجان بالمناظر الطبيعية الرائعة المحيطة بهما. إنها مملكة الجمال الذي لم تعبث به يد الإنسان. والهدوء الذي لا تشوبه شائبة!.

وفجأة ارتفع ضجيج غريب بالكاد تم تمييزه عن الهدير الهادئ لمحرك السيارة، وكأنه صوت موجة.نظرت السيدة مكّي بشكل لا إرادي نحو البحيرة وصرخت لشدة ذهولها. لقد ظهر على سطح البحيرة فجأة كائن غريب يشبه سمكة عملاقة، أو عضاءة ضخمة، وبكلمات أخرى، لقد ظهر وحش هائل. أوقف السيد مكّي السيارة وراح الزوجان يشاهدان اللوحة الغريبة التي تبدت أمام أعينهما. لم يستمر الأمر لأكثر من ١٠ إلى ٢٠ ثانية، غاص الوحش تحت الماء وانغمر فجأة كما ظهر ولم يظهر بعد ذلك.

في اليوم التالي، روى الزوجان مكّي الحادثة لجارهم وصديقهم ألكس كامبل. لقد عمل السيد كامبل في إدارة الثروة المائية والغابات وكان من حين لآخر يكتب مقالات في الجريدة المحلية "إنفرينسكي كوريير". وقد ذكر الزوجان مكّي بعض التفاصيل حول ما رأياه. لقد بدا الوحش لكليهما بطول ٥- ٦ أمتار، وكان جذعه كما الحوت، بسنام أو سنامين على الظهر اللامع تحت الشمس؛ وكانت الرقبة طويلة جداً كما الزرافة، أما الرأس فكان صغيراً جداً، أو على الأقل بالمقارنة مع الرقبة والجسد.

في البداية لم يصدق ألكس كامبل جيرانه بالرغم من أنه اعتبرهم شرفاء ومستقيمين. وهذا مفهوم. فلقد كان الرجل ما يزال قائماً على رأس عمله في حماية مناطق صيد الأسماك وكان يعرف جميع الأنهار والبحيرات في المنطقة مثل أصابعه الخمسة. وكان يعرف أنه يحدث في الصيف، وخاصة وقت الحر، أن يظهر على سطح المجمعات المائية سراب خادع وهو ظاهرة ضوئية غير عادية، يمكن أن يبدو طائر عائم بأبعاد يصعب توقعها.

جدير بالذكر أن السيد كامبل لم يشك طويلاً وقد صدق في نهاية الأمر كل كلمة ذكرها آل مكّي، وذلك بعد أن قام بمحاكمة بسيطة وهي أن جيرانه الذين هم أصدقاؤه لن يعملوا على إزعاج رأسه بأمور لم تحصل..

وبعد بضعة أيام ظهرت مقالة كامبل في "انفرنسكي كوريير"، والتي اعتمدت أساساً على رواية آل مكّي. لقد بعث ألكس كامبل فيها الساكن الغامض في بحيرة لوه ـ نيس بواسطة وحش لوه ـ نيس. (الوحش يأخذ اسم البحيرة لوه ـ نيس، المترجم).

وهكذا، انبعثت في عام ١٩٣٣ الأسطورة الاسكتلندية حول كالبي المائي بفضل الحادث الغريب للزوجين مكّي، الذي أعاد روايته بعد ذلك ألكس كامبل والحقيقة أن هذا الكائن المائي اتخذ لقباً أقل إخافة بفضل كامبل الذي أسماه نيسي (أي ذو الأنف الكبير). ولكن ما يلفت الانتباه في هذه القصة هو أن الأسطورة المنبعثة راحت تكتسب مع مرور الوقت تفاصيل مثيرة، تدخل فيها عوامل واقعية لا تحتمل الرفض مثل الصور والأفلام الوثائقية التي تصور نيسي. أو بشكل أدق ما يشبهه. فمنذ زمن ليس ببعيد تحولت شطآن بحيرة لوه نيس شبه المقفرة إلى مكان مقدس للحج، يكاد يكون الأكثر شهرة في اسكتلندا بكاملها.

وبدأ الصيد. وهذه المرة ليس بالرماح والسهام ولا حتى بالأسلحة، وإنما بالصور والأفلام السينمائية. وأول من أسعفه الحظ وصور نيسي كان المدعو نيوغري. وهنا يجدر بنا أن نذكر أن جميع اللقطات التي أخذت لوحش لوه نيس لم تخلُ من عنصر المصادفة. مع أن كثيراً منها، كما تبين لاحقاً، كان مزوراً.

وكمثال على ذلك، كانت الصورة الشهيرة لـ نيسي هي تلك التي صنعها بعد عام من ذلك الدكتور كينيت ويلسون، وهو جراح من لندن. فلقد انتشرت صورته في أغلب جرائد ومجلات العالم ودخلت التاريخ تحت تسمية "صورة الجرّاح".. إلا أنه، وبعد مرور ستين عاماً، وفي ١٥ آذار من عام ١٩٩٤ يوم وفاة كينيت ويلسون، اعترف حفيده بأن الصورة كانت غير حقيقية، مع أنها مشغولة بحرفية عالية. وقد صنعها على النحو التالي:قام بقص رقبة طويلة من

الخشب، وضع عليها رأساً خشبياً أيضاً، وبعد ذلك وضع "التصميم" الذي ينم عن الدهاء، على غواصة وأطلقها في الماء. وما بقي كان بسيطاً جداً واقتصر على الضغط على زر الكاميرا للحظة.

ونذكر أن الكاتب الانكليزي رونالد بينس أنتج صورة مماثلة قبل عدة سنوات. إلا أنه لم يستخدم غواصة بل صديقه الغواص. حيث قام الأخير برفع يده إلى الأعلى فوق الماء وثناها بشكل بدت معه وكأنها نيس المذكور.

جدير بالذكر أن رولاند بينس كرس سنوات عديدة لدراسة الأعماق المظلمة لبحيرة لوه - نيس والسر المكتشف فيها. ومرت عبره صور كثيرة لنيسي.

غير أن الكاتب - الباحث يؤكد عدم إمكانية الوثوق بالجميع. فلطالما رغب "شهود العيان" من رؤية ما يرغبون على أنه حقيقي. ولكن لم تكن هذه الصور سوى جذوع أشجار، براميل فارغة، قوارب مقلوبة أو صخور بارزة من الماء، وكذلك طيور مائية كبيرة وهي كثيرة جداً في البحيرة، أو أنها الزعانف الظهرية لأسماك كبيرة، فكما هو معروف تسبح بعض أسماك الزجر التي يبلغ طول بعضها أحياناً ٤ أمتار إلى بحيرة لوه - نيس من بحر الشمال عبر القناة الكاليدونية.

غير أننا يجب ألا نبخس "شهود العيان" عنادهم وإصرارهم على موقفهم. وخاصة إذا علمنا أن بينهم أخصائيين. فمثلاً، عالم الحيوان الانكليزي الدكتور إنتوني شيلس، الذي صنع صورتين لنيسي في ٢١ أيار عام ١٩٧٧ أرفقهما بالوصف التالي: "للكائن ظهر أخضر - بني، وبطن بني فاتح وجلد أملس ناعم. بقي الكائن ساكناً فوق الماء دون حراك لبضع ثوان واكتفى بهز رأسه الصغير الذي لا يتناسب مع رقبته الطويلة. بعد ذلك انثنت الرقبة واختفى الكائن تحت الماء".

يمكـن تمامـاً الاعتمـاد علـى شـهادة شـيلس: فلقـد كـرس الرجـل الجـزء الأكبر من حياته للبحث عن السكان غير المعروفين من قبل العلماء، وذلك في التجمعات المائية حول العالم، بما فيها البحار والمحيطات. حتى أن شيلس رأى بأم عينه بعض "الكائنات" وقدم وصوفاً دقيقة لها، احتلت موقعاً رائداً بين الأعمال العلمية الخاصة بعلم الحيوانات الذي درس الأنواع المجهولة منها.

إذا، فمن أنت يا نيسي؟

إن أول عالم حاول وصف وتصنيف وحش لوه ـ نيس كان عالم الحيوان الهولندي إيديمانس. ولقد جرب حل لغز البحيرة "الملعونة" في نهاية القرن العشرين. وهو لا غيره الدكتور ايديمانس كان أول من افترض أن الحيوان المائي ما هو إلا ثعبان بحري من نوع آخر، كائن خرافي أصبح على كل لسان وخاصة في أوساط البحارة. ولكن عالم الطبيعة الهولندي لم يقدم أي تدقيق حول ذلك.

بعد نصف قرن تابع بحوث ايديمانس عالم بلجيكي مشهور آخر هو الدكتور برنار ايفليمانس، والذي يعتبر بحق أباً لعلم الحيوانات الغامضة. فقد قام من جهته بتدقيق وجود ما لا يقل عن تسعة أنواع من ثعابين البحر في المحيطات، وذلك حسب المشاهدات العديدة التي عرضها. وتنحدر جميعها من ثعابين الماء القديمة العملاقة، وبعض الأنواع تنحدر من الثعابين الشبيهة بالحيتان التي وجدت قبل التاريخ.

مع العلم أن البرفيسور إيفيلمانس لم يستبعد إمكانية اختباء نوع نادر من الفقمة طويلة العنق خلف مظهر وحش بحيرة لوه نيس.

وقد اتفق عالم الحيوان الايرلندي بيتركاستيلو تماماً مع وجهة نظر برنار ايفيلمانس. لقد اعتبر بالتحديد، أن "وحوشاً" أخرى تعيش في المجمعات المائية للنصف الشمالي من الكرة الأرضية، وهي ليست سوى بعض أفراد هذا النوع

من الفقمة الذي لم ينل حظاً كافياً من الدراسة...

وعلى كل حال، لكل عالم رأيه، ولكن مهما كان الأمر فإن غالبية علماء الطبيعة ومن بينهم عالم الحيوانات الغامضة الألماني المشهور كارل شوكر، افترضوا أن نيسي، ربما يمثل بلصوراً، وهو من زواحف قبل التاريخ، التي عاشت على الأرض قبل حوالي ٧٠ مليون سنة ويمثل بقاء نوعه حتى وقتنا الحاضر معجزة. لم يتفق معه على إطلاقاً علماء آخرون بينهم عالم الحيوان الانكليزي المعروف جوناثان داونز. وهم يؤكدون أن أياً من الزواحف، بما فيها الزواحف العملاقة، لم تكن لتنجو في المياه الباردة في شمال اسكتلندا. وهذا ما يعترض عليه مؤيدو حكاية البلصور بشدة، ويوردون مثالاً السلحفاة التي تتمتع بقدرة نادرة على التعايش حتى في ظروف أقسى من تلك. ويتناسون خلال ذلك، وربما عن قصد، عاملاً لا يقل أهمية عن غيره، أو بالأصح عاملاً حياتياً: فالمصادر الغذائية في البحيرة ليست كبيرة لدرجة يمكن للأجيال العديدة لهذا الزاحف أن تعيش عليها. فضلاً عن أن الباحثين الذين فتشوا قاع بحيرة لوه نيس شبراً شبراً لم يعثروا مرة على رفات بلصور، في الوقت الذي يفترض تراكم العديد منها طيلة عشرات الملايين من السنين. مع العلم أنه يمكن تفسير غياب الرفات بسبب بقاء المناطق الأكثر عمقاً في البحيرة دون دراسة. ومن جهة أخرى، فإن قاع بحيرة لوه نيس مغطى بطين يرتفع لعدة أمتار، ومن المحتمل جداً أن ترقد رفات سلاحف ما قبل التاريخ، وستكون والأمر كذلك كاملة ومحتفظة بشكلها بفضل درجة الحرارة المنخفضة للماء. ومن المناسب هنا تذكر كلمات من الأسطورة الاسكتلندية القديمة: "ما يرمى مرة في مياه لوه ـ نيس فإنه سيختفي للأبد".

الشيء الوحيد الذي لا يختفي دون أثر في مياه لوه ـ نيس هو أسماك الزجر العملاقة التي سبق ذكرها. فبعد السرء تعود هذه الأسماك حتماً إلى بحر الشمال. فضلاً عن أن هذا النوع من الأسماك يمتلك خاصية ملفتة:وهي أنه

تفقد ما يغطي ظهرها من حراشف عندما تتقدم في السن، والجلد هو ما يعطي هذا التأثير اللماع".

وللأسف، فإن أياً من الفرضيات السابقة لا تتمتع بقدر كاف من الإقناع، بحيث يمكنها الإدعاء بأنها الوحيدة وغير القابلة للجدل. ولكن كيف نصنّف نيسّي في هذه الحالة؟ فكل ظاهرة طبيعية يجب أن تكون لها تسمية علمية. وفي عام ١٩٧٢ ظهرت لدى نيسّي الأسطوري أو بشكل أدق ظاهرة "نيسي" تسمية:

Nessi tera rhombopteryx. وهذه التسمية تبدو غريبة ومبهمة، لأنه لم تتح حتى الآن إمكانية لمسه من قبل أحد.

في الوقت نفسه لم يفقد العلماء الأمل بحل لغز البحيرة "الملعونة". ومنذ عام ١٩٩٣ تعمل هناك بشكل دائم بعثة للبحث العلمي من المتحف البريطاني. وهي تتابع العمل الذي بدأ في عام ١٩٦٢ من قبل مكتب خاص لدراسة ظاهرة لوه نيس، وهو العمل الذي بدا غير ذي نتيجة بسبب غياب التجهيزات الفعالة. أما البعثة الجديدة فهي مزودة بآخر ما ظهر من معدات العمل تحت الماء من رادارات ومرسلات قادرة على الوصول إلى أكثر الأعماق غموضاً في البحيرة وتسجيلها على صور وأشرطة فيديو لكشف كل ما يتحرك أو لا يتحرك تحتها.

غير أن نيسّي ليس على عجلة من أمره للتماس مع الإنسان. ومن يعلم، ربما هذا المائي ينتظر الفرصة المناسبة فقط. ترى كيف سيكون هذا اللقاء؟..

ما يزال الأمل موجوداً في قيام هذا اللقاء وخاصةً بالنسبة للناس العنيدين والمصرّين. فلقد ابتسم الحظ يوماً لمهندس الطيران الانكليزي تيم دينسديل. وقدم من عمره ٢٧ عاماً لحل سر وحش لوه نيس. وقد توجت أعماله في نهاية الأمر بالنجاح. وفي نيسان من عام ١٩٥٠ كان دينسديل أول من صور الكائن

الغامض على فيلم سينمائي، وخلال حركته. وفضلاً عن ذلك، تم تحليل هـذا الفيلم بدقة ‌في مخبر خاص تابع للقوى الجوية البريطانية.

وبالنتيجة تم الاعتراف بأصالة الفيلم. ولم يبق تقرير الخبراء أدنى شك: فـ "الغرض" الذي تم تصويره ‌في الفيلم هو ليس قارب وليس غواصة وإنما كائن حي! ولكن ما هو بالتحديد؟ هذا ما بقي من اللغز ليتم حله.

قضية بقرة ستيللر البحريّـة

منذ خمس عشرة سنة مضت بدأت مجلة "حول العالم" تستلم إرساليات مدهشة من دالني فوستوك (منطقة روسية وتعني الشرق الأقصى وهي مجاورة لبحر اليابان). وبدا كأن الناس رأوا في أماكن مختلفة من الساحل في الكامتشاتكي (في المنطقة السابقة) قرب جزر الكومندور، وكذلك في مناطق أخرى أبقار ستيللر البحرية. نعم، إنها نفسها الحيوانات البحرية المسكينة التي وقعت فريسة لذوي القابلية الغبية من الصيادين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وعموماً، فإن هذا الموضوع يعتبر مغلقاً في علم الحيوان الرسمي ويسبب الاضطراب لدى العلماء. وقد أظهر العلماء نظرة سلبية تجاه هذه المشاهدات مثل علماء الحيوان ف.ي. سوكولوف، ف.غ.غيبتتر، س.ك.كلوموف وغيرهم. حتى أنهم سخروا من صاحب أحد الأخبار الذي تم نشره في عام ١٩٦٦ في جريدة "كامتشانكي كمسموليتس". وكان ذلك حول الحيوانات الغامضة ذات الجلد القاتم التي لوحظت في منطقة المياه الضحلة قرب السفينة عند رأس ناقارين إلى الشمال الشرقي من كامتشاتكي.

وها هي رسالة أخرى قد وردت ... لقد خبّر السيد ف.بو.كويف وهو مختص بالأرصاد الجوية، أنه تجمع لديه الكثير من الأخبار المتعة، بل

يمكن القول إنها معلومات دقيقة حول طبيعة كامتشاتكي، وحول مختلف الظواهر غير المعروفة فيها. لكننا سنقف الآن عند هذه السطور:

"يمكنني التأكيد بأنني في آب من عام ١٩٧٦اذا الإعلان؟ لقد رأيت مرات عديدة حيتاناً قاتلة، وفيل البحر والفقمة وغيرها. أما هذا الحيوان فلم يكن مشابهاً لأي من الحيوانات آنفة الذكر. فطوله حوالي 5 أمتار. وقد سبح ببطء شديد في المياه الضحلة. وكأنه يتزلج فوق موجة. في البداية ظهر الرأس مع النامية المميزة له، ثم بدا الجسد المكتنز وبعده الذيل. نعم - نعم، لقد شد ذلك انتباهي (وللعلم، فإن لدي شاهد). لأن الفقمة وفيل البحر تجمعان الطرفين الخلفيين، ويكون واضحاً أنهما زعانف، بينما يملك هذا الحيوان ذيلاً كما ذيل الحيتان. ولدي انطباع أنها كانت تظهر في كل مرة وبطنها إلى أعلى وتقوم بدحرجة جسمها ببطء. وكانت تجعل ذيلها على شكل "فراشة" كما ذيل الحوت عندما يتجه نحو الأعماق..".

أتوقع النظرات الغاضبة للعلماء:"كم مرة يا ترى يمكن استعادة الحيوان الذي اختفى عن وجه الأرض منذ مدة طويلة جداً!"، "إن أشياء كثيرة تتراءى للإنسان!" ولكن دعونا ننتظر قبل أن نتخذ النتائج القطعية وبدلاً من ذلك سنعود إلى عام ١٧٤١ الذي بدأت منه هذه القصة المأساوية والمدهشة.

في يوم الثلاثاء، الرابع من حزيران عام ١٧٤١، رفع مركب البريد "القديس بطرس" صواريه في ميناء بترو بافلوفسك في شبه جزيرة كامتشاتكي (بين روسيا واليابان)، اتجه القارب الذي رفع العلم الروسي وكان يقوده فيتوس بيرينغ لدراسة الحد الشمالي من المحيط الهادي. وكان ضرورياً في البداية التحقق من وجود اتصال بري يربط سيبيريا وأمريكا. أما المركب ونصف طاقمه تقريباً فلم يعودوا بعد ذلك إلى الأرض الروسية.

وعلى متن "القديس بطرس"، وبين طاقمه الذي يبلغ ٧٨ رجلاً وجد الطبيب الألماني وعالم الطبيعة جورج وليم ستيللير. وقد طلب منه بيرينغ الانضمام إلى البعثة في اللحظة الأخيرة، عندما مرض جراح المركب كاسبار فييفي على نحو مفاجئ.

مر الجزء الأول من الرحلة بنجاح. وقد نزل بيرينغ على الساحل الغربي لألاسكا. وقد أصبح ستيللير أول عالم طبيعة يطأ هذه الأرض المجهولة.

ولكن حدث بعد ذلك وباء. وعندما استدار المركب للعودة انتشر داء الإسقربوط بين أفراد الطاقم، وقد كان العدو المخيف لأوائل الباحثين في المنطقة القطبية. في الرابع من تشرين الثاني، وبعيداً في الضباب بدا شاطئ عالٍ غير مضياف، وقد سر البحارة في البداية، حيث افترضوا أنها اليابسة. ولكن بعد مراقبة وضعية الشمس فهموا أنهم ما يزالون على بعد مئات الأميال من كامتشاتكي وتبدلت على الفور فرحة الطاقم بالحزن وخيبة الأمل. تم استدعاء الفريق بالكامل، وبما أنه تبقت ست زمزميات (أوعية لحمل الماء) فقط تحمل مياهاً سيئة فإنهم اتخذوا قراراً موحداً بالنزول إلى شاطئ الجزيرة التي تحمل الآن اسم جزيرة فيتوس بيرينغ. ولكن لم يكن قد بقي في ذلك الوقت ما يكفي من الرجال الأقوياء ليبقوا على متن المركب. لقد تقرر أن يغادر الجميع المركب. وتم وضع المرضى في أكواخ ومساكن تحت الأرض تم حفرها في الرمل، وبعد مرور أسبوع أفلت "القديس بطرس" من المرساة وقذفته الرياح الشمالية الشرقية نحو الشاطئ وقد تحطم عملياً.

وخلال هذه الظروف المأساوية اكتشف ستيللير الحيوان الذي سيصبح الشخصية الفاعلة الرئيسية في هذه القصة.

خلال المد العالي لاحظ في الماء عدداً من الجثث الضخمة والتي كانت أشبه ما تكون بقوارب مقلوبة. وبعد عدة أيام، عندما تسنى له تفحص هذه

الكائنات فهم أنها من نوع لم يصفه أحد من قبل؛ إنها الحيوانات التي يعرفها العلم الآن باسم بقرة ستيللير البحرية. وقد كتب ستيللير: "لو أن أحداً سألني عن العدد الذي شاهدته منها في جزيرة بيرينغ لأجبت دون تباطؤ: لا تحصى، ولا يمكن عدها..".

لقد كانت بقرة ستيللير البحرية من عائلة الثدييات البحرية. ولكن بالمقارنة معها فلقد كانت عملاقاً وبلغ وزنها حوالي ثلاثة أطنان ونصف. كان لها جسم مكتنز، أما الرأس فكان صغيراً بشكل عجيب، وبشفاه سريعة الحركة، وقد نبت على الشفة العليا هلب كثيف (وهو شعر كثيف وخشن) ومن حيث الكثافة فبالإمكان مقارنته بذيل الصيصان.

لقد تنقلت البقرة في المياه الضحلة بواسطة جذمورين (وكأن طرفيها مقطوعان) يبدوان كالأطراف، متوضعين في الجزء الأمامي من الجسم، ولكن في المحيط، كانت تنتقل نحو الأمام بدفعات شاقولية من ذيلها الكبير ذو الشعبتين. لم يتميز جلدها بكثير من النعومة كما هو الحال لدى حبنيات البحر، وقد تغطى بالتجاعيد ومن هنا جاءت تسميتها "**Ry thina stelleri** "، والتي تعني حرفياً " ستيللر المجعدّة".

كتب ليونغارد ستاينغر:" لقد كان ستيللر عالم الطبيعة الوحيد الذي شاهد هذا الكائن حياً، وحاز على إمكانية مراقبته في الطبيعة ودراسة بنيته".

لقد اقتصرت مناطق تواجدها على الجزر التي نعرفها اليوم باسم مجموعة جزر الكوماندور، وبالتحديد جزيرة مِدْني وجزيرة بيرينغ الكبرى من حيث الحجم، والمتوضعة إلى الغرب منها. وأكثر ما يبعث على الدهشة هو أن هذه الحيوانات تم اكتشافها في هذه المياه الباردة، مع أن أقرباءها الوحيدين يعيشون كما هو معروف في البحار المدارية الدافئة فقط. ولكن جلد البقرة

الذي يشبه اللحاء تماماً، يساعدها دون شك على المحافظة على الدفء، كما أن طبقة الدهن السميكة تحميها من البرد. ومن المحتمل أن هذه الحيوانات لم تغادر الشاطئ مبتعدة داخل الماء لأنه ليس بإمكانها الغطس عميقاً بحثاً عن الطعام، إضافة إلى أنها كانت ستصبح فرائس سهلة للحوت القاتل. لقد كانت نباتية تماماً وتغذت على النباتات المائية التي نمت بوفرة في الجزء الشمالي من المحيط الهادي.

وبالرغم من عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها، فإن هذه الحيوانات المسالمة لم تتعرض في البداية لأي اعتداء من قبل بحارة "القديس بطرس". ويصعب تفسير ذلك بأي شكل من الأشكال الرومانسية. وأغلب الظن أن الصيادين قد أشفقوا خلال هذا الزمن الطويل على الحيوانات بسبب ضعفهم البدني الناتج عن داء الإسقربوط، إضافة إلى توفر إمكانية صيد ثعالب البحر وثديات أخرى بأية كمية، وقد احتاج الأمر فقط إلى النزول إلى الشاطئ وضربها على رأسها بالهراوات. ومع تحسن صحة الناس وزيادة درجة حذر ثعالب البحر في التعامل معهم جرت محاولات ناجحة لتنويع قائمة الطعام وإدخال وجبات طرية من البقرة البحرية وعجل البحر.

يتذكر ستيللر: "لقد قمنا باصطيادها باستخدام خطاف حديدي كبير كانت نهايته أشبه بشفرة المرساة؛ وقد ثبتنا نهايته الأخرى إلى حبل متين وطويل جداً قام بسحبه من الشاطئ ثلاثون شخصاً. أمسك أقوى البحارة هذا الخطاف مع أربعة من المساعدين إلى المجاديف، وبهدوء تام اتجهوا نحو القطيع. يقف الرمّاح في مقدمة القارب رافعاً الخطاف فوق رأسه ومن ثم يوجه الضربة بمجرد اقتراب القارب من القطيع. بعد ذلك يقوم الأشخاص الذين بقوا على الشاطئ بشد الحبل وسحب الحيوان بواسطة حبل آخر وينهكوه بضربات مستمرة حتى يفقد قواه ويصبح عاجزاً عن الحراك، فيتم سحبه إلى الشاطئ حيث ينهال عليه البحارة بالحراب والسكاكين والأسلحة الأخرى. كان

البحارة يقتطعون قطع لحم كبيرة من "البقرة" الحية، التي كانت ترفس بقوة بزعانفها وذيلها على الأرض لدرجة أن قطع الجلد تناثرت عن الجسم. فضلاً عن أنها تنفست بصعوبة وكأنها تختنق. وقد سال الدم كالجدول من الجراح التي سببتها الضربات على القسم الخلفي من الجسم. عندما يكون الحيوان داخل الماء فإن الدم لم يخرج كالنافورة، ولكن بمجرد أن يخرج رأسها من الماء لاستنشاق الهواء يتجدد تدفق الدم بالقوة نفسها.."

وبالرغم من الإحساس بالشفقة الذي يتسبب به هذا الحديث فإنه يستحيل لوم هؤلاء البحارة المساكين على طريقة تحضيرهم لطعامهم، الذي بات مكافأة على جهودهم التي تجاوزت القدرات الإنسانية. لقد استخدموا الأبقار البحرية كطعام لعدة أسابيع فقط، حتى تسنى لهم إعادة بناء "القديس بطرس" من جديد والتوجه إلى الوطن. ومستبعد جداً أن يكون البحارة قد لعبوا دوراً كبيراً في القضاء على الأبقار. ولكن بعد ذلك بدأت أحداث يصعب كثيراً تبريرها..

عندما عاد البحارة الذين لم يوفقوا إلى كامتشاتكي فإنهم حملوا معهم حوالي ثمانين جلداً من جلود ثعالب الماء. لقد كانت بضاعة غالية جداً، وبعد وقت وجيز انتشرت شائعات حول وفرة هذه الوحوش ذات الفراء الثمين في جزر الكوماندور. ثم أصبحت جزر مِدني وبيرينغ مركز قيادة لتجار الوحوش ذات الفراء الثمين، ويمكن أن نخبر هواة الإحصاء أنه خلال ثلاث سنوات قام ثلاثة صيادين فقط بقتل أكثر من ١١ ألف ثعلب وألف بقرة. لم يكن سعر جلد البقرة البحرية مرتفعاً. إلا أن الصيادين الذين ظهروا في هذه الأماكن احتاجوا للحم الطازج. وكان سهلاً جداً الحصول عليه. وليس عجيباً أن الذبح الجماعي الذي تبع ذلك أدى إلى اختفاء لهذه الحيوانات المسالمة تماماً.

وقد جرى اعتبار أن آخر بقرة بحرية قد قتلت فوق جزيرة بيرينغ في العام ١٧٨٦ وذلك بعد ٢٧ عاماً فقط من اكتشاف هذا النوع من الحيوانات. إلا أن

البروفسور السويدي نورندن شيلد جمع في عام ١٨٧٩ معلومات تظهر أنه من المحتمل أن هذا الحيوان نجا حتى فترة متأخرة عن الوقت الذي اعتبر زمن انقراضه. وتفيد بعض المعطيات أن الناس استمروا لزمن طويل بقتل أبقار البحر في الوقت الذي رعت فيه بسلام في مروج النباتات البحرية. وقد استخدمت جلودها لصنع مراكب خفيفة من نوع الزوارق الرياضية الطويلة. وقد أكد المنحدرون من قران الروس وسكان الآلاسكا أنهم قد رأوا في عام ١٨٣٤ على ساحل جزيرة بيرينغ حيواناً ذا جسم مخروطي وأطراف أمامية صغيرة والذي تنفس من فمه ولم يكن لديه زعانف خلفية. لقد كان جميع المراقبين على معرفة جيدة بثعالب وعجول البحر والفقمة وكذلك مع الحيوانات المحلية ولم يكن هناك مجال للخلط بين أي منها. ومن المحتمل تماماً أن "البقرة" عاشت في هذه المنطقة لمائة عام تلت. وربما كان هذا الكائن أنثى كركدن البحر؟ فمن يعرف...

ترى هل هناك أمل؟ ونعيد ما سبق أن قلناه، لا يرى علماء الحيوان أي أمل. أما علماء الحيوانات الغامضة فيقولون بوجوده. إن اكتشاف حيوانات مجهولة مستمر على الكوكب، وحتى الأنواع التي "تم قبرها" تكتشف من جديد مثل كيهو ـ المنذر بعواصف برمودا، أو الطائر الذي لا يطير تاكاهي من نيوزيلندا.

غير أن البقرة البحرية ليس إبرة في كومة قش. وماذا لو أن الحظ حالف عدة أزواج منها واختبأت في خلجان الهادئ البعيدة، بعيداً عن الصيادين الجائعين واستطاعت تجاوز المذبحة الدموية؟.. لقد اتجهت المطاردة نحو التناقض. وقد نسي العلماء الأبقار. وتزايد القطيع وانتشر على الشاطئ حيث اختار أكثر الزوايا المنسية والبعيدة...

يا الله! لو أن الأمور سارت على هذا النحو فعلاً!



حوّريات الماء ووحيدات القرن

يتناقل الأدب الشعبي العالمي عدداً كبيراً من القصص حول أنصاف النساء، وأنصاف الأسماك، سكان عباب البحار الفاتنات. ويعود أصل هذه الأساطير إلى بابل القديمة. فما سر بقائها حتى يومنا هذا؟ ربما يكون علماء النفس المعاصرون على حق في تأكيدهم أن هذه الهيأة ترمز إلى الرغبة الجنسية التي تقود إلى التدمير الذاتي؟ إن الناس في الوقت الحالي ينكرون عادة، وجود حوريات الماء وكذلك وحيدات القرون. وغالباً ما يأتي ذكر هذه الكائنات الخرافية التي لها جسم حصان أو حيوان آخر، والتي تتميز بامتلاكها لقرن وحيد حتماً، في الحكايات والخرافات. فهل دخلت هذه الكائنات في الأدب الشعبي بفضل خيال الإنسان فقط؟

في يوم صيفي حار عام ١٨٩٠، وبينما كان المعلم (وليم مونرو) يتنزه على الشاطىء في ولاية الكونت (كيتنس) الاسكتلندية، لاحظ فجأة على صخرة بارزة فوق مياه البحر، كائناً يشبه امرأة عارية جالسة. ولولا أن (مونرو) كان يعرف خطورة السباحة حتى ذاك الحجر لما شك للحظة أنه لا يرى امرأة. ولكن (مونرو) لاحظ شيئاً غريباً في هذا المشهد، وراح يمعن النظر. لقد كان الجزء الأسفل من الجسم تحت الماء، إلا أن (مونرو) شاهد يدين عاريتين،

تمشطان شعراً طويلاً لماعاً كستنائي اللون. وبعد بضعة دقائق انزلق الكائن عن الصخرة في الماء واختفى عن الأنظار.

وبعد فترة طويلة من التردد امتدت لـ ١٢ عاماً، أرسل (مونرو) خبراً قصيراً إلى جريدة "التايمز" اللندنية. لقد وصف هذا المخلوق بجفاء وحذر شديدين. "كان الرأس مغطى بشعر كستنائي اللون، عاتم قليلاً عند القمة، وكان الجبين بارزاً، الوجه منفوخ والخدود موردة، والعيون سماوية اللون، وللفم والشفتين شكل طبيعي يشبه ما لدى البشر، لم أستطع رؤية الأسنان لأن الفم كان مغلقاً؛ أما الثديان والبطن والأيدي والأصابع فتماثل تماماً حجم مثيلاتها عند الجنس البشري؛ كما أن طريقة استخدام الأصابع لتمشيط الشعر لا تفترض وجود أغشية بين الأصابع، غير أنني لست متأكداً بهذا الشأن".

وذكر (مونرو) أنه بالرغم من أن بعض الناس الجديرين بالثقة كانوا قد أكدوا له رؤية هذا الكائن، غير أنه لم يصدقهم حتى رآه بنفسه. وبعد أن رآه اقتنع بأن هذا الكائن هو حورية ماء. وقد عبر عن أمله بأن تساعد رسالته على تأكيد "وجود ظاهرة شاذة غير معروفة حتى الآن من قبل علماء الطبيعة، أو التقليل من ريبة الأشخاص المستعدين دائماً لمعارضة كل ما لا يمكنهم إدراكهُ..".

نستنتج من هذه الرسالة المنطقية تماماً أن الاعتقاد بوجود حوريات الماء لم يكن بسبب بحارة اضجرهم الملل والأسر في رحلات بحرية طويلة. وفي الحقيقة فإن حوريات الماء وكذلك التنانين هي رموز شاملة الاستخدام. حيث يمكن التحقق من ذكرها في الأدب الشعبي لكل بلدان العالم. وإذا لم يكن في البلد بحر فإن مكانها يصبح النهر أو البحيرة. ويبدو الأمر بالنسبة لحوريات الماء شبيهاً بحالة التنين، حيث أن ظهور حورية الماء مرتبط بالتعبير الرمزي لبعض احتياجات الرجال الداخلية.

إنها فاتنة صعبة المنال، شبقة شهوانية، وفي الوقت ذاته باردة متملصة... إن شبابها وجمالها الأبديين، وكذلك صوتها الساحر وطريقتها في الإغراء تستجر الصيادين الذين لا حول لهم ولا قوة وتوقعهم في مصائدها. وحسب تأويل الأطباء النفسيين المعاصرين فإنها تمثل رمزاً لاجتماع الرغبة الجنسية والموت، رغبة الرجل بالتمادي التام بالرغم من معرفته بأن ذلك هو انتحار ذاتي.

إن الأساطير التي تتحدث عن حوريات الماء تخفي سلسلة كاملة من الأحلام الرومانسية والسعي نحو المثال، أي نحو المرأة صعبة المنال، التي لا تشبه الأموات البسطاء. وفي هذا المكان بالتحديد حيث حصلت "القصة المدهشة" مع (مونرو)، حدثت في الماضي قصة أكثر غرابة منها. تقول الأساطير المحلية إن حورية أهدت ذات مرة فتى ذهباً وفضة وألماساً كانت جمعتها من سفينة غارقة. قَبِل الفتى الهدايا، إلا أنه أهدى الثمينة منها إلى فتاته. ولكن ما هو أسوأ من ذلك؛ هو أنه لم يلاقي الحورية العدد الموعود من المرات. وبذلك أيقظ غيرتها وغضبها. وذات مرة سبحت إلى قاربه ووجهته نحو مغارة قريبة قائلة بأن فيها كل الجواهر والأحجار الثمينة التي فقدتها السفن يوماً. وفي هذه اللحظة غفا الفتى.

وعندما استيقظ وجد نفسه مقيداً إلى صخرة بسلاسل ذهبية، بحيث لم يصل إلا إلى كومة من الألماس قرب مدخل المغارة. ومع أنه امتلك الكنوز والحورية التي لبت كل رغباته إلا أنه بقي أسيراً. وقد وقع في الفخ بسبب طمعه الشخصي.

معروف جيداً أن حوريات الماء ينتقمن بقساوة ممن يخدعهن أو يظلمهن. ربما يكون مصدر هذه التصورات عن حوريات الماء هي التخيلات الجنسية للرجال حول كائن صعب المراس مولع بتحقيق الرغبات الذاتية فقط. وحسب بعض الأساطير، فإن حورية الماء هي ملاك سماوي هبط إلى الأرض ويعيش

على اللحم فقط. وأما الغناء والموسيقى فما هي إلا أدوات لاستجرار البحارة إلى شباكه. (وهذه الهيأة تختلط هنا مع جنية البحر). وإذا لم ينجح هذا الأسلوب في الإغراء، وهذا قلما يحدث، فإن الحورية تعتمد على رائحة جسدها الفريدة، التي لا يمكن لأي رجل مقاومتها. وبعد أن تصطاد فريستها وتخدرها، تقوم الحورية بتمزيقها إلى قطع صغيرة بواسطة أسنانها الخضراء الحادة.

وحسب أسطورة اقل قسوة، فإن حوريات الماء والتريتونات عاشت في مملكة أعماق الماء بين مجموعات من الكنوز. وهي تأخذ ضحاياها إلى أعماق البحر. ولذلك فإن البحارة يعتبرون حورية الماء فألاً سيئاً. فهذا يعني أن البحارة الذين يرونها سيغرقون قريباً في البحر.

ويبدو أن أصول الأساطير التي تتحدث عن حوريات الماء تعود إلى آلهة بابل الأقوياء المرتبطين بالشمس والقمر. لقد كان لإله الشمس (أوانيس) جسم إنسان، وكان تاجه مصنوعاً من رأس سمكة، أما الرداء فكان من حراشف الأسماك. وقد أزاحه الإله (إيا)، الذي كان شكله نصف إنسان ونصف سمكة، ويمكن أن نفترض أن ظهور الخرافات حول التريتونات مرتبط به تحديداً. إله القمر (اتارهاريتس) الذي هو نصف امرأة ونصف سمكة، كان سلفاً لحوريات الماء. وقد آمن البابليون أن الشمس والقمر يغطسان في الماء بعد أن ينهيا رحلتهما في قبة السماء. وقد بدا لهم أنه من الطبيعي أن يكون لآلهة الشمس والقمر أجساماً مناسبة للحياة تحت الماء وخارجه. ولقد أعطت هذه الأجساد غير العادية لهؤلاء الآلهة، وهي اتصال الإنسان والسمكة وكذلك القدرة على الغوص في أعماق المحيطات، أعطتهما شيئاً من الغموض. وقد ورثت حوريات الماء هذه الخصائص. وربما تكون المرآة التي غالباً ما يصورونها مع حورية الماء، بمثابة رمز للقمر الذي يؤثر على المد وبذلك يزيد من سلطة الحوريات. ويبدو أن الرابطة بهذه الآلهة والمحاطة بقدرة استثنائية في الفترة التي

سبقت ظهور المسيحية، زادت اعتقاد الناس بالأساطير التي تحدثت عن حوريات الماء.

الأسلاف المباشرون الآخرون لحوريات الماء هم التريتونات في الأساطير الإغريقية. لقد كان بمقدور التريتونات التسبب بسكون الهواء أو بهبوب العواصف، أما أجسادها فكانت كما حوريات الماء، مكونة من جزأين: أحدهما انتمى للسمكة والآخر للإنسان. ومع أن جنيات البحر في الأساطير الإغريقية كانت نصف امرأة ونصف طير. إلا أنها كانت كما حوريات الماء، تستدرج الناس إليها بغنائها الرائع. وعندما حاول البطل الإغريقي أوديسيا تخطي جنيات البحر أغلق آذان بحارته بالشمع، وقيد نفسه إلى السارية كي لا يقع فريسة لغنائهن.

وكان لعرائس النهر الهنديات شكل بشري، ولكن أشياء كثيرة وحدتهن مع حوريات الماء. لقد عزفن بشكل رائع على اللّوتني وكن رائعات الجمال ومغريات. طائشات ويبحثن دائماً عن انتصارات جديدة، ولم ينتقمن أبداً من الرجال ويحاولن دائماً جلب السعادة.

ومع اعتناق المسيحية ظهر في الأساطير حول حوريات الماء موضوع جديد: فقد تم وصفهن كمخلوقات تسعى بشغف للحصول على روح. وقد اعتبر المسيحيون أنه بإمكان حورية الماء اكتساب روح فقط إذا وعدت بترك البحر وحلم العودة إليه في أي وقت، وأن تعيش على اليابسة. وهذا أدى بالحورية إلى صراع داخلي قاسٍ، لأن هذه الحياة مستحيلة بالنسبة لمخلوق نصفه إنسان.

وهناك قصة مؤثرة معروفة، يعود تاريخها للقرن السادس الميلادي، تحكي عن حورية ماء واظبت يومياً على زيارة راهب من دير (يونا) على جزيرة صغيرة بالقرب من اسكتلندا. لقد كانت تصلي طلباً للروح، وقد صلى الراهب معها أملاً بأن تكتسب القوة على الابتعاد عن البحر. ومع أن الحورية

أحبت الراهب بشغف وأرادت امتلاك روح لكنها لم تقو على خيانة البحر. وفي النهاية، غادرت الجزيرة إلى الأبد بعد أن بكت بمرارة. ويقال إن دموعها تحولت إلى حصى بحري، وما يزال الناس يسمون الحصى الأخضر الرمادي على ساحل (يونا) "دموع حورية الماء".

لقد ربط الناس الفقمة وجسدها الأملس وبعض نواحي سلوكها التي تشبه السلوك الإنساني، بحورية الماء. ويعتبر كثير من العلماء أن القصص التي تحكي عن حوريات الماء أساسها هو لقاءات عابرة مع حيوانات الفقمة. ويجري تمثيل الفقمة في الأساطير التي تتحدث عن حوريات الماء باعتبارها مرافقاتها الدائمة.

وهناك قصة تتحدث كيف أن صياداً ضرب فقمة ذات مرة بشدة، وقبل أن تموت أعادها إلى البحر. وقد ذهبت حورية الماء التي أشفقت على الفقمة، للبحث عن جلود. ولكن رفاق ذاك الصياد أمسكوا بها، وقد ماتت بسبب وجودها الطويل خارج الماء. وبعد ذلك، وعرفاناً منهم بشجاعتها، صارت حيوانات الفقمة مرافقاً دائماً لحوريات الماء.

توجد في اسكندنافيا واسكتلندا وايرلندا أساطير عديدة عن أشخاص مضطرون للعيش في البحر بمثابة (بجسد) فقمة، ويتحولون أحياناً على الشاطىء إلى بشر. وبعضهم فكر أن حيوانات الفقمة هم ملائكة هبطت إلى الأرض، واعتبر آخرون أن أرواحهم تخص أشخاصاً كانوا قد غرقوا أو ضحايا لعنة حلت عليهم. وفي بعض العائلات الايرلندية يوجد اعتقاد أن أسلاف البشر كانوا من الفقمة. وفي ماليزيا (آسية الصغرى) ربط شعب بالكامل نشوءه بحادث عرضي جاء وصفه في الأساطير الإغريقية. لقد تحولت عروس البحر إلى فقمة لتهرب من ملاحقات ابن زفس. إلا أنها تأخرت وذلك لأنها ولدت طفلاً بعد تحولها مباشرة. وقد أسموه فوكوس - "فقمة". وقد افتخر

الفوكوسيون بأصلهم الذي يعود إلى عروس البحر وقد تزينت عملتهم بصورة الفقمة.

إن هذين الكائنين: حوريات الماء وعرائس البحر يملكان أشياء مشتركة كثيرة، ولذلك يصعب في أساطير متعددة التمييز عن أي منهن تتحدث الأسطورة. فكلتاهما تحب الغناء والرقص وتملك موهبة التنبؤ.

وهناك حكايات تروي كيف أن حوريات الماء عرائس البحر عاشت طويلاً على الشاطئ بسبب حبهن لإنسان ما. وقد اعتبر كثيرون أن لدى كل حورية ماء تاجها الذي لا يمكنها العودة إلى البحر بدونه. وإذا تسنى لرجل سرقته وإخفاءه فإنه يستطيع الزواج بحورية الماء؛ ولكن إذا وجدت التاج في يوم من الأيام فإنها تختفي من فورها مع تاجها في الأمواج. ويمكن للإنسان الزواج بـ عروس البحر، ولكن عليه أولاً سرقة وإخفاء جلدها الثاني "الخاص بالفقمة". وتوجد أساطير عديدة تتحدث عن ذلك. ونورد ما وصل إلينا من التراث الاسكتلندي كواحدة من هذه الأساطير. لقد أحب رجل بولع شديد عروس البحر، فقام بسرقة هذا الجلد وأخفاه بحرص. بعد ذلك تزوجا، وأصبح لديهما أولاد، وعاشوا جميعاً بسعادة. ولكن أحد الأبناء وجد الجلد المخبأ وكشفه لأمه. ودون أن تتردد للحظة، قامت بارتدائه ورمت نفسها في البحر تاركة أبناءها إلى الأبد.

يقال إنه في عام ١٤٠٣ عبرت حورية ماء إلى النهر عبر سد مهدم قرب (إدام) في هولندا، وقد تم الإمساك بها. إلا أن مصيرها اختلف عن القدر العادي الذي كان ينتظر الحوريات اللاتي وقعن في قبضة البشر. عاشت الحورية ١٥ عاماً التالية في (هارلم)، وتعلمت التنظيف وإطاعة سيدة المنزل. وبعد موتها دفنوها وفق التقاليد المسيحية.

تعيش الأساطير التي تتحدث عن حوريات الماء في بعض المناطق فترة طويلة. في عام ١٨٩٥ كان سكان ميناء ميلفورد ما يزالون يعتقدون بأن حوريات الماء أو ساحرات البحر يترددن بانتظام على المعرض الأسبوعي في المدينة. وقد كن يصلن إلى المدينة عبر طريق تحت الماء، يشترين بسرعة كل ما يحتجن إليه (دروع السلاحف للشعر وما إلى ذلك) ويختفين حتى موعد المعرض القادم.

إلا أن الحكايا الأكثر انتشاراً عن حوريات البحر كانت بين البحارة. ويذكر (كريستوفر كولومبس) الميال إلى الشك سابقاً أنه رأى خلال رحلته ثلاث حوريات تسبحن في البحر بعيداً عن ساحل غويانا.لقد عانى البحارة طيلة شهور طويلة من الملل وافتقاد الحياة الجنسية، وربما كان ذلك هو السبب في رؤية حوريات الماء بانتظام. وربما بفضل خيالهم ورغباتهم في تلبية حاجتهم إلى الجنس الآخر، صارت عجول البحر، وثديات أخرى تبدو لهم أنصاف نساء رائعات؟ من يعرف؟.

يصف الرحالة الانكليزي المشهور (هنري غودزون) لقاءه مع حورية الماء باعتباره صدفة معتادة (اعتيادية). وقد جاء في دفتر مذكراته عن يوم ١٥ حزيران ١٦٢٥ مايلي: "بينما كان أحد البحارة ينظر إلى الميناء رأى حورية ماء. لقد كانت تشبه جسد المرأة حتى الخصر. وقد كان جلدها شديد البياض، وشعرها أسود متدلياً. وعندما غاصت بدا ذيلها الذي يشبه ذيل دلفين، وهو مرقط كما ذيل الاسكمري (نوع من الأسماك)". وفي روسيا كانت الحوريات "طويلات، شاحبات وحزينات"؛ وقد ذكرها الكتاب في تايلند واسكتلندا. في أيار عام ١٦٥٨ لوحظت هناك حوريات ماء قرب مصب نهر (دي)، وقد وعد التقويم الأبرديني الرحالة أنهم "لابد سيرون القوام الرائع للحوريات، هذه الكائنات المدهشة".

وحيث أن الإشاعات حول الحوريات تضاعفت وتضاعفت، بدأت تظهر حالات تزييف مفتعلة. وقد قاموا بتحضيرها عادة بوصل الجزء العلوي للقرود بذيل سمكة.

وربما تم تحضير إحداها في القرن السابع عشر وقد عرضت في إحدى المعارض التي أقيمت في (المتحف البريطاني) في لندن عام ١٩٦١. لقد كانت غالبية حوريات الماء المعروضة هي عبارة عن مسوخ ليس فيها شيء من الجمال إلا أنها استرعت اهتماماً واضحاً.

عرضت في إحدى المنشورات عام ١٧١٧ صورة يفترض أنها لحورية أصلية. وقد كتب تحتها: "كائن يشبه جنية البحر، وكان جسمها يشبه ثعبان الماء. عاشت على اليابسة مدة ٤ أيام وسبع ساعات في بقعة ماء. كانت تطلق أصواتاً تذكر بصوصوة الفئران. ولم تأكل الرخويات وسرطانات البحر التي قدمت لها..".

لقد اهتم (بطرس الأول) (قيصر روسيا) بالحوريات. وقد لجأ إلى رجل الدين الدانماركي (فرانسوا فالنتين) الذي كتب حول هذا الموضوع. ولم يصف إلا القليل في هذا المجال، وقد وصف حورية أخرى من أمبوين. لقد رآها أكثر من ٥٠ شاهداً عندما كانت تمرح مع صديقها. وكان رجل الدين مقتنعاً بصحة روايات الناس عن الحوريات. "إذا كان ثمة حكايا في هذا العالم تستحق الثقة فإنها هذه وإن عدم تصديق بعض الأشخاص لهذه الحكايا لا يعني شيئاً؛ فهؤلاء دائماً موجودون. ولطالما وجد أشخاص ينفون وجود مدينة القسطنطينية، وروما والقاهرة فقط لأنه لم يتسنى لهم رؤيتها".

ومع أنه كان من المفترض أن تكون حوريات الماء قاسية وقبيحة إلا أن البحارة كانوا واثقين من لطفهن وبراءتهن. وقد كان السعي للإمساك بحورية ماء وربما إبقاءها لمختلف أشكال التسلية كبيراً لدرجة أنه كانت تتراءى للبحارة في كل مكان بطلات أحلامهم الشهوانية. وقد كتب أحدهم: "إن ما أوجده الخيال البشري من أعماق المحيطات من آلهة بحرية رائعة وغامضة وخطرة، كان لابد حتماً ليلبي حاجات إنسانية أساسية معينة".

في كل مكان تقريباً في أوروبا تم في العصور الوسطى تزيين الكنائس والكاتدرائيات بحوريات من الحجارة أو من الخشب. ولكن الاعتقاد بوجود حوريات الماء ضعف مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وعندما حلت المراكب البخارية بدلاً من الشراعية وأصبحت الرحلات البحرية أقصر يوماً بعد يوم، بدأت تقل أحاديث البحارة عن جنيات البحر اللاتي أغرينهم وأغوينهم. غير أن حوريات الماء لم تنسَ تماماً. وفي عام ١٩٠٠ قابل أحد الاقطاعيين شمال اسكتلندا واسمه (الكسندر غان) من جديد واحدة منهن. وبينما كان يحاول إنقاذ غنمة استعصت في شق، رفع رأسه ورأى حورية ماء متكئة على الشعب المقابل. كان شعرها أشقر ذهبياً، عيناها خضراوان، وحاجباها كما القوس. لقد كانت جميلة جداً. يصعب القول من منهما دهش أكثر: هو أم الحورية أم الكلب. وكان الكلب أول من عبر عن أحاسيسه. لقد طوى ذيله واختبأ خلف ظهر المزارع. لقد رأى (غان) أن الحورية خائفة، وفي الوقت نفسه غاضبة. وبعد بعض الوقت قال لصديقه: "إن ما رأيته كان واقعاً. لقد رأيت حورية ماء بالفعل".

بعد خمسين عاماً، وبينما كانت فتاتان تتنزهان في ذات المكان، عثرتا على حورية ماء تركها الجزر على الطين. وحسب وصفهن فإن هذه الحورية كانت تشبه تماماً تلك التي قابلها غان. وبعد فترة وجيزة، وفي الطرف الآخر من العالم أضيف لقاء آخر مع حوريات الماء إلى العدد القليل للقاءات مع الحوريات في القرن العشرين. لقد حدث ذلك في ٣ كانون الثاني عام ١٩٥٧. حيث سبح الرحالة (إريك دي بيشوب) على قاربه الخشبي من (تايتي إلى تشيلي). وفي كتابه الصادر بعد سنتين، الذي حمل عنوان "تايتي - نوي" يتحدث كيف أن المناوب تصرف بشكل غريب جداً. وبدأ البحار بإقناع الجميع أنه رأى كائناً غامضاً قفز من الماء إلى سطح السفينة. وقف هذا الكائن معتمداً على ذيله وقد تدلى شعره الطويل وكأنه أعشاب مائية دقيقة، وقف أمامه

تماماً. وعندما لامس البحار الزائر المتطفل رد عليه بضربة ألقته أرضاً واختفى الكائن بين الأمواج. وبوجود حرشفة سمك لماعة على يدي البحار لم يشك (دي بيشوب) في صحة هذه الحكاية: إن اللقاء مع حورية الماء حدث بالفعل. في عام ١٩٦١، أي بعد أربع سنوات، أقامت الشركة السياحية في جزيرة (مين) "أسبوع صيد السمك" واقترحت جائزة لمن يمسك بحورية ماء حية في البحر الإيرلندي. وظهرت على الفور عدة إخباريات حول حوريات بشعر أحمر تمرح بالأمواج. وبالرغم من ذلك فإن أحداً لم يمسك. لقد تبين أن حوريات البحر الإيرلنديات صعبة المنال كما هي أخواتها في الماضي.

قليلون جداً هم الذين يمكنهم القول بصدق إنهم يعتقدون بوجود حوريات البحر. ومع ذلك اكتسبت الحوريات نوعاً من الحقيقة. وقد انتشرت الأساطير عنهن على نحو واسع وفاتن يجعل من الحوريات كما التنانين التي هي من صنع الخيال البشري، تتحول إلى رمز. الشيء نفسه حدث لوحيد القرن.

هذا الكائن الخرافي يمكن أن يكون من حيث المبدأ أي حيوان، لكنه يجب أن يملك قرناً طويلاً وحيداً. وكما هي الحال مع الدراكونات (التنانين)، فإن شكل وسلوك وحيد القرن متنوعان تبعاً للمكان الذي كتبت فيه الأسطورة. فهو يشبه في ذات الوقت عدة حيوانات، أو يكون شبيهاً بحيوان محدد كأن يكون فرساً أو معزاة أو حتى أفعى. ويسمونه في الغرب حيوانً برياً يحب الوحدة. ويعتبرون أنه لا يمكن جعله أليفاً. وفي الصين يمثل كائناً مسالماً لطيفاً يجلب الحظ (التوفيق). ومثله مثل كل الكائنات الخرافية يرمز وحيد القرن إلى مجموعة (عدة) ظواهر ومفاهيم. يرمز القرن الوحيد إلى البداية الذكورية للسلطة الملكية، وفي بعض الحالات يمثل رمز الطهارة. وبامتلاكه قرناً واحداً وجسم أنثى يجمع وحيد القرن كلا الجنسين. واسمه في الصينية "كي ـ لين" ويترجم "ذكوري ـ أنثوي". ويشير دمج البدايتين الذكورية والأنثوية في كائن واحد إلى أن وحيد القرن هو رمز للمهادنة

والتضادات الأخرى. وقد كانت فكرة تناغم القوى المتضادة جزءاً هاماً من إدراك السحرة القدامى والكيميائيين ولذلك فإن وحيد القرن يلعب دوراً هاماً في تاريخ السحر.

وقد جاء ذكر وحيد القرن لأول مرة في الغرب في كتاب يتحدث عن الهند للمؤرخ الإغريقي (كتيسيوس) في عام ٣٩٨ قبل الميلاد. وهاكم جانباً من الوصف: "يوجد في الهند نوع من الفيلة البرية بحجم الحصان وحتى أكبر. الجسم أبيض، والعيون زرقاء قاتمة، الرأس أحمر قاتم. ويتدلى من جبينه قرن بطول متر تقريباً". يبدو أن (كتسيوس) اعتمد على ظنون وحكايا الرحالة. ففي هذه الحالة يكون وحيد القرن هو مزيج من الكركدن والظبي وحمار الوحش. ويذكر في الكتاب كذلك أن القرن مدبب في نهايته، ولونه أبيض في قاعدته، وفي الوسط لونه أسود وينتهي باللون الأرجواني. من المحتمل أن يكون (كتيسيوس) قد رأى آنية مزينة بهذا الشكل ومصنوعة من قرن، لأن الحكام الهنود كانوا في العادة يشربون من هكذا قرون. وقد كتب كذلك أن القرن كان ترياقاً ممتازاً ضد السموم ومن يشرب من القرن محصن من التسمم والتشنج. وقد صدق الناس ذلك حتى بداية العصر الجديد. لقد كان الأغنياء وأصحاب السلطة يدفعون مبالغ طائلة لقاء الأواني التي يفترض أنها مصنوعة من قرن وحيد القرن.

غالباً ما يتحدث الصيادلة عن وجود قرن وحيد القرن في مخزن أدويتهم. وقد نسبوا للقرن في بعض الأحيان القدرة على البعث من الموت. وحتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر تم إدخال الـ "الأليكرون" - وهو مسحوق صنع من قرن وحيد القرن، ضمن قائمة الأدوية التي تنتجها جمعية الفيزيائيين الملكية البريطانية. وقد دخلت التكلفة الجنونية لهذا الدواء في أمثال شعبية كثيرة. وقد عزا الصيادلة الأسعار العالية لهذا الدواء إلى أن وحيد القرن يعيش في الهند وأن المسحوق يتم إحضاره من هناك.

في عام ١٦٤١ كتب ماركيز فرنسي أنه رأى خلال مروره في لندن في معرض في تاور قرن وحيد القرن. لقد كان يخص الملكة اليزابيت الأولى، وقد كلفها ٤٠٠٠٠ جنيه استرليني. أراد المركيز التحقق من أصالة القرن. وكان لابد من لفه بالحرير ووضعه في النار. فإذا كان القرن أصلياً فإن الحرير لن يحترق. ولسعادته، لم يسمح الحراس للمركيز بالقيام بهذه التجربة.

لقد أتى ذكر الخواص المطهرة للقرن في أسطورة مشهورة من القرون الوسطى. تجتمع حيوانات كثيرة قرب النبع في الليل. لكن الماء مسموم وليس بإمكانها شربه. بعد وقت قصير يحضر وحيد القرن: فيغمر القرن في الماء وبعدها يختفي السم. في التأويل المسيحي يشير القرن إلى الصليب، أما الماء فيرمز إلى ذنوب العالم.

هناك أسطورة أخرى مشهورة ورمزية من العصور الوسطى، وهي تتحدث كيف يخرجون لصيد وحيد القرن. إن وحيد القرن هو كائن بري حجمه بحجم المعزاة. إنه رشيق وسريع جداً بالنسبة للصياد. ولا تستطيع الإمساك به إلا عذراء شابة تجلس لوحدها في الغابة تحت شجرة. يتقدم منها وحيد القرن المفعم برائحة العفاف ويضع رأسه على ركبتيها. وعندها تقص القرن وتنادي الصيادين وكلابهم. إن الرمز الجنسي لهذه القصة شفاف ويستخدم كثيراً في الثقافة الشهوانية. غير انه يوجد تفسير مسيحي لهذه الأسطورة. العذراء - هي مريم العذراء، وحيد القرن - هو السيد المسيح، أما القرن فيرمز إلى وحدة الأب والابن. يتم التضحية بالمسيح لإنقاذ العالم المذنب.

لقد اعتبر بعض علماء الطبيعة أنه يمكن استنبات وحيد القرن بشكل صنعي. وقد حدث ذلك في آذار من عام ١٩٣٣. أجرى عالم البيولوجيا الأمريكي الدكتور (فرانكلين داف) عمليات في جامعة ولاية (من) لعجل عمره يوم واحد. لقد نقل إلى جبهة المولود قرون العجل ووضعها فوق بعضها

مفترضاً أنهما سيتوحدان أثناء عملية النمو بقرن واحد كما لدى وحيد القرن. وبنتيجة هذه التجربة الناجحة ظهر ثور وحيد القرن. لم يكن يشبه وصف العصور الوسطى لوحيد القرن، هذا الوصف الذي اكتسب بفضل أدباء القصر دقة وجمال الأحصنة الأصيلة. ولكن سلوكه اختلف عن سلوك الثيران العادية. ربما اكتشف الناس في زمن ما كما (فرانكلين داف) كائناً مماثلاً يمتلك خصائص تميزه عن أخيه ذي القرنين؟ وربما كانت هذه المخلوقات تحديداً بمثابة مصدر لنشوء الأساطير الأولى؟ أو أن كل شيء كان أكثر شفافية وكان سلف وحيد القرن كركدن عادي: هندي أو إفريقي؟ وربما كان وحيد القرن كائناً سحرياً وغامضاً. وإنتاج حصري للخيال البشري.

لغز "باتمان"

تجـول مـع صـاحبه دمـيتري نوفيكـوف علـى ضـفاف نهـر بـيكـين (في سيبيريا الشرقية) الذي يصب في أوسّور. وذات مـرة وكـان الوقت ليلاً، سمعا صـراخاً طـويلاً يـشبه بكـاء امـرأة. مـع العلـم أن مـصدر الـصوت لم يقـف في مكان واحد، وبينما كان يتحرك سمع الزعيق والعويل من هـذا المكـان تـارة ومـن مكـان آخـر تـارة أخـرى. وقـد اعـترف ديمـتري أنهمـا أحـسّا بخـوف يجمـد الدم.

بعـد ذلـك وفي فلاديفـستوك هـذه المـرة، سمعـا قـصة حـول "إنـسان طـائر"، يعتقـد أنـه يعـيش في أدغـال التايغـا في منطقـة أوسّـور في الجـزء الجنـوبي مـن المنطقة الساحلية (الساحل الغربي لبحر اليابان).

ترى ما هو هذا الكائن اللغز الذي يعيش في التايغا المتاخمة للبحـر؟ علمـاً أن هـذا الـسؤال قـد طـرح مـن قبـل الباحـث المعـروف مـن منطقـة أوسـور ف.ك أرسينيف وهـذا مـا كتبـه في أحـد كتبـه: "تثاقـل كلبي مـن خلفـي في مشيته. ورأيت على الطريق أثـر دب، يـذكـر بـأثر الإنـسان. اشـتد غيـظ الكلـب وراح يتذمر. وبعد ذلك قذف أحدهم نفسه جانبـاً محطمـاً الأغـصان. لاذ الكلـب بـي بقـوة. وفي هـذا الوقـت حـدث مـا لم أكـن أتوقعـه أبـداً. لقـد سمعـت ضـربات أجنحة. ومن بـين الـضباب ظهـر قنـاع مـا، كـبير وقـاتم وطـار فـوق النهـر. أظهـر الكلب رعباً واضحاً ولاذ بشدة بي. وخـلال ذلـك سمعـت صـرخات تـشبه عويل

امـرأة... في المـساء راح الأوديغيـون (سـكان المنطقـة) يناقـشون بحيويـة قـصة سكن إنسان يعيش في هذه الأماكن والذي يستطيع الطيران في الجو".

لا يمكـن لأحـد أن لا يـصدق شـهادة فلاديمـير كلافـديفيتش إلا إذا كـان مرتاباً. لقد كانت سمعة أرسينيف العلمية غالية عليه ولولا أنه متأكد لما كتب ما كتب.

علمـاً أن سـجل رئـيس جمعيـة الأجـسام الطـائرة مجهولـة الهويـة الكـسندر ريمبل احتوى وقائع مشابهة تتعلق بـ "الرجل الطـائر" ولها صلة بأيامنـا. فمـثلاً، يـثير الفـضول حـديث قـصاص الأثـر المعـروف بـن فـان شـان مـن فلاديفـستوك (مدينة في أقصى جنوب شـرق سيبيريا الروسـية). ذات مـرة تبعـه عويـل "نـسائي" لعدة دقائق. لم ير رجل التايغا الكـائن بذاتـه لكنـه ركـض أكثر مـن كيلـو مـتر في دروب التايغـا الـضيقة وهـو في حالـة يرثـى لهـا مـن الرعـب، ومنـذ ذلـك الوقت لم يعد إلى ذاك المكان. ربما يكون ما أخافه هو صوت طائر ما؟ كان بن فان شان ينزعج من هكذا أسئلة: إن حياته الطويلة في التايغـا أعطتـه قـدرة علـى تمييـز أي طـائر مـن خـلال صـوته. لقـد كـان هـذا شـيء آخـر.. كـائن لم يعرفه سابقاً.

يتحدث الصيادون عن هذا الكائن الذي يحتمل مشاهدته في منطقة جبال بيـدان واوبلاتـشنايا. (في شـرق سـيبيريا). وقـد سمعـوه غـير مـرة في الثلاثينيـات والأربعينيـات مـن القـرن العـشرين في هــذه المنــاطق. مـشهورة هــذه الواقعـة كـذلك:في عـام ١٩٤٤ عمـل سـتة جنـود وعلـى رأسـهم مـساعد في أرض قـرب ايكاتيرينوفكا (الجزء الجنوبي من المنطقـة الساحلية). وذات مـرة عـاد اثنـان منهم على عربة تحمل مواد من القرية. وقبل أن يصلا إلى مكـان العمل بثلاثة كيلـومترات رأى الجنـديان منطـاداً مـضيئاً ضـخماً يهبط باتجـاه الأرض. وعنـد هبوطـه سمعـا عـويلاً "نـسائياً" يقطـع القلـب. تـرك الـشابان العربـة وأسـرعا نحـو مكـان العمـل. وبعـد هـذه الحادثـة صـارا يخافـان الظلمـة كـثيراً وتحـدثا عـن

"إنسان طائر". كما ذكر الدكتور الكسندر رمبل حديث الصياد أ.ي. كورينتسوف. استيقظ الصياد في الليل فجأة بعد أن أحس أن أحداً ما يراقبه. وبطرف عينه رأى كيف أن شيئاً ما كبيراً وقاتماً يهبط بزاوية حادة نحو النار. وعندما استلقى على ظهره ليتفادى الاصطدام، شاهد الصياد كيف أن إنساناً طار فوقه وكاد يلمس الأرض. وقد تذكر كورينتسوف الأجنحة الغشائية الشبيهة بأجنحة الخفاش. وثب بسرعة عالية واختبأ خلف جذع أقرب شجرة ولم يخرج حتى الفجر. في الصباح تفحص كل شيء في المنطقة القريبة لكنه لم يكتشف أي أثر.

خوف أعظم عاشته أسرة إيفيانتسكي. فقد استيقظت الأسرة في وقت متأخر من الليل في القرية التي أقامت فيها على صرير عالٍ يشبه أغنية الصرصور. غير أن الصرصور صمت بسرعة. واكتشف رب الأسرة أن الصوت أتى من تحت السرير. ورأى تحته كائناً غير عادي انزوى على الجدار: ربما كان كلباً أو شيئاً ما آخر. حاول لمس الكائن ولكن لم تصل يده. بدأ آل ايفانيتسكي يقذفون أحذيتهم تحت السرير. تحرك الكلب وأطلق على نحو مفاجئ خرطوماً طويلاً جداً، حاول بواسطته الإمساك بأرجل صاحب العزبة. وهنا اضطرت العائلة المذعورة للدفاع وضربت الكائن بكل ما وقع تحت يدها، ونفث الأولاد نحوه ديكلوفوس (ثنائي كلور الفوسفات). انزوى الكائن وتدحرج إلى زاوية البيت البعيدة وهمد. وعندما سحبوه من تحت السرير وتفحصوه جيداً، رأوا شيئاً لا يعرفه أحد، يذكر من حيث حجمه بكلب صغير. إلا أنه يملك شعراً قصيراً سماوي اللون، وطرفين في كل منهما ثلاث أصابع وأجنحة متينة طولها حوالي متر ونصف. وتذكرنا من حيث الشكل بأجنحة الخفاش. كان بوز (وجه) الكائن شبيهاً بقناع صنع من الجبصين لوجه إنسان مستوي تقريباً وبجبين كبير خال من الصوف، بعينين ضخمتين جداً وفم دائري ليس له شفتان. وكان له ثقب مثلث بدلاً من الأنف.

وكان الكائن ميتاً فقاموا برميه في حفرة تركها البناءون. بعد ذلك تم ردم الحفرة.

ترى ماذا كان ذلك؟ ما الشيء الحقيقي في هذه القصة وماذا أضاف خيال الباحث؟ - يصعب علينا اليوم تحديد ذلك، لأن القصة قديمة ولا توجد أدلة مباشرة لدى الباحث حول ما حدث. أما المفاجأة الحقيقية فيمكن اعتبارها شهادة سياح مجموعة الكسندر لازاريوف، الذي توقف قرب جبل بيدان. لقد شاهد السياح إنساناً طائراً من الجبل على طائرة شراعية مثلثية الشكل. وقد شدت انتباههم البنية "المجنحة" الشراعية والطفل (هكذا بدا لهم)، الذي كان يوجه الطائرة. قرّبت كاميرة الفيديو الإنسان الطائر أكثر وفجأة رأى حاملها أن هذا لم يكن أبداً طائرة. وقد بقيت على شريط كاميرة الفيديو صورة "الوجه" غير العادي للكائن المجنح، الذي ربما يمثل خفاشاً بوجه إنسان تقريباً ولا يعرف العلم عنه شيئاً. في شتاء ذلك العام استراح أربعة صيادين من قرية تيغروفي قرب النار. تنامى إلى سمعهم ضجيج مخيف قرب البحيرة الصغيرة. أخذ المهتمون بالأمر سلاحاً وأضواء كاشفة، واصطحبوا كلاباً واتجهوا نحو البحيرة. مع اقترابهم من ضفاف البحيرة راحت الكلاب تعوي وتلوي ذيولها وتلوذ بالرجال (نتذكر الوصف لرد فعل الكلاب أثناء لقائها مع الكائن الطائر الذي ذكره فلاديمير أرسينيف). شاهد الرجال جسماً بشرياً قرب الشجرة بطول ١٠٥ م تقريباً. وعلى ضوء المصابيح الكاشفة شاهدوا كائناً بأعين حمراء - برتقالية ضخمة بأيدٍ أشبه بالأجنحة. لوَّح "الإنسان الطائر" بأجنحته وطار بين الأشجار. وإليكم دليلاً آخر، هو الأحدث:

قدِمت إينيسا غريغوريفا من مدينة خاباروفسك (الشرق الأقصى لروسيا) في نهاية عام ١٩٩٧ إلى قرية أنيسيوفكا للراحة. وبينما كانت تتجول في أطراف القرية لاحظت طائراً ضخماً يطير باتجاهها. حدَّقت محاولة تحديد ماهية هذا الكائن وجمدت في مكانها. وتقول إينيسا: "لقد رأيت رجلين

متدليتين نحو الأسفل، شبيهتين بأرجل البشر. انخفض الكائن ثم قام بدورة وطار مبتعداً. كانت الأجنحة ثابتة، وتحرك الكائن بهدوء ودون ضجيج. كان له وجه إنسان، وفي كل الأحوال فقد رأيت فماً وعينين كبيرتين".

إذاً ما ذا الذي عاش مئات السنين وربما أكثر، في التايغا القريبة من الساحل؟ هل هو حيوان من العصور الغابرة وقد بقي يتكاثر حتى أيامنا؟ أم أنه طفرة؟ كائن من كوكب آخر، يزور من وقت لآخر أحراش أوسّو؟ لربما سنعرف ذلك كله يوما ما...

وسننتقل الآن إلى مناطق أخرى.

من كييف (عاصمة أوكرانيا) أرسل نيكولاي بوتشكو صورة فريدة إلى محرر في جريدة. وكتب نيكولاي الكلمات التالية: "أرسلها لكم دون هدف محدد لأنه يصعب تصديق ذلك. وأنا بنفسي لم أكن لأصدق لو لم أرَ بأم عيني..". حدث ذلك في أب الماضي. لاحظ نيكولاي الذي يبلغ من العمر 32 عاماً "طائراً" غامضاً أثناء نزهته لجمع الفطور، وأحس كما قال آنفاً، بشيء من الدهشة فقرر ترقبه وأخذ آلة تصوير. وقد نجح بذلك. وحسب مشاهدات صاحب الصورة، فإن الطائر كان أشبه بـ "تمساح ذو أجنحة وذيل جرذ"، ويعيش (ربما لديه عش هناك؟) "في منطقة الأراضي السوداء"، في مكان ما في غور عميق جداً. لم يقرر بوتشكو البحث عن مسكن الوحش لأنه استطاع أن يرى أسناناً حادة في فمه، بالإضافة إلى أبعاده الملفتة للنظر، وحسب تقديرات نيكولاي فإن امتداد الجناحين حوالي ١,٥ م. وعموماً، "ليس له ريش ورائحته تشبه رائحة المياه الآسنة، وحسب ما أعرف فقد بدت البيتروداكتيل (وهي عضاءات صغيرة طائرة عاشت في العصر الطباشيري) على هذا النحو. ولذلك فكرت كثيراً قبل إرسال الصورة لكم لأن كل ذلك بدا غير حقيقي:فليس لدينا "العالم المفقود" وليس "حديقة العصر الجوراسي" - إذاً :من أين لنا في الغابة الأوكرانية هذه البيتروداكتيل؟".

والآن. إلى انكلترا.

لم يـره أحـد طيلـة ٢٠عامـاً. وهـا هـي الأخبـار عـن الإنـسان ـ البـوم تجتـاح الصحافة البريطانية من جديد...

قدم صياد الوحوش المشهور البريطاني طوني شيلي في كتبه وبعناية، كل ما سمعه من شهود عيان نصف مجانين حول لقاءات مع وحوش ما قبل التاريخ، على أنه حقيقة. لقد أرضـى شـيلي الانـدفاع الإنـساني الأبـدي نحـو كـل مـا هـو غامض ولم يحزن عندما نعته العلماء ـ الخبراء بالدجّال.

ولكـن في تلـك الأمـسية اللندنيـة المـاطرة، عنـدما تلفـن لـه شـخص مـن بريستون يـدعى دون ميللينـغ، أحـس طـوني للمـرة الأولى أنـه وقـع علـى شـيء مـا مختلف، شيء هو ثمرة خيال متّقد.

"أنا أعرف أنك تتصيد الوحوش لذلك قررت أن أحدثك بما جرى مـع ابـنتي جون وفيكي. لقد رأتا الإنسان ـ البوم"، باغت الغريب شيلي على نحو مفاجئ.

اختـار دون ميللينـغ قريـة مـاونن في مقاطعـة كورنـول القريبـة مـن المنطقـة الـساحلية، لقـضاء العطلـة وسـط الطبيعـة الرائعـة. لكنـه اضـطر للـهروب مـن هناك قبل ثلاث أيام من انتهاء الإجازة.

في نهايـة أسـبوع عيـد الفـصح، وعنـد المغيـب، راقبـت بنتـاه فيكـي ذات الأعوام التسعة وجون التي تكبرها بثلاث سنوات، راقبتـا خـائفتين، كيـف أن كائناً ضخماً مغطى بالريش من رأسه حتى قدميه، طار فوق جرس الكنيسة. لقـد كـان أشـبه مـا يكـون بطـائر فـظ يـشبه الإنـسان. لـوّح المخلـوق القبـيح بأجنحته وثبت في مكـان واحـد. ثـم راح ينتقـل بـدون ضـجة نحـو الغابـة. راقبـت الفتاتان الكائن حتى غاب عن الأعين.

"هل يمكنني التحدث إلى جون وفيكي؟ ـ سأل شيللي والد الفتيات.

"أرجو المعذرة، لكنهما مصابتان بصدمة نفسية مما حدث، والذكريات الجديدة ستكون ضارة لهما وصعبة الاحتمال. أنا أخاف على أطفالي، ولكن لدي صورة للإنسان ـ البومة. لقد رسمتها جون". بهذا الاقتراح ختم دون ميللينغ الذي كان يبدو خائفاً أكثر من بناته.

لم يعرف شيلي ماذا عليه أن يفعل. ومن كان قادراً على الطيران فوق كنيسة قرية نسيها الله وفي ليلة الفصح؟ كما أنه لا وجود لممارسي الطيران الشراعي في تلك المنطقة، تماماً كما هي حال الكائنات من العصور القديمة.

بعد فترة وجيزة صارت ترد من كورنول أخبار لا تقل غرابة. لقد كانت الأحداث أشبه بجنون عام. ربما ينتج ذلك عن الظواهر الطبيعية الغريبة، فلقد تبدلت فترة الصقيع هنا وعلى نحو مفاجئ بأمطار غزيرة تسببت بالفيضان، ومن ثم حل بها حر شديد وكأنك في إفريقيا...

امرأة مسكينة حوصرت في بيتها الخاص، الذي سكنه مئات الطيور المجنونة كما في روايات دين كونتس. لقد اصطدموا بالجدران بسرعة جنونية وقتلوا. وبعد الهجوم انغمر البيت بدم الطيور.

قاطنة أخرى من كورنول حاصرتها مجموعة من القطط المتوحشة. لقد جنت الحيوانات تماماً. انقضت الكلاب الأليفة على أصحابها، وفي البحر صارت الدلافين تغرق الناس الذين كانت تنقذهم عادة.

تحدث المزارعون عن قوة شيطانية حلّت في قطعانهم. وظهر لدى الحيوانات جنوح من نوع ما. عرض تصوّفي، تقوم فيه قطعان كاملة من الأبقار والأغنام خلال لحظة واحدة بالانتشار لمسافة تقدر بعشرات الكيلومترات، مترافقاً بزيارات كثيرة لأجسام طائرة مجهولة.

وفضلاً عن ذلك، فقد ظهر لدى الإنسان ـ البومة "أخ". فلقد دأب الثعبان البحري مورغاور الذي عاش في عصر ما قبل التاريخ على الخروج ليلاً إلى

سواحل كورنول. وقد أعلن عن قدومه بصوت كصوت البوق. وفي الصباح بقيت آثار أقدامه الضخمة. الاسم الآخر لمورغاور كان "وحش خليج فالموتسك" وحتى أنه تم إصدار منشور كرس لدراسة الظاهرة الغامضة التي لم تحل حتى الآن.

قرر شيلي التوجه شخصياً إلى القرية المجهولة حيث تسنى له التحدث مع شهود عيان لظهور الطائر المخيف.

عاشت سالي تشمين بنت الأعوام الأربعة عشر وباربارا بيري في معسكر في أطراف القرية على حدود الغابة. لم تصدقا شيئاً مما شاع عن الأرواح والشياطين. وقد استمرت فترة استجمامهما بشكل رائع حتى صادفتا الوحش المغطى بالريش.

"هل أنت الدكتور شيلي؟ لقد رأيناه، بهذه الكلمات توجهت سالي للغريب ودونما إبطاء راحت تصف الرعب الذي تعيشه. لقد بدا الطائر المتوحش كبومة كبيرة، وكان جسمه بحجم الإنسان، وأذناه حادتان. كانت عيناه حمراوين ولمعتا في الظلام. لقد ظننت في البداية أن أحداً ما ارتدى زياً تنكرياً وقررت أن أمزح معه لأخيفه. وكما تعلم فقد عرف الجميع هنا حول الإنسان ـ البومة الذي يعيش في هذه الأنحاء. في البداية سخرت أنا وباربارا عندما عثرنا على "فزاعة" ولكنها بدت لنا سخيفة. وفجأة أحسسنا بالذعر. لقد ارتفع في الهواء. وصرخنا. وعندما طار الكائن لاحظنا أرجل الإنسان ـ البومة. لقد كانت أشبه بالملاقط".

قاطعت باربارا سالي وأكملت وصف مشاهداتها:

إن له وجهاً قبيحاً ومرعباً كما البوم وأذناه كبيرتان وعيناه هائلتان.. وملاقط سوداء على أرجله".

لم يكن طوني ساذجاً. وقد فكر في البداية أن الفتاتين اتفقتا. ولعلهما أرادتا المزاح معه. لكنه سبق وعرف كذابين كثر في حياته ولذلك كان باستطاعته التمييز بين الحقيقة والتخيل.

وأياً كان ما حدث هناك، غير أن سالي وباربارا اصطدمتا بشيء ما غير عادي. لكن حتى الآن لم نتمكن من معرفته".

المتحولون

في الأساطير وفي الحقيقة

المتحول ـ واحد من الشخصيات المركزية في الخرافات القديمة. وقد مضى عليه آلاف السنين مع شخصيات السحرة، وحوريات الماء والخفافيش الماصة للدماء والأشباح، يوزع الرعب على الكبار والصغار في المدن الكبيرة والأماكن النائية.

كلمة "ليكانتروب" التي أخذ منها تسميته تعني حرفياً "الإنسان ـ الذئب" وهي من الكلمة الإغريقية **Likantropia**. وبعض القواميس تعرف هذه الكلمة على النحو التالي "الساحرات المتحولات إلى ذئاب".

لقد كان موضوع الإنسان الذئب شائعاً في الإرث الشفهي وفي الأرشيف العالمي كله. في فرنسا، عرف باسم لو ـ غارو، وفي أجزاء أخرى من أوروبا باسم فرفولف، أو فرمان، فولكودلاك أو فولكولوك في بنسلفانيا، وبولتينيك في بلغاريا.

وبدءاً من روموول وريم فإن القصص حول الذئب، الإنسان ـ الوحش والمتحول ذاته استفزت خيال كتاب مثل جان ـ جاك روسو، كارل ليني وجوناثان سميث. لقد أنتج الكتاب العباقرة سلسلة كاملة من المؤلفات الرائعة

حول المتحولين. إلا أن شهرة المتحول تقل كثيراً عن أخيه الخفاش الكبير أو الغول المصاص. والمتحول أكثر غموضاً وأكثر تنوعاً من الغول المصاص. وكل ما وصف به من أوصاف خرافية يمكن الآن نزعها بسهولة عنه، ولكن في الأزمان الغابرة كان هناك بالفعل مرض قد يصيب قرىً بكاملها محولاً الناس إلى وحوش غاضبة، وقد امتلك هؤلاء المرضى جميع أعراض الليكانتروب. ومعروف أنه تمت في أوروبا في القرن الرابع عشر، وبعد حفلات تهتكية دموية، ملاحقة هؤلاء المساكين المتهمين بالشيطنة وتسميمهم بواسطة الكلاب ليموتوا بالمئات.

إن الاهتمام بظاهرة التحول لا ينتهي. وقد عبَّر عنها في القرن العشرين من خلال عدد كبير من الأفلام مثل:"الإنسان الذئب" (١٩٤١)، "فرانكشتسن يقابل الإنسان ـ الذئب" (١٩٥٦)، "لقد كنت متحولاً ـ مراهقاً" (١٩٥٧)، "متحول في غرفة الفتيات" (١٩٦١) ـ وهذا ليس إلا جزءاً صغيراً من قائمة أفلام أشير إليها في "دليل الأفلام الخيالية" لـ وولت لي. ومن المحتمل أن لون لي الأصغر هو المتحول الأشهر في السينما، حيث أن عملية التحول لديه أخذت أكثر من ست ساعات من التحضير الأولي في غرفة المكياج، وزمناً أكثر لعملية التحول ذاتها. وقد كانت نماذج المتحولين متنوعة جداً، فمنها ما كان نتاجاً فنياً، محبباً أحياناً، ومنها ما كان متعطشاً للدماء مخيفاً.

إن الأدب المعاصر والصحافة يظهران تناولاً أكثر عمقاً لموضوع المتحول ويدرسانه بشكل أكثر شمولية.

فمثلاً، في ١٧ كانون الأول من عام ١٩٧٦، خرجت ال "ديلي ميل (البريد الأسبوعي)"، اللندنية بمقالة عنوانها:"الشرطة تقول:لقد قبضنا على قاتل ـ متحول"، وتتحدث المقالة عن تفاصيل القبض على مجرم نفذ عدداً كبيراً من جرائم القتل، وكان معروفاً باسم "المتحول الباريسي". وفي نهاية الحرب العالمية الثانية شكل النازيون تنظيماً إرهابياً، قام أعضاؤه بأعمال رهيبة تحت

اسم مستعار "فِرفولف" (المتحول). وعندما تطلق كلمة "متحول" على المجرمين فإنها تمثل استعارة أخلاقية حيث يتناول الحديث جرائم وحشية لا إنسانية ولا تخضع لمنطق الجريمة مثل تعدد الجرائم، والاغتصاب، وأكل لحوم البشر، والتعذيب والأبلسة. وما يثير السخرية في هذا التقرير أن الذئب نفسه (إذا لم يكن جائعاً أو جريحاً) لا يقتل ولا يهاجم. وحسب دراسة حديثة فإن علاقات قوية أساسها الثقة تقوم في قطيع الذئاب، ويعتمد مجتمع الذئاب على المسؤولية المتبادلة وإذا ما ظهرت لدى أحد الأعضاء أعراض القتلة فإنه تتم تصفيته من أجل مصلحة القطيع بالكامل.

إن المتحولين "الحقيقيين" في مجتمعنا المعاصر هم أولئك الذين يظهرون كمرضى في مستوصفات الأمراض النفسية وفي الطقوس الرسمية للهنود الحمر في أمريكا. ويتحدث الأطباء حول الناس (من كلا الجنسين) الذين يحسون بأنفسهم متحولين كما يتحدثون عن الليكانتروب. مع أن الاختلاف الأصلي صغير بين كلمتي "متحول" و"الليكانتروب" (المتحول من اللاتينية: الإنسان ـ الذئب؛ والليكانتروب ـ من الإغريقية **lykanthropos**: إنسان ذئبي)، إلا أنهما تختلفان من حيث الاستخدام: فكلمة "ليكانتروب" هي بمثابة مصطلح طبي مهني للدلالة على الحالة المرضية. أما كلمة "متحول" فهي ليست كلمة طبية، وتستخدم في الكتب الأدبية والأفلام ولوصف المجرمين.

أمامنا طريق طويلة عبر القرون وبمختلف الجهات. ولكن بدايةً، سنسمح لأنفسنا بذكر قصة ستثير لدى القارئ الهلع والدهشة؛ وستساعد على فهم كيف أن كل هذه الصوفية استطاعت البقاء في أيامنا هذه.

في نهاية القرن السادس عشر عاش في أوفرن سيد غني اسمه سانروس. كان مرفهاً، حيث استخدم خدماً وقد حالفه التوفيق في الزواج. امتدت أملاك سانروس على جبل. لقد استمتع الإقطاعي وجميع من عاش في قصره بالسفوح

الخضراء والجداول السريعة والغابة الرائعة والجبال البعيدة التي بدت من بين الدخان المائل للزرقة.

ذات مرة، وفي منتصف يوم ربيعي مبكر من عام ١٥٨٠ كان سانروس يجلس قرب النافذة عندما أخبره الخادم الذي دخل للتو عن وصول السيد فيرول. لقد كان المسيو فيرول صياداً مشهوراً في الناحية، في الوقت الذي اعتبرت أورفن مكاناً رائعاً للصيد. فلقد عجت الأنهار النظيفة بالسمك، والغابة امتلأت بالطيور والغزلان والدببة. دخل فيرول ليدعو صديقه لمشاركته في مطاردة غزال. رفض سانروس الدعوة بكل أسف، فلقد كان ينتظر محاميه الذي حان وقت وصوله لمناقشة بعض الأعمال. ذهب فيرول وحده.

حضر المحامي كما الاتفاق، ولأكثر من ساعة ناقشا القضايا المتعلقة بالإقطاعية، حتى أن سانروس نسي دعوة صديقه. وبعد أن ودع المحامي وتناول العشاء تذكر فجأة دعوة النهار.

لم تكن لدى سانروس أعمال مستعجلة أخرى، كما أن زوجته لم تكن في البيت، وكي لا يمل في وحدته قرر الذهاب للقاء صديقه. هبط بسرعة عبر الطريق الجبلية الضيقة المؤدية إلى الوادي، ولاحظ بعد بضع دقائق جسم صديقه على السطح المقابل وقد أصبح وردياً بأشعة شمس آخر اليوم. وكلما اقترب أكثر من صديقه، أصبح رؤية علامات القلق على صديقه أوضح.

عندما التقيا في المنخفض الضيق بين السفحين، شاهد الإقطاعي أن ثوب فيرول ممزق ومغطى بالقذارة والبقع الشبيهة ببقع الدم. أحس فيرول بالضغط وبالكاد تنفس، ولذلك أجل صديقه الأسئلة وكل ما فعله هو أنه أخذ الطعوم ومحفظة الفرائس من الصياد. مشى الأصدقاء صامتين لبعض الوقت.

وبعد أن استجمع أنفاسه حدث فيرول صديقه سانروس عن الحادثة المزعجة التي حصلت له في الغابة. وها كم ما حدث:

كان على الصياد أن يسير طويلاً في الغابة قبل أن يرى في مكان قريب مجموعة من الغزلان. ولم تنجح محاولاته للاقتراب منها للقيام بالرماية. وفي نهاية المطاف، وبينما كان يتعقبها دخل في أجمة وأحس أنه سيحتاج وقتاً طويلاً للعودة.

وعندما استدار ليعود إلى البيت سمع فيرول فجأة حمحمة مزعجة، انطلقت من الغور الرطب الذي ارتفعت نباتاته بطول قامة الرجل. تحرك ببطء ودون أن تغمض عيناه عن ذلك المكان، وخطوة تلو أخرى، كان قد قطع حوالي 50 متراً عندما خرج ذئب ضخم من الغور وانقض مباشرة عليه. تحضر فيرول للرمي لكنه تراجع فلقد علقت قدمه بأحد الجذور ولم تُصِب الطلقة الهدف. انقض الذئب بجنون على الصياد محاولاً الإمساك بحنجرته.

ولحسن الحظ، تمتع فيرول بردة فعل جيدة، فضرب الذئب بكعب البندقية وأوقعه على الأرض. لكن الذئب وثب من جديد ودون تأخير تقريباً. ونجح فيرول بالتقاط خنجر الصياد وخطا بشجاعة نحو الذئب الذي تحضَّر للقفز. والتحما بمعركة حياة أو موت. غير أن استراحة لا تزيد عن ثانية وكذلك الخبرة ساعدتا الصياد، فلقد نجح بلف المعطف على يده اليسرى وأدخلها في فم الوحش. وفي الوقت الذي كان يحاول فيه الوحش الوصول إلى يد الصياد بأنيابه الحادة، وجّه فيرول ضربات عدة بالخنجر محاولاً قطع حنجرة الحيوان. لقد كان خنجر فيرول بشفرته العريضة الحادة كشفرة الحلاقة ويده الضخمة أشبه ببلطة صغيرة.

سقط الإنسان والوحش على الأرض وفي منازلة رهيبة تدحرجا على الأوراق. وفي لحظة ما وجدا نفسيهما على الأرض قرب شجرة مكسورة، أمسك الذئب الذي كان ينظر إلى الصياد بغضب وبعينين مليئتين بالدم، أمسك بساق الشجرة. في تلك اللحظة قام فيرول بضرب يد الذئب بخنجره وقص بشفرته الحادة شرايينها وأعصابها وقطع عظمها. عوى الذئب وتألم بشدة وأفلت من

الصياد وولى هارباً وهو يعرج. جلس فيرول المغطى بدم الوحش، منهكاً غير قادر على الحركة. لقد اكتشف أن المعطف ممزق إلى قطع ولكنه تنفس الصعداء عندما اكتشف أن يده، وبفضل المعطف، لم تتأثر إلا ببعض الخدوش السطحية. قام الصياد بحشو البندقية وكان ينوي البحث عن الوحش المجروح وقتله، لكنه قرر بعد ذلك أن الوقت تأخر، وأنه إذا لم يعد فوراً فإنه سيضطر للوصول إلى بيت صديقه في الظلام.

يمكن أن نتصور حالة القلق التي كان فيها سانروس وهو يستمع لهذه القصة التفصيلية، ويقطع حديث صديقه بعبارات الاستغراب والخوف. تجوّل الأصدقاء ببطء، ودخلا أخيراً في حديقة سانروس. أشار فيرول إلى كيسه. وقال:"لقد أحضرت رجل الوحش معي، ولذلك بإمكانك التأكد من صدق قصتي".

انحنى على الكيس وظهره نحو صديقه، بحيث لم يستطع سانروس رؤية ما يُخرج صديقه، فوراً صرخ الصياد بضيق شديد وأوقع شيئاً ما على العشب. وقد ارتعب سانروس من صفرة الموت التي غطت وجه صديقه الصياد.

"وهمس فيرول: لا أفهم شيئاً، أنا على يقين من أنها كانت يد ذئب!" انحنى سانروس وأصابه الرعب أيضاً: لقد كانت على العشب كف إنسان قطعت للتو. وازداد رعباً عندما لاحظ على الأصابع الميتة المزينة عدداً من المحابس. كان أحدها مصنوعاً بمهارة على شكل لولب ومحلى بحجر سماوي، لقد عرفه. إنه محبس زوجته.

ترك سانروس صديقه فيرول المصدوم ولف الكف بالمنديل واتجه مثعتراً نحو البيت. كانت زوجته قد عادت. ولقد أخبره الخادم أنها تستريح، وأنها طلبت عدم إزعاجها. دخل إلى غرفة نوم زوجته ليكتشف أنها مستلقية في السرير نصف مغمى عليها. لقد كانت علائم الموت على وجهها. وقد شوهد

الدم على الشراشف. تم استدعاء الطبيب واستطاع إنقاذ حياة السيدة سانروس بمعالجة الجرح:لقد تبين أن كفها مقطوع من الرسغ.

قضى سانروس عدة أسابيع يتعذب قبل أن يقرر التحدث إلى زوجته عن هذه القصة. وفي نهاية المطاف اعترفت الزوجة المسكينة أنها متحولة. ويبدو أن سانروس لم يكن زوجاً جيداً جداً ، لأنه ذهب إلى السلطات ووشى بزوجته. وبدأ التحقيق، وبعد التعذيب اعترفت المرأة بأعمالها الشريرة. وبعد وقت قصير أحرقت السيدة سانروس ولم يعد أحد من المتحولين يهدد أوفرن. لقد احتفظت غالبية المصادر حول تلك الأوقات بهذه القصة بشكل أو بآخر. وعلى وجه التحديد ، فإن هذه القصة تعتبر تصويراً أكثر وضوحاً لظاهرة مخيفة. وقد حان الآن تسمية الأشياء بمسمياتها وتسليط الضوء على هذه القصة اللغز.

لقد كان المتحول وأفعاله الشنيعة معروفين في زمن تأسيس روما. وقد كان الناس يخافون هذا الكائن في اليونان القديمة. ولكن، وكما هي حال قصص الغول المصاص. فلقد كان ظهور المتحولين أكثر في أوروبا الشرقية ، حيث أن مجرد ذكر الفولكدلاك (الذئب المتحول) كان كافياً ليصبح وجه الفلاح أصفر ويتلفت حوله.

فرنسا ، عانت أيضاً من لو ـ غارو ، وتحوي الأساطير الشعبية قصصاً كثيرة حول صيد الإنسان ـ الوحش، الذي عاش في الجبال. ومن الطبيعي تماماً أن تنتشر هذه الأساطير على نحو أوسع في المناطق الريفية والجبلية مثل أوفيرن ويورا ، حيث أن الذئاب لطالما تسببت بمشاكل للرعاة. وألمانيا عانت كذلك من هذه البلية. أما عن انتشارها شمالاً ، فبالرغم من أن انكلترا لم تتأثر على ما يبدو كثيراً بأفعال المتحولين، إلا أن ما تناقله التراث الشعبي يفيد بأن المتحولين عاشوا في ايرلندا.

وخلافاً للغول المصاص، الذي كان يخرج من القبور ليمتص دماء الناس الأحياء، لا يعتبر المتحول من القادمين من "ذاك" العالم. وهو يعتبر ظاهرة أرضية صرفة. ويبدو أن تحول الإنسان إلى متحول نتج عن مرض ما كان يمكن أن يصيب أي شخص. وكانت الإصابة حتمية لمن تعرض لهجمة متحول، إلا أن الأعراض الرهيبة كان يمكن أن تظهر على الإنسان حتى عندما يجلس في مأمن في بيته ولا يفعل أي شيء يجعله مستحقاً لهذا المصير. وبهذا بالتحديد ارتبط الخوف الرهيب والعذاب الجماعي الذي شمل كثيراً من الناس في العصور الوسطى، عندما كانوا يحرقون ويعدمون الأشخاص الذين يشكون بأنهم متحولون. لقد واجه الناس الأشخاص الذين بدت عليهم علائم المتحولين بغضب شديد وحاكموهم وعذبوهم بشكل بدائي وهستيري عام. إن الإنسان الذي ينتابه الخوف على نحو رهيب يسهل أن يبدو شبيهاً بالذئب الذي يملك أسناناً حادة، ووجهاً نحيفاً طولانياً ويصبح عرضة لشك الآخرين وإخضاعه للمحاكمة.

وكان الخوف يبلغ ذروته في فترة اكتمال البدر، حيث اعتبروا أن المصيبة غالباً ما حدثت في هذا الوقت. لقد اكتشف "المصابون بالعدوى عن طريق القمر" أن أجسامهم تغيرت بشكل قبيح وبشع وبدأوا يشبهون الذئب ويتصرفون كتصرف هذه الوحوش. وبعد تعرضهم لهذه التحولات كانوا يخرجون ويشردون في الليل ويقتلون أي شخص يصادفونه في طريقهم. ومن المحتمل تماماً أنهم مثلوا مصيبة رهيبة. ولكي يتحول الإنسان إلى مصاص دماء يجب أن يتعرض لهجوم من مصاص دماء آخر. إلا أن الإنسان الذئب يمكن أن يعدي أي شخص وبشكل مفاجىء، وليس منه مخلص لا الثوم، ولا المظهر الخارجي ولا حمل الصليب على الصدر..

ويذكر الرواة القدامى أن الإنسان - الذئب الحقيقي لا يتغير فيزيائياً فقط، بأن يصبح بشكله شبيهاً بالوحش، بل أن عقله وسلوكه يتأثران أيضاً.

إنه يحس بنفسه وحشاً فقط. وخلافاً لمصاص الدماء لا يقتصر على الأعمال الليلية، واللقاء معه يهدد بمصيبة حتى في اليوم المشمس. إلا أن لضوء القمر خطورة خاصة. ويخاطر الإنسان أكثر ما يكون عند اكتمال البدر.

لقد كان الشكل الخارجي للإنسان ـ المصاب بالعدوى يتغير بسرعة كبيرة. وقد ترافق بدء ذلك بقشعريرة ورجفان تحول بعد ذلك إلى ما يشبه الحمى. وقد أحس المريض بألم في الرأس وانتابه العطش الشديد. وبدأت يداه بالتورم، ثم بالاستطالة، ثم تغير جلد الوجه والأطراف كما هي الحال عند مرضى الجذام.

التعرق وصعوبة التنفس غالباً ما رافقت التحول الذي اتخذ بعد ذلك شكلاً معيناً. ثم يبدأ الحذاء بإعاقة الأرجل وتقوم الضحية برميه، وتتشوه أصابع الأرجل وتتحول إلى ما يشبه الكلابات. وعي الضحية بدوره تغير:ينتاب المصاب إحساس بعدم الراحة والضيق في البيت والرغبة في الخروج.

وبعد ذلك ومع مظاهر التقيؤ والتشنج يفقد المصاب الحكمة ويبدأ إحساس بالحر والضيق، ولا يعود اللسان مطواعاً وبدلاً من الحديث البشري يطلق الكائن تمتمات حلقية غير مفهومة. وعندما تبدأ هذه المرحلة كان الإنسان ـ الوحش يرمي ثيابه ويسير على أربعة، ويسود جسده ثم يتغطى بصوف كثيف. ويقسو باطن القدم، ولقد كان بإمكان الإنسان ـ الوحش العاري الركض على الصخور الحادة والأشواك بشكل لا يمكن لإنسان عادي بجلد حساس القيام به.

وينبت شعر الرأس بحيث بدا الإنسان وكأنه يرتدي قناع حيوان. بعد ذلك، وخاصة في ليلة اكتمال البدر، كانت تغمر الإنسان ـ الوحش رغبة وتعطش للدم وتسيطر على جميع الأحاسيس الأخرى. لقد كان يركض في

الليل ويعوي على البدر وخلال ذلك كان يقتل كل من يصادفه في طريقه إنساناً كان أو حيواناً.

لقد كان يقتل كما جميع الوحوش المفترسة، عن طريق عض شرايين الرقبة. وبعد أن يشبع تعطشه للدم كان الإنسان الوحش يسقط في الغابة على الأرض وينام. ومع بزوغ شمس الصباح يعود إلى هيئته الإنسانية من جديد. جرائم قتل في الليل، وندم في النهار ـ هكذا كان المصير الرهيب للمتحول القاتل.

لقد كان الإنسان الوحش يحس دائماً كيف كانت تبدأ هذه التغيرات، ولكن ذلك كان يحدث بسرعة كان على المريض أن يتخذ معها تدابير خاصة لتجنب الفضيحة. فالمرضى الذين امتلكوا بيوتاً واسعة اختفوا في الغرف السرية حتى يعودوا إلى طبيعتهم. أما الآخرون فكانوا إذا ما بدأت الحالة نهاراً، يركضون نحو الغابات وهناك يزمجرون ويتجولون ويقومون بعض وخرمشة سيقان الأشجار ويعد ذلك يعانون من الآلام العقلية تماماً كما الآلام الجسدية.

لقد كانت حظوظ الإنسان ـ الوحش بالشفاء قليلة. لقد كان مقدراً له التيه في كل ليلة، ريثما يتمكن كائن آخر أكثر قوة منه. من القضاء عليه أو أن تضع رصاصة فضية نهاية لعذاباته. والحقيقة أنه كان بالإمكان قتل الإنسان الوحش بالطرق العادية خلافاً للخفاش ـ المصاص، ولكن اعتبرت الرصاصة المصنوعة من الفضة الوسيلة الأكثر فعالية والتي ستقتل الوحش حتماً. وكان هذا الرأي منتشراً على نحو واسع في بعض مناطق أوروبا حتى القرن الثامن عشر تماماً كما الرأي القائل بأن المتحول يحمل معه دائماً ذيل الذئب السمين الخاص به. لقد افترض الناس أن هذه الخاصة الفيزيائية تبقى مع الإنسان ـ الوحش، وقد علم الأطباء بوجودها خلال الفحوصات.

وكان هناك رأي مفاده أننا إذا أخفينا أو أحرقنا ملابس المتحول المحتمل فإنه لن يستطيع استعادة شكله البشري. كانت هذه الخرافة منتشرة بشكل خاص في أوروبا الشرقية وروسيا.

في بلدان كثيرة اعتبرت المياه المقدسة إكسيراً مضاداً للهجوم. وقد صدق الناس أن الماء المسكوب على المشتبه به بالإنسان الوحش فإنها عملياً تحرق الصوف وتطهر الضحية.

إن الحالة التي ظهر فيها المشتبه به بالإصابة بمرض الإنسان الوحش كانت في ذات الوقت رهيبة. هذه المصيبة شكلت جملة من المشاكل الأخلاقية والدينية في قرن كان للكنيسة دور هام في كل أعمال الإنسان اليومية.

وإذا عرفت السلطات بوجود إنسان ـ وحش فإن قدراً رهيباً كان ينتظره. إن أعظم ما كان بمقدوره تمنيه هو موت سريع وسهل، وقلما كانت تتم تلبية رغبة الضحية. جرت العادة على نقل المتحولين إلى محكمة عامة مرافقة بالتعذيب، ثم يرسلونهم إلى إعدام رهيب، غالباً ما كان حرقاً.

فضلاً عن أنهم كانوا يبحثون عن دلائل إدانة المتحول بأساليب قاسية جداً. وقد تعرفنا على إحدى هذه الحوادث في قصة السيدة سانروس. وفي أغلب الأحيان كان يتم تتبع الإنسان الوحش بواسطة أثر الدم الذي كان يقود إلى الإنسان أو في حالة عدم ترك الوحش المجروح لأي أثر، فإن الناس كانوا يبحثون عن إنسان مجروح أو متضرر في نفس المنطقة التي جرح فيها الذئب.

كان هناك أسلوب آخر "لا يخطىء" ويساعد في كشف المتحول. فخلال التحول إلى ذئب كان التعطش المتزايد للدم يتصل لدى المسكين برغبة عارمة بتمزيق ثيابه وخلال قيامه بذلك كان يجرح نفسه، ويتضرر جلده، وعندما يصبح ذئباً يركض في الغابة. ولذلك فإن المتعقبين الذين كان بينهم أقارب

يحملون شيئاً من الرغبة بالانتقام من الضحايا كانوا يقتحمون بيت المشتبه به ويجبرونه على خلع ملابسه، وتصبح الآثار واضحة على الجلد الذي هو جلد إنسان الآن...

أسلوب آخر أكثر قسوة للتعرف على المتحول كان يطبق من قبل أصحاب العقائد وقد انتشر على نحو واسع في كل من ألمانيا وفرنسا وأوروبا الشرقية، ويعتقد هؤلاء أن المتحول يستطيع تغيير جلده ببساطة وذلك بمجرد قلبه على الجهة الأخرى، أي أنه إذا ما ظهر في الهيئة البشرية فإنه يستطيع قلب جلده وتبديله إلى الفرو. من الصعب تصديق ذلك، غير أن كثيراً من الناس تم تقطيعهم إلى أجزاء من قبل "الباحثين عن الحقيقة" الذين حاولوا قلب الجلد إلى "جهة الفرو".

إن الإنسان عنيد بطبيعته، وهو يعتقد بما يريد أن يعتقد، والقضاة المفتشون الذين لم يقفوا أمام سفك الدماء وكانوا يأملون بالحصول على أدلة دامغة حول معركتهم المقدسة مع قوى الظلام. وإذا ما أخذنا بالحسبان الزمن والظروف فإنه يمكن فهمهم، وبنفس الوقت تصعب مسامحتهم.

ولا أحد يعرف عدد الناس الذين تم شنقهم وحرقهم بعد اتهامهم بمرض التحول إلى إنسان وحش، لكن الكتابات القديمة تشير إلى أن العدد كان كبيراً. ولابد أن غالبية هؤلاء الناس كانوا أطهاراً أمام الرب والبشر.

وليس مستغرباً أن تبحث تلك الضحايا في هذا الوضع المحزن عن "العدالة"، محاولة بشتى الحيل النجاة من الموت.

وسنكشف فيما يلي بعض الأساليب الأساسية التي جربها الناس ـ الذئاب لإخفاء مصيبتهم.

في أوقات اكتمال البدر، وهو الوقت الذي كان يظهر المرض لدى الإنسان الوحش على أشده، كان يحبس نفسه في غرفة ويرمي المفتاح في

مكان مظلم، وعندما تنتهي فترة تأثير المرض كان يضطر للبحث عن وسيلة للخروج من الغرفة المقفولة. مرضى آخرون أعدوا أحزمة خاصة ربطوا بها أنفسهم إلى السرير. وغالباً ما أعد المتحولون ملاجىء لأنفسهم في البيت، في مكان ما سريّ، يمكن حتى أن يكون تحت السقف لكي لا يسمع أحد الضجة. أما النوافذ، فقد سعى المتحولون إلى إغلاقها بشبك من الحديد، ووضعوا ترباساً على الأبواب. وقد استخدمت أقفال خاصة لا يستطيع الوحش فتحها، وينجح بذلك الإنسان.

غير أن جميع هذه التدابير المعدة بدقة لم تفعل شيئاً سوى أنها أخرت الفضيحة الحتمية. والمصيبة الرئيسية "للذئاب" المسكينة كانت في عدم توفر وسائط طبية مضادة لهذا المرض.

حمل المتحولون معهم مصيبة أخرى إضافية. لقد اعتبر الناس أن المتحول الحقيقي يمكن أن يتحول فيزيائياً إلى ذئب حقيقي. وتتحدث الأساطير الفرنسية والإسبانية، والإيطالية أنه غالباً ما كان يتهم فلاح بسيط بأعمال الوحش.

وبذات الوقت، تقول الأساطير القديمة إنه إلى جانب "المتحولين الضحايا" وجد متحولون "حسب الرغبة". حيث أشبع هؤلاء رغبتهم بأن يكونوا قُساة. وقد صدق بعض الناس أنه لتحول الإنسان إلى وحش يمكن استخدام الأعشاب بفعالية، وفي الفترة الممتدة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر قاموا لمرات عديدة بعجن الذين حاولوا التحول إلى ذئاب بسليق (بطبيخ) عجيب.

تجادل الفلاسفة والعلماء الآخرون على مدى مئات السنين حول ما إذا وجد المتحولون بالفعل؟ وقد افترضوا من حيث المبدأ، إمكانية الإصابة بأمراض نفسية، تجعل المرضى يحسون بأنفسهم وكأنهم وحوش. ووقف علماء

كثيرون لهم سمعتهم إلى جانب الرأي القائل بعدم إمكانية وجود إنسان ـ وحش حقيقي.

وخلال الحديث عن المتحول الحقيقي، القادر على التحول إلى ذئب بمساعدة السحر أو أية قوى أخرى. أعلن رهبان الدومينيكان جيمس شبرينغر وغنريخ كرامر بشكل قطعي:"هذا مستحيل". ولقد أكدا أنه بإمكان الساحر بمساعدة بعض التعويذات والعقاقير أن يجبر الناظر له على تخيل أنه تحول إلى ذئب أو حيوان آخر، غير أنه لا يستطيع تحويل الإنسان فيزيائياً إلى وحش.

ومع ذلك، فإن ظاهرة الإنسان ـ الوحش كمرض يجبر الإنسان على التفكير بأنه تحول إلى وحش وأنه يجب عليه التصرف وفقاً لذلك، معروفة منذ عصور بعيدة.

ومنذ عام ١٢٥ قبل الميلاد كتب الشاعر الروماني مارسيل سيديت عن الإنسان ـ الوحش، مشيراً إلى أن الإنسان المصاب يعاني من هوسٍ مترافق مع شهية رهيبة وعدوانية الذئاب. وحسب أقوال سيديت فإن الناس يتعرضون لهذا الهوس بشكل قوي خاصة في شباط حيث تكون درجة انتشار المرض عالية ويمكن ملاحظته في أكثر الحالات حدة.

يبتعد المصابون بتأثير الهوس بعد ذلك إلى مقابر بعيدة ويعيشون هناك تماماً كما الذئاب العدوانية الجائعة. لقد اعتبروا أن المتحول هو إنسان عدواني حولته الآلهة إلى وحش كعقوبة له. في العصور الوسطى، وخاصة في أوروبا الوسطى والشرقية، تولد رأي حول أن المتحولين يصبحون بنتيجة المكائد الشريرة سحرة ومشعوذين، وبنتيجة الخرافة استخدمت في حالات كثيرة عمليات مبتكرة، كان يعتقد أنها قادرة على دفع السحر.

في الأساطير الإغريقية، يمكن كذلك إيجاد العديد من الملاحظات حول الذئاب وتحول الناس إلى وحوش. فمثلاً، في إحدى الأساطير يذكر أنه في اركاديا يحول الناس أنفسهم إلى ذئاب خلال طقوس خاصة. تم عزل الراغبين بالتحول إلى ذئاب إلى مستنقعات نائية، حيث نزعوا هناك ألبستهم وعبروا من خلال المستنقع إلى جزيرة خاصة. وعلى الجزيرة استقبل الواصلون الجدد من قبل أناس ـ ذئاب مثلهم وعاشوا بينهم.

في أوروبا تعمم في العصور الوسطى نموذج المتحول على حيوانات أخرى: فلقد صدق الناس أن الإنسان قادر على التحول إلى دب، وخنزير، أو حتى خروف، مع أنه يصعب تصور أن الخروف كان بمقدوره إخافة "فريسته"! وتبقى هذه العقيدة حتى أيامنا هذه. ولقد تسبب القصص التي وصلت إلينا من الماضي بكثير من الجدال بين علماء الحيوان والمؤرخين.

ويصدق كثيرون في أيامنا هذه بقدرة تحول الإنسان إلى ذئب، وهم منتشرون في نورماندا وبريطانيا؛ وفي بريطانيا تقول الحكايا التراثية أن الإنسان يحمل ليلاً جلد الذئب مما يسمح له ببعض خصائص الوحش وبعد ذلك يتحول إلى ذئب تماماً. إلا أن هذه الأساطير أبقت للمتحول فرصة للنجاة:لقد اعتبروا أنه إذا جرحنا المصاب بمرض الإنسان ـ الوحش قرب رأس أنفه لإخراج ثلاث قطرات من الدم فإن الوسوسة تتلاشى. أما في النرويج فقد كانوا يعتقدون أن الأشخاص يصابون بمرض التحول لانفصالهم عن الكنيسة.

في منطقة كوت ـ دي أر (فرنسا) حملت الأساطير عن المتحولين تفصيلاً غريباً:لقد اعتبروا أن بإمكان الإنسان أن يصبح متحولاً لفترة معينة وهي عادة سبعة أو عشرة أعوام. لكن من أين أخذت هذه الأرقام؟ وعلى الأرجح لن نعرف ذلك يوماً.

إن الجزء الأكبر من القصص المتعلقة بالإنسان ـ الوحش هي من أصل فرنسي أو ألماني. ولكن توجد مجموعة من الروايات التي تحدثت عن المتحولين وعن الليكوريكسي (وهي حالة الإنسان الذي يبدأ فجأة بتصور نفسه ذئباً، وتصبح له شهية الذئب إضافة إلى الأعراض الأخرى) موجودة في بلدان أخرى مثل النمسا أو روسيا. إلا أن الأساطير المتعلقة بالمتحولين لدى الشعوب السلافية متداخلة مع الأساطير الخاصة بمصاصي الدماء (الخفافيش الماصة).

لقد اصطدمت شعوب كثيرة وفي مختلف الأوقات مع مرض الإنسان ـ الوحش. ويعرف العالم مجموعة كبيرة من الأساطير التي تحدثت عن ذلك. ولكن، ومع أن هذه الأساطير قد نشأت في أوقات مختلفة، وفي مناطق مختلفة، إلا أنها متشابهة بشكل مدهش وتختلف عن بعضها أحياناً ببعض التفاصيل البسيطة جداً.

مصاصو الدماء

بين الحقيقة والأسطورة

دراكولا. يرتبط هذا الاسم لدى ملايين الناس بالشخصية الأسطورية لمصاص دماء من بلاد ترانسلفانيا الغامضة والكئيبة، حيث كان يتظاهر بالموت في النهار وينطلق للصيد في الليل. فيقوم بالقتل، ناشراً الرعب بين الناس، بدءاً من عام ١٨٩٧م. وفي هذا العام بالتحديد أصبح الشخصية الفاعلة الرئيسية، التي حازت على نجاح باهر في رواية رعب ل بريم ستوكر.

غير أن ما لا يعرفه الجميع أن اسم شخصية ستوكر الخالدة مأخوذ من دراكولا حقيقي عاش في ترانسلفانيا قبل أربعة قرون. ومع أن ذاك الدراكولا لم يكن يوماً مصاص دماء بالمعنى المباشر للكلمة، إلا أنه حاز شهرة مشكوكاً بها باعتباره طاغية دموياً، صارت قسوته مثالاً واضحاً للسادية.

لقد ولد دراكولا الحقيقي عام ١٤٣٠ أو ١٤٣١م في مدينة سيفيشوارا القديمة في ترانسلفانيا، وكان الابن الثاني ل فلاد الثاني أمير فالاخيا. وقد أصبح اسمه فلاد الثالث بعد أن ورث سلطة والده، مع أنه عرف أكثر باسم فلاد شيبش، أي الذي كان يجلس الناس على الأوتاد. لقد كان اسم والده دراكول "الشيطان"، وربما اكتسب هذا الاسم كونه مقاتلاً جسوراً، أو لأنه كان عضواً في الطائفة الأرثوذكسية التي شعارها التنين، والتنين في تلك

المناطق، كان مرادفاً للشيطان، وفي مطلق الأحوال، فقد أعلن فلاد الثالث نفسه دراكولا بن دراكولا.

لقد كان دراكولا محارباً شجاعاً، ولكن يصعب أحياناً فهم الجهة التي كان يحارب لصالحها في هذه المعركة أو تلك بين الحكومات الشرقية والغربية، والثقافات المختلطة في إمبراطوريته. لقد كان يميل إلى الأتراك أحياناً، وأحياناً أخرى إلى الهنغاريين.

وقد تحول من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وحارب تحت راية الإسلام إلى جانب العثمانيين. ولم يقف على قدميه بتاتاً في الفوضى السياسية لذلك العصر. فقد فالاخيا ثلاث مرات واستعادها من جديد (وهي جزء من رومانيا الجنوبية التي كانت تضم منطقة ترانسلفانيا). لقد ظهر للمرة الأولى على عرش فالاخيا في عام ١٤٤٨، وقد أجلسه عليه الأتراك، بعد أن سقط أبوه وأخوه الأكبر على أيدي جواسيس مجريين، لكنه ما لبث أن هرب خوفاً من الأتراك، ثم عاد ليجلس على عرشه في العام ١٤٥٦ ولكن هذه المرة بمساندة المجريين. وقد تميزت السنوات الست لحكمه بالقسوة وفي ذلك الوقت كان تعذيب وقتل الخصوم السياسيين عملاً عادياً، وقد بقي القرنان الرابع عشر والخامس عشر في التاريخ بمثابة قرون الوحشية والإجرام غير المعهود. غير أن فلاد، الذي أصبح فيما بعد مثالاً لإيفان غروزني (قيصر روسي قتل ابنه بيده) تجاوز كل درجات الوحشية التي اتسمت بها تلك السنوات. وعدد ضحاياه لم يكن ليحصى. وحسب إحدى الأساطير فإنه استجر مجموعة تركية كان عليه أن يجري معها مفاوضات سلمية، إلى كمين. فقام بدعوتهم إلى مدينة تيرغوفيشتي، ومزق ثيابهم وأجلسهم على أوتاد ثم أحرقهم أحياءً.

وعلى مر العصور سيبقى دراكولا مرادفاً لمصاص الدماء بالمعنى المجازي لهذه الكلمة. ولكن ماذا عن المعنى الحرفي؟

الفلاح الصربي بيتر بلوغويفتش توفي عام ١٧٢٥ وتم وضعه في تابوت في قريته الأم كيزيلوفا. وبعد ذلك بأقل من شهرين توفي فلاحون آخرون - شباب وكهول - خلال أسبوع. وقد أعلنوا جميعاً قبل موتهم أن بلوغويفتس ظهر لهم في الحلم، وجلس عليهم وامتص منهم دماً. زوجته، أو أرملته إن صح التعبير، صبت الزيت على النار عندما أعلمت الجيران في حديث ثقة،أن زوجها السابق ظهر لها ليأخذ حذاءه. وبعد ذلك هربت من قرية كيزيلوفا لتعيش في قرية أخرى.

في ذلك الوقت، كان هذا الجزء من صربيا محكوم من قبل إمبراطور النمسا، وقد أغرق الموظفون البيروقراطيون الأرض الصربية مشكلين مظهراً للعمل الدؤوب. وقد توجّه أحد هؤلاء "الشخصيات" إلى كيزيلوفا للتواجد خلال كشف قبر بلوغويفتس وليشهد على التحولات الغامضة.

لم تكن لدى المفتش الإمبراطوري في منطقة غراديش رغبة بالقيام بالعمل اللاإنساني، غير أن السكان أصروا على ذلك. وقد أعلنوا أنه إذا لم يسمح لهم بتفحص الجسم الشرير فإنهم سيتركون القرية قبل أن تدمرهم الروح الحاقدة (الشريرة) جميعاً. وبذلك اضطر الموظف البيروقراطي ورجل الدين للمشاركة في الكشف على ضريح بلوغويفتش والشهادة بمايلي: "إن الجثمان المتحطم جزئياً باستثناء الأنف، ما يزال طرياً. وما يزال الشعر واللحية ينموان وكذلك الأظافر؛ أما الجلد القديم فقد انفصل عن الجسم. وظهر جلد جديد تحته. وقد أثار دهشتي اكتشاف دم على فمه، وحسب المشاهدات فإنه لابد أن يكون دم المواطنين المقتولين.."

هذه التفاصيل، التي كانت شاهداً على أن الجثمان لم يتعرض للتفسخ "برهنت" أنه جثمان مصاص دماء. قام الفلاحون الخائفون بقص وتد خشبي بسرعة ودقوه في قلب بلوغويفتس مباشرة، وقد سال الدم الطازج خلال ذلك من صدره ورقبته وفمه. وتم حرق الجثة ونثر الرماد في الهواء.

لقد قدّر لبلوغويفتس العيش في زمن شاعت فيه الأساطير والخرافات حول مصاصي الدماء في أوروبا الشرقية. وفي القرنين السابع والثامن عشر صدقوا هنا في كل مكان أن الموتى يكتسبون أرواحاً خالدة ويهاجمون الأحياء وليس بالإمكان التخلص منهم إلا بطرق محددة. إلا أن التصور حول هذه الكائنات البشعة وتعطشها المخيف للدم لم يكن متماثلاً في مختلف مناطق أوروبا.

لقد بدأ ذلك قبل أن يعيش بلوغويفتش بزمن بعيد، وقد استمر لقرون. حتى أنه في عام ١٩١٢ كان أحد المزارعين المجريين على قناعة أن الفتى ذا الأربعة عشر ربيعاً الميت يزوره في الليل. وإذا صدقنا خبر الجريدة البريطانية "ديلي تلغراف"، وهو أن الفلاح المذعور وأصدقاءه نبشوا جثة المسكين ووضعوا في فمه ثلاثة فصوص (أسنان) من الثوم وثلاث حصوات، ثم ثبتوه على الأرض بدق وتد في قلبه مباشرة. وقد أخبروا الشرطة بفعلتهم لكي يوقفوا الزيارات الليلية وإلى الأبد.

هذه المخاوف تتزاحم في الوقت الحالي في العقل الباطني للناس. وهذا ما يفسر الظهور المتكرر لمصاصي الدماء على صفحات الكتب المعاصرة وفي الأفلام.يعيش فيهم عنصر الشهوة غير المحققة، فهم يأتون تحت جنح الظلام ليغرسوا أسنانهم في رقاب ضحاياهم المشلولين بالخوف والشهوة..

ولكن وبصرف النظر عن شخصية الدوق دراكولا، الذي ولده الخيال الفني للكاتب الروائي بريم ستوكر، والذي أصبح نموذجاً لكثير من المخرجين السينمائيين الذين شغفوا بموضوع مصاصي الدماء، لا يخرج جميع مصاصي الدماء من التوابيت ويتحولون إلى خفافيش ليطيروا من مكان إلى آخر. (من المحتمل أن شكل الخفاش هو من اختراع ستوكر نفسه. لقد ورد في التراث أن مصاصي الدماء قبل ستوكر، تحولوا إلى مختلف أنواع الحيوانات باستثناء الخفافيش!) يوجد بشر أحياء يعتبرون أنفسهم مصاصي دماء ويعذبون ويقتلون ضحايا أبرياء ويحتفلون بولائم الدفن الدموية. وفي مطلق الأحوال،

لقد سيطرت فكرة مصاص الدماء بأي شكل على العقول طيلة قرون من الزمن.

ومع انتشار المسيحية في أوروبا، تكاثرت القصص حول مصاصي الدماء.

وصف كتاب "مطرقة الساحرات"، الذي طبع لأول مرة عام ١٤٨١، عمليات اكتشاف ومعاقبة مصاصي الدماء والكائنات غير الطبيعية الأخرى. لقد تم ودونما شفقة وأد وإعدام مصاصي الدماء. وقد ملأت هذه القصص التراث الشعبي لمختلف شعوب العالم طيلة مئات السنين. إلا أن الأخبار عن مصاصي الدماء بالصورة التي نتخيلها اليوم ظهرت لأول مرة في القرن السادس عشر في أوروبا الشرقية في منطقة هنغاريا ورومانيا. في عام ١٥٢٦ انتصر السلطان التركي سليمان الكبير على الملك الهنغاري في المعركة. وتم تقسيم هنغاريا إلى ثلاثة أقسام: حكم أحدها الأتراك، وكان القسم الآخر من نصيب الهابسبورغيين، أما الجزء الثالث فكان ترانسلفانيا المستقلة وقد أديرت من قبل مماليك صغيرة. وتحديداً في هذه المناطق النائية نمت على نحو واسع الخرافات المرتبطة بمصاصي الدماء.

ترانسفانيا ـ هي الأرض التي حدثت عليها معارك دموية وقد بنت عِليَةُ القوم قصوراً مظلمة على السفوح المنبسطة لجبال الكاربات، وقد اعتبرت دائماً مكاناً غامضاً. وقد عاش في الجبال المغطاة بالأشجار فلاحون متدينون جداً، وقد اعتقدوا بشكل قدسي أن الروح يمكن أن تنفصل عن الجسد خلال حياة الإنسان وتتجول في العالم متجسدة بطائر أو أي حيوان آخر. ويصف ستوكر في "دراكولا" بشكل مرئي هذه الحالة: "يتكون سكان ترانسلفانيا من أربع قوميات: السكسونيون في الجنوب والرومان المختلطين معهم، والذين هم ورثة الداك؛ والماديار في الغرب والشيكيل في الغرب والشمال. وقد قرأت في مكان ما أن أعمق الخرافات تنشأ في سفوح جبال الكاربات كما في مركز دوامة الماء..

لقد كانت الحياة في مركز هذه الدوامة جحيماً حقيقياً لفلاحي ترانسلفانيا، والذين ارتبطوا بحصصهم من الأرض. لقد كانت الأوبئة التي تضرب هنا تنتشر كالبرق في المنطقة كلها وتفرغ مدناً كاملة من سكانها. وقد ساهمت هذه الأحداث الرهيبة بتقوية الاعتقاد بوجود مصاصي الدماء. حيث ألقوا عليهم مسؤولية أي حادث وفاة بين السكان.

وبسبب عجزهم أمام الأوبئة قام السكان بدفن الموتى بعد الموت فوراً، وللأسف فلقد حدث أن تم دفن بعضهم قبل أن يموتوا فعلياً. ولقد استيقظ الضحايا المساكين في قبورهم وحاولوا دون جدوى الخروج منها. ويحدث أن ينبش السكان أو اللصوص هذه القبور خوفاً من أن يكون الموتى مصاصي دماء، فيكتشفون بشكل مرعب الجثث التي حاول أصحابها الخروج من أسر القبر.

وبمعرفة مستوى تعليم هؤلاء الناس لا يصعب توقع الرعب الذي كان يحيط بهم عندما يكشفون القبر ويرون الدم تحت الأظافر أو في فم الجثة المفتوح لآخر صرخة. وقد أصبح واضحاً أنه تم نبش مصاص دماء آخر. أما إذا تم فتح التابوت في الوقت المناسب، كما يقال، حيث يعطي الجسم علامات الحياة، فإن جميع المؤشرات تدل على أن الميت مصاص دماء، وعندها يبادرون بغرس وتد في صدره ينهي جميع عذابات المسكين.

لقد ساد اعتقاد أن الإنسان غزير الدم يمكن أن يصبح ضحية لمصاصي الدماء بشكل أسرع ويتحول إلى مصاص دماء، لأن العضة تسبب التحول (كما في حالة الكلاب المسعورة)، غير أن الفلكلور الأوروبي يحتفظ بأساطير حول أن بعض الناس أظهروا ميلاً أكبر من غيرهم تجاه مصاصي الدماء. وقد اتسمت علاقة المجتمع بأولئك الذين عاشوا "في الحضيض" بالشك، وتحديداً، بأنهم عائدون من القبور. وشكوا كذلك بالمواليد ذوي الشعر الأحمر، الذين ظهروا إلى الدنيا في عيد الميلاد، وعموماً بجميع الذين

ولدوا في ظروف غير عادية، أو على سبيل المثال، ذوي الشفة العليا المشقوقة (شفة الأرنب)، وذوي العاهات في أطرافهم، وكذلك بالذين تميزوا بسلوك مختلف عمّا هو متعارف عليه.

في اليونان، حيث يسود اللون الأسود للعينين، اعتبر ذوو العيون الزرقاء مصاصي دماء. وكان الأشخاص الذين يقدمون على الانتحار هم أول المرشحين للبعث كمصاصي دماء لأن الكنيسة طردتهم منها.

لقد دفن قدامى الإغريق موتاهم واضعين قطعة نقدية في فمهم. لقد أعاقت دخول الأرواح الشريرة إليهم عبر الفم. وفي القرن التاسع عشر أعاق الإغريق على نحو مشابه دخول فريكولكاس، وثبتوا على فم الميت صليباً من الشمع.

ودفن الهنغاريون والرومان الجثث مع مناجل قرب أعناقهم، فإذا ما أرادت الجثة النهوض من القبر تقطع رأسها بذاتها. بعض السكان الأكثر حماساً وضع كذلك منجلاً قرب القلب وذلك من أجل الذين لم يتزوجوا أبداً ولذلك تعرضوا لخطر التحول إلى مصاصي دماء. وقام الفنلنديون مثلاً بربط أطراف الجثة أو دقوا أوتاداً في القبر لتثبيت الجثة إلى الأرض.

لقد حاول الناس أحياناً مكافحة مصاصي الدماء بطرق ولادية تماماً. فقاموا في أوروبا الشرقية مثلاً، بتعليق نباتات العجرم والعِضّة على النوافذ والأبواب. وقد اعتبر نبات العضّة من الشوكيات وقد زين إكليل السيد المسيح، وعندما يقترب مصاص الدماء يصطدم بأشواكه ولا يتابع طريقه. بذور البروس كذلك، وحسب الأسطورة، يجب أن تستحوذ على انتباه مصاص الدماء الذي نهض من القبر، وسينشغل بجمعها من حول القبر وينسى ضحيته.

لقد اعتبروا أن لمصاصي الدماء رائحة بغيضة، وفي ذات الوقت لا يمكنهم تحمل الروائح القوية، مثل رائحة الثوم مثلاً، ولذلك غالباً ما أنزلوا رؤوس الثوم في القبر وعلقوا بعضاً منها على رقبة الميت. وكما هو حال الأرواح الشريرة فلقد

خاف مصاصو الدماء المصنوعات الفضية وصورة الصليب، الذي علقوه على الأبواب والبوابات لعدم السماح بدخول الأرواح التي لا تموت. وقد نام الناس محتفظين بمواد حادة تحت وسائدهم. وقد وصل الأمر ببعضهم بسبب الخوف من الزيارات الليلية لمصاصي الدماء إلى تعليق فضلات بشرية على ثيابهم وحتى أنهم وضعوها على صدورهم.

وإذا كان قد تم دفن الجثامين لسبب أو آخر بشكل غير صحيح أو تبين أن الحرز غير ذي فائدة، فإن الأحياء بحثوا عن المذنبين الذين تجاوزوا حاجز الموت وعادوا إلى الوراء وقتلوهم. في بعض المعتقدات صدّق الناس أن الفرس لا تعبر عن قبر مصاصي الدماء. ولهذه العملية قاموا باختيار فرس بلون واحد أبيض أو أسود وقادها شاب عازب.

في صربيا، اعتبروا أن قبوراً مبعثرة منذ القدم هي قبور مصاصي الدماء. وقام متصيدو مصاصي الدماء بالعبث بجثامين كثيرة وتفحصوها على أنها تخص مصاصي الدماء وفقاً لدرجة تفسخها. وبصرف النظر عن طريقة كشفها، فإن وسائط قتل مصاصي الدماء كانت متنوعة جداً. ولم تقتصر على الوتد الخشبي، بل تجاوزتها إلى الحرق، وقطع الرأس أو كل ذلك مجتمعاً. في بلدان أوروبا الشرقية قام الناس قديماً بنبش قبر المشتبه به أنه مصاص دماء وملؤوه بالتبن ثم قاموا بغرس الجثة بالوتد ثم حرقوا ذلك كله بالنار. وغالباً ما كانوا يقطعون رأس الجثة مستخدمين رفش حفار القبور نفسه. بعد ذلك يضعون الرأس قرب أقدام الميت أو حوضه، ولكي يطمئنوا أكثر يجعلون بينه وبين الجثة مسنداً من التراب. وقد قام البلغار والصرب بقطع الأقدام ووضعوا الأظافر خلف الرأس.

عندما كان الوتد يخترق الجثة، غالباً ما كان الحاضرون يسمعون أصواتاً تشبه الشخير، وكذلك خروج دم قاتم. وقد كان سبب الأصوات في الغالب هو خروج ما بقي من الهواء في الرئتين، ولكن الحاضرين فسروا ذلك

كدليل على أن الجسد ما زال حياً وأنه يخص مصاص دماء. إن انبعاث الروائح من التابوت وآثار الدم في الفم والأنف تعتبر اليوم علامات عادية على تفسخ الجثة بعد شهر تقريباً من الموت، وفي هذا الوقت تقريباً كانت غالبية الجثث تتعرض للنبش للكشف عن مصاصي الدم.

لقد بلغ الاعتقاد بانبعاث الموتى درجة من القوة وتجذرت أساطير رهيبة في ذاكرة الناس مما جعل أكثر العقول ثقافة في ذاك الوقت يكتبون قصصاً محددة.

كتب كارل ـ فريناند دي شارو كتاباً "سحر بوسخوم"، وقد صدر في تشيكيا عام ١٧٠٦. لقد بحث دي شارو قضية مصاصي الدماء من وجهة نظر رجل حقوقي واقترح وسائط قانونية للصراع مع الكائنات الغامضة. ولقد استنتج أن القانون يسمح بإحراق الجثث.

وقائع كثيرة حول مصاصي الدماء في ذلك الوقت جمعها دوم اوغوستين كالمي (كالمت)، وهو راهب فرنسي أصدر في عام ١٧٤٦ كتاباً تحت تسمية "أطروحة حول ظهور الملائكة، والشياطين والأشباح، وكذلك حول مصاصي الدم في هنغاريا، وبوهيميا، ومورافيا وسيليزيا". وظهر الإصدار الانكليزي بعد ١٣ عاماً وقد لاقى رد فعل واسعاً لأنه كان قد تشبع بالروح المسيحية. (نورد فيمايلي مقاطع مترجمة من النسخة الروسية للكتاب).

كالمي الذي سعى لحل السؤال حول مصاصي الدماء نظر لقضية حقيقة هذه الظاهرة بالمسؤولية المطلوبة.

"يتهمني الناس الذين يصدقون بوجود مصاصي الدماء بالعجلة واختراع الاستنتاجات وأنني عبرت عن الشك أو أنني سخرت من حقيقة وجود مصاصي الدماء؛ ويعلن آخرون بأنني أهدر الوقت دون جدوى على أمور تافهة. ولكن كي

لا يفكروا بذلك فإنني سأشتغل بهذا الموضوع الذي يعتبر عندي هاماً من وجهة النظر الدينية".

لقد حاول دوم كالمي تفسير أكثر النواحي غموضاً في ظاهرة مصاصي الدماء، مثل: **هل يمكن للجثة أن تغادر التابوت الذي دفن تحت التراب بسماكة متر ونصف حتى مترين؟ أو أنه يوجد في الجسم نفسه روح شريرة تغادر الجثة؟ ما الذي يكسب الجثة قوة شيطانية؟ ولماذا تكون الجثث طرية بهذا الشكل؟.**

كشف كالمي قصة عن جندي كان يتوقف في إحدى الأملاك على الحدود الهنغارية، وكان يجلس عادة على الطاولة يتناول الغداء مع أصحاب المكان. وذات مرة جلس معهم رجل ما لم يره الجندي سابقاً وأخافهم لدرجة كبيرة وخاصة صاحب البيت. لم يعرف الجندي ما الذي عليه فعله.

في اليوم التالي مات صاحب المكان، وعندما تساءل الجندي عمّا حدث أخبروه أن الشخص الغريب هو والد صاحب البيت، وقد مات قبل أكثر من عشر سنوات، وقد حمل هذه المرة لابنه خبر موته القريب. لقد كان واضحاً أن الأب كان مصاص دماء. عندما أبلغ الجندي قائده بهذه القصة، وكان اسم القائد الدوق كابريرسكي، أمر بالتحقيق بالحادثة. وبصحبة طبيب جراح وطبيب شرعي وبعض الضباط قام بزيارة ذلك البيت واستمع من سكانه لنفس القصة حول الأب. قام أهل البلدة بنبش جثمانه "وكان طرياً كما لو أنه دفن للتو، وكان دمه ساخناً". أمر الدوق بقطع رأسه وحرق جثمانه. قامت اللجنة بدراسة رفات مصاصي دماء آخرين، بما فيهم شخص دفن منذ أكثر من 30 عاماً مضت. وقد تعرضت جميعها للطقوس نفسها.

وبعد أن جمع المعلومات التي حصل عليها، بما في ذلك شهادة الدوق كابريرسكي، توصل كالمي إلى التقرير التالي: "إن الأحوال المذكورة في

التقرير فريدة وهامة وموثقة لدرجة لا يمكن إلا أن تصدق ذلك". لكنه عبر كذلك عن شيء من الشك حيث افترض أن الدفن المتسرع للشخص المغمى عليه أو المنوم مغناطيسياً أو الشلل يمكن كذلك أن يتسبب بهكذا نتائج مدهشة. وقد وصف حرق الجثث على هذا النحو بأنه خاطئ ومسيء، وعجب لأمر السلطات كيف أنها تسمح بذلك.

وبعد أكثر من مئة عام من لفت دوم أغوستين كالمي الانتباه إلى أن مصاصي الدماء يمكن أن يخرجوا من القبور، قرر الفرنسي الأكاديمي أدولف دي أسيي أن أجسام مصاصي الدماء مليئة بمادة سائلة مسؤولة عن وظائف عديدة". وفي كتابه حول الأشباح الصادر عام ١٨٨٧ كتب أسيي أن طيف مصاص الدماء يصبح لصاً ليلياً برغبة صاحبه.

"إن صراع الوجود يستمر في القبور بنفس العنف والقسوة التي تحدث بين الناس الأحياء". ولقد أكد دي أسيي أن الدم الذي يمتصه الطيف يصب في الأعضاء قبل حدوث التحلل ويؤمن بذلك ليونة الجلد والأعضاء واللون الأحمر للأنسجة الرقيقة.

"لا يمكن إنهاء دورة الموت إلا بنبش الجثة وحرقها".

كرّس المحقق الانكليزي مونتيفيو سامرس جزءاً كبيراً من حياته لدراسة "الأشياء الفظيعة التي تحدث في قاع الحضارة"، بما في ذلك ظاهرة مصاصي الدماء.

ويعتبر سامرس أفضل أخصائي بحث في هذا الموضوع حتى الآن بفضل كتابيه:"مصاص الدماء وأقرباؤه"، و"مصاص دماء في أوروبا".

ومن حيث الجوهر، فإن عمل سامرس يمثل دراسة لأي نوع من التحول. واهتمامه بظاهرة مصاصي الدماء وكذلك الإنسان ـ الذئب وقضايا السحر كان كبيراً لدرجة أنه ترك الكنيسة الانكليزية التي كان من أتباعها

وأصبح كاثوليكياً. وقد احتاج إلى السحر القاسي للطقوس الكاثوليكية لطرد القوى الشيطانية. وحيث أن سامرس كان ذا سمعة طيبة في أدب عصر النهضة فإنه حاز على احترام الزملاء بصرف النظر عن عادته ارتداء ثياب غريبة وأحذية قديمة من القرن السابع عشر. وقد ذكر شعره الملفوف بالباروكة. وقد حمل بيده دائماً عكازة (بسطاراً) من عظم الفيل بقبضة من الفضة تظهر عليها صورة لزيوس على شكل بجعة تسرق ليدا الجميلة.

ولد سامرس في العاشر من نيسان عام ١٨٨٠، في أسرة متدينة في مدينة كليفتون في ضاحية بريسدل الواقعة جنوب غرب انكلترا. وقد تعرف على أدب القرنين السادس والسابع عشر في المكتبة الرائعة في تلسفوردهاوس. وخلال دراسته في كلية كليفتون قرأ كثيراً عن الصوفية وصار يهتم بالكاثوليكية بالرغم من أن أسرته كانت بروتستانتيه. وفي عام ١٨٩٩ أنهى كلية ترينيتي في أكسفورد، التي لقب فيها بالمزاجي بسبب طبيعته العصبية. وتابع الدراسة في كلية ليتشفيلد لعلوم اللاهوت، تمت ترقيته إلى شمّاس عام ١٩٠٨ واستلم أبرشية في بيتون وهي إحدى ضواحي بريستول، لكنه لم يعمل هناك طويلاً لأنه تورط بعلاقات جنسية مع خدم الكنيسة الآخرين.

بعد مغادرة بيتون، كرس سامرس نفسه بشكل تام لدراسة الجوانب المظلمة من الوعي. وخاصة ظاهرة مصاصي الدماء؛ وفي عام ١٩٠٩ تحول إلى الكاثوليكية. وقد سمى نفسه ألفا جوزيف ماريا أوغست مونتيفا سامرس وقد افتتح بيته مكاناً خاصاً للتعبد. وقد استغرب قراء كتبه "السحر وعلوم الشيطان"، عندما عرفوا أن المؤلف يؤمن بالشيطان باعتباره أكبر فاعل للشر، بما في ذلك السحر ويصدق جميع خرافات العصور الوسطى. قام سامرس بترجمة وإصدار العديد من الأعمال المبكرة التي كان لها علاقة بالسحر، وقد تمت مصادرة كتابين منها من قبل الشرطة. وقد اتهموا مؤلفها بالسلوك الفاحش (القذر). وفي عام ١٩٣٤ صدر أمر بحرق جميع كتبه.

ومـع أن مـستوى كتبـه كـان طبيعيـاً دائمـاً إلا أنهـم صـاروا يتهمونـه بالاشـتراك في قـداس أسـود في عـام ١٩١٣، وقـد مكـث طـويلاً في فرنـسا وايطاليـا "بـسبب حالتـه الـصحية" إلا أن الـسلطات اعتبرت أن سـامرس يمـارس هناك العمل بالغيبيات وإمكانية إخضاعها للسيطرة البشرية.

وحتـى مـات في عـام ١٩٤٨ عـاش سـامرس بهـدوء وسـلام في مختلـف المـدن الانكليزيـة، يكتـب ويجمـع مكتبـة ضـمت كـل مـا هـو غريـب وغـير قابـل للتفـسير. في اكـسفورد حيـث عمـل لـبعض الوقـت في مكتبـة بولـديان سمّـاه السكان المحليون بالدكتور فاوست. وفي اكسفورد تهامس النـاس أن سـامرس تتزه مع سكرتيره، أو السكرتير مع الكلب، أو سامرس والكلب، ولكن لم يحدث أن تجول الثلاثة معاً، وهذا ليس بدون سبب. إنـه الـسحر أو شـيء مـا آخـر يـشبهه.. وفي الواقـع كانـت حيـاة مونتيغنـو سـامرس خليطـاً عجيبـاً مـن الإيمـان الحار بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وولعه وميله إلى القوى الشيطانية.

لقد خلص سامرس اعتماداً على دراسات مطولة إلى أن ليس كل ما كتب عـن مـصاصي الـدماء كـان تقليـدياً. وقـد احتفظـت المـدونات التاريخيـة القائمـة، كمـا في صـحف العـصر الجديـد، بمعلومـات حـول بـشر معاصـرين يـصبحون مـصاصي دمـاء بـسبب الانجـذاب الـشديد نحـو اللحـم والـدم البـشريين. وقـد أدرج سـامرس في هـذه الفئـة مـن مـصاصي الـدماء الفتـاة الفرنـسية ذات الـ 14 عامـاً، التي أحبت شرب الدم من الجرح النازف للمجرم الإيطالي غاتيانو مامّوني، الـذي اعتاد على وضع شـفتيه علـى جـروح سـجنائه المـساكين"، وكـذلك أكلـة لحـوم البشر من جميع الشعوب وفي كل الأزمان. وتشمل هذه الفئـة أيضاً أولئـك الـذين يعانون من رغبة مماثلة نحو الجثث وليس نحو البشر الأحياء.

"ويقول سـامرس، إن ظـاهرة مـصاصي الـدماء، هـي عمومـاً تـشويه للجثـث ولا توجد جريمة أكثر منها بشاعة".

وهذا يخص على حد سواء مصاصي الدماء الأحياء وأولئك الذين ينبشون الجثث التي يشكون بأنها تخص مصاصي دماء.

والسؤال هنا، ما الذي يحدث في أيامنا هذه؟

وإذا فرضنا أنه يوجد بين مصاصي الدماء اليوم تسلسل هرمي كما هو الحال بين الناس العاديين فإنه يمكن مقارنة كين برسلي فقط مع الدوق دراكولا. وبعد أن أجرت السيدة برسلي مقابلة مع مؤلف كتاب "يوجد شيء ما في الدم" الذي أحدث ضجيجاً في الولايات المتحدة، لم يعد مسموحاً لها التحرك حتى في شوارع مدينتها الأم إلباسو، الواقعة في تكساس، وفضلاً عن ذلك تردها أكوام من الرسائل من صحفيي الأرجنتين وفنزويلا والمكسيك وفرنسا وانكلترا واستراليا، يتوسلون مصاصة الدماء أن تتحدث إليهم. وما يثير اهتمام الصحفيين نحو برسلي هو ما ذكر في الكتاب من معطيات تفيد بأنه يعيش اليوم في أمريكا حوالي ثمانية آلاف من مصاصي الدماء.

لم أتوقع بشكل من الأشكال أن أصبح نجمة أحياناً، وفزاعة أحياناً أخرى"، هذا ما جاء على لسان السيدة برسلي ذات الـ ٣٨ عاماً، والتي مضى على إعلانها مصاصة دماء أكثر من ٣٠ عاماً. وتضيف السيدة: "يهتم الجميع تقريباً بالأسئلة ذاتها: هل أنام يا ترى في تابوت، وهل يوجد لدي أنياب". وبالرغم من أنه ليس لديها أنياب ولم يكن يوماً، فإن كثيرين يعتقدون بوجود شيء ما في مظهرها الخارجي يخص "مصاصي الدماء"، مثل وجهها الرقيق المتقع، المحاط بالشعر الأسود. ويستكمل مظهر مصاص الدماء اللباس الأسود وأحمر الشفاه ذي اللون الأحمر الدموي.

وحسب قول السيدة برسلي، فإنها تحتاج يومياً "حاجتها للهواء" كأساً أو اثنين من الدم. وهي تؤمن حاجتها على النحو التالي: تقوم بعرض نفسها على الرجال وتمارس معهم الجنس لقاء دمهم، أو تذهب إلى المزرعة المحلية وتحصل

على بعض الدم البقري. ولسنوات عديدة خجلت السيدة برسلي من شهوتها للدم ولم تفصح عنها إلا للمقربين. إلا أن احد ندمائها لم يستطع ضبط نفسه وأصبح السر في حوزة جميع معارفها. بعض الناس أعرضوا عن برسلي، وفي الوقت نفسه نظر كثيرون إلى هذا الأمر بهدوء تام.

وبالرغم من الهرج الذي أثير حول بريسلي إلا أنها لم تتهرب من الجمهور وكانت تقول: "أريد أن أوضح للناس، أننا لسنا قتلة إطلاقاً، وببساطة نحن نتعطش للدم". وحسب قولها: فإنها تقوم في وقت "تناول الطعام" بجرح بسيط ليد "المانح" من الجهة الداخلية وتمص الدماء بحذر شديد كي لا تمزق الوريد. وتؤكد بريسلي: "إن هذا أكثر متعة من الجنس وأكثر حميمية. ليس لي فحسب، إذ أن الناس الذين يقدمون لي دمهم يتعلقون بي بشدة".

بين الرسائل التي تسلمتها مصاصة الدماء توجد اقتراحات من مانحين متطوعين. وفي الوقت ذاته هناك قسم كبير من الرسائل يأتي من أناس حاقدين. وعلى سبيل المثال، فقد توعد أحدهم من أوهايو بالحضور إليها وغرس الوتد في قلبها كما يجب. وقد أجابته بحلم قائلة: "جرِّب".

وقد أعلنت الشرطة الاتحادية بول مرّي أوتا واحداً من أكثر المجرمين الأمريكيين خطراً: فلقد قام بـ ٣٨ هجوماً على فتيات شابات ومص منهم الدماء. ويقول عميل الشرطة جون ستوكن: أنا أفهم أن هذا يذكر بأفلام الرعب، ولكن للأسف، فإن الخطر الذي يمثله حقيقي تماماً. مريوت، الوحش المرعب الذي لا يمكن لشيء إيقافه فيما يخص تعطشه للدم. وقد أصبح سكان الولاية ضحايا لهجومه. ولكن لا يملك أي منا معلومات حول مكان توضع الوحش".

وحسب معطيات الأخصائيين، فإن ميريوت مصاب بمرض جيني نادر يتسبب له بالتعطش للدم البشري وهذا حسب أي تعريف طبي يجعله مصاص

دماء. وقد تسنى للشرطة الفدرالية استيضاح أن المجرم كان يقول لضحاياه إنه من جورجيا وينام في تابوت. وقد قام بأول جريمة في كانون الثاني من عام ١٩٩٤ في نيويورك. ومنذ ذلك الوقت راح يتجول في كل البلاد، ويهاجم الفتيات بين الحين والآخر. في أيلول تم اعتقاله جراء التجاوز المتكرر لحدود السرعة في مدينة ألبام، إلا أنه هرب من الحراسة بعد عدة ساعات. ولم يره أحد بعد ذلك.

ومن التقرير الذي شكله خلال الحجز معروف أن عمر ميريوت ٧٢ وطوله ١٨٨ سم، ووزنه ٨٦ كغ. لم يتسنَ اعتقاله حتى الآن. وهذا يعود حسب رأي الشرطة الفيدرالية إلى أن مصاصي الدماء لا يخرجون نهاراً للصيد لأنهم يخافون الضوء، ويتحركون ليلاً فقط.

ظاهرة فتى الأدغال

(ماوغلي) (HOMO FENUS)

ترتبط أكثر الأساطير المثيرة للفضول حول المتحولين بالأولاد الذين تربوا وسط الذئاب، مثلهم مثل الوحوش، وبالدرجة نفسها اكتسبوا سلوكيات وعادات الحيوانات مما جعل من المستحيل عودتهم للحياة الطبيعية بين البشر.

لقد عرف الناس الفتى ـ الذئب منذ أقدم العصور، وكانت قصة رومول وريم واحدة من أقدم الحالات الموصوفة. يبدو أن للأولاد المتوحشين الذين ليس لهم سوى علاقة بسيطة بالأسطورة التي تحدثت عن المتحولين، تأثيراً معيناً على ما جرى تناقله من أقوال حول هذا الكائن الفظيع، ولهذا السبب فقط يجدر بنا التذكير ببعض حالات التوحش الأكثر شهرة.

الفتى ـ القرد ذو الاثني عشر ربيعاً الذي اكتشف في الأدغال جنوب سيلان يلعب مع القرود كان موضوعاً للدراسة من قبل أطباء وممثلين عن السلطات المدنية. وقد تبين أنه متخلف عقلياً وربما تركه والداه في الأدغال لهذا السبب. لقد تعلم الطفل تقليد سلوك القرود ولذلك استطاع النجاة.

لم يكن باستطاعة الفتى الذي أسموه تيس الكلام وكل ما فعله كان عبارة عن صراخ وتمتمة كالقرد. لقد كان يجلس كالقرد ولم يكن

بمقدوره الوقوف (الانتصاب) بدون مساعدة خارجية. وقد كان ينتقل على أربعة أطراف. وعدا عن ذلك، قام بسكب صحن الطعام الذي قدم له على الأرض قبل أن يبدأ بالأكل.

إن الفرق الهام بين الفتى ـ القرد والفتى ـ الذئب الذي سنناقشه هو قدرة التأقلم الكبيرة للأول. وبعد عدة أسابيع ارتدى الفتى ـ القرد الثياب وأكل من الصحن. أما الفتيان ـ الذئاب فيبقون عادة متوحشين، وهم غير قادرين مطلقاً على التعلّم.

على ضوء الأسطورة الخاصة بالمتحولين من الطبيعي أن يتجه اهتمامنا أكثر نحو الفتيان ـ الذئاب. حيث يمكن تقسيمهم إلى فئتين: "الناس ـ الذئاب" الذين سنسلط عليهم الضوء، و"الفتيان المتوحشون"، الذين هم في العادة أولاد مرتبكون، ضحايا سلوكيات قاسية.

(الفتى ـ القرد، يدخل ضمن الفئة الثانية على الأغلب).

يصعب الافتراض طبعاً أن الفتى ـ الذئب ليس إلا ضحية حادث أو تقلب الطبيعة. لكن ليس متوقعاً أن ينفي أحد أن وجوده قد أثر كثيراً على تشكل الأسطورة الخاصة بالإنسان ـ الذئب: وكل من شاهد هذا الطفل المتوحش المغطى بالجروح وذا الشعر الطويل الأشعث، المتسخ، الذي يتخذ وضعية الوحوش، بأسنان متكسرة وطويلة، تشبه أنياب وأظافر الذئب، وتنفس نتن، وفم ملوث بدم اللحم النيئ الذي تناوله، كان شاهداً على عدوانيته وسمع زمجرة الذئب وحمحمته، ذاك لم يستطع إلا أن يتأثر.

توجد مجموعة كاملة من العوامل الضرورية للعلماء لعرض قضية الـ **homo fenus**، وخاصة إذا كان الحديث هو حول النموذج "الإنسان ـ الذئب" إن النموذج النمطي لـ الإنسان ـ الذئب يفتقد لملامح عديدة تخص الإنسان مثل الحب، والمشاعر العادية وخاصة الضحك. فهو صامت في أغلب الأوقات

باستثناء اللحظات التي كان يحمحم فيها ويزأر أو يعوي، ويسير على أربعة تماماً كما الحيوانات التي تسير على أربعة، كما أنه غير مؤهل للعيش بين البشر ويجب أن يعيش حياة الحيوانات، والأهم من ذلك أنه يستطيع العيش دون أي مساعدة بشرية.

باختصار، يجب عليه أن يقطن في الغابة وأن يتواجد بين الوحوش.

ولكن توجد سلوكيات أخرى للـ **homo fenus** والتي كثيراً ما ينظر لها ضمن إطار ظاهرة التحول.

في واحدة من قرى الجبال العالية وهي قرية كاباردينا بالكاربي ظهر إنسان متوحش، يرتدي جلد وحش وحذاء من صنع يدوي. لحية كثيفة وطويلة غطت نصف جسده تقريباً. وبالكاد نطق الغريب الكلمات. وإليكم قصته.

بعد طرد القوات الفاشية من شمال القوقاز خلال الحرب العالمية الثانية، بقي في القرية الجبلية شرطيان خدما المحتلين بمنتهى الإخلاص. وكي لا يتعرضوا للقصاص الذي استحقانه لقاء جرائمهما الكثيرة التي قاموا بها، هربا إلى الجبال مصطحبين معهما بنادق واحتياطياً من الذخيرة: صندوقاً كاملاً من الرصاص.

لقد هربا إلى أبعد المناطق والتجأا إلى مغارة لا يمكن لأحد الوصول إليها لا الصيادين ولا السياح. عاشا هناك على اللحم المقدد لثيران الجبل الذي قاموا بتخزينه، وعلى الثمار المجففة والجذور والثمار البرية والفطور والجوز، والتي توفرت بكثرة في هذه الغابات الكريمة ومروج الألب.

وقد عاشا على هذا النحو ثماني سنوات معاً، خائفين من الانتقام دون أن يعرفا أن الحرب انتهت منذ زمن.

أصيب أحد الهاربين بسرطان الحنجرة. وقد قام الثاني بمعالجته، حيث كان يرغمه على بلع قمع بحواف حادة وقد ربطه بخيط جلدي. وكان يقوم

بنزعه بالقوة وبذلك كان "ينظف" بلعوم شريكه من الورم بقص النسيج الحي بواسطة الحواف الحادة للقمع. وفي نهاية المطاف توفي المريض. وبقي الرجل الثاني وحيداً تماماً. وقد عاش ٢٨ عاماً في وحدة تامة. لقد كان يخيط الثياب والأحذية من جلد الثيران الجبلية. حيث كانت تعيش هنا بأعداد كبيرة، فضلاً عن توفر الرصاص اللازم واهتراء الألبسة التي كانت معه بشكل نهائي.

لقد فقد المنفي طوعاً القدرة على التحدث لأنه لم ير الناس طيلة هذه السنوات سوى مرتين، وقد حدث ذلك على مسافة بعيدة جداً، لأنه كان يخاف الاختلاط مع السياح الذي جالوا بالصدفة في هذه المناطق البعيدة. وأثناء قيام الهارب بمسير لعشرات الكيلو مترات باتجاه الحقل الذي جمع منه بعض الذرة شاهد قطة بالصدفة فأخذها معه إلى المغارة. وصارت القطة الآن تزين وجود قاطن الكهوف. لقد أصبحا الآن اثنين. وقد بات لديه ما يعتني به. ولكن بعد سنتين التهمت الثعالب أو الذئاب القطة.

وعاد الرجل من جديد وحيداً .. ولكن لم يعد باستطاعة المنفي العيش على هذا النحو. لقد قرر أخيراً الاستسلام ونزل نحو قريته الأم. وهنا بالكاد تعرف عليه أقرباؤه.

هل انتهت الحرب؟ كان سؤاله الأول.

هل ستالين حي؟ السؤال الثاني.

وشرحوا له، كيف أن الحرب انتهت منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وأن ستالين مات منذ زمن بعيد، وأن الشرطي المذنب تحرر بالعفو العام من المسؤولية عن جرائمه.

قدم الأقرباء للناسك حماماً، ولباساً وعاد إلى شكله الطبيعي، كما أنهم خصصوا له مسكناً. وكما يقال، استقبلوه بينهم حتى أنهم زوّجوه.

والمدهش أن الشيخ بسنواته الست والستون بدا وكأنه رجل في الثلاثين من العمر، دون أي سن مفقود أو أي تجعد في الوجه. إلا أنه كان محطماً معنوياً بشكل تام، وقد هرم بسرعة ضمن المجتمع. وقد كان جسده يذبل أمام الناظرين في ظروف الحضارة التي لم يعد معتاداً عليها.

وهكذا لم يستطع العيش بين الناس وخرج من جديد من القرية إلى الجبال. ولكن هذه المرة بصفة راع. ويقال إنه قام بواجبه على أكمل وجه محاولاً عدم الظهور بين الناس إلا ما ندر.

والآن سنذكر أشهر الأطفال ـ الذئاب "التقليديين": بيتر، الولد المتوحش من هانوفر، وفيكتور من أفيرون، وكاسبرهاوز الفتى المشهور من نيوزنبرغ والفتاة المتوحشة كامالا الهندية التي صارت في عهدة أحد رجال الدين في وقت لاحق. وقد قدّم كل من روسّو وليني نصائح أثناء دراستهم للفتى المتوحش (البري)، إلا أن الممثل الحقيقي لهذا النوع، نموذج الإنسان ـ الذئب **homo fenus**، بعيد جداً عن المتوحش النبيل، الذي رسم صورته روسو.

بعض الأولاد الذين عاشوا في حالة توحش استطاعوا بالفعل العودة إلى مجتمع البشر، لكننا لا نعرف بالتحديد كم من الوقت قضوا بين الوحوش. ربما كان جل ما فعلوه هو استعادة المعارف التي كانوا قد حصلوها في السنوات الأولى من عمرهم والتي نسوها مؤقتاً بسبب ضرورة العيش في الغابات خلال سنتين أو ثلاث؟

وعندما تتذكر الأساطير العديدة التي تحدثت عن الإنسان ـ الذئب، تجد نفسك مهتماً دون قصد بالتفاصيل، وبالخلفية. إن هذه الأساطير مناسبة أكثر لروايات المغامرات منها لعمل وثائقي يخلو من المحاباة. وهذا بالتحديد ما يشوشنا عندما نحلل أكثر الصور المدهشة في الأساطير. ويرى البروفسور الفرنسي لوسيان مالسون الذي درس بجدية قضايا الأطفال المتوحشين، أن أية

أسطورة تحوي عناصر حقيقية وليس علينا أن ننفي أي حادث غير عادي فيها لمجرد أنها تحوي جزءاً ما قد كتبه المؤلف من بنات أفكاره. وهذه نصيحة مفيدة تماماً.

من المسلم به، أن الحادثة الأقدم والأكثر تفصيلاً حول توحش الأطفال هي التي تخص الطفل - الذئب من غيسّي، وقد حدثت في القرن الرابع عشر. لقد صار السكان المحليون يلاحظون أن كائناً ما يعيش في الغابة القريبة من البلدة. وكان في كل مرة يلتقي فيها بالناس يختفي بسرعة بين الأعشاب الطويلة. وقد خاف الناس منه بشكل خرافي.

وقد جاء التأكيد الحقيقي لوجوده في عام ١٣٤٤، عندما تم أخيراً الإمساك بهذا الكائن المتوحش غريب الأطوار. وكانت دهشة الناس شديدة عندما تبين أن الفتى المتوحش تماماً، الذي تنقل على أطرافه الأربعة كالذئب، كان غير قادر على الكلام. وقد أثبتوا أن الطفل الذي كان عمره ثماني سنوات تقريباً، أمضى في هذه الحالة نصف حياته. وحسب الشهادات فإن الذئاب كانت قد وجدت الطفل، وقد حفرت له وكراً وحافظت على حياته وقامت بتأمين الدفء له بأجسادها في أكثر الشتاءات قسوة. وتقول بعض الكتابات إن الذئاب فرشت له أرضية الوكر بالأوراق وحولته إلى ما يشبه العش. وقد بات أكيداً أن هذه الحقيقة ليست آخر ما يمكن أن يحدث، إذ أنها تتأكد بقصص أخرى عن الأولاد المتوحشين.

لقد اعتاد الطفل على المشي على أربعة لدرجة أنه لزم ربط لوح من الخشب إلى رجليه لتساعدها على الاستقامة ويسير الطفل كالبشر. لم يكن قادراً على التحدث بشكل عادي واقتصر حديثه على الحمحمة وإصدار الأصوات التي تخص الحيوانات.

اقتصر طعامه على الطعام الناشف (النيء)، وبدا أنه أكثر سعادة في تلك الظروف البرية التي ظهر فيها بإرادة القدر. لقد أصبح الطفل ـ الذئب من بلدة غيسّي مشهوراً في زمانه، حتى أنهم اصطحبوه إلى انكلترا ليراه الملك وحاشيته.

في تلك الفترة تقريباً تم إيجاد مسكين أخر في غابات بافاريا (ألمانيا) الكثيفة. لقد اشتهر باسم الطفل ـ الذئب من فاترافيا، وكان مصيره شبيهاً جداً بمصير الفتى من غيسّي، مع أنه وجد في ظروف أكثر قسوة وتكاد لا تترك أملاً، إذ كان عمره قد أصبح أكثر من اثني عشر عاماً عندما وجدوه.

هاتان الحادثتان، وكذلك الحوادث التي سبقت لم تحظ للأسف، بالدراسة المعمقة في الوقت المناسب، وقد بدأ العلماء بدراستهم فقط في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك بعد أربعة قرون من الأحداث المذكورة.

نعود من جديد إلى رأي البروفسور مالسون. يعتبر العالم أنه يجب أن لا نعجب إذا شكل الوسط غير البشري إنساناً لا يشبه البشر بسلوكه. وهذا أيضاً هو رأي عالم النفس والمعلم الملحمي جان إتيار، الذي عمل لسنوات كثيرة محاولاً التواصل مع الفتى ـ الذئب من أفيرون وتعليمه. وقبل أن نروي قصة فيكتور نذكر عدة حالات صغيرة لكنها ممتعة بشكل غير اعتيادي.

ففي عام ١٨٠٣ وفي مكان يدعى أوفردايك في هولندا، تم إيجاد فتى متوحش لم يستطع أحد تحديد عمره. وقد تميز بأنه تغذى على بيوض الطيور وأفراخها أو الطيور البالغة، التي استطاع الإمساك بها. وقد كان بمقدوره تقليد أصوات الطيور بشكل لا مثيل له.

لقد قدمت الهند للعالم أكبر عدد من الأولاد ـ الذئاب. وربما بسبب أن سكانها كانوا مضطرين للتخلي عن أطفالهم في الأدغال بسبب الفقر المدقع. ومنذ العام ١٨٤٣ حتى ١٩٣٣ ورد من الهند ما لا يقل عن ستة عشر خبراً عن

إيجاد أولاد ـ ذئاب من كلا الجنسين، وقد تم كذلك اكتشاف أولاد ـ نمور وأولاد ـ فهود. مع العلم أن بعض هذه القصص كان بعيداً تماماً عن الحقيقة.

لقد تبين أن الأولاد ـ الوحوش، الذين تم إيجادهم غير قادرين تماماً على تغيير عاداتهم، التي اكتسبوها خلال عيشهم في الأدغال. وهذا ليس عجيباً. إذا ما أخذنا بالحسبان أن بعضاً منهم قد عاش بين الوحوش حتى عشر سنوات.

كان فالنتين بول أول من أخبر تفاصيل عن الأولاد ـ الذئاب الهنود في كتابه: "الحياة في أدغال الهند"، والذي صدر في لندن عام ١٨٨٠. ومع أن بول حصل على الأخبار من طرف ثالث" إلا أن مصداقيتها لا تحتمل الشك. الطفل الأول الذي ذكر في الكتاب كان دينا سانيشار، الذي أمسك به الفلاحون قرب مكان يسمى مينسبوري في عام ١٨٧٢. قدر عمره بست سنوات تقريباً، وكان يملك جميع الدلائل الكلاسيكية لـ **homo fenus**.

لقد كان متوحشاً، عارياً تماماً، صموتاً، لم يكن بإمكانه إلا إصدار زمجرة من حلقه، وكجميع الوحوش كانت أسنانه حادة كشفرة الحلاقة وذلك بسبب القرقطة المستمرة للعظام. لم يكن بالإمكان تماماً تحديد المدة التي قضاها في الأدغال، إلا أن قوته الفيزيائية وبنيته المتينة أخبرت عن تلاؤمه الممتاز مع الحياة البرية. وشأنه شأن الأولاد ـ الذئاب الذين جرى ذكرهم، كان يمشي على أربعة وقاوم بعنف كل المحاولات لجعله يرتدي ثياباً. وخلافاً لأولاد ـ ذئاب آخرين عاش دينا بين البشر مدة طويلة، عشرين عاماً. ولكن، وبالرغم من صبرهم على تعليمه إلا أن تحصيله خلال هذه الفترة المديدة كان كما يلي: لقد تعلم ارتداء ملابسه، والوقوف على قدميه، بالرغم من أن ذلك لم يكن عملاً سهلاً، كما أنه تعلم استخدام أدوات المطبخ.

يتحدث بول عن فتى ـ ذئب آخر من لاكانو. كان عمر الطفل عشر

سنين، وقد وجدوه بعد سنتين من دينا. وقد أرسلوه إلى ملجأ سيكاندر للأيتام. ولكن بالرغم من المحاولات الكثيرة لتعليمه إلا أنه بقي متوحشاً تماماً. مع العلم أن تحصيله المشكوك به، أنه تعلم تدخين السيجار. ولم يتعلم أي من الولدين الكلام.

من بين الأولاد ـ الذئاب يمكن تمييز عدد لا بأس به استطاعوا بلا شك مساعدة الأسطورة التي تحكي عن المتحولين لتعيش المئة عام الأخيرة. أما أكثر الأولاد شهرة الفتيات ـ الذئاب كامالا وأمالا فقد تم إيجادهما في عام ١٩٢٠.

كتب الدكتور ج. سينغخ، صاحب مأوى الأيتام في ماندنابور، مذكرة طويلة وتفصيلية حول مشاهداته لتصرفات الفتيات ـ الذئاب، اللتين كانتا في رعايته. لقد كتب المذكرات لوقت طويل لذلك فإن مصداقية هذه المشاهدات لا تدعو للشك، فضلاً عن تأكيدها من قبل شهود عيان آخرين. وفيما يلي عرض لمذكرات الدكتور.

في تشرين الأول من عام ١٩٢٠، بينما كان يقرأ موعظة في منطقة غوادامورا اجتمع حوله عدد من السكان المحليين المتوترين وحدثوه عن "مخلوقات خيالية"، عاشت في الأدغال. قرر الدكتور الذهاب لرؤية هذه المخلوقات.

قاد السكان الدكتور إلى أعماق الأدغال. وبعد المغيب بقليل شاهد ومرافقوه منهم أسرة من الذئاب وقد خرجت من أجار (وكر) تم حفره في سفح الغور. سارت في المقدمة ثلاثة ذئاب بالغة، وتبعهما ذئبان صغيران، وتحرك خلفهم مخلوقان "عجيبان" كما سماهما الفلاحون المذعورون. لقد كانا حيوانين بريين لم يتمكن سينغخ من تصنيفهما.

لقد تنقلا على أربعة أرجل، وغطى الشعر الطويل السبل وجهيهما. وبعد أن خرج "الكائنان العجيبان" من الأجار بالكاد استطاع الدكتور سينغخ من إيقاف مرافقيه الذين اجتمعوا لرميهما بأسلحتهم. واقترح الإمساك بهما. إلا أن "العجيبين" تسببا بخوف أضطر بعده الدكتور إلى التوجه إلى قرية نائية لإيجاد متطوعين للإمساك بهما.

بعد أسبوع عاد الدكتور إلى أجار الذئاب. لم يتواجد فيه الذئبان، أما الذئبة التي حرست المدخل فقد تم قتلها رمياً بالرصاص.

كان الدكتور سينغخ ومرؤوسوه في غاية الدهشة عندما اكتشفوا في الأجار ذئبين صغيرين وطفلين من أبناء البشر. حيث كان الأخيران عاريين تماماً تغطيهما الجروح والخدوش، وقد أبديا عدوانية أكبر من رفيقيهما الذئبين، وكانا على استعداد للدفاع عن أرضهما.

تم أخذ الطفلين من الأجار وأُعطوا للسكان المحليين، الذين تخلصوا منهم عند أول فرصة، وبعد عدة أيام وجدهم الدكتور سينغخ بين الموت والحياة من شدة الجوع.

لقد ثابر على رعايتهما وأجبرهما على شرب الحليب والأطعمة المغذية الأخرى. كان عمر الصغيرة ثمانية عشر شهراً، أما الأخرى كامالا فقد قام الدكتور سينغخ بتعميدها وكان عمرها ثماني سنوات تقريباً. كان جلد كلتا الفتاتين مغطى بالخدوش والجروح، وقد خرجت ألسنتهما من أفواههما. لقد كشرا عن أسنانهما وبالكاد تنفستا.

وفي وقت لاحق اتضحت وقائع أخرى أكثر إثارة للدهشة. لم يكن بمقدور الطفلتين الرؤيا في النهار وحاولتا دائماً الهروب من ضوء الشمس إلى الزوايا المظلمة. في الليل كانتا تعويان وتجوبان الغرفة بحثاً عن مخرج. وقد اعتادتا النوم

لمدة خمس ـ ست ساعات في اليوم، واقتصر طعامهما على اللحم النيئ وأطفأتا عطشهما بلعق السوائل.

كلتا الطفلتين كانتا تزحفان على الركب والمرافق أثناء التواجد في الغرفة، ولكنهما كانتا تركضان بسرعة على أطرافهما الأربعة أثناء الخروج إلى الشارع. كانتا تزأران على الناس وتقوسا ظهريهما كالذئاب عند اقتراب شخص ممن اعتبرنه خطراً. كانتا "تتصيدان" بملاحقة الصيصان والحيوانات البيتية الأخرى، وتنبشان في ساحة الدار بحثاً عن أحشاء الطيور المرمية وتأكلانها بنهم.

إلا أن هاتين الطفلتين ــ الذئبتين لم تعيشا لفترة طويلة في الظروف المتحضرة. لقد عاشت الفتاة الصغيرة أمالا في الحجز لأقل من عام، حيث ماتت بمرض التهاب الكلى في أيلول عام ١٨٢١. أما كامالا فقد عاشت حوالي تسع سنوات. وقد تعلمت بالتدريج المشي. بالرغم من أنه لم يتسنَ لها التخلص من طريقتها السابقة في المشي حتى نهاية حياتها. لقد بدأت بالاستحمام، واستخدام الكأس وحتى أنها تعلمت بعض الكلمات، لكنها في الوقت نفسه استمرت في أكل اللحم النيئ وأحشاء الطيور، والهروب من الكلاب. وبما أنها تعلمت اللغة الفطرية فذلك يعني أنها لم تعاني من عيوب ذهنية أثناء الولادة وأن سلوكها الذئبي كان مكتسباً بالكامل من "والديها بالتبني".

وليس مدهشاً أن يخاف الفلاحون الهنود البسطاء من هذه "الوحوش" الخارجة من الكهف وحتى في عام ١٩٢٠، بقي الخوف تجاه المتحولين كما تجاه الذئاب، واحداً من أقدم الغرائز البدائية للإنسان.

وبموت كامالا انتهت واحدة من أمتع قصص عصرنا، بالرغم من أنَّ الأحاديث عنها وعن دراستها ما زالت مستمرة حتى وقتنا هذا. ظروف كثيرة مما كان يحيط بحياة هؤلاء الأولاد ـ الذئاب ما تزال مغطاة بالظلام. وإليكم

مثلاً هذه الأسئلة الطبيعية: لماذا لم تقدم الذئاب على التهام هؤلاء الأولاد فوراً؟ من أين أتت الطفلة الثانية؟ لكن الطبيعة تحتفظ بهذه الأسرار.

والآن، إليكم المثال الأخير من هذه السلسلة: فيكتور، الولد المتوحش من أفيرون. ظهر فيكتور من أفيرون قبل كاسبار هاورز، وحالته تبدو أقل غموضاً. تحوي قصته بعض الظروف الفريدة، ولكن فيكتور وحياته تعرضا دون شك لدراسة أكثر تفصيلاً. وبداية قصته تماثل تماماً كما قطرتي ماء، بداية قصة فتى - ذئب آخر، باستثناء كاسبار طبعاً.

لقد حدث ذلك في عام ١٧٩٧(فتى غريب الأطوار في شوارع نيورنبرغ لا يظهر إلا بعد ٣٢ عاماً فقط)، حيث لاحظ الفلاحون في منطقة نائية في مقاطعة تارن (جنوب فرنسا) لأول مرة كائناً غريباً مختبئاً بين الأعشاب الطويلة والكثيفة.

لقد خاف الفلاحون "الإنسان المتوحش" العاري والمهلل، الذي لم يستطيعوا الاتصال معه بالرغم من اللقاءات العديدة.

في نيسان من عام ١٧٩٧ لوحظ هذا الفتى الذي تبين أن عمره حوالي تسع سنين، من قبل فتيان يلعبون قرب قرية لاباسين. أمسك السكان المحليون به ووضعوه في حظيرة، إلا أن الطفل هرب من هناك واختفى في الغابة لفترة طويلة.

ومر حوالي ١٥ شهراً قبل أن يلاحظوه مرة أخرى. وفي تموز من عام ١٧٩٨م استطاع ثلاثة صيادين الإمساك بالمتوحش ووضعوه في إحدى البيوت في أقرب قرية. أظهر أصحاب البيت إهمالاً تاماً تجاهه، وبعد أسبوع فقط هرب فيكتور من جديد حيث قفز من النافذة.

في هذه المرة عانى الطفل الوحيد العاري شتاء قاسياً جداً في الغابة، مما يدل على قدرته غير العادية على التلاؤم. وكان واضحاً أنه اكتسب من جديد

قدرة التحمل التي تحلى بها إنسان ما قبل التاريخ، والقدرة على النجاة دون لباس مناسب في ظروف مناخية استثنائية.

ومن المحتمل أنه أعجب بهذه المنطقة بدليل أنه ظهر من جديد قرب لاباسين في ٩ كانون الثاني عام ١٨٠٠، حيث تم اعتقاله فوراً من قبل مجموعة من الفلاحين. كان الفتى عارياً تماماً وشعره أشعث وقد تغطى جسمه بالندبات والخدوش وبدا خائفاً جداً.

في اليوم التالي تم وضعه في المشفى، وهناك أجريت له للمرة الأولى فحوصات دقيقة. وكان أول من فحص فيكتور، وهو الاسم الذي أطلقوه عليه، عالم الطبيعة بيير ـ جوزيف بوناتر. وفي وقت لاحق كتب بوناتر تقريراً مفصلاً، طبع في باريس تحت تسمية "ملاحظات تاريخية حول مستوحش من أفيرون". هذا التقرير حاز على اهتمام الأطباء وعلماء الطبيعة.

ومن الواضح أن فيكتور كان الأكثر غموضاً من بين جميع الأولاد ـ الذئاب، الذين تعرضوا لدراسة مطولة. ومثل كثير من أقرانه، كان فيكتور يرتجف بدون أسباب واضحة، وكان ينام عند المغيب تماماً ويستيقظ مع بزوغ الفجر، ولم يكن بمقدوره أن يفهم أن ما يراه في المرآة كان خياله.

غير أن فيكتور أحب النظر إلى خياله في مياه العين الراكدة، وكان لساعات طويلة ينظر بدهشة إلى القمر، ولم يكن يهتم بالأولاد الآخرين أو بألعابهم، وقام أكثر من مرة بإشعال النار من الألعاب الخشبية.

لقد كانت الأصوات التي أطلقها شبيهة بأصوات الخنازير. وربما كان أغرب ما اتصف به أنه لم يبتسم مطلقاً وما قام به هو حركة غريبة من فمه. لم يكن بمقدور فيكتور التركيز. وقد عذبه الرجفان بشكل دائم.

لقد كان جلد الفتى فاقداً للحساسية تجاه الألم لدرجة أنه كان بمقدوره رفع قطع الخشب الساخنة من النار بيديه. وكانت لحاسة الشم لديه خصوصية:

فلم يكن يشم بعض الروائح حتى ولو وضعت المادة تحت أنفه تماماً. كما أثار سمعه الدهشة، ففي التجارب التي أجريت عليه لم يختلج الفتى ولم يخف عندما أطلق النار من المدفع بجانبه تماماً، وفي الوقت نفسه لفتت انتباهه أصوات ضعيفة جداً، مثل الضجة التي يحدثها شخص يمشي خلفه. وما يثير الدهشة أكثر من غيره هو أنه لم يكن يميز الموسيقى والصوت البشري عن الأصوات الأخرى. لم يحب فيكتور وإخوانه بالتعاسة النوم على السرير ولم يهتموا لأية وسائل راحة. غير أن الفتى القادر على تحمل صعوبات الحياة البرية لم يكن بمقدوره التلاؤم مع حياة الحضارة: لدرجة أن القرد تقبل عادات بشرية كثيرة بشكل أسرع من هذا الطفل ـ الذئب.

وأكثر ما أثار دهشة الباحثين هو عدم تأثره بالبرد القاسي، فلقد قضى الفتى الشتاء في الغابة عارياً. وقد فضّل من بين الأطعمة الثمار والكستنة، وعافت نفسه الأطعمة المصنوعة بطريقة ما.

كان الطفل يحاول دائماً الخروج إلى الحرية، ولكن الحراس الآن له بالمرصاد وقد انتهت جميع محاولاته بالفشل. وبعد فترة وجيزة نقلوا الفتى إلى باريس، حيث كشف عليه الدكتور بينل، وقد كان طبيباً نفسياً مشهوراً في ذاك الوقت. وقد أعلن بشكل مطلق أن فيكتور ببساطة فتى غبي، وهذا سبب جميع الانحرافات في تطوره.

غير أن الحظ ضحك لفيكتور فجأة. فالدكتور الشاب جان مارك اتيار، الذي كان عمره ٢٥ عاماً فقط عندما تعرف للمرة الأولى إلى فيكتور، تم تعيينه في عام ١٨٠٠ بمنصب كبير الأطباء في المعهد الإمبراطوري للبكم والصم في باريس.

قام اتيار بفحص الفتى ولم يتفق مع الدكتور بينيل العظيم.

أمضى الدكتور إتيار ما يزيد عن ست سنوات في صراع عنيد وصابر محاولاً إعادة فيكتور، المستوحش المسكين من أفيرون، إلى الحالة الإنسانية.

ولقد كوفئت جهوده وفهمه لحاجات مريضه وكذلك المعرفة العميقة بالقضية: لقد تحسنت حالة فيكتور، بالرغم من كونه لم يصبح عضواً في المجتمع البشري بالمعنى الصحيح. لقد دحض اتيار مزاعم عالم النفس المخضرم بنييل: لم يكن فيكتور أبله بالولادة، لقد كان طفلاً فاقداً لإمكانية التطور الطبيعي. وبالرغم من أن اتيار لم يستطع تنظيف عقله الباطني من أثر السنوات التي قضاها بين الوحوش، إلا أنه أغنى حياته بأن أعاد ابن الإنسان إلى البشر.

لقد كان فيكتور مثالاً تقليدياً حقيقياً للفتى ـ الذئب، فهو مع كل ذلك لم يتعلم الكلام، بالرغم من كل الجهود البطولية للدكتور إتيار.

ومن الواضح أن أكبر إنجاز عقلي طيلة هذا الوقت كان دقائق الإلهام، التي قام خلالها بصنع مقلمة من خشبة قديمة. غير أنه أحب كثيراً الأعمال البيتية المتنوعة، وقام عن طيب خاطر بتقطيع الأخشاب. لقد كان بمقدوره القيام بذلك لساعات دون تعب، ودون إخفاء متعته بذلك.

عمل الدكتور إتيار طيلة ست سنوات مع فيكتور، وتشهد مشاهداته التي أصدرها في وقت لاحق عن الموهبة الرائعة لهذا الإنسان في مجال العمل الذي قام باختياره.

يمكننا الآن القول، وبكل ثقة، أن مصير فيكتور كان سعيداً كفاية بالمقارنة مع الحالات التي بحثناها آنفاً. لقد كان دائماً محط العناية، عاش في ملحق معهد باريس للصم والبكم. فضلاً عن ذلك، فقد خصصت الحكومة مساعدة مالية لسيدة تدعى مدام غيرين، كانت تعتني بفكتور. مات فيكتور من أفيرون عام ١٨٢٨، عندما أكمل الأربعين من العمر.

في بداية عام ١٩٩٦، وفي إحدى المناطق النائية من الصين قبض على كائن صغير غريب، تبين أنه طفل مغطى بالوبر، أطلقوا عليه اسم "الفتى ـ الباندا". (الباندا ـ نوع من الدببة يعيش في الصين).

لقد اكتشف الصيادون الطفل ضمن مجموعة من دبب الخيزران الجميلة البطيئة. وكانت هذه هي الحادثة الثالثة التي ينمو فيها ابن الإنسان بين دببة الباندا: كانت الحادثة الأولى قد أثبتت في عام ١٨٩٢، والثانية في ١٩٢٣.

لقد ذكر العلماء الذين درسوا الفتى شذوذات في سلوكه: لقد كان يتنقل على أربعة أطراف، ولم يكن بمقدوره الانتصاب على قدميه، وكان يقع كلما حاول ذلك؛ فضلاً عن أنه لم يكن يغتسل، وكان يكتفي بلعق نفسه كالقطة؛ كان يعيش على الأوراق والأغصان الجديدة للخيزران؛ كان يحك نفسه وينخر كالحيوان؛ ويزأر إذا كان هناك ما لا يعجبه.

هاومن لو عالم بيولوجيا من بكين قام بدراسة الفتى ـ الباندا، وهو يعتبر أن والدا الفتى قد أضاعاه في طفولته المبكرة وربما تركاه عن قصد في الغابة خوفاً من شكله الخارجي. وليس غريباً: فالطفل ولد بتشوهات جينية عديدة، فقد كان جسده بالكامل مغطى بشكل كثيف. ومن الواضح، أن دببة الباندا قد وجدته وتبنته خطأً كعنصر من أسرتها. وعلى هذا الأساس قامت بتربيته. وإذا ما تغاضينا عن بعض الفروق غير الجوهرية، فإن الفتى ـ الباندا تصرف تماماً كما "والداه بالتبني".

قام الصياد كوان واي البالغ من العمر ٣٦ عاماً بالإمساك بماوكلي الذي ظهر حديثاً. ويعيش الفتى المتبنى مع الصياد وزوجته وابنته الصغيرة ذات السنوات الخمس.

يعتبر العلماء أن عمر الطفل يجب أن يكون ما بين سنة ونصف حتى السنتين. لقد كانت على يديه ورجليه أظافر طويلة وقوية، وكانت أشبه

بالمخالب، حيث تسلق الأشجار برشاقة، وفي البداية كان يعض ويخدش كل من يقترب منه. إلا أنه، بعد عدة أسابيع من وجوده في الأسرة اعتاد عليهم حتى أنه بدأ يتعلق "بالأم" و "الأب" الجديدين. وقد تعلم الوقوف على رجليه، ولفظ بعض الكلمات. ولكنه حتى الآن، ينشج كالكلب عندما ينزعج، فهو لا يعرف البكاء.

"لقد أحبت أسرة كوان الطفل كثيراً بالرغم من شكله الغريب وتصرفه كحيوان بري. ويضيف الدكتور لو: يقال بأنهم أرادوا إبقاءه لديهم. غير أن الفتى يشكل ثروة علمية كبيرة: فخلال دراسته سنتمكن من فهم عمليات تطور الإنسان ضمن المجتمع وخارجه بشكل أفضل. ولذلك فإننا ننوي أخذ الطفل إلى جامعة بكين، للقيام بدراسات كثيرة المراحل. مع العلم، أنني لا أرى معوقات تحول دون عودته إلى البيت الجديد".

هل ...البشر ـ الأسماك...

موجودون أم لا؟

هذا السر الذي أقلق خيال المؤرخين لعدة قرون، يبدو أن العلماء تقدموا خطوة اليوم لحل لغزه...

".. إنه طريق ليرغانيس ـ بإمانيس، والساعة الآن الرابعة وخمس دقائق مساءً من يوم السابع من أيار عام ١٩٩٧. وأنا جاهز للتخلي أن أعمال البحث التي قادتني إلى ليرغانيس، هذه البلدة الجميلة في الطرف البعيد لكانتا بريا، وقد بت أشعر باليأس من إمكانية تحقيق المهمة المستحيلة التي وضعت أمامي: إيجاد ما احتفظت به الكنيسة في القرن السابع عشر من مذكرات، وإثبات أن الإنسان الذي اعتبر أسطورة، موجود بالفعل؛ ولقد تجسدت الصعوبات كذلك بعدم قيام أي إنسان بنشر وثائق تخص هذا الموضوع.

وقد بدأت أنا نفسي أشك جدياً فيما سيؤول إليه الأمر. ولعل أيجاد إبرة في كومة قش أسهل من إيجاد هذه الوثائق. ومما زاد الأمر صعوبة أن قلة التوفيق لاحقتني منذ لحظة وصولي إلى هذه البلدة". بهذا الشكل بدأ الصحفي والباحث الاسباني إيكر هيمينس إليزاري الحديث عن اكتشافه في مجلة "إينيغماس".

وبالرغم من أن أيام البحث الثلاثة لم يظهر فيها رجل الدين انطونيو فرنانديس. وقد بدأ ايكر يظن ببساطة، أن الرجل يتهرب منه. وانتشرت إشاعة بين الناس أن الرجل القادم يبحث عنه ليستفسر عن الرجل ـ السمكة، وهي قصة أثارت ضجة عالمية يوم جاء ذكرها للمرة الأولى وقد جلبت الشهرة لهذه القرية النائية.

لكنها كانت مشبعة بما يثير الشك ويبعد كل البعد عن الحقيقة! وكان بمقدور السيد دون انطونيو وحده أن يدل على المكان الذي حفظت فيه الوثائق الهامة، القادرة على إلقاء الضوء على ظروف حياة فرانسيسكو ديلا فيغا، أصل سلف الإنسان ـ التريتون الأسطوري، الذي قضى خمس سنوات في أعماق البحار.

"قررت في اللحظة الأخيرة القيام بمحاولة أخرى والتجول في لييرغانيس. وعندما وصلت إلى كنيسة القديس بطرس أدفينكول التقيت وجهاً لوجه مع من كنت أبحث عنه طيلة هذه الفترة. واعتقد أن عدم الثقة التي رماني بها من خلف نظارته، أكدت لي تماماً أنه لا يملك أي تصور عن ما أردته من هذا اللقاء. غير أن الوثائق التي أريته والتي كنت قد جمعتها مما كتب في القرن الماضي من قبل مؤرخين مختلفين جعلته ينصت لي..".

لقد أشارت المصادر إلى شهادات من الكنيسة تؤكد أن الإنسان ـ السمكة عاش بالفعل في هذا الكون. وكانت هذه حجة هامة، إلا أن العارفين نفوا وجود هذه الوثائق لاحقاً، بعد أن بحثوا عنها ولم يجدوها. وبقيت الحكاية بين الحقيقة والخيال طيلة قرنين. يبدو وكأن انطونيو فرنانديس فهم أهمية إيجاد هذه الأدلة؛ في ذلك الوقت بدأت في القرية أعمال دفن. وبالطبع، لم يكن هذا أفضل الأوقات، إلا أن الحدس أخبر إيكر أن الإمكانية الأخيرة للاقتراب من الحقيقة هي هذا الحديث مع رجل الدين الكاثوليكي في فسحة الكنيسة. في القرن الماضي حاول كثيرون جعل

رجال الدين يتحدثون عن الأمر، إلا أن أحداً لم يستطع رؤية الوثائق بعينه. ويبدو أنه كان على عجلة شديدة من أمره حيث أعلن الأب انطونيو بلهجة حاسمة أنه لم يبق في لييرغانس أي أثر لهكذا أوراق؛ ويحتمل أن المكان الوحيد الذي يمكن البحث فيه، بالرغم من كونه لا يلائم أبداً البحث الصحفي، هو الصوامع الرطبة في إحدى الكنائس التي لا يسمحون للغرباء بالدخول إليها.

"تمسكت بهذه الإمكانية الأخيرة للوصول إلى الأوراق المطلوبة، كما يتمسك الغريق بقشة، أطلقت لسيارتي العنان وصرت أعد الكيلومترات التي تفصلني عن ذلك المكان الذي ربما حفظ فيه شيء ما، إذا كان هناك وثائق أصلاً. وفي الوقت الذي كانت السيارة تطوي الطريق نحو الهدف، تذكرت جيداً كل ما هو معروف عن هذا المكان المبهم (العجيب)".

... بينما تعبر مياه نهر ميرا العميقة القاتمة بلدة لييرغانس، تجتاز مكان لعب طفولة فرانسيسكو دي لافيغا كاسار المحبب. وقد أظهر وهو في سن الخامسة من العمر قدرة على السباحة أفضل بكثير من الإنسان العادي، مثيراً دهشة عظيمة لدى الكثيرين من سكان المنطقة، الذين اجتمعوا لمشاهدة المعجزة من على الجسر القديم. في عام ١٦٧٢م، عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، انطلق إلى مدينة بيسكايسك لتعلم النجارة، هناك قضى فرانسيسكو سنتين يقطع الأشجار قرب الباسك ويعود كل مساء مسرعاً إلى النهر.

وكانت عشية القديس يوحنا من عام ١٦٧٤، وبينما كان عائداً مع مجموعة من الأصحاب النجارين، قرر فجأة السباحة باتجاه أسفل النهر حيث يتسلل البحر بعيداً في ساحل بيسكايسك. قفز في النهر بعد أن خلع ثيابه. وفي الحال سحبه تيار بحري قوي خلفه، واختفى عن الأنظار. وبنتيجة معرفتهم بأن فرانسيسكو سباح جيد أمل السكان المحليون بظهوره عن قريب.. لكن وللأسف.. استلمت أمه ماريا كسار في صباح اليوم التالي نبأً محزناً حول

اختفاء ابنها، الذي يعتقد حسب جميع الحيثيات أن البحر الكانتبري المتوحش قد ابتلعه.

أدت المأساة لإصابة أخوة فرانسيسكو: توماس وخوسيه باليأس. فلقد فتشوا السفوح الساحلية حادة الانحدار، وجابوا جميع الشطآن بحثاً عن الجثة. غير أن أعمال البحث لم تفضِ إلى شيء، ومع مرور الزمن تناسى الناس ذكرى السباح المقدام.

مرت خمس سنوات. وفي شباط من عام ١٦٧٩ شاهد الصيادون السارحون في خليج قاديس اقتراب كائن غريب مثير للخوف، على عمق ليس كبير. وقد انتشرت الشائعات على طول سواحل العاصمة الأندلسية، وبعد فترة وجيزة صنعوا آلة لصيد سارق السمك الغريب، وقد جهزوها من شبكة صيدكبيرة وضعوا فيها طعماً من اللحم والخبز.

وقد لاحظ الصيادون مرات عديدة، كيف أن كائناً ضخماً، لم يكن بمقدورهم تحديد شكله بدقة عبر الماء السميك، أكل قطع الطعام ثم اختفى بسرعة كبيرة. بعد عدة أيام رآه الناس خلالها قرب القوارب، تمكنوا من صيد أعجوبة البحر وسحبوها إلى الشاطئ.

أصيب الصيادون بالذهول. لقد اتضح أن أسيرهم كان فتىً طويلاً جداً، وقد بلغ طوله ١٨٠ سم على الأقل، بجلد أصفر شفاف وشعر أحمر ناري. وقد كانت صفوف الحسك ممتدة على جسده كالسمكة من حلقه حتى أسفل بطنه، وأخرى غطت عموده الفقري. امتد غشاء رقيق بني بين أصابع اليدين، وكانت أكفه أشبه ما تكون بأرجل البط (الإوز). خار الأسير المدهش وزأر كالوحش، ولتثبيته احتيج لدزينة من العاملين في المرفأ. وقد تم وضع الكائن العجيب في كنيسة الفرانسيسكان، حيث بقي الإنسان ـ السمكة الغامض ثلاثة أيام فيها.

وقد اهتم سكرتير الخدمة المقدسة دومينغو ديلا كانتولا كثيراً بعد أن عرف بما حصل. وعلى الفور أمر بالقيام بطقوس خاصة لطرد الشياطين التي يمكن أن تكون قد حلّت في هذا الجسد الغريب. وقد حضر إلى الكنيسة جهابذة اللغات الأجنبية، مثل الأخ خوان روزندي الذي حقق مع الإنسان السمكة لعدة ليالٍ بشكل متواصل محاولاً الحصول منه ولو على أية إجابة مهما كانت.

وأخيراً خرجت من ثغر (اختياندر وتعني الرجل السمكة) كلمة "لييرغانس" التي لم تكن مفهومة على الإطلاق لأحد في قاديس، باستثناء فتى ينحدر أصله من سانتادير، وقد عمل في تلك الآونة في مصلحة بناء السفن في العاصمة الأندلسية، لقد كان يعرف جيداً أن لييرغانس هي تسمية قرية صغيرة في كانتابريا، وهي تتبع للأسقف بورغوس، حيث تنتمي جميع القرى المنتشرة على ضفاف نهر مييرا.

وقد اجتاحت الشكوك والاستغراب وعدم الثقة دومينغو ديلا كانتول، إلا أنه أرسل فرساناً إلى سولارس التي كانت تبعد عشرة كيلومترات عن لييرغانس. وهناك وجدوا النبيل ديولينسيو روبالكابا وكذلك غاسبار ميلتشورد دي سانتياغو، من فرسان سانتياغو، والمركيز دي فالسبوين. اتجه الثلاثة شخصياً إلى لييرغانس، التي استطاع أهلها إلقاء الضوء على ظهور الكائن الغريب في قاديس.

وبعد بضعة أيام كشف ديونيسو روبالكابا قصة اختفاء فرانسيسكو ديلا فيغا كسار، التي حدثت قبل خمس سنوات قبل ذلك في نهر مييرا، وأخبر على الفور كنيسة الفرانسيسكان، حيث نشأت هناك ضجة قوية. وفي الأيام الأولى لكانون الثاني عام ١٦٨٠ تم نقل الإنسان ـ السمكة إلى قرية كانتابريا، لأن الظنون بأنه كان بالفعل النجار المختفي لم تكن دون أساس.

وقد تحمل عبء نقل الغريب عبر الجبال الأخ خوان روسندي. وبالكاد وصلت العربة إلى منطقة ديسي، حتى قرر الأسير النزول وكأنه تعرف إلى المنطقة. واتجه إلى مدينة ليبرغانس متقدماً مرافقيه من رجالات الكنيسة.

وأخيراً وجد نفسه أمام بيت عائلة ديلا فيغا. وقد تعرفت ماريا كسار العجوز بشخصه على ابنها الذي اختفى قبل خمس سنوات، ومع الدموع في عينيها تقدمت واحتضنته ومن بعدها الأخوة توماس وخوان. الأخ الثالث خوسي ذهب قبل شهرين من ذلك إلى قاديس ولم يعد بعد ذلك إلى البيت.

والغريب أن الرجل ـ السمكة لم يعبر بأي شكل من الأشكال عن سعادته بلقاء الأقرباء. لقد حافظ على الصمت طيلة السنتين (وفي بعض النسخ ـ تسع سنوات)، اللتين قضاهما في بيت والديه تحت المراقبة المستمرة لديونيسيو روبالكابا.

لم يعد فرانسيسكو ديلا فيغا الشخص السابق بتاتاً. وقد آلت حياته في ليبرغانس إلى مشي صامت في خلفية الدار، تقطعه أحياناً بعض التمتمات "خبز"، "دخان"، مع أنه لم يلاحظ هناك أية علاقة بين لفظهم، وخاصة التدخين وتناول الطعام.

كما أنه فضل البقاء بثيابه الرثة، وكان بمقدوره تناول السمك واللحم النيء لساعات، وفي بعض الأحيان كان يحدث العكس ـ كان يبقى لعدة أيام دون تناول أي شيء. وكان يقضي معظم الوقت منبطحاً على الأرض. وكان لا يولي أي اهتمام لأي شيء.

ولكن في إحدى الأمسيات من عام ١٦٨٢ اضطرب عندما سمع صرخة ما، نهض بدون أي سبب واضح للمحيطين به وانطلق مباشرة نحو مياه ميبرا. وبالرغم من محاولات إعاقته، إلا أن الإنسان ـ السمكة استطاع الإفلات وغاص في الماء من جديد وهذه المرة إلى الأبد بالفعل، وفي المكان نفسه الذي

أظهر فيه عجائب السباحة في طفولته. وبعد وقت قصير جداً اختفى الكائن العجيب في الضباب سابحاً بعكس التيار.

ومنذ هذه اللحظة أصبح مصير فرانسيسكو دي لافيغا مجهولاً، ولكن بفضل جزئه السابق كان محط اهتمام العالم بأسره.

لقد كان الأخ ـ البنديكت بينيتو هيرونيمو فيهو رجلاً عالماً جداً صارع طيلة حياته الخرافات والمعتقدات الوثنية في اسبانيا القرن الثامن عشر. وقد أصبح مؤلفه الموسوعي "مسرح النقد الشامل"، الذي وصفه منذ عام ١٧٢٦ حتى ١٧٤٠ أساساً متيناً بنى عليه صراعه مع مختلف المشعوذين الدينيين الذين هزوا المجتمع بين حين وآخر. وعبر مئات الصفحات المليئة بالنتائج المنطقية فضح فيهو مختلف العجائب والوحوش. وقد تسنى له استيعاب كل الحالات باستثناء قصة فرانسيسكو دي لافيغا. حيث يقول فيهو إن هذا الفتى كان بمثابة مثال واقعي جداً مع أنه غير عادي، على تلاؤم الإنسان مع الكارثة المائية. ولم يشك لحظة في صحة القصة آخذاً بالحسبان أن كثيراً من المعلومات أخذت من أناس ذوي ثقافة عالية.

إن رجال الدين والإقطاعيين والعلماء الذين كانوا شهوداً على مغامرة الإنسان ـ السمكة قدموا عنه المعلومات ل فيهو ممهورة بتواقيعهم إشارة إلى أصالتها، والرسائل الخاصة التي عبرت عن الاهتمام بموضوعه طبعت في الجزء السادس من المؤلف تحت اسم: "عرض فلسفي لحدث نادر في هذا الزمان".

إن المجد الذي اكتسبه فيهو بريشته اللاذعة (الساخرة) التي لم تكن أقل شأناً من مواد أخرى كثيرة، أكسبت القصة بالكامل أهمية ما في نهاية القرن الثامن عشر. ولقد بدأ أشهر علماء الحيوان الأوروبيين بالقدوم إلى لييرغانس.

وبدءاً من هذه اللحظة لم تتوقف محاولات تتبع مصير الإنسان ـ السمكة واستيضاح كل تفاصيل حياته حتى الآن. وفي منتصف ١٩٣٠ ترأس أعمال البحث الدكتور غريفوريو مارانون، الذي كرس فصلاً كاملاً من كتابه "الأفكار البيولوجية للأب فيهو" لهذه الأسطورة. ولقد اقترح فيه نظرية رائعة اعتمدتها الغالبية من زملائه. وحسب مارانون، فإن فرانسيسكو ديلا فيفا كان يعاني من خلل في الغدة الدرقية (مرض القماءة "الغدامة" **kputunzu**) الذي انتشر على نطاق واسع في المناطق الجبلية في ذلك العصر، وكان "أبله، وأبكم تقريباً"، والذي بعد أن ترك قريته الأصلية، ولوحظ آخر مرة على ضفة النهر، اعتبر فجأة أنه غرق. إن ظروف اللقاء معه على ضفاف قاديس وجميع ما ذكر عن قدراته الممتازة في السباحة تأتي حسب رأي الدكتور ضمن الجزء الأسطوري من القصة. أما شكله فلم يفسر حسب نموذج حياة الإنسان ـ التريتون، ولكن وفق مرض يسمى انجتيوزيس (ايكتيوزيس ـ تحرشف الجلد)، حيث يحدث خلاله أن تظهر حراشف على الجلد. إن التمازج المميز للارتباك والحكة لدى الإنسان ـ السمكة المسكين كافٍ للصيادين وسكان العاصمة الأندلسية ليقرروا أنهم قبضوا على وحش بحري غريب.

لقد تسببت نظرية مارانون بضجة كبيرة، ولكن ليست حقيقية، إذ تركت جانباً الفرضية الرئيسية. حيث تم خلال ذلك إهمال شهادات عشرات الصيادين، فضلاً عن الناس الذين عاشوا مع فرانسيسكو زمناً طويلاً.

بعد عدة سنوات، قرر مارانون نفسه أن قصة ابن ليرغانس المشهور برمتها ليست سوى تخيُّل سيء وأسطورة لا تملك أية حجة تثبتها. والشيء ذاته صدر عن علماء القرون السابقة الذين خاب أملهم في إيجاد إثباتات لدى الكنيسة عن الإنسان ـ السمكة وقرروا أنه لم يوجد له أصل يوماً. وعلى الأقل، لم يذكر اسمه في السجلات الرسمية لليرغانس التي جرت بدءاً من القرن الخامس عشر على تنظيمها أبرشية القديس بطرس، وبدا أن القضية مغلقة.

وخلال مئات السنين التي تلت لم تظهر أية إضافات توضح القصة. إلا أنه ظهر نصب تذكاري قرب الشارع المركزي لمدينة كانتا بريا: "إن ملحمته هي أنه اجتاز المحيط من شمال اسبانيا إلى جنوبها، وحتى إذا لم تكن حقيقة فإنها يجب أن تكون قد حدثت. ويمكن اعتبار ملحمته الرئيسية أنه بقي في ذاكرة الناس سواء أكانت هذه حقيقة أم أسطورة، فإن مدينة لييرغانيس تمجده وتخلده".

... كنيسة الكلاريتيتوك، سانتيليان - ديل - مار، كانتابريا. ربما هنا توجد الوسيلة لإبعاد جميع الشكوك؟

"لقد لاقت توسلاتي اللطيفة تأثيراً مثمراً على قلب الأخت إميليا سييرا - يتابع الصحفي الاسباني حديثه. - أمر غير عادي أن يظهر شاب يعلق عدداً من أجهزة التصوير مع دفتر لتدوين الملاحظات وآلة تسجيل، هناك وتحديداً في منطقة لا يأتيها أحد يشبهه. لكنني كنت بحاجة ماسة للدخول إلى هناك. لقد حاولت جاهداً أن أوضح للراهبة عبر ثقب صغير في الباب الخشبي. وبعد تجاوز هذا الباب لاحظت كيف أغلق المدخل من خلفي بقضبان حديدية، ثم وجدت نفسي على بعد بضع سنتيمترات من الكنوز التي أبحث عنها - وثائق الكنيسة، التي بقيت كما فهمت، مجهولة تماماً طيلة سنين طويلة في هذه الرفوف. وهكذا وصلت إلى الهدف الذي أملت بمساعدته أن أنفذ إلى اللغز السحري الذي طفت من أجله في دروب كانتابريا".

إلا أنه ومع تقدم عقارب الساعة تناقصت ثقة إيكر إيليزار أكثر وأكثر، وخاصة عندما تسنى له إيجاد أحد كتب أبرشية لييرغانس الذي صدر في نفس التاريخ. حيث لم يرد فيها أي ذكر لفرانسيسكو ديلا فيغا! وهنا، وعلى نحو مفاجئ، أعيد إلى العالم الحقيقي حين شاهد استغراب الراهبة.لقد أشارت بإصبعها التي كانت ترتجف إلى بضعة سطور كتبت بشكل غير واضح، وبالكاد أمكن قراءتها وخاصة في هذه الغرفة المظلمة.

ولكن لم يكن هناك أية شكوك: فبعد تقريب الكتاب إلى النافذة أيقنا أن الكتابات كان بيد بيدرو إيراسو مييرا، وهو رجل دين خدم في أبرشية لييرغانس في بداية القرن السابع عشر! لقد ضمت هذه الرزمة من الأوراق فائقة الأهمية السجلات الكنسية التي خصّت فرانسيسكو ديلا فيغا كاسار، الإنسان ـ السمكة.

انتقلت السعادة التي غمرت إيكر إلى الأخت إيميليا، التي تابعت بحماس تقليب صفحات التعميد، والزيجات والوفيات. وبشيء من الصبر ظهرت أمام أعينهما وثيقة رائعة. لقد كان كتاب سجل الوفيات لأبرشية لييرغانس في الفترة من ١٧٢٢ حتى ١٨١٤م.

وهنا، وفي الصفحة رقم ١٠٦ وجد تسجيل بخط أسقف آخر هو انطونيو فرنانديس دل أويو فينيرو، وكان إعلاناً رسمياً عن وفاة فرانسيسكو دي لافيغا، المسمى الإنسان ـ السمكة، وأخيه المختفي خوسيه! ومن هنا يمكن الاستنتاج أنه وفقاً لقوانين ذلك العصر، لزم الانتظار مئة عام قبل إعلان الإنسان المختفي ميتاً.

" لقد كانت الحقائق فعلاً بين يدي المرتجفتين بسبب الاضطراب، وليس هناك ما علي نفيه. لقد عاش الإنسان ـ السمكة فعلاً في هذه الأماكن، ويمكننا إثبات ذلك". هذا ما أكده الباحث. وهذا هو الأهم. ومن هذه اللحظة بدأت مغامراته تحت الماء في أعماق البحر تمثل تحدياً. إنه لغز حقيقي لايختياندر يستحيل بعد الآن نسبه إلى الخرافات.

الهليريون الفلبينيون

من هم يا ترى؟

لقد كُتبت عنهم أشياء كثيرة لم تحدث يوماً، لدرجة أننا لا نريد تصديق أي شيء له علاقة بظاهرة الاستشفاء الروحي الفلبينية. ولكن بعد التعرف إلى طبيب المعالجة بالطاقة الكسندر غريفوريف، الذي زار غير مرة الهيلريين في وطنهم والذي دعاهم إلى روسيا توضحت الصورة. وهاكم الحقيقة حول الهيلريين.

يمكن تقسيم الممارسات الطبية في الفلبين بالكامل بشكل شرطي إلى الطب بالمعنى المباشر له (المرخص من قبل الحكومة ويستخدم الأشكال التقليدية للعلاج) والعلاج الروحي. لن نتوقف عند النوع الأول، وسنكتفي بالقول إن المراكز الطبية، والمستوصفات ومعاهد هذا البلد تعتبر بحق الأحدث في جنوب شرق آسيا والأفضل من حيث التجهيزات.

لا يمكن التأكيد بأن العلاج الروحي الفلبيني يتجلى فقط في ما يسمى العمليات النفسية الدموية. فهذا يمثل اتجاهاً محدداً (لنقل إنه الأشهر) للعلاج الفلبيني. إذ يمكن نسب جميع الهيلريين إلى إحدى المجموعات الخمسة التالية:

المجموعة الأولى: الهيلريون الذين يستخدمون العلاج بالأعشاب. وهو النمط الأبسط والأكثر انتشاراً ووضوحاً في العلاج. ومن الناحية العملية يلجأ كل

معالج في الفلبين إلى طريقة العلاج بالأعشاب. ولا يثق المعالج بأي شخص آخر لجمعها وتحضيرها، فهو يعتبر ذلك عمله لوحده. وعدا عن منقوع الأعشاب يستخدم المعالج المواهب الأخرى التي منحته إياها الطبيعة. تنبت في الفلبين شجرة عجيبة اسمها بانافا (باناوا). فإذا ما سكبت من هذه الشجرة ماء في كأس، ترى أنه يصبح سماوي اللون ويكتسب خواص علاجية، ويستخدم لعلاج الكليتين.

المجموعة الثانية: الهيلريون الذين يستخدمون في العلاج الصلوات والوسائل الذهنية، ويدخل جميع الهيلريون المشهورون في البلاد ضمن هذه المجموعة. فهم يعالجون بواسطة طاقتهم الروحية (الإحساسية)، التي تنشأ لدى المعالج في حالة النشوة الروحية الدينية، في هذه الحالة يتم العلاج بواسطة مساجات قدروية محددة فوق القطاعات المصابة من الجسم أو بوضع اليد فقط.

المجموعة الثالثة: الهيلريّون "النفسيون"، الذين يلجأون أثناء العلاج إلى العمليات النفسية الدموية. وهذه المجموعة تحديداً هي من يثير الاهتمام في العالم، لأنه إذا ما اعتمدنا المنطق العادي والفكر السليم، فإنه لا يمكن إيجاد تفسير منطقي لهذه الظاهرة، وتبقى تمثل بالنسبة لكثيرين شيئاً من المعجزات كما في الماضي.

المجموعة الرابعة: الهيلريون الذين يستخدمون المعالجة القدروية فقط. ولا تستخدم خلال العلاج أية طقوس دينية أو عبادات. وتشمل هذه الفئة جميع الهيلريين الذين يمكن أن نصفهم بمفهوم "**extrasence**". وهذا العلاج فعال جداً حتى في الحالات الصعبة، ويتم في أزمنة مضغوطة جداً.

وتضم **المجموعة الخامسة** أقل عدد من الهيلريين، وهم الذين يستخدمون في ممارستهم الطبية العلاج بالفعل المنعكس والتدليك التقليدي. ويستخدم

المعالجون بهذه الطريقة عادة العلاج بالمواد الطبيعية (العلاج بالكريستال، العلاج بالأحجار الكريمة). وتمارس غالبية الهيلريين في هذه المجموعة الطب في جزيرة ميندناو وفي مصحة باغيو. والملفت في الأمر أن جميع المعالجين الناجحين بدؤوا عملهم باستخدام هذه الأشكال الطبية تحديداً.

يوجد في الفلبين أشكال أخرى كثيرة للعلاج، تشمل بعض أشكال "السحر الأبيض"، إلا أن هذا العلاج ليس شائعاً كثيراً لأن النظرة تجاه "العلاج الصوفي" حذرة وسط المعالجين والمرضى. راقبت مجموعة الكسندر غريغورييف بشكل مباشر العمليات النفسية الدموية وحاولت استيعاب آليتها وإعطاء تفسير منطقي للظاهرة.

إذاً، إن العملية النفسية هي إجراء خاص من العلاج الروحي. حيث يشمل عادة تدخلاً خالياً من الألم في الجسم البشري بواسطة الأيدي العارية للهلير، الذي يقوم باستئصال العضو المريض أو الورم (أو المد الموضعي للعضو المريض بالطاقة)، وإغلاق مكان التدخل بدون خيط أو أية آثار ناتجة مرئية أخرى. وحيث أن ذلك يعاكس كل قوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا المتعارف عليها، فإن العلماء ينظرون إلى العمليات النفسية على أنها سحر، حيلة، أو تنويم مغناطيسي جماعي، بالرغم من البراهين الواضحة لنتائج العلاج المذهلة. ولحسن الحظ، تم الآن صنع أجهزة فنية حديثة تسجل بوضوح التأثير القدروي، وتأثير الناس على بعضهم.

تسمح نتائج الدراسات الفردية التي قام بها علماء غربيون (وفي عام ١٩٧٧ ـ انضم لهم الروس) الإعلان بكل ثقة أن ظاهرة العمليات الدموية موجودة حقيقة: تجري جميع العمليات من هذا النوع دون تخدير: ولا تستخدم خلال ذلك المشارط والشفرات أو غيرها من وسائل الجراحة؛ ويختلف زمن العملية من ١ دقيقة حتى ١٠ دقائق؛ كما أنه لا يتم إجراء أي تعقيم خاص لا لثياب ولا

لأيدي المعالج لا قبل العملية ولا بعدها؛ وخلال العملية، لا يعاني المريض من أي إزعاج أو إحساس بالألم؛ ولا ترى بعد العملية أية آثار من أي نوع.

كان الكسندر غريفورييف شاهداً على عشرات العمليات النفسية، ولكننا سنتوقف عند ثلاث منها فقط، وخاصة تلك التي أدهشته. تتعلق الحالة الأولى بعملية تخص العيون.

إن هذا النمط من العلاج يعتبر الأصعب والأعقد بين الهيلريين، ويحظى الشخص القادر على القيام بهكذا عمليات باحترام كبير. لقد شاهد الباحثون كيف أن الهيلر قام بعملية لعلاج الماء الأزرق في العين. بعد أن مددوا المريض على الأريكة. قام المعالج بتشكيل حقل كثيف من الطاقة قرب العين اليسرى للمريض. وفجأة اتبعه برمية حادة لأيدي الهيلر نحو الأسفل ـ وبعدها صار يحرك إصبعه الكبيرة في العين مباشرة. ويقول غريفورييف: ـ بينما كنت أراقب حركة الإصبع، توقعت أن ألحظ ولو إشارة بسيطة تدل على خوف المريض أو إحساسه بالألم. إلا أن عضلة لم تتحرك في وجهه، وقد كانت العملية خالية تماماً من الألم. وبعد بضعة ثوان رمى الهيلر غشاء الماء الأزرق في زجاجة ووضعها أما ناظري المريض. لم تظهر بعد العملية أية آثار، إذا تغاضينا عن الاحمرار البسيط للصُّلبة (وهي الغشاء الأبيض الصلب للعين)، وقد اختفى بعد بضعة ثوانٍ. أحس المريض بتحسن فوري في بصره بعد العملية فوراً".

في هذا الوقت كان المريض الذي عانى من حصى في المرارة قد استلقى على الطاولة. قام الهيلر بإدخال إصبعه الرابع من اليد اليمنى في جسد المريض في الخاصرة اليمنى. وعندما اختفت أصابعه في جسد الرجل، لم يتمكن المراقبون من كتم دهشتهم. بعد عدة ثوان انتزع الهيلر أمام أعيننا حصى ورماه في المرطبان. لم تجر أية خياطة لمكان الجرح، وبالرغم من ذلك لم يلاحظ أي أثر للعملية التي تمت للتو.

ويكمل طبيب العلاج بالطاقة الحيوية الروسي: الحالة الثالثة التي أذهلتني كانت عملية المريض المصاب بالسرطان. كان المريض رجل أعمال ياباني. وقد مضى عليه عدة أشهر وهو يتعذب نتيجة ورم سرطاني في الأمعاء. لقد جرب العديد من أنظمة العلاج التقليدية، بما في ذلك العلاج بالكيمياء. لكن بدون نتيجة. عندها حسم أمره للمعالجة لدى الهيلر الفلبينيين. ولقد كانت هذه فرصته الأخيرة. لقد أحضروه في اليوم الأول على النقالة، فلم يكن يستطيع المشي. في هذه المرة قام الهيلر باستئصال الورم. لقد كان منظراً مؤثراً جداً، ولكن ليس لذوي الأعصاب الضعيفة. فبحركة رشيقة من يدي الهيلر قام بفتح جسد المريض، وبعد بضع ثوان كان الهيلر قد بدأ يحرك يديه في كولون مكشوف تماماً. وبعد دقيقتين أو ثلاثة انتهى من استئصال الورم. إلا أنه احتاج لعدة عمليات لإيصال القدرة الموضعية للأعضاء المريضة. لقد عجبت أيما عجب عندما شاهدت ذاك الرجل نفسه بعد ١٩ يوماً وقد وقف عل قدميه والابتسامة تعلو وجهه".

يمكن التأكيد بكل شجاعة أن العمليات من هذا المستوى تتم في الفلبين فقط، ولكن لا يمكن الجزم بأن هذه الظاهرة تقتصر على الفلبين. فلقد ظهر معالجون مماثلون في الخمسينات في البرازيل. ولقد كتبت الصحافة عن معالج مشهور اسمه جوزيف أريغو. إلا أنه كان يستخدم سكيناً مثلما خلال العمليات النفسية، في الوقت الذي يستخدم فيه المعالجون الفلبينيون أصابع اليدين فقط. يمكن كذلك ذكر المعالج النفسي السويسري الدكتور هانس نايفيلي، الذي مارس العمليات النفسية بأشكال متخلفة (بدائية).

أساليب شبيهة للعلاج لجأ إليها كذلك معالجون من اندونيسيا، وحوض الأمازون وإفريقيا، ولكن أعود وأكرر أن القيام بعمليات على هذا المستوى العالي اقتصر على الفلبينيين وحدهم.

إذاً، لماذا تتركز هذه العبقريات بشكل أساسي في الفلبين؟ يتابع غريفورييف: "لا أستطيع تقديم إجابة بسيطة على هذا لسؤال، ولكن اسمحوا لي أن أقدم لكم بعض الفرضيات.

أولاً: يعتبر الفلبينيون أنفسهم أولاد الطبيعة ويتصرفون انطلاقاً من ذلك، ويعتقدون بقوتها العظيمة. وحتى قبل غزو الأسبان للفلبين في العام ١٥٢١ كانت لدى السكان الأصليين عقيدة عظيمة وقوية في "أنيتوس" و"إنكانتوس". روحي الطبيعة، اللذين يعيشان في الغابات، والجبال والكهوف وفي الماء والحجارة. كل ذلك كان متجاوراً وقريباً، ولذلك كان الإيمان بالأرواح أمراً طبيعياً. لقد كانت الطبيعة رفيقاً وصديقاً للمعالج في صراعه مع الأمراض. ويسود اعتقاد كذلك أن الفلبيني قادر على فهم العالم المحيط والفضاء كوحدة متكاملة وليس بواسطة الحواس الخمسة المعروفة لدينا.

ثانياً: يعتقد الفلبينيون أن بلدهم هو أحد أجزاء القارة الميتة ليموريا، التي غرقت قبل مئات آلاف السنين من ظهور أطلنطا. ويقولون كذلك إن إقليم بانغاسينان كان مركزاً للحضارة الليموريانية. وحسب وجهة النظر هذه، يعود أصل الفلبينيين إلى الليموريانيين القدامى الذين كان بمقدورهم استقبال وتوليد الطاقة النفسية والتحكم بها.

ثالثاً: لا يمكن إلا أن نذكر نظام التربية الخاص والأقسى للهيلر، والذي يتضمن إلى جانب التربية الروحية (وهي الأهم)، التدريب العملي الخاص. حيث يستمر هذا التعليم عشرات السنين أحياناً. وموضوع التعليم يستحق منا حديثا خاصاً".

لكن دعونا نحاول إعطاء هذه الظاهرة تفسيراً منطقياً بعض الشيء من وجهة نظر العلم الحديث. وهنا لابد من البحث في العملية النفسية من موقع العالم المادي وطبيعة الكون، وافتراض وجود مستويات أخرى من الواقع

تحـدث في نطاقهـا المعالجـة. وبـدون ذلـك لا يمكـن تفـسير هـذه الظـاهرة، ولا التصديق بها. ويجب علينا الاعتراف بحقيقـة وجـود ظـاهرة غير طبيعيـة وعمليـة فيزيائية غير عادية.

من وجهة نظرنا، يستطيع الهيلريون التحكم بحركـات أيديهم علـى نحـو فريد عن طريق التركيز الكثيف لطاقة الأثير حول يدي المعـالج. وخـلال ذلـك تأخـذ أصـابع الهيلـريين وضـعية خاصـة تكـون خلالهـا قـادرة علـى الـدخول في الجسم. وأغلب الظن أنها نفسها الطاقـة الـتي يمكـن لممارسـي اليوغـا توليـدها وتشكيلها حـول أجسادهم، ممـا يمكـنهم مـن الـسير عبر النـار وعلـى الفحـم المتوهج. وربمـا هـي نفسها الطاقـة الـتي يـستخدمها لاعبـو الكـاراتيـه، عنـدما يشكلونها حول أيديهم، مما يـسمح لهـم بكـسر الكتـل الإسمنتيـة والعـوارض الخشبية دون أن يشعروا بالألم. والمهم من ذلك هو حالة التركيز. فإذا مـا خـرج الهيلر خلال العمل، مـن هـذه الحالـة (بـسبب الـضجيج الحـاد أو غير ذلـك) فـإن النتـائج يمكـن أن تكـون محزنـة جـداً (غـير انـه يوجـد هيلـر قـادرون علـى المحافظة على حالة التركيز في ظروف الضجيج العالي، ويمكنهم خلال ذلـك التحدث مع المريض).

تقـدم العـالم الانكليـزي المـشهور هارولـد شـيرمان بفرضـية ملفتـة حـول الطبيعـة الكهرطيـسية للظـاهرة الفلبينيـة. فهـو يعتـبر أن الهيلـر لا يقـوم خـلال العملية بقص نسيج الخلايا، وإن ما يفعله ببساطة هـو انـه يفـصل الأنـسجة عـن بعـضها الـبعض بواسـطة الاسـتقطاب. وخـلال ذلـك ينفـصل نـسيج الخليـة ذو الإشارة "+" عن النسيج ذو الإشـارة "- "، الـذي يبعـده الهيلـر، ثـم يعـود النـسيج إلى حالته الابتدائية.

عـالم الفيزيـاء الألمـاني ألفريـد شـيلتر كـذلك يعتبر أن "التحلل والتركيـب والتحريك اللاحسّي هي العوامل الأسـاسية للعمليات النفسية". والتحلـل بمفهـوم ستيلتر هو انحلال المادة العضوية التي تتحول إلى حالة جديدة من الطاقـة والـتي

لا يمكـن نـسبها إلى أيـة حالـة مـن الحـالات الأربـع للمـادة (الحالـة الـصلبة، الغازية، السائلة، البلازما).

إلا أن الأمـر الرئيـسي هنـا خـلال المعالجـة لـيس العمليـة نفـسها، بـل عمـل المعـالج ذو الطاقـة الروحيـة. إن طاقـة الجـسم النجميـة الـتي تنطلـق مـن وسـط الأصـابع ومركـز كـف الهيلـر تنفـذ إلى داخـل الجـسم المـادي (الفيزيـائي) وتستقـصي القطاعـات المتـضررة. مـع العلـم أن الدراسـات الأخـيرة لعلمـاء ألمـان أظهرت أن هذه الطاقـة قـادرة علـى النفـاذ أبعـد مـن الأمـواج الراديويـة. ويمكـن عمومـاً التأكيـد أن ظـاهرة العـلاج الفلبينيـة تولـد جملـة كاملـة مـن المشاكـل (القضايا).

يجب على الطب الابتعاد عـن النظـرة المادية البحتـة إلى الإنـسان والاعـتراف بحق الطرق الروحية في التأثير علـى الـصحة، علـى الأقـل لأنهـا تعطـي مثـل هـذا الفعـل. الهيلـر الروحـانيون بـدورهم، يجـب أن يفهمـوا أن الإنـسان لـيس روحـاً فقط، بل وجسم مادي أيضاً، وأن بعـض الأمـراض يفـضل معالجتهـا باسـتخدام أحدث ما توصلت إليه العلوم.

يجـب أن نفكـر أن الاعـتراف بالظـاهرة الفلبينيـة حـصل بـسهولة. فلقـد تعـرض الهيلريـون قبـل ذلـك لـسنوات عديـدة للإهانـة والملاحقـة. وفي نهايـة الـستينات كانـت هنـاك حملـة ملاحقـة قانونيـة، وقـد وضـع بعـض الهيلـر في الـسجن بـسبب ممارسـة العـلاج بـدون تـرخيص. يمكـن التأكـد أن المعجـزة الفلبينية بقيت فقط بفضل الأنصار ذوي المراتب العالية جداً.

يـرتبط ذلـك بـدوره باسـم رئـيس الفلـبين في ذلـك الوقـت فرديناند مـاركوس (الذي حكم البلاد منذ عام ١٩٦٥ حتى ١٩٨٦) وزوجته إيميلدا. "الـزوج الفلـبيني الأول" الـذي أظهـر احترامـاً كـبيراً وصـبراً تجـاه الهيلـر، الـذين يتـذكرون ذلـك بدفء كبير. لقد كان اعتقاد الأسـرة الحاكمة في الطاقة الروحية معروفاً لـدى

الجميع. وخلال خطابه في التلفزيون المحلي أعلن الرئيس: "أنا أعتقد بالطاقة الروحية، وبالحدس، وهذا الاعتقاد متمكن في حياتي كلها. لقد اتجهت ذات مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن وبعد ربع ساعة من الطيران أحسست بخطر متزايد. وقد فكرت بأن شيئاً ما سيئاً حصل لإيميلدا. وعندها أعطيت الأوامر بالعودة. وقد تبين في هذا الوقت أن زوجتي كانت في خطر كبير في المحيط. وهذه المصادفة وحدها هي ما ساعدني على إنقاذها. وقد حدث ذلك معي مرات عديدة، ولا أستطيع القول أن ذلك كان محض صدفة بسيطة. أما ما يخص الهيلر الفلبينيون فإنني أعلن أنهم يمثلون فخرنا القومي، وهم معروفون للعالم أجمع. السيد ريغان (رئيس سابق لأمريكا) والسيدة تاتشر (رئيسة وزراء بريطانيا السابقة) الذين خضعا لعمليات من قبل الهيلر الفلبيين وتعافيا، هتفا لي وشكراني على هذه المعجزة...".



زومبي

الموتى المتحركون

من هم يا ترى الزومبي ـ كائنات ليست حية، ولكن ليست ميتة، وغالباً ما تجري مصادفتها في هاييتي؟ وهل الزومبي بالفعل ـ جسم ميت بدون عقل وبدون روح. هل يخضعون لسلطة السحرة الذين استعبدوهم بعد أن سيطروا على أرواحهم؟

إن سكان هاييتي يصدقون بوجود الزومبي، يصدقون ويخافون. هل هم موجودون يا ترى؟ ولإثبات ذلك يقدمون أمثلة كثيرة، حتى أن حياة الفودو تشهد بأن الموتى المتحركون هم خدم السحرة الشياطين. وحتى إذا كانت مخلوقات مثل الزومبي موجودة، فهل يا ترى هم أموات متحركون بالفعل؟ وهل يمكن تقديم تفسير منطقي لحالتهم الغريبة؟

"أسوأ ما فيهم العينان. وهذا ليس فعل مخيلتي على الإطلاق. فلقد كانت عينا ميت، ولكن ليس عمياء وإنما ملتهبة فاقدة التركيز ولا ترى. ولذلك كان الوجه مخيفاً. وكان فارغاً لدرجة يبدو أن لا شيء موجود خلفه. ليس فاقداً للتعبير وحسب، وإنما لغياب إمكانية التعبير. وحتى هذه اللحظة استطعت أن أرى في هايتي عدداً كبيراً من الأشياء التي لا علاقة لها بالخبرة

الإنسانية العادية، لدرجة أنني توقفت عن التفكير للحظة، وفكرت، أو بالأحرى أحسست: "أيها الرب العظيم، ربما لا قيمة لكل ذلك..".

هكذا يصف وليم سيبروك لقاءه مع كائن هو الأكثر حقداً بين جميع المخلوقات غير العادية. لقد اصطدم سيبروك وجهاً لوجه مع زومبي ـ ميت متحرك. وقد كان مستعداً في هذه اللحظة ليصدق كل ما سمعه عن الزومبي من لحظة وصوله الأولى إلى هاييتي.

إن مصير الزومبي أكثر رعباً من قدر الناس ـ الذئاب أو المتحولين. إن الناس ـ الذئاب يعودون إلى البشر الذين يحبونهم. يمكن التعرف عليهم وإيقافهم. كما يمكن جرح المتحول وسيتخذ الهيئة البشرية. ولكن الزومبي هو آلي بدون عقل، محكوم عليه العيش نصف نائم. يمكن للزومبي أن يتحرك، ويأكل ويسمع ويتحدث حتى، ولكنه لا يتذكر أي شيء عن ماضيه ولا يعرف شيئاً عن حاضره. يمكنه أن يتجاوز الذين أحبهم، أو يمر بالقرب من بيته الخاص دون أن تبرق عيناه بالتعرف إليهم.

ليس شبحاً، وليس كائناً حياً. لقد توضع الزومبي وربما إلى الأبد، في هذه "المنطقة الحدودية بين الحياة والموت". وإذا كان الناس ـ الذئاب هم أحياء ميتون، فإن الزومبي هم أموات متحركون، جسد بدون روح وعقل. وقد اكتسبوا مظهر الحياة بمساعدة السحر. وهم من نتاج السحرة الذين يستخدمونهم كعبيد خاصين لهم أو يؤجرونهم في أغلب الحالات للعمل في الحقول.

هاييتي ـ بلد هذه الظاهرة تفيض بالقصص حول الناس الذين ماتوا وتم دفنهم، وبعد بعض الوقت ظهروا فجأة بعد أن أصبحوا زومبي. توجد قصة مشهورة من بين القصص التي وصفتها لأول مرة الكاتبة الأمريكية زورا هيرستون عام ١٩٣٨ يرويها سكان هاييتي حتى الآن. في عام ١٩٠٩ ماتت فتاة

شابة جميلة اسمها ماريا. وبعد موتها بخمس سنوات، لاحظها زملاؤها السابقون في المدرسة في نافذة أحد البيوت في العاصمة الهاييتية بورت أو برنس. رفض صاحب المنزل إعطاء أي تفسير، أما أبو الفتاة فأخذ الأمر على عاتقه. وعندما وجدوا البيت كان صاحبه وماريا قد خرجا. وفي ذلك الوقت سرت شائعات في بورت أو برنس، ولتهدئة الرأي العام تم نبش قبر الفتاة. في التابوت وجد هيكل عظمي طويل جداً بالنسبة لطفلة. وقد تم لفه بعناية بالثياب التي كانوا قد دفنوا بها ماريا.

وقد تحدثوا أن ساحراً نبشها وحولها إلى زومبي، وعندما مات قامت أرملته بنقلها إلى رجل دين كاثوليكي. وبعد أن رآها زملاء المدرسة قالوا إنه تسنى لوالديها إخراجها من هاييتي إلى فرنسا بعد أن ألبسوها ثياب راهبة. وأن أخاها زارها هنا في وقت لاحق.

إلا أن ذلك ليس تقليدياً بالنسبة للقصص حول الزومبي لأن الناحية الأكثر حزناً فيهم هو عدم قدرة أحد على مساعدتهم. وغالباً ما يجهل الأصدقاء والأسرة ما حدث، وإذا ما عرفوا فإنهم يكونون في حالة من الرعب الشديد ولا يمكنهم المساعدة في شيء.

تورد زورا هيرستون القصة التالية التي حدثتها بها أم فتى ميت. بعد الدفن، وفي منتصف الليل استيقظ أصدقاؤه على امرأة وابنتها خائفتين. وقد تبين أن الأخت سمعت فجأة في الليل غناء وضجيجاً في الشارع. بعد ذلك تعرفت إلى صوت أخيها. وقد أيقظ بكاؤها كل سكان البناية، وعندما نظروا من النافذة رأى أصحاب البيت موكباً حاقداً يتجول على طول الشارع ورأوا الفتى الذي دفن في الأمس. وعندما أصبح قبالة نافذة البيت وهو بالكاد ينقل قدميه، سمع الجميع بكاءه. تقول زورا هيرستون. أن الرعب الذي أوحت به هذه الكائنات وصل لدرجة أن الأم وابنتها لم تجرأا على الخروج إلى الشارع ومحاولة إنقاذه. اختفى الموكب عن النظر. بعد ذلك جُنَّت أخت الفتى.

ولكن ما سر خوف الهايتيين من الزومبي؟ وما الذي سيحدث للذين يحاولون تحرير أقربائهم الموتى؟ وهل الزومبي موجودون بالفعل؟ لإلقاء الضوء على جميع هذه القضايا يلزم الالتفات إلى ماضي هاييتي وبشكل رئيسي إلى المعتقدات والطقوس الدينية للفودو.

- **الفودو:** هي مزيج فزيد من معتقدات الافريقيين والكاثوليك وحتى بعض الهنود الحمر وكذلك الأوروبيين الذين يؤمنون بالغيبيات. ولكن أعمق الجذور تمتد في إفريقيا، ويتفق ظهور الفودو مع وصول دفعة كبيرة من العبيد الإفريقيين إلى هاييتي. لقد بدأ عصر رهيب في حياة الإنسانية عندما امتلك الإسبان هاييتي في القرن السادس عشر، ورأى النهضة في القرن السابع عشر، عندما انتقلت جزيرة هاييتي إلى فرنسا. لقد أصبحت واحدة من أغنى المستعمرات الفرنسية. وللإبقاء على هذا الوضع كان لابد من العبيد. كان تجار الرقيق الأوروبيين قد أمنوا مزارع العالم الجديد بالعبيد من الساحل الغربي لإفريقيا وكانوا على استعداد لتلبية الحاجة المتزايدة للفرنسيين. وفي الحالات التي كانت تظهر لدى السلطات الفرنسية صعوبات حقوقية في ما يخص تجارة العبيد، كانوا يعتمدون حجة لذلك وهي أنها الطريق الأفضل لتحويل الوثنيين الأفارقة إلى مسيحيين. وقد أصبح عدد كبير من العبيد أتباع الكنيسة الكاثوليكية.وكانوا يغيرون معتقدهم (مذهبهم) المسيحي بسهولة حسب المزاج والحاجة، وقد خلطوا الطقوس المسيحية مع طقوسهم الدينية السابقة. وقد بقي هذا الخلط حتى الآن. واليوم، وبالرغم من عدم موافقة الكنيسة، فإن كثيرين من سكان هاييتي ما يزالون يعتقدون بالكاثوليكية والفودو في آن معاً.

لقد جرى إحضار العبيد إلى هاييتي من جميع أنحاء إفريقيا الغربية، ولكن غالبيتهم كانت تنتمي إلى القبائل التي تحدثت بلغة يوروبا. لقد اعتقدت هذه القبائل بارتباط الأرواح. وبالرغم من مفارقتهم لوطنهم وأسرهم

ونقلهم في ظروف سيئة جداً إلى بلدان مجهولة بالنسبة لهم، بقي العبيد أوفياء وحافظوا على عاداتهم. وقد استمروا كما في السابق في احترام السحر وتذكروا الآلهة وأرواح الأسلاف الذين انحنوا لهم في غابات إفريقيا، مما شكل أساساً لتشكيل مذهب الفودو في هاييتي. لقد وحدت الديانة الجديدة الشعب الذي فقد وجوده وجمعته المعاناة. ولذلك سارعت السلطات الفرنسية لحظر الفودو. وبذلك زادت شعبية الفودو، وكذلك مكونته الصوفية الحاقدة.

لقد كان الرق تجارة ممتازة. وحتى عام ١٧٥٠ كان يجري إحضار ٣٠٠٠٠ عبد كل عام إلى هاييتي. وقد استبدل جيل بآخر، وقد تزايد الضجر والشوق للماضي وكان ذلك بمثابة تربة للثورة. وأخيراً، وفي عام ١٧٥٧ حاولت جزيرة هاييتي الحصول على الاستقلال. وقد قاد ثورة العبيد المتطرفين الهاربين ماكاندال، إلا أن الفرنسيين قبضوا عليه وأعدموه. وقد سرعت الإضرابات التالية إعلان استقلال هاييتي في العام ١٨٠٤م. ومع خروج المستعمرين الفرنسيين حملة الديانة الكاثوليكية انتشرت الفودو في كل مكان.

تملك ديانة الفودو ناحيتين: الأولى ـ الاعتقاد وتقديس الآلهة الخاصة بها ـ كما في الدينية التقليدية. ولكن يوجد فودو صوفية لها علاقة بالسحر الأسود. والإيمان بالوحوش والقتلة وبعث الأموات. والجزء الأهم في بعض الطقوس هو الدم حيث يقدمون ضحايا من الخنازير والدجاج والديكة.

تجري طقوس الفودو في أماكن تسمى مجالس. يمكن أن يتمثل المجلس بكوخ حقير ذي أرضية متسخة، وكذلك مبنى عصري، ولكن في كل الحالات يجب أن يحتوي على ساحة من أجل الرقص الطقوسي. وفي الرقص تحديداً يعيش المشاركون الخبرة الرئيسية للفودو وهي تجسد الأرواح. الرقص، والغناء، وضرب الطبول تشكل جميعها موقفاً يمكن أن يشكل الفودو والروح

فيه وحدة متكاملة، وتأتي لحظة يصل عندها الراقصون إلى النشوة، التي تنتهي بفقدان الوعي.

يمكن أن يتجسد في الراقصين أي من الآلهة والأرواح الكثيرة، والذين تحمل غالبيتهم أسماء افريقية. في هذه اللحظة يكون الشخص الذي يتملكه روح واثقاً تماماً من أنه "أصبح" بالفعل صاحب الروح المتجسد به ويتخذ شكله الخارجي وحركاته وسلوكه. وهكذا فإن من امتلك جسده الروح القديمة للأب لغبا، الذي يحرس البوابة المؤدية إلى العوالم الأخرى ويعتبر إله تقاطعات الطرق، والذي رمزه العكاز، حيث يهرم أمام أعين الناظرين ويبدأ بالعرج. عندما يتعرف المحيطون إلى الروح يتسارعون للمساعدة حاملين معهم عكازات. وسيجدِّف إله البحر بمجاديف غير مرئية. وسيتصرف الشخص الذي تقمصه إله أنثى بدلال وغناج وإغراء. أحد هذه الآلهة التقليدية هي داغوصي ـ أغاسا، وهي تركيب جيد لامرأة وفهد، وتحتفظ بسلطتها على هاييتي كذلك، مجبرة الأشخاص الذين تتجسد بهم على ثني أصابعهم كما المخالب. يمكن للأرواح الشريرة أن تسبب للذين تتقمصهم التشنج. ويستمر التجسد لعدة ساعات، وخلال ذلك يستطيع الشخص السير على الفحم المتوهج دون إحساس بالألم، وغمر أكفه في الماء الذي يغلي كما يحدث في بعض القبائل الإفريقية، حيث يمكن للناس قطع أصابعهم في حالة النشوة.

بعد أن زار الباحث باتريك ليي فيرمر هايتي، اقترح التفسير التالي لحدوث التقمص أو "التجسد" المفترض للرب. وفي كتابه "شجرة الرحالة"، الذي أصدره في العام ١٩٥٠ يذكر: "يجري تدريب كل شخص من سكان هاييتي من الطفولة المبكرة على الاستعداد للحظة التجسُّد، وهو يعلم أن هذه المعجزة ستحدث في "المجلس ـ النفق" حيث أن الهواء مشبع بالأسرار وتؤثر دقات الطبول فيزيائياً تقريباً على عقله وتحت تأثير الطبول والرقص والوجود الإلهي سيدخل في حالة من الهستيريا، ومنها ينتقل إلى حالة من التنويم المغناطيسي الذاتي".

وبمساعدة المخطط الكهربائي لالتهاب الدماغ تم إثبات أن دماغ الإنسان حساس جداً للتأثيرات الإيقاعية. وبهذا الشكل، يمكن لرجل الدين (الخونفان) أن يرفع من مستوى الإيحاء (الوحي) بتغيير ارتفاع ونغمة وإيقاع الطقوس الاحتفالية. وللمساعدة في الدخول في حالة التجسد يمتلك الخونفان بودرة وأعشاب مسحورة، ولكن يقال إنه في هذه الحالة الطقوسية المحمومة يمكن أن لا يحتاج الفودو لأكثر من شيء عادي كالفلفل مثلاً.

يرى الفودو أن الآلهة لا يمكنها الدخول في الجسد إذا كانت الروح ما تزال هناك. وهذا هو ما يخفِّز التجسد. ويعتبرون أن الروح تتألف من جزأين: ملاك طيب كبير وملاك طيب صغير. الروح الأولى هي ما يمكننا تسميته وعي الذات. وهي تشكل الجوهر الإنساني والروح وتجعل من الإنسان ما هو عليه. وبدون الملاك الكبير يفقد الملاك الصغير والجسد العلاقة بينهما. وأثناء التجسُّد يتم طرد الملاك الكبير ولا يعود الإنسان هو نفسه وإنما يصبح الإله الذي احتل جسده. تنتهي حالة التجسد عادة دون تدخل الإنسان، ويعود الملاك الكبير للبودو إلى مكانه. ولكن في بعض الحالات تكون هناك حاجة للخونفان. وبعد الموت يجب الاهتمام باختيار مسكن جديد للروح المحررة من الجسم. إن الروح التي تقضي بعض الوقت في قاع النهر يتم استدعاؤها من قبل الخونفان ضمن طقوس خاصة وتوضع في صندوق مقدس يكون بديلاً للجسم. وهكذا تصبح روح السلف الذي يقدم النصائح ويحمي أسرته.

إن الفكرة حول الروح تكمن في أساس خرافات كثيرة لدى الفودو، بما فيها الاعتقاد في الزومبي. وفي لحظة الطرد يمكن للروح أن تقع في يد الشيطان. إن امتلاك الجسد بدون الروح التي حل مكانها إله، أمر مناسب طبعاً، ولكن يمكن ببعض الحيل الشيطانية أن يحتله ساحر.

إن السحرة الفودو، أو البوكور - هي كائنات مرعبة كفاية، ويتواصلون مع الموتى من أجل صالحهم الخاص ولصالح زبائنهم، ويمارسون أفظع

أشـكال الـسحر. وأحياناً يكـون الخونفـان (رجل الـدين) والبوكـور متمـثلين بالشخص نفسه؛ إن رجل الدين لدى الفودو، كما جميع رجال الدين، يجب أن يكون على معرفة بالسحر ليصارعه بنجاح. يمكن اليوم أن يقوم الخونفان بشحن لعنة بمساعدة السحر الأبيض وأن يستخدم في الغد تعويذات السحر الأسود. حيث يمكنها استدعاء الأرواح الطيبة والشريرة على حد سواء، مثل زاندورا الذي يحول الناس إلى أفاعٍ أو وطاويط (خفافيش) مصاصة للدماء. ويرى الفودو أن الخانفان الحقيقي لا يشتغل أبداً في السحر. ويوجد بوكور لم يكونوا يوماً رجال دين لدى الفودو. يترأس البوكور جماعات سرية تعبد الشيطان وتجتمع في المقابر حيث تقيم طقوس تقديس الأموات.

يقوم هؤلاء السحرة بتحضير بودرة خاصة من أرض المقابر وعظام الموتى "لإرسال الميت" على العدو. حيث يمكن أن تؤدي البودرة المرشوشة بالقرب من باب الضحية أو على طريقها، إلى إصابتها بالشلل أو الموت، إذا لم يتخذ الخونفان تدابير معاكسة في هذا الوقت.

وتقوم الطريقة الثانية على إلباس الجثة ثياب الضحية وإخفائها في مكان سرّي تتفسخ فيه، أما الضحية المسكينة فستجن بحثاً عنها. ويذكر الباحثون أنه إذا كانت الضحية تعرف بما يحدث وتصدق بقوة السحر فإنه سيكون أسهل الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

ويذكر أهل هاييتي قصصاً تقطع القلب عن استخدام السحرة للجثامين. ويذكر ويليم سيبروك في كتابه "الجزيرة الغامضة" الذي كتبه عام ١٩٣٦ قصة الشابة كاميلا توسّيل وزوجها مات. وفي الذكرى الأولى لزواجهما دعا توسّيل زوجته بعد منتصف الليل للاحتفال بهذه المناسبة. وقد أصر على أن ترتدي كاميلا فستان العرس، وقد أجابته إلى ذلك بعد أن أحست بالخوف. لقد دخلا في غرفة نظيفة مضاءة بالشموع. وبالإضافة للزوجين كان في الغرفة أربعة ضيوف يرتدون ثياب السهرة. إلا أن أحداً منهم لم يهنئ كاميلا. وقد

اعتذر توسّيل عنهم قائلاً أنهم بعد العشاء سيرقصون معها. لقد بدا صوته لكاميلا متوتراً وغير طبيعي، وقد رأت فجأة كيف أن الأصابع غير المتحركة لأحد الضيوف تضغط بارتباك على الكأس الذي سال منه النبيذ. أخذت شمعة ونظرت في وجوه الضيوف وقد تبين لكاميلا أنها تتواجد في غرفة واحدة مع أربعة جثامين.

هربت المرأة مذعورة ولم تعد لحالتها الطبيعية بعد ذلك أبداً. عاد أصدقاؤها في اليوم التالي إلى هناك واكتشفوا أن كل شيء كان كما وصفته لهم باستثناء الضيوف البكم وتوسيل. بعد ذلك تحدث الناس أن توسيل قد غادر الجزيرة.

هل هذه أسطورة أم حقيقة؟ هل هي خطط حاقدة للزوج ـ الساحر أم أنه من صنع خيال الزوجة؟ يعتبر أهل هاييتي (الهايتيون) الذين قصوا هذه الحكاية لسيبروك أنها حقيقية. وأنهم يعرفون حكايا كثيرة مماثلة. يكبر الأولاد في هاييتي وسط القصص التي تتحدث عن السحر الأسود والأشباح والسحرة. لا تسمح الأمهات لأبنائهن باللعب مع ظلهم ويحذرونهم بأنه إذا لم يحسنوا التصرف فسيخطفهم بوكور أو تونتون ـ ماكوت، وهو ساحر جوال من الفودو. وقد أصبح هذا التهديد الأخير واقعاً عندما وصل إلى الحكم في هاييتي الديكتاتور فرانسوا ديوفالي، حيث عرف إجراؤه بـ تونتون ـ ماكوت.

لقد واصل هذا الجو من الخوف والخرافة الاعتقاد بالزومبي. وعندما تؤمن بقدسية الأموات لا يصعب أن تؤمن بإمكانية السحر الأسود على إجبار الجثامين على الحركة وتنفيذ إرادة الآخرين. وقد تحدث كثيرون أن هذا ما كان ينويه توسيل بالنسبة لضيوفه. وإن أخطر المكائد التي يمكن أن يقع فيها الإنسان المتهور بمساعدة السحر هي الزومبي. لأنه ليس سهلاً على أمهر السحرة التعامل بأمان معه. في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين (١٩٥٠) درس ألفرد ميترو مؤلف كتاب "الفودو في هاييتي"، قضايا لها علاقة

بالزومبي. وقد كتب: "قليلون جداً في بورت ـ أو ـ برنس حتى بين الناس الأكثر ثقافة، لا يصدقون جزئياً هذه القصص المرعبة".

وقد أورد ميترو واحدة من هذه الحكايا المرعبة، التي تحدثت عن فتاة رفضت طلب خونفان مقتدر يدها للزواج. خرج الخونفان من بيتها مهدداً. وبعد وقت قصير مرضت الفتاة وماتت. وصادف أن التابوت كان قصيراً جداً، مما اضطر الأهالي لثني رقبة الفتاة كي يتسع لها. في هذا الوقت سقطت الشمعة التي كانت بالقرب من التابوت وحرقت لها رجلها. وبعد فترة من الزمن طلب الناس رؤية الفتاة التي اعتقدوا أنها حية. وقد عرفوها من خلال الحرق والرقبة المثنية. ويقال إن **الخونفان الغيور** حولها إلى زومبي واستخدمها كخادمة، ولكن بسبب الاهتمام الزائد بهذه القصة كان مضطراً لتحريرها.

لقد سيطرت على هذا الساحر الرغبة بالانتقام ـ وهذا سبب عادي لتحويل الإنسان غير المطيع إلى زومبي. أحياناً، كان يجري تحويل الجثامين المناسبة إلى زومبي لاستخدامها كعمال وحسب. وفي حالات نادرة كان الزومبي ضحايا صفقة مع قوى الشيطان، التي كانت تنال أرواحاً بشرية كأجر لها. وإذا كان المسيحيون يتحدثون عن بيع أرواحهم للشيطان فإن أتباع الفودو كانوا يبيعون أرواح الآخرين. ولقاء السلطة والثراء أو الخدمات الأخرى يجب تقديم أرواح الناس الأقرب والأغلى. وكل عام تتكرر العملية المرعبة حتى لا يبقى أي من الأقارب الذين يمكن تقديمهم، وعندها يأتي وقت تقديم روح الشخص ذاته. أما الجسم فيصبح كبقية الأجسام، زومبي.

تعقد هذه الصفقة عبر البوكور، وهم وحدهم يستطيعون صنع الزومبي. وما إن يحل الظلام حتى يُسرج الساحر فرسه وينطلق نحو بيت الضحية. وهناك يقوم البوكور "بامتصاص" الروح بشفتيه عبر شق في الباب، ويضعها في دن (قنينة كبيرة) مغلق. بعد ذلك بوقت قصير تمرض الضحية وتموت. بعد الدفن، وفي منتصف الليل يحضر البوكور إلى القبر مع معاونيه، ويقوم بنبش

الجثة ويلفظ اسم الضحية. ورداً على ذلك يجهد الميت على رفع رأسه لأن البوكور يمتلك روحه.. وما إن يحصل حتى يتناول البوكور وخلال جزء من الثانية، الدن الذي فيه الروح ويضعه تحت أنف الجثمان. والآن يصبح الميت معالجاً. يخرج البوكور الميت من التابوت، ويربطه ثم يضربه على رأسه لإكمال عملية إحيائه بعد ذلك يقوم بإعادة التابوت بعناية إلى ما كان عليه بحيث لا يشك أحد مطلقاً بما حدث.

في البداية، يقوم البوكور ومساعدوه بتمرير الضحية قرب بيته الخاص. ويقال إنه لن يتمكن بعد ذلك من التعرف إليه ولن يحاول العودة إلى هناك. ثم يقودونه بعد ذلك إلى بيت البوكور أو قصر الفودو ويعطونه منقوعاً خاصاً. ويعتبر أنه عصارة من نباتات سامة، مثل البيلادون أو الداتور (نبات جيمسون). وخلال فترة الاستعمار كان العبيد يسممون مالكيهم بهذه الأعشاب. ويقول آخرون إنها محضرة من نقاط تسقط من أنف الميت.

توجد طرق أخرى لصيد الروح البشرية. يمكن أن تضع تحت وسادة الشخص المحتضر وعاءً يحوي مواد سحرية وأعشاب "تتشدُّ" إليها الروح. ويمكن استبدال روح الحشرة أو الحيوان الصغير بروح بشرية. ولا تعرف الضحية بما يحدث في أي من الحالات. حتى أنه يمكن أخذ الروح من الميت مباشرة. ولكن أياً كانت الطريقة المستخدمة فإن دور الروح على حافة التابوت يبقى هو نفسه وبعد أخذ المخدر السحري يمكن اعتبار أن الأمر قد تم. تصبح الضحية زومبي ـ ميتً فظيعاً، متحركاً ومطيعاً ومستعداً لتنفيذ رغبات الساحر.

وكي لا يتمكن الساحر من الوصول إلى الجثة وجعلها زومبي يتم بذل جهود كبيرة. فالأسرة المقتدرة تلجأ إلى صنع قبر من الاسمنت. ويقوم آخرون بالدفن في حديقة البيت أو بالقرب من حافة الطرقات كثيرة الازدحام. وبما أن البوكور يحتاج إلى جثة حديثة العهد فقط، فإن الأقارب يمكن أن يتناوبوا

على حراسة القبر حتى تبدأ الجثة بالتفسخ. ويجري أحياناً قتل الجثة مرة أخرى بضرب رأسها أو بتسميمها ، وأحياناً بخنقها. وفي بعض الحالات يتم الدفن مع خنجر في يد الميت ليتمكن من الدفاع عن نفسه. وغالباً ما يضعون الميت في التابوت قلباً على وجهه ويضعون تراباً في فمه أو يقومون بخياطة شفتيه كي لا يتمكن من الرد على الساحر عندما يلفظ اسمه.

إذا أصبح الإنسان زومبي فإنه لن يتمكن من النجاة من هذا التنقل الأبدي إلا بتذوق الملح (وغالباً ما يكون رمزاً للسحر الأبيض). بعد ذلك يدرك الزومبي وضعهم فوراً ، أنهم موتى، ويعودون إلى التابوت إلى الأبد.

يورد عالم الأنتربولوجيا البريطاني فرانسيس هاكسلي في كتابه "غير المرئيين، قصة عن الزومبي كان قد حدثه بها رجل دين كاثوليكي. لقد تسكع هذا الزومبي في قريته وفي نهاية المطاف جرى القبض عليه واقتيد إلى قسم الشرطة. غير أن رجال الشرطة كانوا خائفين جداً ، لدرجة أنهم لم يجرؤوا على فعل شيء وتركوه في الشارع. وبعد بضع ساعات تشجَّع أحد ما وأعطى الزومبي ماءً مالحاً ليشرب. وعندها نطق اسمه. بعد ذلك تعرفت إليه عمته التي كانت تعيش في مكان قريب. وحسب قولها فإنه كان قد مات ودفن منذ أربع سنوات مضت.تم استدعاء رجل الدين، وأفشى له الزومبي باسم الساحر وأخبره عن عدد آخر من الزومبي الذين أجبرهم على العمل لمصلحته. أرسل رجال الشرطة الخائفون رسالة إلى الساحر، يعرضون عليه فيها استعادة الزومبي خاصته. ولكن بعد يومين مات الزومبي بشكل فعلي، ربما بسبب الفضيحة التي سببها للساحر فقام الأخير بقتله. تم اعتقال الساحر ولكن لم يتسنَ للشرطة إيجاد الزومبي الآخرين ولا زوجة الساحر.

تتصف جميع الحكايات الخاصة بالزومبي بوجود نقص في الرواية. ويبدو كأن هناك وقائع هامة تم إغفالها. ولكن رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت يروون حكايات يصعب عدم تصديقها. ويتحدثون كيف أنهم

وبأم أعينهم رأوا الميت، وقاموا بالطقوس المتعارف عليها لأجله وأغلقوا التابوت ودفنوه تحت التراب، وبعد بضعة أيام أو أسابيع تلاقوا مع "الزبون السابق" بنظرته الباردة وغياب عضلات الوجه. غير مبالٍ ولكن ليس ميتاً.

وتذكر زورا هيرستون أن بوكوراً خائناً للفودو أو أرملة ساحر يحضران هذه المخلوقات إلى المبشرين للتخلص منهم. لقد تواجدت هيرستون في هاييتي وكان باستطاعتها رؤية الزومبي وتصويرهم والتماس معهم. لقد قامت بتصوير الزومبي فيليسيا فيليكس ـ مينتور، التي توفيت بنتيجة مرض مفاجىء عام ١٩٠٧م. وفي عام ١٩٣٦ تم إيجادها. لقد كانت تتجول عارية على الطريق بالقرب من مزرعة أخيها. لقد عرف كل من الأخ والزوج فيها المرأة التي دفناها بأيديهما منذ ٢٩ عاماً مضت. كانت فيليسيا في حالة فظيعة استدعت إرسالها إلى المشفى، حيث رأتها زورا هناك بعد بضعة أسابيع. كتبت زورا لأبيها: "لقد كانت مريعة. وجه أبيض بعيون ميتة... أما الحواجب فكانت بيضاء بالمطلق، وكأنها تعرضت لحمض. ماذا كان بالإمكان أن نقول لها؟ وما الذي يمكن توقعه كرد؟ جل ما بقي أن تنظر إليها. ولكن كان من غير الممكن تحمل هذا المنظر لوقت طويل".

إذاً، الزومبي، أو شيء ما يماثلهم، موجودون بالفعل. ولكن، هل هم موتى متحركون؟ كتب مونتغيو سامرس وهو عراف السحر والسحر الأسود: "هذا لا يحتمل النقاش، يمكن بواسطة السحر الأسود تشكيل مظهر "لحياة" الجسم الميت ـ وسيتحرك ويتكلم، ولكن الإبقاء على اللعنة لزمن طويل دون تجديدها هو باعتراف السحرة أنفسهم، مأثرة لا يستطيع فعلها إلا السحرة غير الشريفين "الغائصين في قعر جهنم".

وليس من المتوقع في حالة فيليسيا فيليكس ـ مينتور أن تستمر حتى أكثر اللعنات جهنميةً لمدة ٢٩ عاماً. والتفسير الأقرب إلى الحقيقة هو أن الزومبي لم يموتوا يوماً. ويفترض بعضهم أن الزومبي هو ببساطة شبيه جداً بالشخص

الميت. ولكن إذا كان الأمر كذلك، **فلماذا هذا الشبيه يبدو ويتحرك دائماً ك زومبي؟** يتصف الزومبي بغياب ملامح الوجه، والنظرة باتجاه الأسفل، و الوجه الأصفر والمشية المتأرجحة. وهو لا يفهم عندما تجري مخاطبته ويفتقد كلامه للمعنى. وغالباً ما تكون أحرف حلقية تذكّر بصوت الخنزير (القبع).

يمتلك الزومبي في أغلب الأحيان دلائل الاختلال العقلي، وربما يكون كثير من الزومبي الذين تمت مصادفتهم هم بالفعل ضعيفون عقلياً، ممن تخبئهم الأسرة بعناية، وتظهرهم على أنهم ماتوا منذ أمد بعيد، حتى يصادفهم أحد ما فجأة. وربما بعد سنين طويلة. لقد أحضروا لألفريد ميترو كزومبي "فتاة تعيسة مصابة بالروبصة". لقد هربت من البيت الذي كانت طيلة حياتها مسجونة فيه تحت القفل.

يذكر الباحثون في شأن هاييتي أنه تتم مخاطبة الزومبي بشكل لا يقل عن مخاطبة المتخلفين عقلياً، حيث يتم اللجوء إلى ضرب المتخلفين عقلياً لكي يطيعوا ما يقال لهم. عندما خرج وليم سيبروك من الصدمة التي سببها له منظر "العينين الملتهبتين فاقدة التركيز والرؤية" استنتج هو أيضاً أن الزومبي الذين رآهم كانوا "مجرد مجانين تعساء بلهاء، تم إجبارهم على العمل في الحقل" وليس جثامين نصف حية.

ولكن ما العمل مع الشهود الذين يقسمون أنهم شاهدوا بعض الزومبي ميتين؟ هل كانوا يكذبون يا ترى؟ وليس كل الزومبي بلهاء منذ الولادة. بعض الأصدقاء يتذكرونهم أصحاء أذكياء. إنها أسئلة صعبة جداً.

يمكن الحصول على الجواب من مصدر غير متوقع، وهو المادة ٢٤٦ من قانون الجنايات القديم في هاييتي. "تعتبر جناية كذلك، استخدام مواد يغط فيها الشخص في سبات طويل أو قصير الأمد بصرف النظر عن هدف استخدام

المادة والآثار اللاحقة. أما إذا كان الشخص مدفوناً في حالة سبات فإن الجناية تصبح جريمة قتل عن عمد".

ومن ذلك ينتج أن الزومبي يمكن أن يكون شخصاً قام أقاربه بدفنه والبكاء عليه بالفعل ثم حضر البوكور، كما في الأساطير "وانتزعه من القبر. ولكنه كان قد دفن حياً في حالة تشبه الموت يمكن أن لا يخرج منها أبداً.

في لقاء مع وليم سيبروك قال طبيب مشهور في هاييتي أنه صادف عدداً من الحالات منهم من كان زومبي، وكانوا ضحية هذا النوع من الأخطاء المقصودة أو العرضية.

قامت زورا هيرستون بمناقشة حالة فيليسيا فيليكس ـ مينتور مع الأطباء. وقد كتبت: "لقد بنينا لوقت طويل نظريات تفسر نشوء الزومبي. وهي ليست حالة بعث من الموت، وأقرب ما تكون إلى أنهم كانوا في حالة قريبة جداً من الموت بواسطة أدوية معينة، تم إحضار طريقة تحضيرها من إفريقيا وتناقلتها الأجيال.. وواضح أنه هذه الأدوية تخرب الجزء من الدماغ الذي يتحكم بالإرادة والكلام. يمكن للضحايا الحركة والفعل ولكنهم غير قادرين على تشكيل فكرتهم. وقد باءت بالفشل محاولات طبيبين اهتما بشكل جدي في معرفة طريقة تحضير هذه الأدوية. إنه سر، وربما يفضل عارفوه الموت على أن يحدثوا به أحداً".

لابد أن فكرة الزومبي أتت من إفريقيا حيث يتحدثون حتى وقتنا الحاضر بأقاصيص أسطورية كيف أن السحرة يبعثون الأموات. غير أن الزومبي الحقيقيون هم يمثلون خصوصية هاييتي. يمكن طبعاً لأتباع مذهب الشك القول إن ما يسمونهم الزومبي ليسوا إلا قاصرين عقلياً أو أنهم بشر في حالة

من السبات، ولكن بعض الحالات التي لا تثير الشك يصعب تفسيرها بعيداً عن مستوى السحر.

في الوقت الحاضر يستخدم الفودو لجلب اهتمام السياح، فضلاً عن أن التقديم البهي واستعراض السحر الأبيض تسعد السكان الأصليين والأجانب على حد سواء. لقد تحدث فرانسيس هاكسلي عن قاضٍ شاهد كيف أن الخونفان (الساحر) أخرج جثماناً من القبر وقام بعلاجه. لقد اكتشف القاضي في القبر جثة مر عبرها الهواء من السطح. وفي واقع الأمر كان "الجثمان" هو معاون الخونفان وكان بمقدوره التنفس بحرية بانتظار الانبعاث الذاتي.

أهل هاييتي يعرفون طبعاً بهكذا شعوذات. ولكن وللأسف فإن غالبيتهم تتابع الاعتقاد بالزومبي ويملؤهم الرعب، ويمكن جداً أن الزومبي لا يستخرجون من القبور وإنما يتم إعطاؤهم مواد خاصة تجعلهم في حالة قريبة من الموت. ولكن من سيقول أي الحالتين أسوأ؟ وفي مطلق الأحوال: إن الزومبي مثال على الموتى المتحركين".

الحياةُ بعد الموت

لقد عرفت الإنسانية منذ أمد بعيد بأن الروح لا تفنى. وبالرغم من جميع محاولات الإقناع التي جرت خلال المئة عام الماضية بأن الأمور ليست كذلك إلا أن الإرث التاريخي الذي امتد لآلاف السنين أقوى بكثير من أية فرضيات جديدة.

لنفترض لدقيقة، أن جزءاً من ذاتنا يعاني من الموت. وماذا بعد؟ أحد الاحتمالات أن الروح تتجسد من جديد وكأنها تنتقل مباشرة أو بعد بعض الوقت إلى جسد آخر لتبدأ حياة جديدة. إنه اعتقاد تقليدي قديم جداً أصبح مركزياً في معتقدين عالميين كبيرين هما البوذية والهندوسية، واتخذته الكنيسة السرية المبكرة. ويكتشف في ثقافات أخرى عديدة، وحتى في القرن العشرين يؤكد بعض الناس أنهم يتذكرون الحيوات السابقة.

وبالرغم من أن القسم الأكبر من هذه التأكيدات لا يصمد أمام النقد. إلا أن أناساً كثيرين يؤكدون أنهم تجسدوا سابقاً في شخصيات تاريخية مشهورة. وقد شاع في الثلاثينيات من القرن العشرين صيت الانكليزية جون غرانت من خلال ذكرياتها حول حياتها في الأسر في مصر القديمة (وهي مكان شائع لحكايا كثيرة حول الحيوات السابقة). وهناك حالتان مماثلتان معروفتان جيداً. تتذكر إحدى النساء أنها كانت في الحياة السابقة ملك

اسكتلندا ياكوف (يعقوب) الرابع، أما الثانية فتؤكد أنها كانت العشيقة المشهورة لكارل الثاني التي كان اسمها نيل غوين.

إن نشوء الاهتمام في الغرب بإعادة التجسد (التقمص) يعود إلى التجارب التي أجريت في بداية خمسينيات القرن العشرين: كان باستطاعة الأشخاص الذين تم تنويمهم مغناطيسياً الغوص فكرياً (ذهنياً) في الماضي حتى وقت ولادتهم وحتى الحيوات الماضية التي انتشلوا منها كمية غير معهودة من المعلومات حول الحياة اليومية في العصور الغابرة. لقد أظهرت بحوث قريبة العهد حول 1088 حالة سجّلت في أمريكا أن غالبية الذكريات حول الحيوات الماضية هي متقطعة ومشوهة. وهذا يقودنا إلى فكرة وجود شيء ما أكثر من التبجح في قضية التقمص (التجسد).

أول حالة معرفة للعودة إلى الحياة الماضية حدثت في ولاية كولورادو عام ١٩٥٢، عندما أعاد منوم مغناطيسي هاوٍ اسمه موري برنشتين فتاة يافعة تدعى فرجينيا تاي إلى الحياة السابقة، التي تدّعي أنها كانت فيها امرأة ايرلندية باسم برايدي ميرفي وعاشت في الأعوام ١٧٩٨- ١٨٦٤. وما أثار دهشة برنشتاين أن تاي فقدت فوراً اللكنة التقليدية للغرب المتوسط وانتقلت إلى اللهجة الايرلندية أعطت كمية كبيرة من التفاصيل المقنعة عن الحياة في كورك وبلفاست في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد كان صعباً التحقق من صحة حديث تاي، لقلة المعطيات الباقية عن إيرلندا في تلك الحقبة. وعندما قام برنشتاين عام ١٩٥٦ بطباعة وصف لهذه الحالة، أثار ذلك مفاجأة. وأصبحت العودة إلى الماضي من خلال التنويم المغناطيسي موضة. وقد نشأت لدى كثيرين رغبة كبيرة للقيام بتجارب ذاتية باستخدام الأسلوب الجديد بما فيهم المعالج بالتنويم المغناطيسي الويلزي أرنال بلوكسم. فلقد "أعاد" في الستينات والسبعينات من القرن العشرين أكثر من ٤٠٠ شخص إلى الماضي وسجل ذكرياتهم عن الحيوات الماضية على شريط.

وفي الوقت نفسه، هناك نقطة ضعف لدى هذه التجارب وهي إمكانية قيام الشاهد (الذي تم تنويمه مغناطيسياً) بمحاباة المعالج أو أن يشطح بخياله بموضوع يعرفه سابقاً. فمثلاً، قام أحدهم ويدعى غاري هرست بتذكر حياته في مدينة "فيبي" في أيام الفرعون رمسيس الثالث (حوالي عام ١٥٠ ق.م). ومن بين التفاصيل الكثيرة الأخرى ذكر العملة الرومانية سيسترزيا. وقد أشار الاختصاصي بالحضارة المصرية، الذي لجأوا له للاستشارة بهذا الشأن، أن تسمية "فيبي" أطلقها الكتاب الإغريق في حقبة زمنية متأخرة، وأن المصري الذي عاش في عهد رمسيس كان سيسميه "هو". فضلاً عن أن المصريين لم يرقمّوا فراعنتهم، وإنما ميزوا بين حكامهم الذين يحملون نفس الاسم بتسلسل الأسماء التي أعطوها عند الولادة. وأثناء التتويج وخلال الحكم. وقد ظهر أن العملة الرومانية سيسترزيا لم يجر تداولها إلا بعد ألف عام من حكم سلالة رمسيس.

إذا كان التقمص حقيقة، فإننا لم نتمكن من معرفة درجة فلترة الذكريات عن الحيوات السابقة بواسطة الخبرة المعاصرة. ومن الصعب مثلاً، التأكيد أن ما يقوله "إيطالي" كذكريات لحياته السابقة باللغة الانكليزية كتسهيل لعمل المنوم المغناطيسي أو أنه ببساطة يتخيل، وأنه لا يستطيع التحدث بالإيطالية. إن الأسلوب الأكثر فائدة في تقدير واقعية الذكريات حول الحياة هو دراسة الحالات القليلة التي يتحدث فيها الشخص المختبر بلغة أخرى.

وبهذا الشكل تم تسجيل عدة محاولات للتفاهم باللغة المصرية القديمة أو الألمانية الحديثة. ولهذا فقط ضحك الحظ للعالم النفسي يان ستيفنسون مع زبون تحدث بطلاقة باللغة السويسرية القديمة وبخليط من اللغة النرويجية.

طرح الباحث الأمريكي ويلسون فرضية أن الذكريات حول الحيوات الماضية والتي يتم الحصول عليها عبر التنويم المغناطيسي هي في الواقع أمثلة

على ظاهرة في علم النفس تدعى "الذاكرة الخفية"، عندما يستعيد العقل مادة لا يعتبرها ذاكرة. وافترض كذلك أن الحيوات السابقة المستدعاة في الذاكرة تحت تأثير التنويم المغناطيسي يمكن مقارنتها مع انفصام الشخصية المكتشف لدى بعض المرضى النفسيين بنتيجة إصابات حدثت لهم في طفولتهم. هذا الانفصام معروف كأحد أنواع الشيزوفرينيا التي تعني وجود حتى ٤٠ شخصية في جسم واحد. وفي العادة تكون إحداها فقط هي الشخصية الحقيقية وأخرى "مراقبة"، يمكن تعريفها على أنها ضمير الشخص المريض؛ أما بقية الشخصيات فهي قليلة التطور، ترمز إلى الارتباك والتمثيل وغيرها.. مع العلم أنه خلال الإجابة على الأسئلة تصر كل من هذه الشخصيات على استقلاليتها وإدراكها الذاتي التام، مع أنها تستطيع أن تأخذ بالحسبان وجود عدة شخصيات أخرى على الأقل وحتى أنه يمكنها التعاون معها.

إن توجه ويلسون نحو انفصام الشخصية باعتبارها تفسير ممكن لظاهرة تذكر الحيوات السابقة مثير جداً للجدل لأن تناذر تعدد الشخصيات لم يدرس جيداً بعد، وهناك جدل حول أسباب نشوئه، ويظهر الأطباء النفسيون أكثر وأكثر الجاهزية للتنبؤ بها.

إن تزامن (تناذر) تعدد الشخصيات هي ظاهرة معاصرة. وحتى الخمسينات من القرن العشرين لم يتم تسجيل إلا حالات قليلة جداً أما الآن فهي بالآلاف. إضافة إلى أنه يجب الاعتراف أن المعلومات التي تم الحصول عليها من خلال التنويم المغناطيسي حول الحيوات السابقة ما تزال غير مقنعة تماماً ويجب أخذ الدروس من قدرة العقل البشري على تشكيل أمور لم تحدث، وقد قام بالتقاطها من أعماق العقل الباطن، وكذلك من خطر استخدام العلاج بالاسترجاع لدراسة ما هو مجهول.

الأشخاص غير المرئيين

في أيار من عام ١٨٧٦ نشأ ذعر رهيب على نحو مفاجىء في شوارع المدينة الصينية نانكين: لقد ظهر في المدينة عفاريت غير مرئيين، يقومون بقص الضفائر التقليدية للناس. قام سكان المدينة بتغطية رؤوسهم بأيديهم محاولة منهم حماية شعرهم، ولكن دون جدوى. امتد الذعر إلى شنغهاي ومن ثم إلى مدن صينية أخرى، حيث بدأت القوى الخفية تقتل الناس خلال النوم. استمرت الهستيريا الجماعية حوالي ثلاث سنوات، وطيلة هذه السنوات لم يستطع أحد الإمساك بـ "**الروح الحاقدة، التي تقص الأشعار**". مع العلم أنها لم تكن الحالة الأولى لظهورها، فالوثائق تشير أن "الخفيين، الذين يقصون الأشعار" ظهروا في الصين في فترة حكم سلالة واي (٤٧٧- ٥١٧ ق.م) وفي عام ١٨٩٠ عم ذعر جماعي اليابان: لقد كان السكان متأكدين من ظهور الخفيّ الذي يقوم بطعن الناس في الرقبة. وقد شكل طول الجرح حوالي بوصة.

الجرائد الأوروبية، التي نشرت هكذا أخبار، تناولتها بشيء من الهزل: ما الذي يمكن أن تناله من آسيا! "ديلي ميل" اللندنية مثلاً، وصفت بطرافة كيف أن الحمالين الهنود في لاهور مقتنعون بوجود "مومياي" ـ وهو كائن خفي يتخندق في كل مكان ويقبض عليه في الشوارع مباشرة.

وقد تبخر الهزل في عام ١٩٢٢ عندما نشأ ذعر جماعي في انكلترا، في لندن، سببه الخفيّون. لقد كانت اليد الخفية تقبض على الفتيات وتقص

شعرهن وتختفي بسرّية. وقد باءت بالفشل المحاولات لمساعدة هذه الضحايا البائسة. ولم يستطع أحد تفسير واقع أن يختفي الشعر عن رؤوس الناس في وضح النهار وفي مدينة أوروبية كبيرة مثل لندن.

بدأت ترد أخبار حول جروح غامضة. فقد نشرت جريدة "بيبل" في يوم ٢٣ نيسان ١٩٢٢ تقرير مراسلها من مشفى "تشيرنينغ ـ كروس" في لندن، حول قبول شخص يحمل جرحاً بسكين في الرقبة يوم السادس عشر من نيسان.. لقد كان بإمكانه القول فقط كيف أنه عندما كان عائداً من كوفنتريستريت جُرح بسكين وسقط على الرصيف. وبعد عدة ساعات وصل إلى المستشفى مريض ثان تلقى الطعنة ذاتها.

وأخيراً، وفي ذات اليوم وصل شخص آخر جُرح بشكل غير مفهوم في نفس التقاطع..

تشير المعطيات التاريخية أن الإنسانية كانت على موعد مع الخفيين الغامضين في جميع الأزمنة وفي العديد من البلدان. وتتحدث المخطوطات الروسية حول ظهور خفيين في عام ١٠٩٢ في مدينة بولوتسك، كانوا يقتلون الناس في الشوارع، وعن الذعر الجماعي الذي تسببوا به: في صيف ٦٦٠٠ (١٠٩٢). قُدِّر وجود وحش في بولوتسك: ارتفع ليلاً صوت خُطا في الشارع، كأنها خطا إنسان أو شيطان مسعور. وكل من كان يخرج من البيت (الكنيسة) كان يصاب من الشياطين غير المرئية ويموت بسببه. ولم يجرؤ أحد على الخروج من البيت. ولذلك بدأ الناس بالخروج على الأحصنة، لأن الحصان يمكن أن يرى ما لا يرى الإنسان. وهذه كانت مصيبة أهل بولوتسك وناحيتها".

في عام ١٧٦١ عادت خمس نساء من القرية الإيطالية فينتيميليا إلى البيت تحملن أحمالاً من الحطب. وفجأة صرخت إحداهن وسقطت ميتة. أصيبت

رفيقاتها بذعر شديد مما رأين: لقد بدا وكأن قوة مخيفة مزقت خلال ثانية واحدة المرأة المسكينة. كانت ثياب القتيلة وحذاؤها مخرَّقة إلى قطع صغيرة ومرمية حول الجسم. وقد شقت في الرأس جروح عميقة وفي بعض الأماكن انكشف عظم الجمجمة. وانبقر الجنب الأيمن من الجسم وأخرجت الأعضاء الداخلية للخارج. وتقطع عظم القصبة من عشه. وظهرت جميع الأعضاء الداخلية وبدا كل شيء وكأن المرأة تعرضت لانفجار مفاجىء صامت. وقد افترض أحدهم أن نيزكاً سقط على المرأة.

في تشرين الأول من عام ١٨٧٣، في الولايات المتحدة الأمريكية، في ولاية ويسكنسون أحست فتاة تقف مع أمها في الشارع في مدينة مينامون أن "أحداً ما يقص شعرها حتى الجذور تقريباً وأن الشعر المحلوق يختفي دون أثر". وفي ٨ كانون الأول عام ١٨٣١ نشرت "نيويورك تايمز" قصة لربان السفينة الألمانية "بريخزي" حول حادثة غريبة: خلال العاصفة، وأمام عينيه جرح أحد البحارة بشكل يصعب تفسيره. فلقد ظهر على رأسه جرح بطول أربع بوصات وسقط على أرض السفينة مغمى عليه.

في الكتاب الصادر عام ١٨٦٠ "أخبار حول الأحداث الطارئة التي حدثت مع أولاد ريتشارد جيل" نرى وصفاً لحالات هجمات متنوعة لمخلوقات خفية على أولاد من أسرة واحدة. ذات مرة ترك الخفيون على وجه أحد الأولاد أثر عضة. وفي مرة أخرى رأى شهود منظراً مروعاً: يد خفيّة خنقت الطفلة. شيء ما ضغط على رقبتها بقوة، وكان واضحاً أن عضلات الرقبة لم تكن تعمل. وفي وقت لاحق أصبح أبناء هذه الأسرة ضحايا هجمات الخفيين. ذات مرة وخلال أمسية واحدة، رأى خمسة شهود كيف أن أحداً ما غير مرئي عض أيديهم عشرين مرة... لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك بأي شكل من الأشكال لأن الشهود راقبوهم طيلة هذا الوقت. ولدى تفحص هذه العضات وجدنا فيها آثار ثمانية عشر سناً أو ستة عشر.وعلى سطح الجراح وجد لعاب يشير محيطه إلى تماس

فم شيء ـ ما إلى يد الطفل. كان السطح مبللاً، ومبللاً جداً، وفاحت منه رائحة كريهة جداً.

وعندما تقرأ ذلك تتذكر بدون قصد الحكايا حول قبعة الخفي والمعاطف السحرية التي تجعل من يلبسها مخفياً (غير مرئي).. في مختارات أساطير العصور الوسطى التي أعدها ويليس مثلاً، توجد حكاية عن كاسوالدون، ابن بيلا، وكيف يتغطى بنسيج سحري يجعله غير مرئي لينتقم من قادة القبائل المعادية. حيث لم ير الأعداء وهم يسقطون على الأرض وجه قاتلهم، كانوا يرون نصل السيف فقط، والذي كان يرى قبل الضربة بلحظة فقط.

وقد حدث شيء مماثل مع مزارع من جنوب إفريقيا اسمه جيمي دي بروين وعمره ٢٠ عاماً وذلك في آب عام ١٩٦٠. لقد "نبش" الخفيّون أحشاءه طيلة عدة أيام. وقد كان مفتش الشرطة جون ويسيلس وثلاثة من عناصره شهوداً على جيمي عندما صرخ فجأة من الألم وظهرت على أرجله جروح. وفي اليوم التالي، وأمام اثنين من الشرطة، ظهر على صدره جرح عميق، بالرغم من أن القميص بقي سليماً. لقد ظهرت الجروح في أماكن مختلفة من جسمه طيلة أيام أخرى. وقد كانت وكأنها صنعت بشفرة أو بمبضع.

في جميع حالات هجمات الخفيين على الناس يوجد تفصيل واحد مشترك: لقد ظهرت الجروح على الجسم تحت الثياب، حيث لم يكن عليها أية آثار لشق أو وخز.

ولاتوجد حتى الآن أي تفسيرات مقنعة لظاهرة "الخفيين". مع العلم أن الخطاط الروسي لم يشك في عام ١٠٩٢ أن اليد الخفية التي جرحت ـ هي "قرصة" الشياطين. ولقد كان الحدس متطوراً لدى أسلافنا، أكثر بكثير مما هو لدينا..

الأشخاص الكهربائيون

إن الحالة الأولى التي تمت فيها دراسة ظاهرة ما يسمى "الأشخاص الكهربائيون تعود إلى عام ١٨٤٦م. في الخامس عشر من كانون الثاني أحست الفتاة الفرنسية أنجيليكا كويتن التي أتمت للتو سنتها الرابعة عشرة بحالة غريبة استمرت لعشرة أيام. فكانت الأغراض تقفز مبتعدة عنها بمجرد اقترابها منها. وكانت لمسة من يدها أو فستانها كافية لتجعل أثقل قطع الأثاث وزناً تفتل في أنحاء الغرفة.

قامت الأكاديمية الفرنسية للعلوم بتشكيل مجموعة بحث خاصة كان من جملة أعضائها الفيزيائي الشهير فرانسوا أراغوا. وقد طبعت مجلة "جورنال دي ديبا" في عددها الصادر في شباط لعام ١٨١٦ تقريره حول البحوث التي جرت. ويرى أرغو أن القوة التي امتلكتها الفتاة كانت نوعاً من الكهرطيسية. فأثناء وجودها كان مؤشر البوصلة "يفقد عقله" ويبدأ بالدوران في جميع الاتجاهات. وبالفعل، لقد كانت تؤثر على أنجيليكا "قوة كهرطيسية" لدرجة أن الفتاة غالباً ما كانت تضرب بتشنج، وقد وصل تردد النبض خلال ذلك حتى ١٢٠ ضربة في الدقيقة. لقد كانت أنجيليكا نفسها تخاف مما يحدث لها وغالباً ما كانت تهرب من البيت.

لقد تم ضبط أول حالة مماثلة من "الفولطية العالية" في عام ١٧٨٦. وبالنتيجة لوحظت غير مرة حالات بدأ فيها أشخاص "بإصدار الشرارات" من

أجسادهم جاذبين خلال ذلك، الأشياء إليهم أو مبعديها عنهم. وفي تسعينات القرن التاسع عشر درس الأطباء الأمريكية جيني مورغان، التي كانت تمتلك "جهداً كهربائياً عالياً". وقد تطايرت منها شرارات كهربائية في جميع الاتجاهات.. وقد حاذر جيرانها اللقاء معها، أما الذي نسي أم لم يكن يعلم بحالها ولا مسها أو صافحها فقد حدث أن يفقد الوعي من الصدمة الكهربائية.

وكثيراً ما تؤدي الكهرطيسية العالية إلى نشوء ظاهرة "الإنسان ـ المغناطيس". وعلى سبيل المثال، يقول الأمريكي ف. ماك ـ لينستري الذي درسه الأطباء في عام ١٨٨٩م. إنه ذات مرة "أحس في نفسه بشحنة ما". وبنتيجة ذلك كان بإمكانه التنقل بخطاً سريعة فقط، ودون أن يتوقف، وإلا فإن رجليه كانتا "تلتصقان" إلى الأرض وكان عليه الطلب إلى المارة لمساعدته "بالانفكاك" عن الأرض وبذلك "إطلاق الشحنة منه". وفي عام ١٨٩٠ وقع تحت أنظار الأطباء من كلية ولاية ميريلاند "إنسان ـ مغناطيس" اسمه لويس هامبورغر: لقد كانت تلتصق به جميع المواد المعدنية. وكان بإمكانه رفع وعاء زجاجي يحوي ما زنته ٢ كغ من برادة المعادن.

هذه الحالة وحالات أخرى تم وضعها في مؤلفات علمية عديدة. إنها ظواهر شاذة، وبوجود "الأشخاص الكهربائيين" يبدأ مؤشر البوصلة بالدوران، وتنطفىء المصابيح الكهربائية، كما يتم تشغيل أو إطفاء أو تعطيل الأجهزة الكهربائية، ويتشكل تشويش في خطوط الهاتف.

وتوجد شهادات كثيرة تفيد بأن أشخاصاً يبدأون فجأة بالإضاءة. في عام ١٩٣٤ حصلت حادثة مفاجئة حملت تسمية "المرأة المضيئة من بيرانو". وقد تم تناقل هذه الأخبار على صفحات الإصدارات الطبية في مختلف أنحاء العالم. كانت الايطالية أنّا مونارو مصابة بالحصبة، وطيلة أسابيع عديدة كان يخرج من صدرها ضوء أزرق سماوي أثناء النوم. وقد شاهد أطباء عديدون هذه

الظاهرة التي تواصلت بشكل متقطع لعدة ثوان. وقد افترض أحد علماء النفس أن الظاهرة التي تواصلت ناتجة عن "كائنات كهربائية ومغناطيسية تطورت بشكل كافٍ في جسد هذه المرأة وبذلك فهي تطلق هالة". واقترح طبيب آخر نظرية "الإشعاع الكهرطيسي" بعد أن ربطها بمركبات كيميائية معينة موجودة في جلد المريضة. وفي الحقيقة كانت تلك محاولة لتفسير ظاهرة الإشعاع الضوئي البيولوجي (الحيوي).

في الأدبيات الطبية تُربط حالات إضاءة جسم الإنسان عادة بالأمراض الشاذة. ويعرف الطب مثلاً حالة إضاءة لجسم امرأة مصابة بسرطان الثدي. وقد كان الضوء الصادر عن القطاع المريض من الصدر كافياً لرؤية أرقام ساعة على بعد متر تقريباً. الحالة الوحيدة لإشعاع الضوء من شخص سليم تم وصفها في عام ١٨٦٩م في مجلة "الميكانيكي الانكليزي": بينما استلقت إمرأة أمريكية للنوم اكتشفت إضاءة الجزء العلوي من الإصبع الرابع في رجلها اليمنى. وعندما فركت رجلها ازدادت الإضاءة وحرّكت قوة مجهولة الأصابع فيها. وقد خرجت من الرجل رائحة كريهة، ولم تتوقف الإضاءة ولا الرائحة عندما تم غمر الرجل في طشت مليء بالماء. وحتى الصابون لم يستطع إطفاء أو تقليل الإضاءة. وقد استمر ذلك ثلاثة أرباع الساعة، وقد شاهد ذلك زوج المرأة".

ويعرف العلم ظاهرة الإشعاع الضوئي ـ الإضاءة "الباردة". وهي تنتج عادة عن تفاعلات بيولوجية ـ كيميائية تحدث في الأنسجة والأعضاء وكذلك الكائنات الحية مثل البكتيريا، والجعلان المضيئة وما إلى ذلك. ومن حيث المبدأ، فإن الإضاءة الضعيفة جداً هي من خصائص جميع الكائنات الحية كما يبدو ـ البشر، والحيوان والنبات. إلا أنه ليس من الممكن دائماً تفسير إضاءة الكائنات الحية بأسباب معروفة علمياً، وأما ما يتعلق بالكهرطيسية فإنها كذلك من خصائص الكائن الحي وهي مرتبطة بامتلاكه على العديد

من الجزيئات المشحونة والتي تمتلك خصائص مغناطيسية ضعيفة. غير أن الحقول المغنطيسية التي تنشأ خلال ذلك تملك توتراً منخفضاً جداً وليست قادرة مطلقاً على التسبب بتحريك ميكانيكي لأصغر المواد المعدنية. وإذاً، ما الذي يتسبب بهذا التضخم المفاجىء للحقل المغناطيسي للإنسان لعدة مئات أو آلاف المرات محولاً إياه إلى مغناطيس متحرك أو مصباح كهربائي متنقل؟ وللأسف، فما زال السؤال دون جواب.

ضحايا الاحتراق الذاتي

الحالات التي يشتعل فيها الناس بنار مجهولة المصدر ويحترقون خلال عدة ثوان، تاركين خلفهم قبضة من الرماد كانت قد عُرفت منذ أمد بعيد. وقد ثبت أنه أثناء الاشتعال الذاتي للأجسام البشرية وصلت درجة الحرارة حتى ٣٠٠٠ درجة. وما يثير الفضول في ذات الوقت، أن المواد سريعة الاشتعال الموجودة بالقرب من الضحية (مثل الشراشف، أو الشاش أو الورق) لم تتأثر، أي أن النائم في السرير يشتعل بلهب واضح، أما الشرشف واللحاف فتبقى دون أدنى ضرر. وهذا بالتحديد ما حدث عام ١٩٩٢ مع جندي الإطفاء من سيدني رون برايست الذي احترق في سريره. والعجيب هو أن الشراشف والوسادة لم تتضرر وكذلك لم تنفجر أعواد الكبريت التي كانت تقع على بعد متر واحد عن الشعلة الجهنمية.

في عام ١٩٥٠ بحثت محكمة مكسيكية قضية جنائية نادرة، لقد مرت محاكمة ماريو أوروسكو، زوج مالكة فندق، وقد اتهم بحرق زوجته مانولا وهي حية وبحضور العديد من الأشخاص. لقد كان مهدداً بالإعدام شنقاً.

في تلك الأمسية، كان النزلاء (وهم جنود الحامية المحلية والتجار العابرون) يتناولون العشاء في الصالة الواقعة في الطابق الأول من الفندق. وقد أضيئت بلمبتين وبالنار المشتعلة في المدفأة الحائطية حيث جرى شيٌّ إوزة شهية. زوج صاحبة الفندق دوَّر ببطء سيخ الشيّ، محاولاً أن لا تضيع قطرة واحدة من

الـدهن. في هـذه الأثنـاء كانـت الخادمـة الـشابة تـوزع الـصحون والزجاجـات والابتـسامات للعـسكريين، وتتجـاوز بمهـارة عقـصاتهم المزعجـة. أمـا صـاحبة الفندق فكانت تراقب النظام وهي جالسة على أريكة جلدية.

وفجأة قطع هذه الأمسية المسالمة صراخ حاد جداً. كانت صاحبة الفندق ترتجف في الأريكة وقد نبقت عيناها وفتحت فمها وسرت في جسدها ألسنة اللهب. وبعد لحظة لم تعد هناك العمة مانولا، وتدلت على الكرسي ثيابها المغطاة بالرماد. وقامت الشرطة التي اقتحمت إلى داخل الفندق باعتقال الزوج واقتادته إلى السجن.

وفي ذات الوقت لا تحترق جميع أجسام ضحايا الحس الحراري تماماً. وفي عام ٢٠٠٣ في منغوليا على طريق قرب القرية مضى راعي من السكان المحليين اسمه أرجاندا. لقد تم اكتشاف "التمثال الأسود" في وضعية الجلوس. وقد كان جسده ورأسه ويداه على شكل كتلة من الرماد الكثيف. والمثير للدهشة أن ثياب المرحوم لم تتضرر مطلقاً من النار. ولم تكتشف أية آثار لهب حوله، وقد كانت حرارة الهواء خمساً وعشرين درجة تحت الصفر. وقد روى زميل الراعي الميت تفاصيل تسترعي الانتباه: "لقد سقت جزءاً من القطيع في المقدمة. وعدما عدت إلى أرجاندا وجدته جالساً قرب الطريق يقضي حاجة وقد أنزل سرواله، وعندما اقتربت أكثر رأيت أنه أسود كالفحم. وبين رجليه ما توقعته. ركضت نحو أقرب قرية طلباً للمساعدة. حاول أقرباء أرجاندا وضعه على حمالات من الخشب لكنها بدأت تدخّن. وعندما رفعوا جثته تبين أن الألواح الخشبية قد تفحمّت. وقد اضطررنا للانتظار قليلاً ريثما يبرد أرجاندا".

تم القبض على زميل الميت واتهموه بالقتل العمد.

وعندما حضر المحقق إلى السجن، لم يكن المتهم هناك وبدلاً منه وجدصدراً بعظام متفحمة وقطع لحم قليلة باقية. ولم يجد أحد تفسيراً للمأساة الحاصلة.."

جلست دارا ميتسل عام ١٩٦٩ في سيارتها في إحدى شوارع لوكسمبورغ. وفجأة اشتعلت فيها النار واحترقت تماماً خلال ثوان معدودة. حاول بضعة رجال تقديم يد العون لها لكن لم ينجحوا. وعندما انتهى كل شيء تبين أن التنجيد الداخلي ومقاعد السيارة لم تتضرر.

تقريباً في ذات الوقت اكتشف أحد سكان تكساس الأمريكية واسمه مايكل ليفشين ميتاً في سيارة. كان وجهه ويداه محروقة، أما شعره وحاجباه فلم تمسهما النار. وحيث أن السيارة كانت في المرآب، فقد قرر رجال الشرطة أن المسكين انتحر مستخدماً دخان العادم في السيارة. إلا أن هيكل السيارة كان حاراً جداً ويحرق الأصابع.

حادثة خيالية تماماً حصلت في ريف ألبرت الكندي عندما اشتعلت ابنتا الزوجين ميلبي في اللحظة ذاتها، وكانتا في منطقتين مختلفتين من المدينة وتفصل بينهما مسافة كيلو متر واحد.

في عام ١٩٩١، كان شارل ديوتي وهو أحد سكان ديجون، والذي كان يعمل في محل للخرداوات لأصحابه الزوجين فرني، كان يستقبل العام الجديد مع المالكين. وبعد أن شرب نبيذاً صعد لينام في غرفته في الطابق العلوي، وفي الصباح وجد صاحبة البيت ميتة. لقد كانت أرضية الطابق السفلي مغطاة بطبقة سميكة من الهباب. رائحة حادة مزعجة وخانقة تقطع النفس. اكتشفت الشرطة قرب طاولة المطبخ رفاة السيدة فرني ـ عظاماً متفحمةً ورماداً. ولم يتسن للشرطة إيجاد أية آثار أخرى للنار.

حادثة أخرى لا تقل غرابة حصلت في عام ١٩٨٩ قرب مدينة ميونخ (في ألمانيا)، كانت الصغيرة يوتا (١٣ عاماً) تعزف على الأكورديون عندما سمع الأب فيرنر روتكي صراخ الفتاة. انطلق نحوها ليجد كيف أن النار تلتهم جسدها الصغير وهي تركض في الغرفة. احترق ٣٠٪ من سطح جلد يوتا، وأصيب فيرنر بحروق من الدرجة الثانية. بعد ذلك أوضحت الفتاة أنها بمجرد أن بدأت بالعزف على الآلة أحاطت بها النيران من كل الجهات.

في ربيع عام ١٩٩٣ أصبح سكان البلدة البيروفية الصغيرة اوريليانو، الذين اجتمعوا في الكنيسة لحضور قداس الأحد شهوداً لمنظر هزهم حتى الأعماق. كان رجل الدين الذي قرأ العظة ضمن الضرية. وتسببت كلمته العاطفية الغاضبة التي كرّسها للمذنبين، الذين لا أمل لهم، والذين تنتظرهم نار جهنم، تسببت برجفان جموع المؤمنين، والذين راحوا يرسمون الصليب على صدورهم و يصلّون ويدعون الإله أن لا يجترعوا من كأس العذاب هذا. وفجأة قطع العظة صوت ليس ببشري. صرخ رجل الدين وجمد في وضعية ليست طبيعية ويداه مرفوعتان نحو السماء. وبعد لحظة رأى المصلون كيف انطلقت ألسنة النار من صدره وتحول إلى عمود من النار. انطلق الناس نحو خارج الكنيسة يزاحمون بعضهم البعض ولم ير أي منهم ما اكتشفه المحققون فيما بعد. فوق المنصة (الأمبون) كانت ثياب رجل الدين سليمة ولم تتضرر وكان في داخلها كومة من الرماد، كان هذا كل ما بقي من خادم الرب.

تسببت الحادثة بموجة من الإشاعات والظنون. لم يشك المؤمنون أن الرب عاقب القديس على آثامه الثقيلة. وبعضهم أكد أن الرجل الذي عاهد أن لا يتزوج، مارسَ الرذيلة وكان يشاهد أفلاماً خلاعية سراً. ولم يشكّ آخرون أنه باع روحه للشيطان. وكان هناك من اعتبر أن من قرأ العظة كان الشيطان المتخفي بلباس قديس. وبعد التحقيق مع الشهود أغلقت الشرطة القضية.

نار الشيطان، أو الحس الحراري (البيروكينز) هي ليست من نتاج الخيال وإنما حقيقة واقعة بالرغم من أنها غير ممكنة من وجهة نظر الفيزياء والكيمياء. ومعروف أن ثلثي جسم الإنسان مؤلف من الماء ولاحتراقه يحتاج إلى كمية كبيرة من الطاقة غير المتوفرة في الكائن الحي. وحتى لأجل حرق الميت في المحرقة فإنه يحتاج إلى درجة حرارة ٢٠٠٠ درجة وزمن لا يقل عن أربع ساعات. ولكن حتى في هذه الظروف فإنه يلزم في جميع الأحوال تكسير إضافي للعظام المتفحمة من الهيكل العظمي لتحويلها إلى رماد.

إن حالات الاحتراق الذاتي نادرة جداً. وفي القرن العشرين تم تسجيل ١٩ ظاهرة من هذا النوع. وتتنازع العلماء آراء مختلفة. فبعضهم يحاول ربط اشتعال الأشخاص بحالتهم الداخلية. وقد ذكر أن كثيرين من الذين ماتوا كانوا في حالة من التوتر العميق. ويفترض باحثون آخرون أن الظاهرة الغامضة تنشأ بنتيجة تأثر كرة الصاعقة التي تظهر قرب الضحية. حيث تنفذ طاقتها في الحقل البيولوجي للشخص، مما يؤدي إلى اشتعال فوري.

يذكر العلماء نوعان من الاشتعال. تحول المصاب إلى رماد وشيّه إلى كتلة متفحمة. وفي بعض الحالات تبدو بعض أجزاء الجسم سليمة تماماً من النار.

ظهرت منذ القرن التاسع عشر رواية مفادها أن ضحايا الاحتراق الذاتي هم من الأشخاص المدمنين على الكحول، حيث تكون أبدانهم مرتوية تماماً بالسبيرتو ولذلك فهم يشتعلون بسبب شرارة عشوائية وخاصة إذا كانوا من المدخنين.

العالم السويسري لودفيغ شوماخر عرض تفسيره للاحتراق الذاتي.

يقول لودفيغ: "لماذا لا نفترض بوجود إشعاعات يجهلها العلم وتتواجد حزمها بالقرب منا. وفي شروط معينة تتسبب هذه الطاقة مع الحقل البيولوجي للكائن الحي بتزايد عال جداً للطاقة ـ انفجار من نوع ما يؤدي إلى الاحتراق

الذاتي للجسم الحي. إن حزمة الطاقة الناشئة محدودة جداً من حيث الفضاء المحيط وتؤثر بشكل اختياري. وتبقى أجزاء المصاب التي لم تقع في منطقة الإشعاع سليمة".

ومنذ أمد ليس ببعيد تقدم العالم الياباني هاروغي ايتو بفرضية أخرى. وحسب رأيه فإن سبب البيروكينيز (الحس الحراري) هو تغير تدفق الزمن. في الحالة العادية يشكل جسم الإنسان ويشع في الخلاء كمية معينة من الحرارة، ولكن إذا تباطأت العمليات الفيزيائية الحاصلة في الطبيعة على نحو مفاجئ (بما فيها حركة الذرات) وبقيت سرعتها على سطح الجلد منتظمة فإن الحرارة الناتجة لا تتجح بالانطلاق في الفضاء وتحول الإنسان إلى رماد.

وفي الآونة الأخيرة تقف مجموعة من العلماء مع وجهة النظر الخيالية. إن مصدر الطاقة في الخلية الحية هو مفاعل حراري نووي. ويعتبرون أنه ضمن ظروف معينة تنشأ في خلايا الكائن عمليات قدروية مجهولة تشبه تماماً ما يحدث خلال انفجار القنبلة الذرية، التي لا تنعكس على جزيئات المادة المجاورة (كاللباس أو فرش السيارة مثلاً).

إنسان رادار

من بلدة بورت ـ لوي

هاقد مرت أكثر من ١٠٠ عام ولم يكتشف بعد سرّ إتيان بوتينو الذي عاش على جزيرة مافريكيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ولد بوتينو إتيان في شامبتوكو (مقاطعة رييني إلوار) في عام ١٧٢٩م. وقد مات في مافريكيا في ١٧ أيار من عام ١٨١٣ عن عمر يناهز ٧٤. غادر الفتى إلى نانت ومن هناك إلى الجزر.. هذا السطر من "قاموس الترجمات المفريكية"، الذي صدر في بورت ـ لوي بعدد نسخ قليل. والشيء الرئيسي: "في عام ١٧٦٢ وعلى سطح إحدى سفن الأسطول الملكي خطرت في رأسه فكرة أن السفينة المتحركة يجب أن تتسبب بتأثير ما في الغلاف الجوي. وبعد بعض الوقت وبالتدريب. استطاع تحديد ظهور السفينة في الأفق.. لكنه غالباً ما كان يخطىء مما جعله يوقف تجاربه سريعاً..".

إلا أن ذلك كان مؤقتاً. فلقد وصل بوتينو إلى الجزيرة وتسلم منصب المهندس. ولقد سمح الطقس الرائع خلال أغلب أوقات السنة وكذلك التفاف سفن كثيرة حول مافريكيا دون دخول المرفأ، كلها سمحت له بالتمرين. وبعد بعض الوقت صار بوتينيو يراهن الآخرين. "لقد كسب نقوداً كثيرة لأنه كان ينبىء بقدوم السفينة قبل ظهورها في الأفق بثلاثة أيام، وبدون أية أجهزة ضوئية".

في عام ١٧٨٠ كتب بوتينو إلى وزير الأسطول البحري الفرنسي في ذلك الوقت دي كاستري، حول قدراته المدهشة. فأمر الوزير بتسجيل جميع مراقبات الفتى خلال سنتين.

وقد بدأت رسمياً في ١٥ أيار عام ١٧٨٢م. أخبر بوتنيو باقتراب ثلاثة مراكب، والتي ظهرت في ١٧، ١٨، ٢٥ أيار. وفي ٢٠ حزيران أخبر بقدوم "مراكب كثيرة"، وفي ٢٩ حزيران ظهرت السفن الأولى للسرب البحري الفرنسي الذي تأخر بسبب سكون الرياح.

طلب بوتينيو من المحافظ ١٠٠ ألف ليفرة كجائزة وراتباً سنوياً ١٣٠٠ ليفرة لقاء فضحه سره، مذكراً بأنه قد تنبأ ما بين الأعوام ١٧٧٨ و١٧٨٢ بقدوم ٥٧٥ مركب قبل عدة أيام من ظهورها في الأفق. ولكن المحافظ لم يسرع بدفع النقود.

توجه بوتينيو المنزعج إلى بلاده. لم تسنح له فرصة الاجتماع بوزير البحرية، ولكنه حصل على اعتراف جماهير مدينة لوريان بعد أن أظهر لهم مقدراته. وفي ذلك الوقت، في عام ١٧٨٥ نشرت جريدة "ميركيور دي فرانس" "مقاطع من مذكرات إتيان بوتينيو حول الناوسكابيا" ـ وكانت هذه التسمية التي أطلقها على موهبته. وحسب ما ذكرته منشورات ذلك الوقت، فإن جان ـ بول مارات الذي كتب في ذلك الوقت رسالة في مجلة الفيزياء، اهتم بقدرات الموظف في المستعمرات. ولكن لم يتسن له لقاؤه.

في عام ١٧٩٣ عاد بوتينيو إلى مافريكيا وتابع تجاربه بجد. وفي ١٥ حزيران أعلن أنَّ ٢٠ مركباً ستظهر قريباً، إلا أن أياً منها لم يظهر. وبدأ الناس يسخرون من بوتينيو. ولكن الساخرين اضطروا للاعتذار. فقد تبين أن أميرال السرب البحري قرر عدم الوصول إلى مافريكيا واتجه إلى الهند. ماذا نعرف أيضاً عن بوتينيو؟ فبالإضافة للمعلومات المذكورة توجد مخطوطة

جديدة تم تحقيقها منذ أمد قريب: لقد عاش لبعض الوقت في جزيرة سيلان في كولومبو، وقد رآه هناك أحد محرري كتاب "التراجم الجديدة للمعاصرين"، الذي صدر في عام ١٨٢٧م. وقد ورد في جزئه الثالث أن بوتينيو تعلم هناك "المغناطيسية الحيوانية" - وهي أسس التنويم المغناطيسي. ونضيف إلى ذلك: لقد درس هناك في مدرسة المغناطيسية الحيوانية، واتصل مع الهندوس، الذين "استطاعوا فعل العجائب" (من مذكرات بوتينيو نفسه). **وهاكم ما كتب عن نفسه:**

"يمكن للجماهير أن تتذكر تجاربي التي قمت بها في حزيران عام ١٧٩٣ بحضور حشود كبيرة، وكذلك في أيار عام ١٧٩٤، التي نظمها مجلس المدينة. وهذا لم يحمني مطلقاً من تهجمات بعض الأفراد، وقد سخروا مني عندما أنبأتهم بوجود مراكب في مكان ليس ببعيد عن الجزر، ولم تأت السفن مطلقاً. وحل القضية بسيط: لم تتجه المراكب نحو جزيرتنا! هؤلاء الناس الذين لا يملكون الفكر اللامع لم يصدقوا شيئاً، وشكوا في كل شيء قائلين بأنني مشعوذ وأن ذلك غير ممكن الحدوث. وأنا مضطر للعيش وسط هؤلاء الأوباش الأغبياء، القساة المنغمسين في الرتابة، الذين يعارضون أي اكتشاف، ولا يتنازلون عن فهمهم السطحي للعالم..".

ما هي الموهبة التي كانت لدى إتيان بوتينو؟ لم يكشف سره لأحد. سوى لتلميذين، ولم يكشف لهما كل شيء. ولكن بقيت رسالته إلى مارات في مافريكيا، حيث يقول فيها:

"إن المراكب وهي تقترب نحو الشاطئ تنتج تأثيراً معيناً على الغلاف الجوي، وبالنتيجة فإنه يمكن اكتشاف اقتراب السفينة بعين خبيرة، قبل أن تبلغ السفينة حدود الرؤية. وقد ساعد تنبوءاتي سماء صافية وغلاف جوي واضح.. لقد كان إجمالي ما قضيته على الجزيرة ستة أشهر، عندما تأكدت

من اكتشافي، وبقي علي أن أكتسب الخبرة كي تصبح الناوسكوبيا علماً أصيلاً.

ربما يكون ذلك مرتبطاً بالسراب الذي يتكرر كثيراً على البحر؟ أو أن ذلك مادة علم جديد نسبياً يعنى بتحديد الموضع بشكل بيولوجي؟ ولكن المؤرخين لم يكتبوا شيئاً عن أن بوتينيو امتلك أي نوع من الأجهزة..

لقد مات في عام ١٨١٣ وأخذ معه سر الناوسكوبيا. إن الناس في مافريكيا يتذكرونه . لم يقيموا له نصباً، ولكن جبل مونتال - لونغ. الذي يرتفع فوق السطح الأزرق للمحيط حيث قام إيتان بوتينيو بمراقباته، يذكرِّ العلماء الحاليين بواجبهم أمام العلم وضرورة اكتشاف سر موهبته.

ظاهرة الأشباح

"في هذا الجزء من بيميروك تواصل الناس بقوة مع الأرواح الخبيثة.. وقد استطاعوا التعبير عن أنفسهم برمي النفايات في كل مكان رغبة منهم بخنق أو على الأقل التسبب بضرر ما جدي. لقد أزعجوا مالك البيت والضيوف بتمزيق ثيابهم الصوفية وقص فتحات فيها. وبالرغم من الحذر الشديد، بدا وكأنه لا يمكن المحافظة على الثياب حتى عندما يتم إغلاق الأبواب وإقفالها".

تعتبر هذه المخطوطة التي تركها الراهب من القرون الوسطى والتي تعود إلى عام ١١٩٠ واحداً من الشواهد المبكرة حول الأشباح وهي ظاهرة ما سُمي ب "الأطياف الصاخبة". وقد سجلت وقائع لقاء الأشباح حتى اليوم في أكثر من ثلاثين بلداً في العالم.

ومن المحتمل أن أول شهادة معروفة حول الأشباح تعود إلى عام ٨٥٦ ق.م. وطيلة الألفي عام لم تتغير "طبيعة" هذه الظاهرة: "الشبح": هو اقتحام مفاجئ لبيوت البشر من قبل قوى مجهولة المنشأ، تقوم عادة، بالتسبب بضرر مادي كبير والكثير من القلق.

وبسبب الأشباح - وقبل كل شيء بسبب الضرر الجلي الذي تحدثه حدث في مختلف الأزمان والبلدان أن رفعت غير مرة دعاوى قضائية وتحقيقات،

والتي بفضلها تأكدت هذه الظاهرة خلافاً لغالبية الظواهر، بالوثائق والوقائع في كثير من الأوراق الرسمية والقضايا والبروتوكولات وما شابه.

وكثيراً ما اتخذت المحاكمات الخاصة بالأشباح منعطفاً من نوع خاص. فمثلاً، تم رفع قضية جنائية على الفلاح الروسي تشيكانوف الذي بدأ في بيته في نهاية أيلول عام ١٨٨٨ وميض أشباح أرعب كل الناحية، "بتهمة نشر إشاعات كاذبة وإثارة العقول". غير أن التحقيق وصل إلى براءة الفلاح: لقد تبين أن "الإشاعات الكاذبة" وافقت الواقع! وفي نهاية ١٨٨٨ تم سحب القضية الجنائية وبراءة المتهم تماماً.

لكن الأمور لم تكن تسير هكذا دائماً. إن الاعتقاد بإمكانية السحرة والمشعوذين على إطلاق الأشباح ما يزال حتى أيامنا هذه. ويجب القول إنه في بعض الحالات، وحسب رأي ضحايا الظاهرة، يتم إطلاق وميض الشبح بفعل الذين يعتبرون مشعوذين أو سحرة. وهؤلاء لا يشكون بذلك أبداً، فسمعتهم هي التي "تعمل" عنهم. وفي عصر تصيد السحرة كان خطراً مميتاً العيش بهكذا سمعة. ولقد تعرض الناس الذين لهم يد مع الشبح: حملته، ضحاياه، الأسرة كلها، التي يشتبه "بعطلها" أو إطلاقها للشبح عن طريق السحر، تعرضوا لعذاب قاس. ولقد حكموا عليهم بالموت شنقاً، وعذبوهم في السجون، وقد اعتبروا ممن ختمهم الشيطان. ولكن المحكمة لم تجد أحياناً في أعمالهم مكونات الجريمة ـ وتبين أن الأفعال ذاتها لم تحدث! ونادراً ما كان يحدث ذلك في القديم. ومع الزمن غلبت أحكام البراءة بالنسبة لحامل الظاهرة على أحكام التجريم: حتى أن أكثر القضاة تحيزاً لم يكن قادراً على رؤية مقومات الجريمة في أفعال الإنسان. وقد تشكلت حالة غير مألوفة: الجريمة واقعة، والمجرم غائب! **أليست "الأرواح الصاخبة" هي المذنبة؟ لقد تبين أنهم هم تحديداً..**

وتعرف المراجع حالة شبح في إنغيلد تميز في عام ١٩٧٧ بأنه دنّس البيت بالكامل بغوطه ومحاولاته الدائمة للتخاطب مع الناس. وقد كان يفصح عن مبتغاه عبر أحد الأولاد الذين عاشوا في المنزل، وغالباً ما كان يتلفظ بكلمات بذيئة، تاركاً رسائل في كل مكان، وقد كتبها بخط غير مفهوم على قصاصات الورق أو على الجدران. وقد أكد صوته أنه ينتمي إلى أشخاص مختلفين، بعضهم مات في هذا البيت وأخبروا أنهم ظهروا من المقبرة المحلية. ذات مرة طلب الصوت: "أريد أن استمع لموسيقا الجاز. ضعوها لي وإلا فإنني سوف أجن!".

يظهر التحليل الذي قام به الأخصائي المشهور بالأشباح ألان غولد ل ٥٠٠ حالة ظهور أشباح أن المظهر النمطي لها هو تحريك المواد الدقيقة (الصغيرة) والمسجّل في ٦٤٪ من الحالات. وبعده يأتي النقر على الأشياء ٤٨٪. وقد لوحظ أن هذين النمطين من الظاهرة يمكن تزييفهما أكثر من غيرهما. وهناك شيوع كذلك للأشباح المتحدثين: فبين كل ست حالات يتم تسجيل تواصلهم مع الناس. وتتكرر حالة الثياب الممزقة في ٦٪ من الحالات.

ويذكر غولد أن الاعتقاد بوجود العفاريت في الوقت الحاضر بات من الماضي، ونادراً ما تُسجّل حالة تجسُّد واضحة بالأشباح، ويضيف أنه "بعد مئة عام تقريباً من حركة الإصلاح الديني يحدث انخفاض واضح نسبياً بالأخبار التي تتحدث عن حالات ارتباط هذه الظواهر بالموتى". واليوم. أصبح المكان "المحبب" للأشباح هو روسيا ما بعد البيريسترويكا، حيث تملكت مختلف أنواع الشيطنة عقول جزءٍ كبير من الجمهور.

غالباً ما كان يتبين أن ظاهرة الشبح ما هي إلا حيلة. فمثلاً، تبين أن حوادث احتراق غامضة تكررت في نفس البيت في ولاية ألاباما عام ١٩٥٩ والتي نُسبت في البداية إلى أشباح تسكن البيت، تبين أنها من فعل فتى في التاسعة من

عمره، حاول بذلك إجبار والديه على العودة إلى المدينة التي خرجوا منها منذ زمن ليس بعيد.

إن ظواهر الأشباح تضع أمام الباحثين قضية جوهرية وهي: من أين تؤخذ هذه الكمية الضخمة من الطاقة التي تستهلك خلال ذلك؟ وترى الغالبية في هذه الظواهر الغريبة أمثلة على "التحريك اللاحسّي العفوي المتكرر"، التي يظهرها الفتيان (المراهقون) كتجسيد للتوترات الخاصة بالبلوغ الجنسي. هذه النظرية تتمتع بميزة أنها تفسر لدرجة ما ظاهرة الشبح وحقيقة أن غالبية هذه الحالات تحدث مع المراهقات، حيث أن البلوغ الجنسي لديهن يتسبب بتغيرات أوضح ما يكون. ومن ناحية أخرى، لا يمكن إلا أن نعترف أنه في حالات كثيرة ـ حالة من كل خمس حالات ـ لا يتمثل لا الفتى ولا الفتاة، وأن أكثر من ١٠٪ من الحالات مرتبط بالبيوت وليس بالأشخاص، وأنه لم يعطِ أي تفسير علمي مقبول للتعبير عن التحريك اللاحسّي العفوي المتكرر.

إن أحد براهين وجود ظاهرة الأشباح هو تعاقبها التاريخي. ولو أن المشعوذين كانوا بالغين لكان ممكناً أن نفترض أنهم تعرفوا إلى جوهر الشبح وبالتالي قاموا بنمذجة حيلهم وفقاً لذلك. ولكن حتى في هذه الحالة سيبدو مدهشاً الشبه في الظواهر التي تفصل بينها مئات السنين، وتحدث في قارات مختلفة. وفي غالبية حالات الشبح المذكورة تغيب الإثباتات المباشرة لعملية الاحتيال. ولذلك نتصور أن الشبح هو ظاهرة حقيقية فيزيائياً، وقد ذكرت خصائصه بالتسلسل طيلة تاريخه بالكامل. ويبقى السؤال حول ماهيته، هل هو حالة نفسية أم ظهور عفاريت؟

الانتقال عبر الأثير

الانتقال عبر الأثير ـ هو نقل لحظي لأشياء مادية من نقطة إلى أخرى بدون استخدام مرئي للقوة العضلية. وكانت القناعة بأن هذه الظاهرة ممكنة وموجودة فعلاً في الطبيعة من مسلمات أي من المذاهب الصوفية. أما العلم فقد تجاهل ذلك حتى وقت قريب. وبتنا في السنوات الأخيرة نسمع همسات في الوسط العلمي عن الانتقال عبر الأثير، وقبل كل شيء وسط علماء الفيزياء النووية وذلك فيما يخص الجزيئات الصغيرة جداً للمادة، والتي يمكن اعتبارها غير مادية وبذلك لا تشكل عائقاً أمام نقلها بشكل لحظي ضمن مقياس صغير جداً.

وهناك شواهد كثيرة كذلك عن انتقالات لحظية ضمن مقياس كبير حدثت في الطبيعة وفي الظروف المخبرية. وتفيد مصادر اسبانية قديمة أنه في ٢٥ تشرين الأول من عام ١٥٩٣م ظهر في مدينة مكسيكو وعلى نحو مفاجئ، جندي تبين أن فوجه يرابط في الفلبين على مسافة ٩ آلاف ميل من المكسيك. قبض على الجندي وقدم إلى محكمة التفتيش. وقد كشف أنه قبل لحظات من ظهوره في المكسيك كان يحرس في قصر والي الفلبين في مدينة مانيلا، وقد اغتيل الوالي أمام عينيه للتو. أما كيف ظهر هو في مكسيكو فهذا ما لم يعرف عنه شيئاً. بعد بضعة أشهر أكد أشخاص وصلوا على سفينة من

الفلبين، خبر اغتيال الوالي وذكروا جميع التفاصيل الأخرى لرواية الجندي. لقد احتفظت مصادر القرون الوسطى برواية غريبة عن الراهبة (ماريا) من أغريدا. فلقد قامت هذه الراهبة التي لم تغادر ديرها يوماً "بشكل مادي" خلال الفترة الممتدة بين عام ١٦٢٠ و١٦٣١، بأكثر من خمسمئة رحلة في أمريكا بفضل الانتقال عبر الأثير. حتى أنها كانت سبباً في اعتناق قبيلة (يوم) الهندية في نيومكسيكو للديانة المسيحية. وفي عام ١٦٢٢ بعث الأب (ألونسو دي بينافيدس) برسالة إلى البابا (أوربان الثامن)، يستوضح منه فيها عن اسم المبشر الذي سبقه إلى قبيلة (يوم) الهندية ونشر فيها الدين المسيحي. وقد أعلن الهنود أنفسهم أن الفضل في اعتناقهم المسيحية يعود إلى امرأةٍ ترتدي ثوباً أزرق سماوي"، وهي راهبة أوروبية تركت لهم صلبان وسبحات والوعاء الخاص بالقداس. وقد ثبت بعد فترة قصيرة أن هذا الوعاء يخص الدير في بلدة (اغريدا). بعدها قام (دي بينافيدس) عام ١٩٣٠ بزيارة (لماريا) في الدير المذكور واستوضح منها تفاصيل زياراتها للهنود من قبيلة (يوم). وقد تطابقت روايات (ماريا) مع ما رآه رجل الدين لدى الهنود ـ حتى أن ماريا استطاعت وصف عادات ولباس الهنود الحمر بالتفصيل. وفي معرض تعليقه على حياة (ماريا) استنتج الباحث (جيمس كاريكو) ما يلي: "تؤكد وثائق الغزاة الاسبان والباحثين الفرنسيين والروايات المتطابقة تماماً للقبائل الهندية المنتشرة على مسافة آلاف الأميال عن بعضها البعض، أن الأخت (ماريا) زارت القارة الأمريكية غير مرة". ويمكن مصادفة الروايات التي تتحدث عن هذه الظاهرة غير المسبوقة في أي كتاب أساسي يتعلق بتاريخ الجزء الجنوبي الغربي للولايات المتحدة.

لم يكن جميع الناس المعاصرين لهذه الأحداث يرون فيها معجزة من الأعلى. فلقد سخر كثيرون في العصور القديمة من الأساطير التي تحدثت عن الانتقال السريع جداً للأشخاص والأشياء. وفي العصور الوسطى دعت

الكنيسة أتباعها لعدم تصديق روايات الرجال والنساء غير الطبيعيين الذين ادعوا أنهم يستطيعون الطيران بجسدهم في الهواء. وقد فسر "قانون الأساقفة" في القرن العشرين مجرى هكذا اعتقادات على النحو التالي:

يحس جميع البشر في أحلامهم وكأنهم يغادرون أبدانهم، وجميعنا يرى في الحلم ما لم يستطع رؤيته في اليقظة أبداً، ولكن سيكون غبياً وضعيف العقل من ينسب ما يحدث للروح إلى الوجود المادي؟".

لقد تبين وجود أسباب حقيقية تدفعنا للافتراض أن الانتقال عبر الأثير موجود فعلاً في عالم الحيوان وهو جزء لا يتجزأ من حياة نمل (الأت) في أمريكا الشمالية.

إن ملكات (الأت) هي إناث عملاقة يقتصر عملها على الأكل وإنتاج البيض. وعندما يكون حجمها ما يزال صغيراً تطير من وكر النمل، فيتم تلقيحها وتنزل إلى الأرض لتحفر فيها وتؤسس وكراً خاصاً بها. تقوم الملكة بإنتاج نمل عامل يقوم بدوره بالعناية بها، وخلال ذلك تكبر وتزداد إنتاجيتها من البيض.

وبغية حماية الملكة تقوم النملات العاملات بإنشاء حجرة "اسمنتية" قوية لدرجة لا يمكن تخريبها إلا بالتكسير. تحيط الحجرة بالملكة بشكل كامل، باستثناء بعض الفتحات الصغيرة في أسفل الحجرة لدخول وخروج العاملات اللاتي يحملن الطعام، والقابلات" اللاتي تعتنين بالبيوض، ومزراب من أجل البيض وقناة لإخراج البراز. يمكن أن يبلغ حجم هذه الغرفة حجم ثمرة جوز الهند. إذا تمكنا من الوصول إلى حجرة الملكة، وقصصنا بحذر جزءاً من جانبها، فإننا سنتمكن من مراقبة النشاط الحياتي لملكة النمل. وإذا أغلقنا الحجرة لبضع دقائق ثم فتحناها من جديد فإن الملكة لن تظهر

فيها. غير أنها ستظهر في حجرة مماثلة لهذه على بعد عشرات الأمتار من موقع الأولى.

قام الباحثون بالتجربة عدة مرات. ثم قاموا بوضع دهان على ملكة النمل وأغلقوا الفتحة التي صنعوها في الحجرة. اختفت الملكة. وقد اكتشفوا وجود الملكة في حجرة جديدة على مسافة كبيرة من موقع الحجرة الأولى. لقد كانت في حالة جيدة، تأكل وتضع البيض.

لا يمكن التصديق بأن نمل (الأت) قادر خلال أقل من ساعة (الوقت الذي يمر ريثما يجد المشرفون على التجربة المكان الجديد) على حفر نفق طوله عشرات الأمتار وإقامة "حجيرة اسمنتية" وسحب الملكة إليها.

ويرى الباحث المشهور في ألغاز عالم الحيوان (أيفن ساندرسون) أن نتائج التجارب تثبت أن (الأت) شكل نظام انتقال عبر الأثير لنقل عناصر هامة من مجتمعه، وهذا النظام يعمل في الحالات الطارئة.

لم يجد لغز نمل (الأت) تفسيراً مقبولاً حتى الآن. ولا توجد حتى الآن قرائن معقولة لظاهرة الانتقال عبر الأثير، ولم يثبت أحد إمكانية القيام بتجارب الانتقال عبر الأثير ـ وهذا بالتحديد يمثل الأساس العلمي لإثبات أية ظاهرة. غير أنه إذا تسنى إثبات حقيقة الانتقال عبر الأثير فإن ذلك سيقلب الحضارة الإنسانية رأساً على عقب. لكن الحياة البشرية خلال ذلك ستتغير لدرجة يحتمل معها ظهور حاجة لوضع قيود على الانتقال عبر الأثير.

وبالرغم من أن جميع القوانين الفيزيائية المعروفة ترفض إمكانية الانتقال عبر الأثير، لأن ذلك يتطلب استهلاك طاقة هائلة خلال لحظة، غير أن العلم هو العلم. أما مؤيدو الفكرة فلا يرغبون بالتخلّي عنها. ويحاول أنصار الانتقال عبر الأثير إيجاد مصدر ما لطاقة قوية جداً تسمح بتوليد سرعة كبيرة، دون أن يعلنوا وقوفهم العلني ضد قوانين الفيزياء.

التخاطر

التخاطر: هو ظاهرة نفسية لا حسية واسعة الانتشار. وقد أحس كل منا بها غير مرّة. والمثال الأكثر وضوحاً هو علاقة التخاطر بين الأم والطفل: إن الأم الطبيعية المحبة لابنها تحس لحظياً بالخطر المحدق بابنها مهما كبرت بينهما المسافة. وبنفس الوضوح تظهر رابطة التخاطر بين الأشخاص المتحابين، الذين يحسون بأية خلجات في الحالة الروحية لأي منهما.

في حالة رابطة التخاطر لا تعمل البداية المنطقية للوعي الإنساني عملياً، والعمل هنا هو في الغالب للحدس النفسي. ويظهر خلال ذلك تناغم تام بين طرفي هذه الرابطة. غير أن القيام بتجربة تخاطر ضمن إطار علمي صارم يبدو عملاً معقداً جداً. وبناء على ذلك يؤكد المشككون بأنه لا وجود لهكذا رابطة: ولكن لا ينشأ لدى أي منهم أدنى شك في لباقة (صحة) القيام بهكذا تجارب.

في عام ١٩٦٩ أقيم في جامعة كاليفورنيا مؤتمر دولي "النظرة المعاصرة تجاه الإدراك الحسي العالي". وقد قدمت فيه مذكرة حول التجربة الدولية الناجحة للنقل عبر التخاطر بين مدن لوس أنجلس ـ نيويورك (الولايات المتحدة) ـ سوسيكس (بريطانيا العظمى). وقد تم تسجيل نتائج التجربة بشكل موضوعي عن طريق اختيار محدد لصور التدقيق والمراقبة.

في عام ١٩٧١ نشرت صحافة الولايات المتحدة الامريكية خبراً حول أربع جلسات تخاطر تم إجراؤها بين سفينة الفضاء "أبولو ـ ١٤" والأرض أثناء البعثة القمرية "أبولونا". وقد قام رائد الفضاء ميتشيل باتصال تخاطري من مدار الأرض إلى القمر أثناء إقلاع السفينة. وعندما عاد إلى الأرض علم رائد الفضاء أنه من ٢٠٠ صورة قام بإرسالها إلى الأرض من "خرائط زينر" تطابقت إحدى وخمسون صورة. واحتمال حدوث هكذا تطابق ضعيف جداً (٠,٠٠٠٣).

وبنفس الوقت أقيمت في العالم كله مختلف التجارب المتعلقة بإثبات الرابطة التخاطرية في الأوقات التي لم تكن القنوات الأخرى متاحة أو غير مرغوب بها. وبالنتيجة تم إثبات الإمكانية المبدئية للرابطة التخاطرية تجريبياً. وتم أيضاً إثبات أن هذه الرابطة تعمل خارج مجال تأثير جميع الحقول المعروفة: الكهرطيسية والجاذبية وغيرها. وتتابع الولايات المتحدة وبعض البلدان الأوروبية العمل على صنع جهاز لنقل المعلومات باستخدام التخاطر.

وقد جرى أثناء التجارب الخاصة بالرابطة التخاطرية إثبات وجود اتصال بيولوجي معلوماتي بين الإنسان والنبات. وقد جمعت حقائق كثيرة تؤكد الوحدة المذهلة للطبيعة الحية بالكامل. وتقول نتائج الدراسات أن المعلومات الموجهة لغرض محدد هي العامل الأساسي لاتصال الإنسان بالنبات والنبات بالنبات وما إلى ذلك. وحامل هذه المعلومات يمكن أن يكون بنية نمط الفعل، وعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون النبات الذي يتواصل معه الإنسان (هو حامل هذه المعلومات).

ولكن ليس بالإمكان تفسير نتائج التجارب لنباتين عن طريق تفاعل العوامل المرتبطة بالإنسان. وهذا يزيد من درجة صدقية الفرضية حول وجود بنى بيوفيزيائية ما ذات طابع نفسي، قادرة على الوجود الذاتي خارج حدود الجهاز الحي الذي أنتجها. وبذلك يتضح أن النبات هو بمثابة مرسل بيولوجي قادر ضمن ظروف معينة على كشف هذه البنى بشكل موضوعي. ويرى عالم النفس

الحسي المشهور (أ. مارتينوف) أن هكذا تجارب تدفع بشكل لا إرادي باتجاه فكرة حول وجود حضارة نباتية متطورة جداً. تستخدم الاتصال التخاطري للتواصل. ومن المحتمل، أنه يوجد في عالم النبات اتصال داخلي بين نباتات النوع الواحد، وكذلك اتصال بين الأنواع المختلفة، فمثلاً، تحس جميع النباتات في أراضٍ واسعة بمصيبة أحد النباتات.

من حيث المبدأ لا يوجد شيء معقد في ظاهرة التخاطر، فكل واحد منا يستطيع "سماع" الشخص الآخر بعد قليل من التدريب. وليست هناك حاجة لأي جهاز خاص من تلك التي يعمل عليها العلماء في مخابر البنتاغون ـ ما نحتاجه هو تشغيل الحدس والتوليف نحو الشخص القريب. ولكن تذكروا بداية هذا الباب. ما من "توليف" أفضل من الحب.

المحلّقون في الهواء

الانفصال عن الأرض بلطف والتحليق في الهواء.. أشخاص كثيرون عاشوا هذه الحالة في الحلم. وبعضهم أحس بذلك في اليقظة. إن ظاهرة التحليق أو الطيران في الهواء بدون معدات خاصة هي واحد من الأسرار العظيمة في مجال شذوذ الطبيعة.

معروف مثلاً أن (القديسة تيريزا) من (أفيلا) أحست غير مرة خلال الصلوات بقوة هائلة غامضة تحملها في الهواء، لدرجة أنها طلبت إلى الأخوات الإمساك بها في هكذا لحظات. ويعتبر تحليق تيريزا بمثابة معجزة تؤكد قدسيتها.

وتذكر الروايات القديمة أن الراهب الفرنسي (القديس جوزيف) من (كوبرتينو) كان يحلق كذلك. ذات مرة، وخلال صلاة تأملية حلّق (جوزيف) فجأة وطار نحو المذبح. وقد تكررت المعجزة غير مرة. حتى أن الحبر الأعظم في روما شاهدها بنفسه ذات مرة. لم يقتصر حدوث هكذا أحداث مع رجال دين كاثوليك فقط. حيث تذكر النصوص السنسكريتية القديمة أنه من خلال بعض تمارين التأمل يمكن التوصل إلى تحليق جسم الإنسان فوق سطح الأرض. لقد امتلك بعض الرهبان البوذيين (اللاما) قدرة التحليق. إلا أن حالة التأمل تعتبر شرطاً لازماً لذلك.

في القران التاسع عشر ظهر لدى قسم من الجماهير "المثقفة" اهتمام كبير تجاه الإيمان بالغيب، واستحضار الأرواح والسحر وما إلى ذلك من الأمور المثيرة. فمن بطرسبورغ حتى بوسطن كان المتحمسون للاتصال بعالم الغيب يجلسون في أجواء شبه مظلمة ويحركون الطاولات ويستحضرون الأرواح. وكان الوسيط هو الشخصيّة المركزية في جلسات استحضار الأرواح. وهو الشخص الذي تتحدث معه الأرواح بشكل أو بآخر. ولقد كان (دانييل دوغلاس هوم) واحداً من الوسطاء الأكثر شهرة في ذلك الوقت. لقد عاش هذا الايرلندي، الذي هو من مواليد (ايدنبرغ) الإيرلندية: في الولايات المتحدة الأمريكية منذ الصغر. وقد كان من بين قدراته الخارقة القدرة على التحليق في الهواء ورفع الأشياء بواسطة "القوة المغناطيسية".

في كانون الثاني من عام١٨٦٣، وبحضور امبراطور فرنسا (نابليون الثالث) وعدد من مستحضري الأرواح من ذوي المراتب العالية ارتفع (هوم) في الهواء إلى ارتفاع ٢م تقريباً. (لورد أردي) حضر جلسات عديدة لـ (هوم) وترك وصفاً مفصلاً ودقيقاً جداً لهذه الجلسات. وقد أورد على وجه الخصوص، حالات تحريك طاولات وكراسي في الهواء. لقد كانت ثقيلة لدرجة لم يكن بمقدور شخص واحد تحريكها من مكانها.

عالم الفيزياء الشهير من القرن العشرين (وليم كروكرز) رأى بعينه تحليق (دانييل هوم) ورفعه الأشياء في الهواء. وشهد (كروكرز) كيف أن (هوم) حلق مرة تحت سقف ولم ينجح الحاضرون بإعادته إلى أسفل من خلال شده من رجليه.

ويؤكد جميع الشهود أن (هوم) كان يحلق دائماً في وضع شاقولي. وخلافاً للوسطاء الآخرين، الذين كانت جلساتهم تتم في ضوء خافت أو في الظلام، فإن (دانييل) كان يحب القيام بجلساته في النور. وقد أكد أنه ليس لديه ما يخفيه. وقد جرت محاولات عديدة للنيل منه بالبحث عن أدوات ما

كـان يعتقـد أنـه (هـوم) يـستعين بهـا ليـذهب بعقـول مـن حولـه. إلا أن أحـداً لـم يتسن له فعل ذلك.

ويبدو تحرر الجسم من قوى الجاذبية الأرضية لغالبيتنـا ضـرب مـن الخيـال. غـير أن "التحليـق لـيس معجـزة" حـسب رأي البـاحثين المعاصـرين في الظـواهر اللاحسية. يتمكن بعض النـاس مـن استحـضار قـوى قـادرة علـى التغلـب علـى الجاذبية الأرضية أو تحييدها، وعندها يمكن للجسم البشري التحليـق بحريـة في الهواء، تمامـاً كمـا يحـدث مـع رواد الفـضاء عنـدما يتواجـدون في منطقـة انعدام الوزن.

ترى، هل بالإمكان تعلم التحليق؟

تؤكـد الأمريكيـة (ايلـين ماسـدل) رئيـسة مركـز تطـوير الشخـصية في (الفارادو) في ولاية (تكساس) أن ذلك ممكن. حتى أنها وضعت نظام تدريب خاص الهدف منه إعداد الجسم فيزيائياً للتحليق. وقد شكل القفز اليومي عن جهـاز الترامـبلين العـالي في المـاء جـزءاً كـبيراً مـن هـذا النظـام. وكـان علـى المتدرب أن يحاول مرة تلو الأخرى إبقاء جسده في الهواء لفترة أطول باذلاً خـلال ذلـك أقـصى جهـد. ولكـن، وبـالرغم مـن كـل مـا فعلتـه لم تـتمكن (ايلـين ماسـدل) مـن التحليـق ولـو لوقـت قـصير جـداً. إلا أنهـا وبينمـا كانـت تلقـي محاضرة، اقترب رجل مسن منها وهمس لها: " إنك تخطئين التعامل مع قضية التحليق. إنك تحاولين تحقيق ذلك بشكل ميكانيكي، بينما ينقصك قبل كل شيء الإيمان بإمكانية حدوث ذلك". وقد تحدث الرجل المجهول كيف أنه استطاع التحليق خلال نزهاته في الأماكن التي لا يؤمها الناس، حيث يقوم باختيارها على وجه الخصوص كي لا يخيف الآخرين. وهناك يرتفع أحيانـاً في الهواء ويطير فوق قمم الأشجار. وإن أفضل وضعية للتحكم بالطيران حسب قولـه، هـي الوقـوف والأيـدي ممـدودة إلى الأمـام، حيـث أن الطريقـة الأفـضل للمحافظة على التوازن المطلوب هي التوزيع المنتظم لكتلة الجسم.

مـرت أشـهر عـدة، وبينمـا كانـت (إيلـين) تـسير نحـو الكنيـسة لحـضور قـداس يـوم الأحـد، أحـست فجـأة أن رجليهـا لا تلمـسان الأرض! نظـرت إلى الأسفل لترى أنها ارتفعت لمسافة تقارب المتر فوق الأرض. في اللحظة الأولى لم تحس (إيلين) بشيء سوى الخوف ودأبت تحاول الإمساك بشيء ما. ولكنها لم ترَ حولها شيئاً يمكن الامساك به. حتى أنه لم يكن هناك أحد في الجوار يمكن التوجه إليه طلباً للمساعدة. تحركت (إيلين) في الهواء بهدوء، وراحت الطريق التي كانت تسلكها منذ قليل تبتعد عنها شيئاً فشيئاً.. وعندها تذكرت كلمات الشيخ الغامض فمدت يديها وراحت تتحكم بجسدها متوجهة نحو الكنيسة. وعندما وصلت إلى أقرب عمود أمسكت به وانزلقت إلى الأرض. وذهب الإحساس الغريب بانعدام الوزن ولم يعد مجدداً أبداً.

وإثر مدرسة (إيلين ماسدل) ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية "مدارس تحليق" كثيرة، جرت فيها تدريبات رياضية جسدية ونفسية عبر تمارين اليوغا وغيرها. ولكن لم ترد حتى الآن أية أخبار عن تلك المدارس حول تحقيق أية نجاحات.

يعتبر التحريك اللاحسي واحداً من الظواهر اللاحسية الشاذة. وهو يتمثل بتأثير الأشخاص على الأشياء عن بعد، حيث يتغير خلال ذلك شكل الشيء أو بنيته أو وضعه. ويعتبر الباحثون أن ظاهرة التحليق في الهواء تمثل حالة خاصة للتحريك اللاحسي. وفي نهاية الأمر، ليس المهم تصنيف الظاهرة بل إثبات واقع وجودها علمياً.

قام الباحثون السوفييت أ. ناوموفاو وأ. ميخا لتشوك بتجارب على رجل ذي قدرات عالية على التحريك اللاحسي وقد تسنى له في الشروط المخبرية رفع الأشياء في الجو. بدأت التجربة بتركيز داخلي - استجماع للطاقة. وقد استمر ذلك حوالي عشر دقائق أحس الرجل خلالها بيديه "تنموان" بالتدريج ويزداد حجمهما، وقد تشكل بينهما ما يدعى "وسادة هوائية غير مرئية". تزايد وزن

الوسادة وأصبحت أكثر صلابة، وبات بالإمكان الانتقال إلى الجزء الثاني من التجربة. تم وضع مواد خفيفة مصنوعة من الخشب والبلاستيك بين كفي الرجل ذي القدرات الحسية الخارقة. وقد أحس خلال ذلك بزيادة "ضخامة" يديه، وارتفع الضجيج في أذنيه، وأحس أن الواقع يبتعد عنه... وعندما انزل يديه بحدة (بسرعة) وهو في هذه الحالة، بقي الشيء عشرات الثواني معلقاً في الهواء. وذكر الأطباء الذين درسوا حالة الرجل بأنه فقد طاقة هائلة وقد خارت قواه، وبدا كمن قام بمجهود عضلي كبير. وقد كانت الأعراض الخارجية له تتبىء عن ذلك: فيداه ترتجفان، ونبضات قلبه سريعة، وتنفسه صعب. كما أنه أحس بعد ذلك بالجوع والنعاس المفاجئ.

ويؤكد الدكتور (أوغوست شتيرن)، وهو فيزيائي سوفييتي سابق هاجر إلى أوروبا، أنه عمل عندما كان في الاتحاد السوفييتي في مخبر سري في مدينة (نوفوسيبرسك) وقد درس فيه الظواهر غير الحسية والشاذة بما فيها التحليق في الهواء.

مموِّل محطة (إن بي سي) (ألان نيوسن) أقنع السيد شتيرن بالمشاركة في تجارب تكرر تلك التي أجراها في أكاديمفورودوك (مدينة الأكاديميين) في نوفوسيبرسك. وقد تم لهذا الغرض تجهيز غرفة خاصة لإجراء التجارب. صنعت جدران الغرفة من مرايا تعكس الفراغ الداخلي للغرفة إلى ما لانهاية،أما الأرض فقد تمت تغطيتها بفرشة مطاطية مصنوعة من مادة مناسبة. كما تم نشر عدد كبير من المرسلات في الفرشة كانت مهمتها تسجيل شدة الضغط.أجريت التجربة بإشراف بروفيسور الفيزياء التجريبية (جون هاستد) من جامعة لندن. استلقى شتيرن على الفرشة وقامت كاميرات الفيديو بتصويره من مختلف النقاط. لكن للأسف، لم يتسن له الطيران. وكان الشيء الوحيد الذي سجلته المرسلات هو انخفاض للضغط بمقدار (١) كغ ولزمن قصير جداً. وقد كان ذلك ممكن الحصول لو أن (شتيرن) نهض على

مرفقيه أو قدميه، إلا أن كاميرات الفيديو أظهرت أن (شتيرن) استلقى دون حراك. واضح أن الأجهزة سجلت ظهور قوة معاكسة للجاذبية، لكنها ضعيفة لدرجة لم تستطع رفع جسم (شتيرن) في الهواء.

وقد تابع البروفيسور (جون هاستد) التجارب في حجرة المرايا هذه مع وسيطين بريطانيين مختصين بالتحريك اللاحسي. وقد حصل غير مرة أن سجل انخفاضاً مفاجئاً لوزن الشخص المستلقي دون حراك بمقدار ٢كغ، ولكن لفترة وجيزة.

وهكذا نرى أن الفيزيائيين يجرون التجارب، وتلاميذ "مدارس التحليق في الهواء" يقفزون من على جهاز الترامبولين.. وكل ذلك لإثبات أن ظاهرة التحليق هي حقيقة موجودة، ولكي يتعلموا الطيران. إلا أن المتصوفين في الشرق اعتبروا دائماً أن التحليق في الهواء هو نتيجة مرافقة لتطور (لسمو) روحي عال، وليس هدفاً بذاته.

علامة معاناة المسيح (ع)

لقد دُقَّت المسامير في أيدي وأرجل المنقذ، وجرح إكليل الشوك الذي كان على رأسه جبينه وجلدة رأسه. كما أن جندياً رومانياً طعنه بالرمح في صدره مخلفاً جرحاً غائراً..

طيلة أكثر من ٧٥٠ سنة ما تزال الستيغمات تظهر على بعض المسيحيين. وهي علامات معاناة المسيح (ع). (والستيغما في اللغة اللاتينية تعني: الطعنة، الجرح) وللستيغمات شكل الجراح الدامية على باطن اليد حيث تبدو وكأن مسامير دقت فيها، كما تظهر هكذا جراح أحياناً على باطن القدم. وبعض حملة الستيغمات لديهم جراح على الجبين تذكر بالوخزات والخدوش التي سببها إكليل الشوك، كما تظهر على آخرين آثار التعذيب والضرب بالسوط.

يعتبر القديس (فرانسيسك اسيزكي) أول من ظهرت عليه الستيغمات، وذلك عام ١٢٢٤م، خلال عيد إقامة (تشييد) الصليب المقدس. وتؤكد الأسطورة أن ملاكاً ظهر للقديس (فرانسيسك) في المنام، ونقش الستيغمات على يدي ورجلي الناسك.

وفي الحقيقة، هناك من يؤكد أن أول معلومات حول الستيغما تعود إلى زمن أقدم من ذلك بكثير: إلى الأعوام الأولى للمسيحية. ويذكر في إحدى رسائل القديس (باول) أن (باول)" حمل جراحاً بعد صلب المسيح مطابقة

لجراحه". ويمكن تفسير كلمات (باول) بشكل حرفي، وهذا يعني أنه اكتسب ستيغمات على جسده، كما تحمل تفسيراً مجازياً. إلا أنها المعلومة الوحيدة من القرون الأولى للمسيحية ـ وقد مرَّ ألف عام بعدها لم يسمع أحد فيها شيئاً عن ظهور الستيغمات.

وهناك روايات عديدة تفسر سبب عودة الستيغمات في بداية هذه الألفية فقط.

وتربط الرواية الأولى ظهور الستيغمات بارتفاع حدة الجدال في العلوم اللاهوتية في القرنين السادس والسابع. وبعد الانقسام الذي حصل في الدين المسيحي عام ١٠٥٤ إلى كنيستين: كاثوليك وروم أرثوذكس، رفع الكاثوليك ما يسمى "عقيدة البعث". وقد تمحورت التأملات اللاهوتية حول معالجة أفكار الطبيعة البشرية للسيد المسيح. كما تقرر عيد كنائسي جديد هو عيد (جسد المسيح) (**corpus Christi**) كذكرى للحياة الأرضية الجسدية للمنقذ منذ الولادة حتى الصلب. وإلى هذا الوقت تحديداً تعود المعلومات الأولى حول ظاهرة الستيغمات.

وتفسر نظرية أخرى انتشار الستيغمات نتيجة للتوتر العام وتعبيرية الفن الكنائسي لتلك الفترة. فقد باتت موضة اللوحات الطبيعية المليئة بالمشاهد الدموية تعرض آلام السيد المسيح، مما أثار واستفز مشاعر المؤمنين. وهناك فرضية أخرى تقول إن الدنياويين، وخاصة النساء، أحسوا بأنهم مستثنون من سر تجسد الخبز والنبيذ في جسم ودم السيد المسيح. وقد فاقم هذا الاستياء الرأي العام حول فساد (انحلال) الكنيسة.

كما أن ظهور الستيغمات دعم رأي الدنياويين القائل بأن المسيح يرعى رعيته بنفسه ويمكن المؤمنين من التماس المباشر مع جسده.

وقد وصف الطبيب الفرنسي (أمبير ـ غوربي) في القرن التاسع عشر حوالي ٣٠٠ حالة ستيغمات. اعتمد فيها على كتابات تاريخية وأخبار من عصره هو، غير أن غالبية أخباره توصف اليوم بأنها غير صحيحة. لقد كان كاثوليكياً متعصباً، واعتمد في عمله على الحماس دون اللجوء إلى النقد والمراجعة. وحسب تقديرات الإخصائيين المعاصرين يمكن تسمية ٤٠٦ حالات صحيحة نسبياً لظهور الستيغمات خلال ال ٨٠٠ عام الأخيرة. وقد كانت غالبية الستيغمات من الكاثوليك (٦٨٪) وتنتمي البقية إلى مختلف الطوائف الدينية.

وإذا كان ظهور الستيغمات قد اقتصر أساساً على سكان بلدان البحر الأبيض المتوسط، وأغلبهم في إيطاليا، فإن بين حملة الستيغمات اليوم يابانيون وكوريون وأربعة أمريكيين على الأقل وأرجنتيني وكندي.

يؤمن آلاف الناس أن الستيغمات هي هبة ربانية. إلا أنه توجد آراء أخرى. فأحد المدارس الثيوصوفية (وهي مذهب صوفي يقول باتحاد الروح البشرية مع الإله وإمكانية التواصل مع عالم الغيب) تعتبر أن الستيغمات دلالة الشيطان. ويوجد بين اتباع الكنيسة الكاثوليكية تيار يهتف بقدسية الأب (بيو) ـ وهو رجل دين إيطالي ظهرت عليه الستيغمات. وقد ارتبطت باسمه أفعال كثيرة خارقة للطبيعة، مثل قدرته على تحديد توضعه في المكان والانتقال اللحظي عبر آلاف الكيلومترات من نقطة إلى أخرى على الأرض. كما أن حالات العلاج المعجزة التي قام بها الأب (بيو) تسمح حسب رأي أنصاره، باعتباره مختاراً من قبل الرب.

يتعامل الفاتيكان الرسمي بحذر شديد مع وقائع ظهور الستيغمات. ويتطلب الإجراء العادي أن يمر بعض الوقت. يصل أحياناً إلى مئة عام من يوم وفاة حامل الستيغمات كي تتمكن الكنيسة من الاعتراف به (شرعنته). يقوم رجال الدين والأطباء ـ الخبراء الذين يعينّهم الفاتيكان، بدراسة دقيقة لكل حالة آخذين بالاعتبار جميع التفاصيل "مع" و"ضد". وتعترف الكنيسة أن

الستيغمات يمكن أن تظهر على الأشخاص وتكون ذات طبيعة عجيبة أو مبهمة، إلا أن خبراء الكنيسة يرون أن البحث عن مصدر ظهور الستيغمات هو من صلب عمل الأطباء النفسيين: فلقد ظهر في بعض الحالات مختلف الأعراض السريرية، والميل إلى التعذيب الذاتي، والانخفاض الحاد في احترام المرء لنفسه. كما توجد مجموعة مستقلة من حملة الستيغمات يعيدون سبب ظهور جراحهم إلى التماس مع غرباء عن الكوكب. ويعتبر الإيطالي جورجيو بونجو فاني واحداً من أشهر حملة الستيغمات في الوقت الحاضر. وهو يقدم في رواياته للمستمعين خليطاً عجيباً للكاثوليكية والعلوم المرتبطة بالأجسام الطائرة مجهولة الهوية. ويفسر نشوء الستيغمات على جسده كنتيجة للقاءاته مع أشخاص من كوكب آخر.

يمكن الافتراض ببساطة أن هذه الشخصيات لا تتمتع باستقرار نفسي وتقوم بجرح نفسها. إلا أن الستيغمات في واقع الحال، هي ظاهرة أكثر تعقيداً. ويتجسد ذلك في أن غالبية حملة الستيغمات لا يتذكرون متى وفي أية ظروف ظهرت عليهم الجراح. وتوجد دلائل عديدة على أنه مهما عولجت الستيغمات فإنها تعود وتظهر من جديد على جسد حاملها وفي نفس الأماكن. ولقد أظهرت تجارب عديدة أجراها الدكتور (ماركو مارنيللي) من إيطاليا على حاملة الستيغمات (لو بيانكو) أن الستيغمات التي عولجت قادرة على الظهور من جديد لعدد كبير من المرات على يديها، مع العلم أنه في كل مرة كانت تبدأ فيها الستيغمات بالظهور على جسدها، كانت (لو بيانكو) تغيب في حال من النشوة الروحية، وترى وهي في هذه الحالة سبحة وصليباً. أما الأب (بيو) الذي أتينا على ذكره سابقاً فكان يرى نفسه أثناء النشوة الروحية. أما الأمريكية (اتيل تشمين) فلقد كان على جسدها ستيغمات على شكل آثار مسامير على باطن كفيها، وقد شاهدت مشهد صلبها بينما كانت في المشفى غارقة في نشوة روحية.

إن حالـة النـشوة الروحيـة الـتي يـدخل فيهـا الـستيغمانيون سمحـت لمؤيـدي التفكير المنطقي التقدم بفرضية مفادها أن للستيغمات طبيعة نفسية - جسدية (باستثناء حالات الإيذاء الذاتي المقصود). ولكـن المـؤمنين البـسطاء مـا يزالـون ينظرون إلى حملة الستيغمات على أنهم مختارون من الرب.

يـضاف إلى ذلـك روايـات كـثيرة تفيـد بقـدرة بعـض حملـة الـستيغمات علـى الارتفاع في الهواء، وأن رائحة جراح بعضهم الآخر عطرة جداً..

إن الخـبراء الـدنياويين وأتبـاع الكـنيـسة يعتـبرون أنـه لا يمكـن النظـر مـن زاوية واحدة إلى ظاهرة الستيغما. وأن لغالبية الـستيغمات منـشأ عاديـاً: غـير أنـه توجد حـالات لا يمكـن تفسيرها علـى نحـو منطقـي. إنهـا ظـاهرة معقـدة جـداً، حيـث تخـتلط الأسـباب الفيزيائيـة والجـسدية والنفـسية وغـير الطبيعيـة.. ربمـا سـيتم تفـسير هـذه الظـاهرة يومـاً مـا. أمـا في وقتنـا الحاضـر فمـا يـزال النـاس يؤمنون بالمعجزات..

تنبؤات في قرية فاتيما

في ربيع عام ١٩٨١ تم الاستيلاء على طائرة الخطوط الجوية البريطانية المحلية واختطافها إلى فرنسا. لم يكن الاختطاف لأسباب سياسية كما يحدث عادة، ولكن بهدف إجبار الفاتيكان على كشف النبوءة الثالثة التي ذكرتها السيدة العذراء في قرية (فاتيما) البرتغالية. هذه النبوءة، التي عرف بها عدد قليل جداً من الناس. تتحدث عن نهاية العالم. وقد أحاطها الفاتيكان بالسرية طيلة عشرات السنوات. لم ينجح الإرهابي، وهو متطرف ديني عانى بوضوح من خلل انفعالي، لم ينجح في ابتزازه اللاهوتي.

في ١٣ تشرين الأول عام ١٩١٧، وتحديداً في القرية البرتغالية الصغيرة (فاتيما)، كان ٧٠ ألف شخص شهوداً على إحدى العجائب المدهشة المنسوبة للعذراء. تغير لون الشمس وأصبح يميل إلى الصفرة، وقد انطلقت منها أشعة زاهية الألوان. دارت الشمس ثلاث مرات حول محورها ثم راحت تقترب من الأرض على مسار زكزاكي الشكل (متعرج) وسط رعب خيم على المجتمعين.

"إنها نهاية العالم!" ـ صرخت إحدى النساء.

ثم صرخت أخرى: "اللهم لا تمتنا ونحن آثمين".

"أيتها العذراء المقدسة احمينا" ، ـ همس رجل بهدوء وقد جثا على ركبتيه. في اليوم التالي، أرسل صحفي أمريكي تقريره من لشبونة (عاصمة البرتغال). إلا أن اهتمام الناس في بلده كان متجهاً إلى مفاجآت مختلفة تماماً، ولذلك تم اختصار المقالة الطويلة إلى ملاحظة قصيرة وردت في الصفحة الرابعة والعشرين تحت مقالة تتحدث عن مباريات ملاكمة: ضربات قاضية، ضربات موفقة وخسائر. وفقط في بداية الأربعينيات بدأت أعجوبة قرية (فاتيما) تشغل العقول.

وفجأة، أصبحت قرية (فاتيما) محط اهتمام الجميع. وبات الناس يفكرون بالحرب العالمية الثانية على أنها عذاب الله، و"بخطة السلام" التي أحضرتها العذراء بنفسها من السماء ورفضها الناس. لقد تحققت نبوءات أخرى: فلقد انتشر الإلحاد والشيوعية وقتل (تعذيب) القوميات الصغيرة خلف ستائر حديدية، والتضحية بكل الحريات وبكثير من الحيوات البشرية. ما الخبر الذي أتت به السيدة العذراء يا ترى؟ وما الذي حدث في واقع الأمر؟ وهل كانت هناك معجزة؟.

في ٦ نيسان عام ١٩١٧ دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى. وقد توسل البابا (بينديكت الخامس عشر) إلى الدول العظمى لإيقاف "هذه الحرب القاسية التي مثلت القتل الذاتي لأوروبا"، ولكن كلماته كانت موجهة إلى الصم. وأخيراً، وفي رسالة مفعمة بالمرارة إلى جميع أفراد الرعية، أهاب البابا باتباعه التوسل إلى السيدة العذراء لإيقاف المجزرة غير المعقولة: "علينا أكثر من أي وقت مضى، أن نرسل في هذه الساعة الرهيبة توسلاً إلى السيدة العذراء العظيمة من أبنائها المخلصين. إلى مريم أم الرحمة، .. وليتوسل لها المحبون والمخلصون من جميع أصقاع الأرض، من بيوت العبادة الكبيرة والكنائس الصغيرة، من قصور الملوك وعزب الأغنياء، وكذلك من أكواخ الفقراء، من كل مكان تحتمي فيه روح مؤمنة، من السهول المروية بالدم ومن

البحار البعيدة. وحبذا لو تصل إلى سمعها صرخات الأطفال وآهات الأمهات، وأنفاس كل قلب كريم. لعلها تحيطنا بعنايتها ويحل السلام في عالمنا المضطرب وهذا ما نرجوه".

لقد ولد الأطفال الذين ظهرت لهم السيدة العذراء وهم (فرانسيسكو، جاسينتا، مارغو، لوسيا، ابوبورا) ولدوا جميعاً في أسر رعاة من قرية (أنجوستل) المنسية في مركز البرتغال. في ربيع عام ١٩١٦ تم تجميع قطعان من قرى الضواحي في قطيع واحد وأرسلوه للرعي في قطعة صغيرة من أرض (أبوبورا) المعروفة باسم (كوزا ـ فيلا) قرب سفوح الجرف الجبلي (كابيسو). وتقودنا سلسلة الأحداث العادية هذه إلى سؤالين مهمين يخصان ظهور السيدة العذراء.

خلال فترة ما سمي بقرن ماريا، وتقريباً من ١٨٢٠ حتى ١٩٣٣ تكرر كثيراً ظهور السيدة العذراء. وكانت "الزيارات" تحدث دائماً عندما ينسى الناس الدين ويصبح موضوعاً للسخرية، إن لم نقل للتهجم. والشيء الثاني هو تكرار ظهور السيدة العذراء بشكل أكثر في المناطق الجبلية والقرى الصغيرة حيث غالبية الناس فقراء وأميون.

ودائماً كان الأطفال هم من يقابلها. والناس الذين كانت تظهر لهم كانوا بسطاء وأبرياء وغالبيتهم من غير المثقفين. وإذا ما التفتنا إلى الفكرة الثيوصوفية العميقة والتعقيد الفلسفي لكل رسائلها وتذكرنا أن السيدة العذراء أرادت دائماً انتشار أخبارها في كل مكان فإننا سنستغرب اختيارها لقرى منسية وعدم ظهورها لأشخاص علماء وقادرين.

ربما يعود ذلك إلى أن عقول متأمليها لم تتسخ بعد بفلسفات التشكيك التي ظهرت في المئتي عام الأخيرة، ولذلك كان بمقدورهم نقل رسائلها دون أية تأويلات منطقية تماماً كما لفظتها. إن جميع معارفنا، وحتى نجاحاتنا في

دراسة الكون ما هي إلا تأكيدات منقوصة وغالباً ما تكون مبهمة حول جوهر الكون. والمعرفة الكاملة الوحيدة هي معرفة الإله الذي أبدع هذا الكون الذي بدأنا نفهم أسراره منذ وقت قصير جداً.

ربما يكون (جون ج. ديلاني) قد وجد السبب الثاني. وهاكم ما كتب في مقالته:"ظهور السيدة العذراء". إذا قابلنا ظهور السيدة العذراء مع ظروف حياتها الأرضية مع السيد المسيح فإن اختيار الأماكن والناس الذين ظهرت لهم في وقت لاحق يصبح مفهوماً. وهل من الواجب تذكير القارئ أن السيد المسيح ولد وتربى في عائلة نجار فقير. وأن الجزء الأكبر من عظاته كان موجهاً إلى الناس البسطاء؟ ويكفي أن ندقق من كان الاثنا عشر شخصاً، الذين اختارهم لإقامة كنيسته، لنفهم كيف أن السيدة العذراء سارت على آثاره.

وأياً كانت الأسباب الحقيقة فإن واحداً معروفاً، وهو أنه في يوم صيفي من عام ١٩١٦ اتجهت لوسيا وأصدقاؤها الصغار كالعادة إلى أغنامهم. وبينما كان القطيع يرعى العشب القليل لعب الأطفال لعبة الطميمة. بدأ مطر خفيف، وصل كهدية من المحيط البعيد في الشمال الغربي. جمع الأولاد الأغنام عند أطراف الغابة. وانطلقوا نحو المغارة التي لطالما اختبؤوا فيها خلال الأحوال الجوية السيئة. بعد المطر تابعوا اللعب.

وبعد سنين طويلة كتبت لوسيا: "نحن بالكاد بدأنا اللعب عندما هزت الريح فجأة الأشجار من حولنا. وظهر فوقها ضوء أكثر بياضاً من الثلج الأول. وعندما اقترب اتخذ شكل شاب شفاف ومشرق. ثم بدأ بالكلام: "لا تخافوا، أنا ملاك السلام. صلوا معي. جثا على ركبتيه على الأرض. وانحنى نحو الأسفل وقال ثلاث مرات: إلهي، أنا أؤمن بك، وأنحني لك وكلي أمل وحب. أرجو المغفرة لجميع الذين لا يؤمنون بك ولا ينحنون لك ولا يحبونك". ثم نهض وقال: "صلّوا هكذا، إن قلب المسيح ومريم مهتم لتوسلكم".

ثم اختفى الملاك. بقي الأولاد بعد ذلك، واقفين دون حراك، وهم لا يعلمون ما الذي يحدث حولهم. ثم راحوا يلفظون كلمات الصلاة التي علمهم إياها الملاك.

وبالرغم من أنهم كانوا قبل ذلك أصدقاء، إلا أنهم بعد هذه الحادثة أصبحوا أكثر قرباً من بعضهم. كتبت لوسيا: "لقد أحسسنا بالوجود الإلهي بدرجة واضحة وقريبة جعلتنا لا نجرؤ على التحدث مع بعضنا البعض. وفي اليوم التالي كنا ما نزال نملك الإحساس ذاته. وقد تلاشى بشكل تدريجي. لم يتحدث أحد منا عن هذا الظهور ولم نتفق على إبقائه سراً. فلقد قام هو نفسه بوضع الختم على أفواهنا. لقد كان هذا الانفعال شخصياً لدرجة أن لفظ كلمة واحدة كان ثقيلاً جداً".

سارت حياتهم بشكل اعتيادي. كانوا ينهضون فجر كل يوم ويذهبون إلى **Meecy** ثم يقودون القطيع إلى المرعى بعد أن يتناولوا فطوراً فقيراً. ذات يوم، وبينما كانوا يلعبون في ظل شجرة تين أذهلهم صوت يقول: "ماذا تفعلون؟" لقد كان هذا الصوت صوت ملاك السلام. "صلوا أكثر، إن السيد المسيح، والسيدة العذراء يحضران لكم شيئاً ما. توجهوا لهما بالدعاء وبأصدق الصلوات والأضاحي دائماً"

سألت لوسيا: "ولكن كيف يمكننا تقديم الأضاحي؟"

"قدموا كل ما لديكم فداءً للرب ليمحو آثامكم، التي أغضبتموه بها بشدة، ولتكن بمثابة رجاء لتوبة العاصين. وهذا سيأتي بالسلام لبلدكم. أنا الملاك الحافظ للبرتغال. وأكثر من ذلك، عليكم تقبل وتحمل جميع الآلام والصعوبات التي يرسلها لكم الرب".

في زيارته الثالثة والأخيرة ظهر الملاك للأطفال ومعه طاسة القربان المقدس وخبز القربان حيث كان الدم يقطر من الخبز في طاسة القربان. ثم أن الملاك

تركهما معلقين في الهواء وتمدد على الأرض وكرر صلاة الاستغفار ثلاث مرات: "أيها الثالوث المقدس، الأب، الابن، الروح القدس، أنحني بعمق أمامكم وأقدم لكم أغلى دم وروح وربوبية السيد المسيح الموجودة في جميع دور العبادة في العالم فداءً للخوف واللامبالاة التي سببت له الغضب: وبقلبه المقدس وقلب ماريا الطاهر أتوسل إليكم أن تغفروا ذنوب الفقراء المذنبين".

بعد ذلك قام الملاك بالخدمة، ونهض وأخذ خبز القربان وأعطاه للوسيا، أما طاسة القربان فأعطاها لفرانسيسكو وجاسينتا، قائلاً: "خذوا وكلوا من دم ولحم المسيح الذي آلمه البشر. كفروا عن خطاياهم وأرضوا إلهنا".

تمدد على الأرض مرة أخرى، وكرر الصلاة واختفى.

بعد بضعة أيام سأل فرانسيسكو لوسيا: "لقد أعطاك الملاك "كأس القربان المقدس، فماذا أعطى لجاسينتا ولي؟".

وقبل أن تجيب لوسيا، قالت جاسينتا: "لقد كانت طاسة القربان المقدس، ألم تر كيف أن الدم كان يقطر من خبز القربان؟".

أجاب فرانسيسكو: "لقد أحسست أن الرب تجسد بي، لكنني لم أعرف كيف أمكن حدوث ذلك". ثم أنه تمدد على الأرض واستلقى طويلاً مكرراً صلاة الملاك بالثالوث المقدس.

في ١٣ أيار من عام ١٩١٧، وتقريباً في ذات المكان الذي ظهر فيه الملاك حدث وميض ساطع في السماء الصافية فوق السهل الواسع. اعتقد الأولاد أن عاصفة تبدأ، فشرعوا بجمع الأغنام، وحدث خلال ذلك وعلى نحو مفاجئ، وميض أكثر سطوعاً جعل الجميع يتسمرون في أماكنهم. وفوق شجرة البلوط الراسخة حيث كان الأولاد يلعبون تجسد شخص ما، وهنا شاهد الأولاد المرأة الأكثر روعة من بين النساء اللاتي رأونها يوماً". وقد ذكرت لوسيا في وقت

لاحق: "لقد كانت المرأة ترتدي ثوباً أنصع بياضاً من نور الشمس وأشعة أكثر لمعاناً وقوة من كأس كريستالية مليئة بالماء وتخترقها أشعة الشمس الحارقة".

كان الأولاد خائفين، غير أن السيدة مرت بيدها عليهم وقالت: "لا تخافوا، فلن اسبب لكم الأذى".

لقد ظهرت السيدة لهم كفتاة في السادسة عشر من عمرها، ترتدي فستاناً أبيض طويلاً، ونجمة ذهبية على الياقة.يداها الرقيقتان الضعيفتان المتصالبتان على الصدر حملتا سبحة بيضاء خرزها من الجواهر، وصليباً وسلسالاً. لقد أصيب الأولاد بالعمى بسبب الضوء الصادر عن السيدة، ووقفوا صامتين متحجرين حتى كسرت لوسيا الصمت.

ـ "من أين أتيت؟" ـ سألت لوسيا.

ـ "لقد أتيت من السموات" ـ قالت السيدة.

ـ "ولماذا هبطت؟" ـ سألت لوسيا ببراءة الأطفال.

ـ "لأنني أريدكم أيها الأولاد أن تأتوا إلى هنا في الثالث عشر من كل شهر، وفي تشرين الأول سأخبركم من أنا وماذا أريد منكم".

وتابعت لوسيا بإصرار: "هل حقاً أتيتِ من الجنة؟ هل بإمكاني الصعود إلى السموات؟ "هل ستكونين هناك؟".

"وماذا عن جاسينتا؟ هل ستكون هناك أيضاً؟"

"وجاسينتا ستكون في السماء" ـ أجابت السيدة.

"وماذا عن فرانسيسكو؟".

نظرت السيدة إلى فرانسيسكو بغصة أمومية.

"نعم، قالت السيدة. فرانسيسكو أيضاً سيصعد إلى السموات، لكن عليه في البداية أن يؤدي صلوات كثيرة".

كان عمر فرانسيسكو ست سنوات. تذكر لوسيا الابنين الآخرين، اللذين توفيا في العام الماضي. ثم توسلت لأجلهما، وقد أجابتها السيدة: "إن أحدهما أصبح في السموات، أما الآخر فهو في المطهرة".

لقد كانوا أولاداً صغاراً، وقد توسلت لوسيا لأجل إميليا.

"إميليا ستبقى في المطهرة حتى نهاية العالم". (لقد أتمت ثمان عشرة سنة عندما ماتت، وبالتالي لم تعد طفلة، وبسبب ذنب وحيد يمكن للروح أن تبقى في الجحيم إلى الأبد).

"هل تريدون أن تهبوا أنفسكم للرب، وتتقبلوا (تتحملوا) كل المعاناة التي سيرسلها ليمحص آثامكم ويعفو عن المذنبين؟".

- "نعم نريد ذلك".

عندها قالت السيدة العذراء:

"ستعانون كثيراً، لكن رحمة الرب ستقوي عزيمتكم، استمروا يا أبنائي في تلاوة الصلوات كما كنتم تفعلون حتى الآن".

ثم أن السيدة اتجهت نحو الشرق، منزلقة بلطف في السماء، وتماهت مع ضوء الشمس.

قرر الأولاد عدم التحدث عن هذه السيدة لأي شخص كان، لأن الناس كانوا سيسخرون منهم ويقولون بأنها محض تخيلات. غير أن (جاسينتا)، الفتاة الأصغر بينهم، لم تكتم السر وتحدثت إلى أمها. في اليوم التالي ملأت الإشاعات حول ظهور (السيدة العذراء) القرية بالكامل. وبات الأولاد موضع سخرية الشارع، وقد لامهم أولياؤهم، أما (لوسيا) فقد تعرضت للضرب. وبالرغم من ذلك كله، لم ينكر الأولاد أي كلمة من حديث (جاسينتا).

رجل الدين في البلدة، الأب (مانويل فيريرا)، نفى كلياً القصة، وقررت الأمهات إرسال الأولاد إلى السوق في يوم القديس انطون المصادف في الثالث

عشر من الشهر القادم. لكن الأولاد لم يتجاوبوا لإغراء فكرة الذهاب إلى السوق. وبدلاً من ذلك عادوا إلى (كوفا - دي ايريا). وهناك اجتمع حوالي ستين شخصاً من المتفرجين المتكاسلين بما فيهم والد لوسيا. بدأ الأولاد يتلون الصلوات في ظل السنديانة (البلوطة) الراسخة وبينما هم جاثين على ركبهم قرأت لوسيا: "لقد أمرتني بالحضور اليوم. ما الذي تريدين مني فعله؟". وهنا لمعت نيران خفية (غامضة) في السماء.

"أريد أن تعودي إلى هنا في الشهر القادم. والآن اقرأي صلواتك وأضيفي بعد كل عشر: "أيها الرب، سامحنا نحن المذنبين. أنقذنا من لهيب جهنم وأحضر أرواحنا إلى الجنة، وخاصة أولئك الذين يحتاجون لرحمتك أكثر من غيرهم".

ثم أن السيدة الرائعة قالت للوسيا: إنه يجب عليها تعلم القراءة والكتابة، ووعدت بأنها ستخبرها لاحقاً بما تريده منها. وبشكل لا إرادي توسلت لوسيا برغبتها الشخصية بأن تأخذهم السيدة العذراء معها إلى الجنة. فكان جواب السيدة هو نفسه: "سآتي قريباً وآخذ فرانسيسكو وجاسينتا. ولكن عليك البقاء هنا لوقت طويل. يريد الرب أن تبشري بي وتجعليني على ألسن البشر مشهورة ومحبوبة، وتنشري المحبة لقلبي الطاهر في العالم كله. وأنا أعد كل من يتقبله بالنجاة. وستكون أرواحهم بالنسبة للرب بمثابة أزهار أمام عرشه.

وقالت لوسيا الحزينة لمجرد فكرة قرب الفراق مع الأصدقاء والدموع تنهال من عينيها:

"وماذا عني أيتها السيدة العزيزة. هل سأبقى هنا وحيدة؟".

"لا يا ابنتي، لن أتركك أبداً. وإذا كانت هذه الفكرة هي ما يحزنك، فتذكري أن قلبي الطاهر سيبقى ملاذاً لك، والطريق الذي سيقودك إلى الرب". مع هذه الكلمات مدت السيدة يدها اليمنى المغمورة بالنور إلى الأمام،

ورأى الأولاد على كفها صورة قلب اخترقته الأشواك. وقد فهموا أن هذا هو قلب (ماريا) الطاهر المرهق (المثقل) بآثام العالم والمتوسل لخلاصهم.

وقد رأى الحشد كيف أن (لوسيا) نهضت على قدميها ومدت يدها نحو الشرق. وصرخت: "ها هي، ها هي". وعندما نظر الناس في ذاك الاتجاه شاهدوا غيمة بيضاء، ولاحظوا حركة ضعيفة لأغصان السنديانة. وقد انحنت الأغصان في هذه اللحظة باتجاه الشرق.

واصل الأب (مانويل فيريرا) نفي هذا الظهور: "من غير المعقول أن تصلوا كل يوم وتسبحوا. فكل كنيستنا يرددونها تقريباً. وعادة، عندما يحدث شيء من هذا القبيل فإن الرب يختار الأرواح التي يظهر لها ويخبرها بكلمات خاصة عليها إيصالها إلى القديسين ورجال الدين، أما هؤلاء الأولاد فإنهم يختفون يتكتمون قدر استطاعتهم. إن هذا يبدو ظهور إبليس. وسيكشف الزمن كيف سنتعامل مع ذلك". بعد هذه الكلمات التي قالها رجل الدين كاد الأولاد أن يتخذوا قراراً بعدم العودة مرة أخرى إلى المكان المشار إليه، ولكنهم تنبهوا في اللحظة الأخيرة وغيروا رأيهم. وفي هذه المرة أظهرت لهم السيدة العذراء شكل الجحيم. وإضافة إلى ذلك قالت غاضبة: يرغب الرب لإنقاذهم أن يحل في الكون ميل للقلب الطاهر الجديد. وإذا ما فعل الناس كما سأطلب منهم فإن كثيرين سيتحولون وسيكونون في سلام. هذه الحرب ستنتهي، ولكن إذا لم ينته الناس من إغضاب الرب. فإنه سيمر وقت قليل في زمن (بيا الحادي عشر) وستبدأ حرب جديدة أكثر فظاعة. وعندما تشاهدون بأن الليل قد أنير بضوء مجهول بالنسبة لكم فاعلموا أنه دليل على الرب..

ولمنع ذلك سآتي لأطلب تنوير روسيا بسر قلبي الطاهر والمشاركة في قداس الغفارة في أيام السبت الأولى. وإذا ما تم سماع رجائي (طلبي) فإن روسيا تتحول إلى المسيحية. وإلا فإنها ستنشر آثامها في العالم كله، متسببة بالحروب وقهر الكنيسة".

في ليلة الثالث عشر من آب اجتمع ١٨ ألفاً من المؤمنين في هذا المكان، وذلك بسبب المقالات التي نشرت في الصحف، إلا أن الأولاد لم يظهروا. لقد حبسهم مختار البلدة في بيته الخاص. وعندما شاع خبر ذلك، حدث لغط غاضب بين الناس المحتشدين، وقرر كثيرون أنه يجب أن يذهبوا لتحرير الأولاد، ولكن وخلال مناقشتهم لذلك حدث شيء هدأهم وأقنعهم. لقد سمعوا فجأة صوت رعد في السماء الصافية ثم ضرب اللمع وظهرت سحابة من الضوء وخيَّمت فوق شجرة السنديان.

استمر مختار البلدة بحبس الأولاد ثلاثة أيام إضافية، يحقق معهم فرادى ومجتمعين، مهدداً إياهم ومحاولاً الإيقاع بهم بتضارب أقوالهم. لكنه اعترف أخيراً أن كل محاولاته باءت بالفشل، وأنه فقد السيطرة، ثم أنه هددهم قائلاً: "إما أن تقولوا الحقيقة أو أن أشويكم أحياء على مقلاة مسخنة حتى الإحمرار".

تابع الأولاد الصمت. أخرجهم المختار الواحد تلو الآخر، ثم أبقى (لوسيا) وحيدة. وعندما سألها الناس فيما بعد عن ما أحسته قالت الفتاة: "طبعاً، ظننت أنه سيقوم بما هدد به، وأنني سأموت على المقلاة الساخنة، إلا أنني لم أستطع كشف الأسرار وسلمت أمري للسيدة العذراء ".("سران" اثنان: ضرورة الانحناء إلى قلب (ماريا) الطاهر، وأشكال الجحيم بقيا مجهولين حتى عام ١٩٢٧، أما السر الثالث المتعلق بروسيا، فلم يكشف عنه إلا في عام ١٩٦٠ من قبل الأسقف ليريا).

منيت السلطات المدنية بالهزيمة وسلمت ولم تبد أية ممانعة. وفي ١٣ أيلول كان ثلاثون ألف شخص قد قرأوا الصلوات وينتظرون قدوم الأولاد في هذه المرة، توسلت (لوسيا) لحدوث معجزة كي تقنع الكافرين. وقد توسلت على نحو خاص لشفاء المرضى. وقد أجابتها السيدة العذراء: "سأبرئ بعضاً منهم، ولكن ليس الجميع لأن الرب لا يصدقهم".

تنامى التوتر في البرتغال بالكامل. لقد وعدت السيدة العذراء بحدوث معجزة في تشرين الأول. حتى أن المرتابين والملحدين انتظروا هذا اليوم، معتبرين أنه سيعلن سقوط هذا الهرج المتوهج. وقد هبت عشية ذلك اليوم عاصفة لم يشهد بفظاعتها التاريخ الأوروبي. لقد فاجأ البرد القارة بالكامل: من فنلندا حتى البحر المتوسط. وبالرغم من البرد فإن عشرات آلاف الناس حضروا ليلة الثاني عشر من تشرين الأول. وفي كتابه: "السيدة العذراء في فاتيما" يسرد وليم توماس وولش ذلك كما يلي: "علق الفلاحون سلالاً من الصفصاف وأباريق فخارية مليئة بالماء على أكتافهم أو حملوها على ظهور حميرهم، وتقدموا تحت السماء المنخفضة. حمل الآباء والأمهات الأولاد المرضى والعرجى على أيديهم لمسافات كبيرة.

ترك الصيادون شباكهم ومراكبهم على شواطئ (فييريا) وانطلقوا عبر الدروب الزلقة. مشى البطارقة من (مونتي ـ ريال) والبحارة من السفن المتوقفة في مرفأ (بورتو) أو (الغافرا)، وعمال المصانع من (لشبونة)، سيدات ورجال، شباب وفتيات، أغنياء وفقراء، مواطنون من جميع فئات المجتمع (لكن الغالبية العظمى منهم كانوا فقراء حفاة، والعمال وأسرهم)، مشوا جميعاً في الدروب الموحلة وتحت زخ المطر طيلة الليل، كما لو أنهم جيش جرار وقد انتشر بشكل مسبق قرب قرية (فاتيما)، وكلهم أمل في أن يجدوا هناك الصحة أو اعتناق دين حقيقي، ونسيان آثامهم، وبدء حياة جديدة، ومباركة السيدة العذراء".

ومع أن سقوط الثلج توقف، إلا أن المطر استمر بالهطول، وتحولت جميع الطرقات إلى جداول من الوحل، كان الجمهور بمزاج سيء جداً، وبعد عذاب التعرض للبرد والثلج والمطر كان لابد أن تحدث معجزة وإلا فإن شيئاً آخر مختلفاً كان سيحصل. وقد خافت السيدة (مارغو) من ذلك على نحو خاص، وراحت تصلي دون توقف. وقد كانت مفتونة بالهدوء التام لأبنائها. قالت

جاسينتا: "إذا ما سببوا لنا الألم فإننا سنصعد إلى السموات، ولكن هؤلاء الناس الفقراء، الذين سيتسببون لنا بالأذى سيتجهون إلى الجحيم".

بعد منتصف النهار، وبينما كان الأولاد في صلاة تأملية، ظهر النور الذي بات معروفاً، لقد برت السيدة العذراء بوعدها بالكشف عن اسمها. قالت: "أنا السيدة ذات المسبحة". ثم أنها نقلت رسالتها الأخيرة إلى الأولاد: "يجب على الناس أن يعيشوا بشكل مختلف. بشكل أفضل، ويتوسلوا للرب ليغفر ذنوبهم. وألا يزيدوا من إغضابه، فهو غاضب جداً منهم". وعندما ابتعدت السيدة العذراء للمرة الأخيرة حصلت معجزة للشمس. لقد شاهدت الحشود المتسمرة كيف أن الشمس بدأت تصفر وتحولت إلى قرص فضي. وكان بمقدور الناس النظر إليها دون أن تؤذي عيونهم. لقد انطلقت من القرص أشعة مختلفة الألوان، تماماً كما يحدث أثناء ظهور قوس الله (قوس قزح). وكانت السماء ذاتها تدور بينما كانت الشمس تدور حول المحور. توقفت ثلاث مرات: وجددت حركتها ثلاث مرات. وفجأة، وعندما وقع الجميع على ركبهم من شدة الرعب تهاوت الشمس نحو الأرض "كالسكرى" حسب قول أحد المشاهدين، متحركة عبر السماء وفي مسار زكزاكي الشكل.

وبنفس الأسلوب المفاجئ توقفت حركة الشمس نحو الأرض، ثم عادت بنفس الطريق إلى مكانها الطبيعي في السماء. اختفى القرص الفضي بأشعته الملونة، وأصبح مستحيلاً النظر بحرية إلى الشمس دون تقطيب الحاجبين. ثياب الناس التي تبللت جراء المطر، جفت بطريقة غامضة. وقد حظي الأولاد بشرف رؤية الأسرة المقدسة. في البداية ظهر السيد المسيح وقد ارتدى ثياباً حمراً، وقام بمباركة الحشود. ثم أنه تحول إلى مولود على يدي السيدة العذراء ويوسف. وأخيراً ظهرت السيدة العذراء على شكل عذراء جبل الكرمل. الرؤى الأخيرة كانت موهوبة (للوسيا) فقط. أما فرانسيسكو وجاسينتا فلم يشاهدا إلا الأسرة المقدسة. وفي وقت لاحق أصبحت (لوسيا) راهبة في الكرمل.

بعد سنة تقريباً من هذا اليوم برَّت السيدة العذراء بوعدها وأخذت (فرانسيسكو) إلى السماء. ولقد حصد وباء الانفلونزا المرعب في ذلك الوقت أرواحاً كثيرة. ولم تكن قرية (فاتيما) المنسية استثناءاً. لقد عانى فرانسيسكو من المرض حتى الرابع من نيسان عام ١٩١٩. وعاشت جاسينتا حتى ٢٠ شباط عام ١٩٢٠. وقد حلمت مرات عديدة بالسيدة العذراء التي وعدتها بالحضور وتخليصها من العذاب. في ذلك المساء استدعت المربية وطلبت إليها إحضار رجل الدين. حضر الأب (بيريرا دوس ريس) وسمع اعترافها الأخير، لكنه قال إنه لن يحضر القربان المقدس إلا في الصباح.

"لكنني سأموت هذه الليلة يا أبانا" ـ قالت (جاسينتا) متوسلة. غير أن القس الطيب عمل بنصيحة الأطباء ولم يأت في ذلك اليوم. وفي الساعة العاشرة والنصف لفظت جاسينتا أنفاسها الأخيرة. وغادرت والابتسامة تعلو ثغرها، وكأنها تحيي السيدة العذراء من جديد.

لقد برَّت السيدة العذراء بوعدها.

القطار الشبح

في عام ١٩٨٨ كان رسام المناظر البحرية (نيكولاي تشيركاتشين) في (سيفستوبول) يجمع معلومات عن تدمير البارجة (نوفوروسيسك) وكانت الجرائد قد أوردت أخباراً عن هذه الكارثة الفظيعة التي ألمت بالأسطول البحري العسكري السوفييتي، والتي أخذت معها ٦٠٨ ضحايا. وللأسف لم يتم حتى الآن تحديد سبب الانفجار الذي دوى ليلة ٢٩ تشرين الأول عام ١٩٥٥ تحت قاع السفينة الإيطالية (يوليوس قيصر) التي كانت إحدى غنائم السوفييت بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد انقلبت السفينة الضخمة وغرقت في الخليج الشمالي لسيفا ستوبول أمام أعين آلاف المواطنين. ولذلك فإن تشركا تشين حقق مع كل من كان له علاقة بشكل أو بآخر بهذه الكارثة: مع البحارة الناجين ومع الذين أنقذوهم، ومع الأشخاص الذين شاهدوا المأساة من الشاطئ. وقد وجدنا هذه الرواية بين مئات الروايات التي بقيت في دفتر ملاحظاته.

" لقد كنت مناوباً في تلك الليلة على معبر السكة الحديدية الذي يقع قبل (بالاكلافا) مباشرة. بدأ حديثه (بيتر غريفوريفتش اوستيمنكو) أحد سكان بالاكلافا المعمرين. فجأة، رأيت قطاراً قادماً من ناحية التفريعة السابقة

المؤدية إلى مقلع الحجارة (لقد تم نزع القضبان الحديدية وبقي متن السكة فقط). فركت عينيّ ظناً أن ذلك يتراءى لي، فالقطار لا يستطيع السير على متن السكة بدون قضبان، ولكن هذا القطار يسير، إنه قطار بخاري خلفه ثلاث عربات للركاب. ولم تكن القاطرة ولا العربات سوفيتية الصنع، وكأنها صنعت قبل الحرب، وربما قبل ذلك. لقد كانت القاطرة البخارية تشبه "الغنمة" القديمة (الغنمة ـ لقب لقاطرة بخارية روسية)، ولكنها ليست "الغنمة". ولعلكم لا تذكرون سلسلة قطارات "الغنمة". أما أنا فأعرفها جيداً. فلقد عملت وقاداً لفرن الفحم في البداية. أما هذه القاطرة فلم أر مثلها، إنها ليست كبيرة، وعموماً، هي تسير بدون نار، قادمة من جهة جبل (غاسفورت)، حيث لم تكن هناك يوماً قضبان حديدية، وتخرج إلى طريقها الرئيسية. لقد كانت هناك تحويلة، لكن قضبانها نزعت منذ أمد بعيد. وقد سمعت بوضوح كيف أن قضبان التحويلة اصطكت. وبالكاد نجحت بإنزال الحاجز. مر القطار بجانبي وتابع نحو سيفاستوبول. إن عملي بسيط ومسؤوليتي تنحصر بالمعبر، ولقد كان كل شيء على ما يرام. أما ماذا سيحصل لاحقاً فهي مسؤولية موظفي الحركة. ولكن كيف سار القطار بدون سكة؟! حتى أنني ركضت على متن السكة القديمة فلم أر أثراً للقطار ولا حتى على العشب.. إنه أمر غير مفهوم. حتى أنني فكرت عند ذلك، أن هذا لا ينبئ بخير، ولابد أن مصيبة ستحدث. وفي الصباح ضجت بالاكلافا كلها: "لقد انفجرت السفينة نوفوروسيسك (الاسم الجديد ليويوس قيصر الايطالية).

ـ لابد أنك أبلغت الإدارة بذلك؟

ـ ما الذي تقوله؟ كانوا سيسخرون مني حتماً، وسيعتبرون أنني أشرب خلال المناوبة، وقد تراءى لي ذلك وأنا في حالة السكر.

ـ ربما كان الأمر على هذا النحو؟.. قال (نيكولاي اندريفيتش، محاولاً إكساب الحديث شيئاً من الطرافة).

ـ إنك تجعلني أغضب، قال (أوستيمكو) هازاً رأسه. إن أسرتنا تنحدر من مالاكان. ونحن لا نتعاطى المسكرات. وأنا حتى الآن لا أطيق الفودكا.وقد حدثتك بذلك لأن هذه العلامة ظهرت بالفعل. فقبل كل كارثة تحدث عجائب مختلفة. لقد روى من هم أكبر مني سناً أنهم رأوا "الأمير الأسود" في البحر قبل الزلزال الذي أصاب بالاكلافا.

لقد شاعت قصص مختلفة حول العلامات غير الطبيعية التي سبقت الكارثة "نوفوروسيسك" حتى أن كبير مهندسي البارجة (وهو حتى الآن عقيد متقاعد) (ميخائيل رومافيتش نيكيتنكو) ذكر أن زوجته رأت حلماً عشية الانفجار: مجموعة كبيرة من الناس تصعد على درج واسع نحو السماء إلى ما بعد السحاب.. (علماً أن "نيكيتنكو" كان مناوباً على السفينة في تلك الليلة). ولكنه كان يحتاج إلى وقائع.. لقد تذكر تشيركاشين ما قاله حول معبر بالاكلافا بعد مرور أربع سنوات، عندما قرأ في جريدة "سلافا سيفاستوبول" الصادرة بتاريخ ١٢/ آب/ ١٩٩٢. عنواناً يقول: "القطار الشبح يتجول على طرقات (أكراينا)".

في ١٤/ تموز/ ١٩١١ خرج من محطة السكك الحديدية متجهاً إلى "كرويز" قطار نزهة صنعته شركة "سانيتي" من أجل أغنياء إيطاليا. وقد تمتع ١٠٦ ركاب بالمعالم المحيطة بالطريق الجديدة. اقترب القطار من نفق طويل جداً. وفجأة بدأ شيء مخيف يحدث. وحسب قول اثنين من الركاب اللذين قفزا خلال حركة القطار، أن كل شيء كان مغطى بضباب أبيض، ازدادت كثافته مع اقتراب القطار من النفق، ثم تحول إلى سائل لزج. دخل القطار النفق و.. اختفى.

بعد هذه الحادثة أغلق النفق بالحجارة. وفي أثناء الحرب العالمية سقطت عليه قنبلة جوية. وربما كان الناس قد نسوا هذه الحادثة لولا أن الشبح ذا العربات الثلاث ظهر.. في مكان غير بعيد عن قرية (زافاليتشا) من ناحية

(بولتافا) على المعبر الذي ناوبت عليه (يلينا سبيريد ونفتا تشيبرتس). تحرك القطار ذو الأبواب المفتوحة والستائر المسدلة تماماً، بدون سائق وبدون ضجيج. كان يدهس الدجاجات التي تمشت على متن سكة الحديد التي لم تعد موجودة. ولدراسة هذه الظاهرة الشاذة حضر ممثل اللجنة المتخصصة بدراسة الظواهر غير الطبيعية في أكاديمية العلوم الأكرانية (ف. ب. ليشاتي). وقد ذكر في ملاحظاته عن شهر أيلول ١٩٩١، احتمال أن يكون القطار قد عبر بشكل ما من خلال الزمن. ويورد (ليشاتي) ما ذكره عالم النفس المكسيكي المشهور في أربعينيات القرن التاسع عشر (خوسي ساكسينو)، كيف أن /١٠٤/ إيطاليين ظهروا ذات مرة في مدينة (مكسيكو)، حيث تم وضعهم خلال أسبوع في مصحة للأمراض العقلية بسبب تأكيدهم بأنهم قدموا إلى مكسيكو من روما في القطار. قام ليشاتي بتحليل الطبقة العالقة على جدران ونوافذ إحدى عربات القطار ـ اللغز. وقد بدت شبيهة بخصائص البارود.

ترى، أليس هو نفس القطار الذي رآه (اوستيمنكو) على معبر بالاكلافا؟ فهناك أشياء كثيرة متشابهة: طراز القاطرة أجنبي، وهو يجر ثلاث عربات.. وإذا كان القطار ـ الشبح قد اكتشف عام ١٩٩١ قرب (بولتافا)، فماذا يمنع ظهوره قرب (بالاكلافا) عام ١٨٥٥؟ تعززت هذه الفكرة أكثر وأكثر لدى رسام المناظر البحرية بعد أن ذهب إلى جبل (غاسفورت) برفقة الباحث (يففيني فينيكييف) المتخصص بمنطقة سيفاستوبول. لقد صعدا إلى هناك لمشاهدة بقايا المقبرة الإيطالية التي بنيت على الجبل عام ١٨٥٥ (دفن هنا جنود سردينيا الذين سقطوا أثناء اقتحام سيفاستوبول خلال حرب القرم)، والتي تم جرفها من على وجه الأرض بعد مئة عام بأمر من السلطات السوفييتية، ولم يستطع أحد توضيح سبب تفجير الكنيسة الصغيرة الجميلة في المقبرة الإيطالية في أيار عام ١٩٥٥.

تخريب عادي ضمن روتين "الصراع مع الماضي اللعين".ولكن الذي يطلق النار على الماضي من بندقية، فإنه سيتعرض للإطلاق عليه من مدفع. وإصبع الديناميت الذي وضع تحت المصلى القديم تحول إلى انفجار رهيب تحت مقر "نوفوروسيسك"... لقد تجولا على القمة المسطحة لجبل غاسفورت بين حطام ألواح المرمر التي نمت بدلاً من أحواض زهور الصبار. لقد رجمت القذائف الألمانية المدفن القديم. وتحدث فينيكيف عن الدفاع الأول:

"لقد جر الانكليز سكة حديد من (بالاكلافا) إلى هنا حيث المعسكر الإيطالي على جبل (غاسفورث). ثم قاموا بنزعها بعد ذلك. غير أن متن السكة بقي، حيث تمر التفريعة من بالاكلافا إلى سيفاستوبول وفق الطريق الذي خطه الانكليز آنذاك".

هكذا إذاً؟!

هل يعني هذا أن القطار - الشبح سار على آثار العوارض المنزوعة؟ لقد سار وفق مسار السكة السابقة.. ولكن إذا كان هو نفسه القطار سيء السمعة، فلماذا أتى إلى هنا، إلى هذه الزاوية النائية من جزيرة القرم؟ هل أتى ليأخذ أرواح الجنود الإيطاليين المذعورين بنتيجة انفجار أيار الذي دمر قبة الكنيسة، التي كانت الملجأ الأخير لهم؟ أو أن أحد أقارب الركاب الـ ١٠٤ كان قد دفن هنا وقد أتوا للقيام بالواجب الأخير تجاهه؟

وربما استطاع هؤلاء الركاب الضعيفين من الانتقام بشكل ما، للمقبرة المدنسة من أسرهم المؤقت، وقد تدخلوا في العلاقة السببية وبالنتيجة طارت "يوليوس قيصر" أو نوفوروسيسك لاحقاً" في الهواء؟

هناك مجال واسع للفرضيات. فمن منا لا يعلم أن الزمن هو عبارة عن حقل أرشفة من نوع خاص، وهو مرتبط بالاستمرار بمجال قدروي كهرطيسي. وإذا فرضنا أنه يوجد قانون مصونية الزمن إلى جانب قانون مصونية المادة والطاقة،

مع أنه لم يبرهن بعد، وأن الزمن الذي "عيش" لا يختفي، أزلية الماضي وأبدية المستقبل. والماضي موجود بالفعل وليس في ذاكرة أحدهم، وحتى إذا كان ذاكرة - فهو تراكم خبرة الإنسانية جمعاء. وخلف كل منا لوحة مجسمة ولكل جسم مسار للحركة وطول ويترتب مجموع هذه المسارات في مجرى التدفق العام للزمن.

ليس هناك حاضر بحد ذاته. فكل لحظة من المستقبل تصبح فوراً لحظة من الماضي وما نسميه الزمن الحاضر، ما هو إلا وميض الإدراك، لحظة بين الماضي والمستقبل. والحاضر هو كما تقول الأغنية: "لحظة بين الماضي والمستقبل، وهو بالتحديد ما يسمى "الحياة". ولذلك فإن "الماضي" و"المستقبل" هما مفهومان يعادلان مفهوم "الزمن" بشكل عام. نظرياً، يمكن على شاشة مرآة قديمة استحضار كل شيء انعكس فيها يوماً، حتى الآن على الأقل، وهذا هو السبب في أن الـ "الأشباح" تخرج في أغلب الحالات من المرايا القديمة التي تم تركيبها في جدران القصور والقلاع والبيوت القديمة. مثل هذه الإمكانية موجودة لدى ثوابت مكانية - زمنية أخرى كالأهرامات المصرية، والعبارات المائية القديمة، وجسور أنفاق السكك الحديدية، والأشجار المعمرة، القادرة على مراكمة وتخزين وقت وزمان ذوا إحداثيات ثابتة.

فولاند البولفاكوفي - وهو كائن من فراغ رباعي الأبعاد، وكان بإمكانه رؤية الماضي والمستقبل في آن معاً. وبينما كان ينظر إلى المسكين (بيرليوز) كان بإمكانه رؤية رأسه وهو يخرج من جوف أمه ويتدحرج من تحت عجلات الترام. وهذا نوع خاص من التصوير المجسم للزمن.

إذا كان الزمن في فراغنا ثلاثي الأبعاد ويتمثل بشعاع يتجه من الماضي إلى المستقبل، فإن الوقت في الفراغ ثنائي الأبعاد يملك مميزة (مواصفة) دقيقة: اللحظة المتوقفة. وماذا عن رباعي الأبعاد؟ إن الزمن فيه ليس شريطاً وإنما تدفق حجمي...

ومن الذي أقنعنا مرة وإلى الأبد بأن الزمن يسير وفق خط مستقيم فقط؟ أليس منطقياً أن نفترض أن الزمن ببساطة يدور وفق حلقات كما الخيط حول الملف، ولذلك فإن الماضي موجود بشكل موازٍ للمستقبل. للزمن طبقات (حلقات) ومركز كما الحلقات السنوية للشجرة. ولكن تحدث أحياناً انقطاعات بين "الحلقات"، وعندها تنشأ "ثقوب سوداء" في حقل الأرشفة وهي تشبه تماماً أقماع الأعاصير التي تشكل نفقاً هوائياً بين السماء والأرض (الماء). تنتقل وتتجول وفق قوانين خاصة بها، تسحب إليها الناس والأشياء والحيوانات التي تختفي من حياتنا دون أثر، وربما بواسطة "الثقوب السوداء المتنقلة" للزمن يمكن كذلك تفسير ظهور الناس الثلجيين، والحيوانات المتوحشة التي سحبها إعصار الزمن من عصور ما قبل التاريخ ورماها في أيامنا؟ بعض معاصرينا يقعون في هذه "الثقوب السوداء" التي هي "انقطاعات بين الحلقات"، حيث أنهم لا يموتون دائماً في أزمنة الآخرين. وبعد أن يتلاءموا مع تلك الحياة يصبحون متنبئين (منجمين)، أو ليس (نوستراداموس) واحداً من هؤلاء؟.

كما أن ظهور الأجسام الطائرة مجهولة الهوية ينضوي ضمن هذه النظرية: فهؤلاء هم خَلفُنا البعيد، و"صحونهم الطائرة" التي صنعوها بأيديهم تطل علينا بشكل مقصود أو عرضي من خلال "ثقوب الزمن السوداء" مسحوبة بذلك الإعصار الزمني نفسه.

والآن نعود إلى قطارنا المختفي، أو بشكل أدق إلى السكك الحديدية التي سار عليها.. ألقوا نظرة على شبكة السكك الحديدية في إيطاليا، أوروبا، أوراسيا.

كيف تترابط القارات بهذه الشبكة العنكبوتية الكثيفة من الخطوط الحديدية! ولكن هل فكر أحد ما بالتأثير الجيوفيزيائي التاريخي المؤرشف لشبكة السكك الحديدية العالمية (ولا ننسى فهي تضم أيضاً ذلك النفق الروماني سيء السمعة) على الحقل الزمني المؤرشف للكوكب؟ وهو موجود

دون شك، وكل تحول كبير في المكان يجر خلفه شذوذاً في الزمن. فالأنفاق الطويلة جداً، والمناجم العميقة جداً، والأبراج المرتفعة جداً، كل هذه التشكلات الجديدة تغير حركة الزمن، ولو بشكل غير محسوس تماماً، مثلها مثل السدود، التجمعات المائية، والقنوات، فهي تغير تدفق النهر. وتمثل شبكة الطرق الحديدية الإبداع الأضخم للبشرية. وهي حقاً منشأة تشمل الكوكب. السكة المعدنية التي تغطي قاراتنا بكثافات مختلفة تؤثر بلاشك على الحقل الجيوفيزيائي للأرض، وهذا يعني أن تؤثر على عملياتنا المؤرشفة أي على سير الزمن.

إن شبكة السكك الحديدية ليست مستوية بل كروية. وهي تكرر انحناء الكرة الأرضية. وحيث يتحول المستوي إلى كرة يتحول الفراغ ثلاثي الأبعاد إلى فراغ ثنائي الأبعاد وبالعكس أي أن شبكة السكك الحديدية هي حد وصل بين فراغين على الأقل. وفي بعض الحالات بين أكثر من فراغين. ولكن الفراغ ليس "وعاء زمن"، كما أن الزمن ليس مادة تملأ الفراغ. فهما وسط موحد، عملية، ظرف، يمكن أن تطلق أي تسمية على علاقتهما.

وأخيراً، إن السكك الحديدية هي مسرعات للزمن. وهي تمثل مزامناً صفحياً من نوع معين حيث تسرع زمننا البيولوجي. وربما لا تمر سفرة واحدة دون أن تترك أثراً على بنيتنا البيولوجية - الروحية الداخلية.

شيء أخير يلزم أخذه بالاعتبار: لقد استغرق بناء قضبان السكك الحديدية والطرق والحلقات والطرق الرئيسية الطويلة زمناً طويلاً وهي مرتبطة بدقة بفراغ محدد وكأنها تشكل عموداً فقرياً لإحداثيته.

إذاً، ليس عليكم إلا جمع كل الحالات المذكورة آنفاً الواحدة تلو الأخرى، وستفهمون أن خطر الطرق الحديدية لا يقتصر على عجلات

قاطراتها وحسب، بل وربما بما تسبب من شذوذ مكاني ـ زمني، وكذلك لعبتها الكارثية التي لم يلمسها شعاع الوعي.

نتذكر الآن، أنه قبل اختفاء قطار روما بوقت قصير حدث في إيطاليا زلزال قوي جداً كان مركزه في منطقة ميسّيني. لم يقتصر نشوء الشقوق الضخمة والفوالق على التربة الصخرية بل تجاوزها إلى الحقل المؤرشف. وإذا ما فرضنا أن "الثقب المؤرشف المسيني المتحرك" تركز فوق النفق الصخري الهائل، فإن هذا الشذوذ "في الأرشفة" تحديداً هو الذي تمكن من نقل قطار من فراغنا ثلاثي الأبعاد العادي إلى فراغ رباعي الأبعاد، هي أن الزمن (الحقل المؤرشف) يكتسب مميزة جديدة وهي العمق فضلاً عن مدة الاستمرار. ولذلك فإن القطار سيء السمعة، وبعد أن سقط من زمنه الشعاعي العادي، راح يتجول بحرية من الحاضر إلى الماضي كما إلى المستقبل. ولكن، وبما أن حركته تحددت بإحداثيات فراغية محددة بدقة (بخطوط السكك الحديدية) فإنه بإمكانه الظهور فقط في الأماكن التي امتدت فيها يوماً ما السكة الحديدية أو ستمد في المستقبل. فلقد سار القطار الشبح قرب بالاكلافا وفق خط عام ١٨٥٥، الذي مدته القوات البريطانية. أما وصوله إلى المكسيك فلقد تم عبر سكة حديد سيتم مدها في القرن الحادي والعشرين، وذلك بوصل آسيا وأمريكا بسكة حديدية عملاقة عبر تشوكوتسك وألاسكا. هذا المشروع الذي درس في بداية القرن لم يفقد أولويته في الوقت الحاضر كذلك.

إذاً، لقد استطاع القطار "الدخول" إلى القرن العشرين من خلال الطريق الرئيسية الواصلة بين تشوكوتسك وألاسكا إلى الطريق المجاورة لمدينة مكسيكو، أما الركاب فقد استطاعوا مغادرة القطار لأسباب معينة. وحسب إحساسهم الموضوعي بالزمن فإن هذا الحادث يمكن أن يكون قد حصل فور دخول القطار في النفق. ثم أنهم، وبعد أن بقوا خارج عرباتهم التي انطلقت إلى قرن آخر، وجدوا أنفسهم فعلياً ضمن عزلة قاسية في مصح

للأمراض النفسية، مما أنقذهم من دخول غير مقصود في العلاقات السببية لأحداث التاريخ. وببساطة لو لم يحدث ذلك لما ولدوا أبداً. أما القطار فقد انطلق عائداً إلى روما كما يبدو لسائقه حتى الآن: حيث يتابع إخافة نظار المحطات من جميع الأزمنة والشعوب بظهوره المفاجئ.

رئيس اللجنة المكلفة بدراسة الظواهر الشاذة في الأكاديمية الأكرانية للعلوم (فاسيلي بتروفتش ليشاتي) كمن للقطار الغامض في ٢٥ أيلول عام ١٩٩١ على المعبر في قرية زافالتيشي. قفز الأكاديمي بجانب القطار ـ الشبح.. وبعدها لم يره أحد.." وتذكر جريدة "فوروم" أن القطار يتابع سيره عبر معبر (يلينا سبيريدفنا تشبريتس).

ليس هناك من راغب في دراسة هذه الظاهرة حتى الآن".

الفهرس